

مِثَالُكَ لِإِبْصَاطِ فِي مِثَالُكَ لِإِبْصَاطِ

لِابْنِ فُضَيْلٍ الْعُمَرِيُّ
شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ بَكِيٍّ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٤٩ هِجْرِيَّةً

أَشْرَفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَوْسُوعَةِ
وَحَقَّقَ هَذَا السَّفَرُ

كَامِلُ السَّلَامَةِ الْبُورِي

الْجُزْءُ التَّاسِعُ

مُسَاهِرَةُ الْحَمَاءِ وَالْأَطْبَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah
DKI

أسستها مكتبة بيت بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين .
وبعد :

فهذا هو السفر التاسع من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين ، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي ، المتوفى بها سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م .

وقد تناول فيه تاريخ وتراجم الحكماء والأطباء والفلاسفة .
معتمداً فيه على كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ، فقد نقل منه بعض التراجم نصاً وأخرى مختصراً ، وقد أشار في بعضها إلى المصدر وأخرى تركها غفلاً .

واعتمد على مصادر أخرى أشار إليها بين ثنايا هذا السفر ، كالوافي بالوفيات للصفدي وغيره .

وقد اعتمدت في تحقيق هذا السفر على ثلاث نسخ وهي :

١- نسخة أيا صوفيا - مكتبة السلیمانیة - استانبول رقم ٣٤٢٢ وهي نسخة قديمة عليها تملك محمد بن علي بن عيسى بن داود بن شيركوه بن شاذي الأيوبي سنة ٧٦١هـ وقد وقفها السلطان العثماني محمود خان ، وعليها ختم باسم أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين . وعليها تأييد الوقفية يعود تاريخه سنة سبع و... وسبعمئة .

وهي (الأصل) في عملي .

٢- نسخة أحمد الثالث - طوبقوبو سراي - استانبول رقم ٢٧٩٧ وقد كتبت برسم

خزانة المملوكي، الملك المؤيد شيخ ابن عبد الله المحمودي (ت ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ هـ) ووقفها الملك المؤيد على طلبة العلم بجامعة (المؤيدي). وقد قابلت عليها في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، رقيقة الميكروفلم رقم 41,v.9,c2.

٣- نسخة المكتبة الوطنية - المخطوطات العربية - باريس رقم ٥٨٧٠ وقد قابلت عليها في مكتبة الجامعة الأمريكية - بيروت، رقيقة الميكروفلم رقم 41,v.9,c3. وقد أفدت كثيراً من تعليقات الاستاذ فؤاد سيد على طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل.

أما منهجي في تحقيقه فهو كما ذكرته في مقدمتي للسفر الأول من هذه الموسوعة. هذا ما استطعت تقديمه للقارئ الكريم والباحث المتتبع، وحسبي أني كنت مخلصاً فيه.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل.

جمهورية العراق - الكوفة

كامل سلمان الجبوري

فهرست — مافيه من الأسماء

الهرمسة الثلثة، فلاسفة اليونان الهند، يعقوب بن اعين الكندي، احمد بن الطيب
 السرخسي، صبحي الهندية، ابو نصر الفارابي، يحيى بن عزي، ابو بكر محمد بن زكريا الرازي
 ابونسلان السجستاني، ابو الخير بن الحارث، ابو الفرج، ابن هندو، ابو علي بن سينا، ابو الفرج
 عبد الله بن الطيب، ابو المريد بن الصايغ الحلي، فخر الدين الرازي، القطب المصري، عبد العزيز
 البغدادي، ابن الحوفي، الرضخ الحلي، الشهردودي المقتول، شمس الدين الحنوري، شافعي
 سيف الدين الآمري، البرنج الاصفهاني، ابن شبل البغدادي، نصير الدين الطوسي،
 القطب الشيرازي، صفى الدين الهندي، الشيخ علا الدين القونوي، قاضي القضاة جلال الدين
 الغزويني، برهان الدين العبري، الشيخ شمس الدين الاصفهاني، المتكلمون من
 المغاربة والمصريين، يحيى بن السمين، ابو القيم المرجلي، ابو القاسم ابن
 السج، ابو الحكم الكرمانلي، ابن وافد، ابو بكر ابن باجه، المبشر بن فالك، الحفيد
 ابو بكر ابن زهر، ركن الدين ابن القولج، صلاح الدين ابن البرهان، شمس الدين
 ابن الاكفاني الاطباء، اسقلينيوس، ايلق، اطباء العرب، الحرث
 ابن كلة، النعني، النضر بن الحرث، عبد الملك بن ابجر، ابن ناله، ابو حكيم، حكم
 الدمشقي، عيسى بن حكم الدمشقي، يباذوق، زينب طيبة، بني اود، اطباء
 الشريان، الهائين، في ابتداء الدولة العباسية، جرجر بن جبريل، خنيسوع
 ابن جرجر، جبريل بن خنيسوع، خنيسوع بن جبريل، جبريل بن غيد، ابن خنيسوع،
 خصيب النصراني، عيسى المعروف بابي قريش، ابن الجلاج، معبد الله الطيفوري،
 اسرائيل بن كرتا، الطيفوري، يزيد بن يوحنا، ابن خالو، عبد ورس بن يزيد،
 ماسرجويه طبيب البصرة، سلمويه بن مان، ابراهيم بن قراون، ابراهيم بن ايوب
 الأبرش، ماسويه بن يوحنا، يوحنا بن ماسويه، مجايل بن ماسويه، مخين بن يحيى،
 يوحنا بن خنيسوع، ثابت بن قره، مسان بن ثابت، ثابت بن ابراهيم، ابن صيفي، الصالح

فليت الشمر لو انقته قليلاً وواصفاً على مثله كيف مات على اليهودية
 ومنهم محمد بن صغير ناصب الدين طبيب جامع وليب تشرف
 هاته في المسامح وقاض لم يقصر في تجميع من الفضائل على كثرة تشعبها
 ووجي الدراسة ولقبها مع اخلاق لو تخلقت بها المدام لما قطب شاربها
 ولما قدر ان يذكرها عابها الى فضائل شريفه وشمايل طريقه واخوة صحبه
 الاخاء صريحة الاحتياج ولقد اقول جزم انه قد اصبح اليوم فرداً واحداً
 لما جمع من شتى المحاسن وماله الاوصاف قرا العلم واشتغل به وخدم
 السلطان وباشتر المدرستان وقرا النحو والادب وتطبع بوحى صار خلقاً
 له وله في حين العلاج يد طويلة وآثار جميلة وافعال حسنة مشكورة
 وهو يري لطف التدبير في معالجة المرضي وعدم الاقدام عليهم بالادوية وكان
 السلطان يشكره ويثني على نشاته الحسنة الى غير هذا مما ينفعكم به
 من جني الالسنه

اخبر الجزء الثامن من كتاب مسالك الابصار
 في ممالك الأمصار ويملوه ان شاء الله تعالى ومن بعد مع الحما
 اهل علم الموسيقى والحمد لله رب العالمين



صفحة العنوان - مخطوطة أحمد الثالث - طوبقيو سراي - استانبول رقم ٢٧٩٧



من حبة الداء بعد ان حذاها ولفها واحمرهم بنوحدان • ولهم حذان
 ان لو اسكت الناس • وان نغار انزكو العنار مطرقة لا يستال لدراس
 وان سألوا المستطرد على ولدها وان جاد بنو اجعلت بين النمر عباد
 نيل مكانها ما بينا • بينهم • ولا فلهما جرمهم • ولا مشارت اكا برهم
 على عظم ما بلغوا ما عثرت عنه احصا جرمهم • وهذا من فسيحهم اذا نظفوا وسموا
 اذا طافوا به نمر بن ميسر • وتريه الميزه • وكلما بينهما عفن فيه ورون
 وجاد لا ينفذ الا طهر له في طريق ومن حليل ما وصف هذا الذئب وهو
 قوله قوله

- الخا العوارس لو شهدت موافق للبل من تحت الحاجب خط •
- لمواق منه ما يحط به الوعى والبيض بشكل والاسند تنقط •
- ومنذ قوله

- وقد علت ما لاف من قابل بقرب ويزار •
- لينا هم يارواح طوال عسرهم باهار عتار •

وقيل له في علمه تشكو افاشارا الى غلامه كالرم يبطو وقال

- اسفر هذا العلام جي عيني من سقا •
- فتور عيني من دلال اهدى فتورا الى عظامي •
- وامرحت رعد يروح فافوخ الماء بالمدامر •

فدلت مارح الد والدام من الحين ما يضرب به المسلة الا انام للما شرف
 وللهامه نرف اذا ابتغوا ولا اما لا يولد احدهما منى لفرده واورد العقل مواد
 باي القيد اذا اورد وهذا شعر كذا فلو لم يجمع عليه نذوب في كل
 لفظ جمال فان وطرف فابر وبقيدهم سائل وبقيدهم سائر •
 بحر البصر التي من سالك الامصار في مملك الامصار • ولله الحمد
 الله • ويسكن في البصر القسايسر ومنهم ابو الطيب ابن الجين الملقب

٤٤٥

والحمد لله وحده • وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

فلما انصرف الشعر ورجع الى المنزلة كعبدك يسكنه وقال لها جعلت فداك
 سيدتي ومولاي ان ابا الخطاب ابقاه الله وجهي اليك فامتنعت اوليس
 في خبر وسرور وركبة قال نعم قالت وفي وجهك ابا الخطاب حفظه الله قال جعلت
 فداك ان ابراهيم ربيعة علمني شعرا وامرني ان انشدك اياه فقالت هاته فانشدتها
 المم بربيب ان البيت فداك قال الثوباء لئن كان الرجل غدا
 الشعر كله فقالت يا وحيه ما كان عليه الا ابراهيم في غير فوجعت الي النسوة فجمعتهن
 وانشدتهن الشعر وقالن للغيريين قل عمتك فيوشيا قال قد غنيت ابراهيم ربيعة
 قالت فهايت فغناها الغريسيون فقالت سكينه احسنت والله واحسن لئن ابراهيم
 هو لولا انك سبقت وغنيت ابراهيم ربيعة لاحسنا جازيتك باياتها اعطيه لعل بيت
 البت درهم فاخرجت باياتها ربيعة الآل درهم فدفعها الي وقالت سكينه لو
 لانا عمر لردناك قال ————— محمدين سلام حجت عايشة بنت الحجة بن عبيد الله
 فغناها الثريا واخواتها وبنات اهل مكة القرشيات وغيرهن وكان الغريسي
 من جاء ودخل النسوة عليها فامرت لئن يكسوة والطايف طنت فداك لئن
 سبناها ففعلت كل واحدة مخزج ومعهما جاريتها عمل ما امرت لها ابو عايشة والغريسي
 بالباب حتى خرج مولانا مع جواريس الخلع فقال الغريسي ابن يسبي من عايشة
 فقلن له اغفلناك وذهبت عن تلونا فقال ما انا بارج من ابها الا انا انا
 لانا كعبدك وان دفع يعني بشعر جميل
 تذكرت ليلى والقواد عبيد وشطت نواها والمزار بعبدك
 عدلت وولكم هذا مولى مولى العيلات بالباب قد ذكرنفسها تون قد دخل
 طارانه ضحكتم ثم قالتم اعلم سبيك ثم دعيت له باشيء امرت له بها ثم قالت
 لا انا ان عييتني صورا في نفسي الا حكنك فغناها في شعر الحنظل

[illegible]

مَسْنَدُ الْإِمَامِ وَفِي مَسْنَدِ الْإِمَامِ

لِابْنِ فَضْلِ اللَّهِ الْعُمَرِيِّ
شَهَابِ الدِّينِ أَحْمَدَ بْنِ حَبِيبٍ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٤٩ هِجْرِيَّةً

أَشْرَفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَوْسُوعَةِ
وَحَقَّقَ هَذَا السَّفْرَ

كَامِلًا سَلَامَةُ الْبُورِي

الْمَجْمُوعَةُ التَّاسِعَةُ

مُسَاهِدًا لِحُكَمَاءِ وَالْأَطْبَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ

[مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة]

/٤/ بسم الله الرحمن الرحيم

رب أعين

وإذ انتهت بنا الأوبة في العلماء إلى نوبة الحكماء، فلنطبق بذكرهم المفاصل، ونطلق من عمود اللخود المناصل، وننبّه منهم عيوناً طالما طال نومها، ونأتي بفوائد فئة كم كثر حسّادها، ونقتصر على المشاهير والأعيان الذين يكادون يعدون من المشاهير، ونأتي منهم بمن تكلم في العلوم الثلاثة: الطبيعي، والرياضي، والإلهي أو أحدها، وأجاد في جميعها أو مفرداً، فنذكرهم على اختلاف فرق مللهم ونحلهم، وبلادهم وتلاذهم، كل فرقة على حديثها بما وقع في قسمة الجانبين، ولم نُسَمّ منهم إلا من لم يسامت في أفقه، ولا يساهم أولى كوكبه إلى سمائه، أو أخلد ضَبْنُهُ إلى نفقه ممن له في علم الكلام إقدام لا يدانيه ليث الشرى، وتلطف لا يحاكيه طيف الكرى. قصر على طلبه الأشغال، وقصد في التزيد من مكسبه الإيغال، ومن هو بالطب طبّ بتقصي أحوال المزاج، لا تخفى عليه نبضة عرق، ولا يُموّه عليه ومضة جذق، ولا يدق مدخل سقام إلا ودواؤه يتبعه، وسقاؤه سوس يذل له سبُعُه.

وأولهم: الهرامسة الثلاثة

وإليهم تنسب أصول هذه العلوم، وقال ذلك أبو معشر البلخي^(١)،

(١) جعفر بن محمد بن عمر البلخي، أبو معشر الفلكي: عالم فلكي مشهور. كان أولاً من أصحاب الحديث، وتعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، وضربه المستعين العباسي أسواطاً لأنه أخبر بشيء قبل حدوثه فحدث، فكان يقول: أصبت فعوقبت! قال القفطي في وصفه: عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم. وكان أعلم الناس بتاريخ الفرس وأخبار سائر الأمم. وعمر طويلاً، جاوز المئة. أصله من بلخ، في خراسان. أقام زمناً في بغداد، ومات بواسط سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٦م. وكان يعرف عند الغربيين في العصور الوسطى باسم «Albomasar» تصانيفه كثيرة، منها «كتاب الطبائع»، و«المدخل الكبير - خ» ترجم إلى اللاتينية ونشر بها، و«القرانات - خ» نشرت قطعة منه، و«الألوف في بيوت العبادات - ط» مع ترجمة إنكليزية، و«مواليد الرجال والنساء - ط» بعنوان =

وقال^(١): «إنَّ أفليننوس^(٢) الذي يزعم أكثر الحكماء أنه أول من استنبط الحكمة، وسيأتي ذكره. لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب، ولا بالمبتدئ بها، بل إنه عن غيره أخذ، ولمنهج من سبقه سلك، وقال: إنه كان تلميذ هرمس المصري.

قال ابن المطران في اختصار كتاب الأدوية للكلدانيين:

فأما:

[١]

هرمس المثلث بالنعمة^(٣)

وقال في معنى تسميته بالمثلث: إنه كان ملكاً عمّت مملكته أكثر المعمورة، ونبياً ذكره الله تعالى، وقال: هو إدريس عليه السلام، وهو عند اليهود خنوخ، وقيل: / ٥ / أخنوخ، وحكيماً فيلسوفاً، له تصانيف كثيرة في أيدي الناس باقية إلى اليوم: «كتاب الطول» و«كتاب العرض» و«كتاب قضيب الذهب» وغير ذلك.

الكتاب في التمام والكمال» و«الدول والملل» و«الملاحم» و«هيئة الفلك» و«طبائع البلدان» و«الأمطار والرياح» و«إثبات علم النجوم» و«الزيج الكبير، و«الزيج الصغير، و«الاختيارات في الأعمال والحوائج من أمور السلاطين - خ» في خزانة الرباط (٧٦٩ د) نسخة مشرقية كتبت سنة ٥٦٧ هـ. ترجمته في: الفهرست لابن النديم ٢٧٧/١، والقفطي ١٠٦، ووفيات الأعيان ١١٢/١ ونواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ٥٤ وفي دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٤/١. «اتهمه مصنفو العرب بانتحال مؤلفات غيره وثبت هذا حديثاً من أبحاث لوث «O.Loeth».

(١) عيون الأنباء ٣١.

(٢) في عيون الأنباء ٣١: «اسقليبيوس».

(٣) وهو باليونانية اسم لإله من آلهة اليونان ويعرف عند الرومان باسم Mercurius، وهو «عطارد» عند العرب. ويزعم المصريون القدماء أنه نفس الإله «تحتوت Thot» وينسبون إليه اختراع كل علم، ويطلق عليه أيضاً «إدريس» و«أخنوخ أو خنوخ» و«إرمس». و«هرمس الهرامسة» و«هرمس المثلث بالنعمة».

ترجمته في: الفهرست ٢٨٦، طبقات الأمم ١٨ و٣٩، أخبار العلماء ٧-١ ويذكره باسم «إدريس». وقد كرر القفطي هذه الترجمة أيضاً ضمن ترجمة هرمس الثالث من ص ٣٤٧-٣٥٠، عيون الأنباء ٣١-٣٢، مختصر الدول ١١-١٢، ويذكر أن هرمس يلقب باليونانية طريسميجسطيس، أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباربي تعالى بثلاث صفات ذاتية، هي: الوجود والحكمة والحياة. وفي منتخب الصوان لوحة (٦٦) وفي نزهة العيون لوحة ٢٢، البدء والتاريخ ٩٧/٢ و١٤٧، كشف الظنون ٢٥-٢٦، الملل والنحل ١٤٢/٢، دائرة المعارف الإسلامية مادة «إدريس»، طبقات الأطباء والحكماء / هامش ص ٥.

قال: فهذه ثلاث نعم اجتمعت له لم يُسمع أنها اجتمعت لغيره من الأمم، ورفع الله في عمود من نور. والهند والصابئة يزعمون أنه وقع في نارٍ بعثها الله إليه، ولهذا الهند تحرق أجسادها بعد الموت، ومنهم من يحرقها قبل الموت، ويزعم أنه تقرب إلى الله وعبادة له.

قال ابن أصيبعة^(١): أمّا هرمس الأول، وهو المثلث بالنعم، فإنه قبل الطوفان، وهرمس لقب كما يقال كسرى وقيصر، وتسميه الفرس في سيرتها اللجهد، وتفسيرها ذو عدل، وهو الذي تذكر الحرائية يعني الصابئة نُبوته. ويقول الفرس: إن جده كيومرت وهو آدم عليه السلام، ويقول العبرانيون: أنه خنوخ وهو بالعربية إدريس.

قال أبو معشر: هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وأن جده كيومرت وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل، ومجد الله تعالى فيها، وأوّل من نظر في الطب، وتكلم فيه، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة بأشعار موزونة، وقواف معلومة في الأشياء الأرضية العلوية، وهو أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار. وكان مسكنه صعيد مصر فبنى هنالك الأهرام، ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وهو في الجبل المعروف ببرباه أخميم، وصوّر فيها جميع الصناعات، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده حرصاً منه على تخليد العلوم بعده، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم.

قال: وفي الأثر أن إدريس أوّل من درس الكتب ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفةً ورفع له مكاناً علياً.

قلت: /٦/ وقد مرّ في ذكره ما فيه غنى.

وأما:

[٢]

هرمس الثاني^(١)

فإنه من أهل بابل.

قال أبي أصيبعة^(٢): سكن مدينة الكلدانيين بابل، وكان بعد الطوفان في زمن بابل الذي هو أول من بنى بابل بعد نمرود بن كوش، وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة، عارفاً بطبائع الأعداد، وكان فيثاغورس الأريثماتيقي وهرمس هذا جَدَّداً من هذه العلوم ما كان قد درس بالطوفان.

قال: وهذه يعني بابل مدينة الفلاسفة من أهل الشرق وفلاسفتهم أول من جدد الحدود ورتَّب القوانين.
وأما:

[٣]

هُرمُس الثالث^(٣)

فإنه سكن مدينة مصر، وكان بعد الطوفان.

قال ابن أبي أصيبعة^(٤): وهو صاحب كتاب «الحيوان ذوات السموم»، وكان

(١) ويسمى أيضاً: «هرمس البابلي».

ترجمته في: الفهرست ٣٥٢-٣٥٣ وقد ذكره بين الكيميائيين والصنعويين... وأثبت مؤلفاته في الصنعة ٤٩٦، طبقات الأطباء والحكماء ٨ وفيه: أنه كان كيميائياً وإنما الذي له معرفة بالكيمياء هو هرمس الثالث. وفي أخبار العلماء ٣٤٦-٣٤٧، عيون الأنباء ١٧/١، طبقات الأمم ١٨ و١٩ و٤٠ (وهو هناك يخلط بين هرمس الثاني والثالث)، مختصر الدول ١١-١٢، نزهة العيون لوحة ٢٢، عيون الأنباء ٣٢، تاريخ الحكماء ٦١، دائرة المعارف مادة «هرمس».

(٢) عيون الأنباء ٣٢.

(٣) ويسمى أيضاً: «هرمس المثلث بالحكمة».

ترجمته في: الفهرست ٣٥٢-٣٥٣، وهو يذكره هناك باسم «هرمس الثاني» خطأ، وفي الطبقات ١٨ و١٩ و٤٠ (وهو هناك يخلط بينه وبين هرمس الثالث) وفي أخبار العلماء ٣٤٧-٣٥٠، وفي عيون الأنباء ٣٢، مختصر الدول ١١-١٢، نزهة العيون لوحة ٢٣، دائرة المعارف مادة «هرمس»، طبقات الأطباء والحكماء ص ١٠.

(٤) عيون الأنباء ٣٢.

طبيباً فيلسوفاً، عالماً بطباع الأدوية القتالة، والحيوانات المؤذية، وكان جوالاً في البلاد، طوافاً بها، عالماً بنصبه المدائن وطبائعها وطبائع أهلها، وله كلامٌ حسنٌ نفيسٌ في صناعة الكيمياء ينتقل منه إلى صناعات كثيرة كالزجاج والخرز والغضار، وكان له تلميذ يقال له اسقيليفوس، وكان سكنه بأرض الشام.

* * *

مشاهير الفلاسفة

[فلاسفة اليونان]

وأما فلاسفة اليونان:

فأعظمهم قدراً خمسة، وهم: بندقليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو طاليس، وهو ابن نيقوماخس. فأولهم:

[٤]

بندقليس^(١)

وهو أول من خاض منهم اللجج، وخاصم بالحجج إلا أنه زلَّ به العقل، وأصدأ مُهَنَّدُهُ كثرة الصَّنَقل.

قال أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد: إنه كان في زمان داود عليه السلام، وأخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام، ثم انصرف إلى بلاد اليونان فتكلم في خلق العالم بأشياء يقدح ظاهرها في أمر المعاد، فهجره بعضهم. ولطائفة من الباطنية ميل إلى حكمته، وتزعم أن له رموزاً قل ما يوقف عليها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): وإلى قوله في الصفات ذهب أبو الهذيل العلاف. / ٧ / ومنهم:

[٥]

فيثاغورس^(٣)

وهو ممن خرق الفجاج حيث يتشكى طالع الصباح المسرى، وتترامى طوالع الرياح حسرى، وقد كان يروع الليل، وثغر أفقه أشنب وفجر مفرقه مقنب، ويفاجيء البید وجبالها، وقد كشرت له أنياب أغوال، ورمالها قد حطت له نوائب أهوال، لا يرده قول مؤنَّب، ولا يصده ليل بأفاقه مطنَّب، ولا يشني عزماته الموقنة من بارقة سبوحها، ولا من مطوقة في خضر الغصون جنوحها.

(١) (٤٩٥-٤٣٥ ق.م). انظر: عيون الأنبياء ٦١، طبقات الأمم ٣٢، تاريخ الحكماء ٨٣.

(٢) عيون الأنبياء ٦١.

(٣) (٥٨٢-٥٠٧ ق.م). انظر: عيون الأنبياء ٦١-٧٠، طبقات الأمم ٣٣، تاريخ الحكماء ٨٧، أخبار العلماء ٢٦٨.

قال أبو القاسم صاعد: إنه أخذ الحكمة عن سليمان عليه السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام، وكان قد أخذ الهندسة من المصريين، ثم رجع إلى بلاد اليونان، وأدخل عندهم علم الهندسة، وعلم الطبيعة، وعلم الدين، واستخرج علم الألحان، وتوقيع النغم، وله رموز عجيبة، وأغراض بديعة وله في المعاد مذاهب قارب فيها بندقليس، وكان يرى السياحة، واجتناب مماسّة القاتل والمقتول، وكان يقول: إنه أمر بتقديس الحواس، وتعلم العلم بالعدل، وجمع الفضائل، والكف عن الخطايا والبحث عن طبيعة كل شيء، والتحاب والتأدب لشرح العلوم العلوية ومجاهدة المعاصي، وعصمة النفوس، وتعلم الجهاد، وإكثار الصيام، والقعود على الكراسي، ومواظبة الملوك، وقراءة الكتب، وأن يُعلّم الرجال الرجال، والنساء النساء، وكان قد اتخذ أكلًا غير مُجوّع ولا مُعطش لا يتعداه، ولم يكن يفرح بإفراط، ولا يحزن بإفراط. ويحكى أنه أول من قال: إن أموال الأخلاء مشاعة غير مقسومة، وكان يأمر بأداء الأمانة في الوديعة وصدق الوعد، وكان يتكهن فلا يُخطئ، وكان يرمز حكمته.

ومنها قوله: لا تلبس تماثيل الملائكة على فصوص الخواتيم أي لا تجهر بديانتك وأسرار العلوم الإلهية عند الجاهل. وكان ممن استوطن أنطاليا بعد أن سافر إلى بلاد شتى طلباً للعلم، وأخذ عن الكلدانيين والمصريين وغيرهم، وأخذ عن الكهنة، وآخر/ ٨/ أمره أنه كُفّر فبقي مذبذباً لا يليقه بلدٌ، ثم انحاز إلى هيكل تحصن فيه، ولبث فيه أربعين يوماً لا يغتدى، فأطيف به وأحرق عليه الهيكل، فهلك هو ومن معه. ومن كلامه قوله: الأقوال الكثيرة في الله تعالى علامة تقصير الإنسان عن معرفته. وقوله: ما أنفع الإنسان أن يتكلم بالأشياء النفيسة، فإن لم يمكنه، فليسمع قائلها.

وقوله: ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد.

وقوله: ليكن قصدك من المال اكتسابه من حلال وإنفاقه في مثله.

وقوله: إذا سمعت كذباً فهوّن على نفسك الصبر عليه.

وقوله: ما لا ينبغي أن تفعله احذر أن تخطره في بالك.

وقوله: لا تدنس لسانك بالقذف ولا تُصغ بأذنيك إليه.

وقوله: الأشكال المزخرفة والأمر المموهة في أقصر الزمان تتبهرج.

وقوله: متى التمسّت أمراً ابداً إلى ربك بالابتغال في النجاح فيه.

وقوله: الإنسان الذي اختبرته بالتجربة فوجدته لا يصلح أن يكون صديقاً وخلاًً

من أن تجعله لك عدواً.

وقوله: ما أخلق بالإنسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهي.

وقوله: ما أحسن بالإنسان أن لا يخطيء، فإن أخطأ فما أكثر انتفاعه بأن يعلم بأنه أخطأ، ويحرص أن لا يعاود.

وقوله: الدنيا دول، مرة لك وأخرى عليك، فإن توليت، فأحسن وإن تولوك فلن.

وقوله: ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق، فصبر واحتمل، ولكن الحكيم من حُمل عليه أكثر مما يحتمل فصبر.

وقوله: إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات لعدمها الكلام، وتعرض للإنسان من قبل الكلام.

وقوله: استعمل الفكر قبل العمل.

وقوله: وقد نظر إلى شيخ يحب النظر في العلم ويستحي أن يرى متعلماً: يا هذا أتستحي أن ترى في آخر عمرك أفضل منك في أوله؟

وقوله وقد قيل له: ما أحلى الأشياء؟ قال: ما يشتهي الإنسان.

٩/ ومنهم:

[٦]

سقراط^(١)

وهو المعروف بسقراط الحُبِّ، والحُبِّ وعاء من فخار كان يجلس فيه ويستغني به عن اللباس اتخذه ريشاً له دون اللباس. أعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها، وفرغ منها يديه ونفضها، وتجرد من الدنيا إلا حُبَّ، يستره، وجب يشهره كأنما يتوقى من مماتل الفجر إشراكاً خاتلة، ومن رواشق النجوم نبألاً قاتلة، فكان لا يستطيع من دياره مقيلاً، ولا يستطيع لعثاره مُقيلاً، فلم يأوِ جداراً ولا أطمأ، ولا ألجم رأسه عذاراً ولا خُطماً حتى انتهى إلى ما بلغ، وشفى كلب الموت من دمه ما ولغ.

قال أبو القاسم صاعد: هو من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر على العلوم الإلهية،

(١) يكتب أيضاً «سقراطيس».

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ٩٥، طبقات الأمم ص ٢٣، أخبار العلماء ص ١٩٧-٢٠٦، وعيون الأنباء ٧٠-٧٩، ومختصر الدول ص ٨٩، ومنتخب الصوان لوحة ٣٠-٣٢، ونزهة العيون ٥٩-٨٨، الملل والنحل ٢/ ١٨٥، طبقات الأطباء والحكماء ص ٣٠.

وخالف اليونان في عبادة الأصنام، وحاجَّ رؤسائهم بالأدلة، فنقدوا العالم عليه، واضطروا ملكهم إلى قتله، فأودعه السجن، ثم سقاه السم. وله وصايا شريفة، وآداب فاضلة، وحكم مشهورة، ومذاهب قريبة من فيثاغورس وبندقليس إلا أن له في العدد آراء ضعيفة، بعيدة عن محض الفلسفة، خارجة عن المذاهب المحققة.

وكان لا يستودع الحكم الصحف والقراطيس تنزيهاً لها، ويقول: الحكمة طاهرة مقدسة غير فاسدة ولا دنسة، فلا ينبغي أن نستودعها إلا الأنفس الحية، وننزهاها عن الجلود الميتة، ونصونها عن القلوب المتمردة، ولم يصنف كتاباً ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبت في قراطس، وإنما كان يلقنهم علمه تلقيناً.

وكان من عادة ملوك اليونان إذا حاربوا أخرجوا معهم حكماءهم، فأخرج الملك سقراط معه في سفرة خرج فيها، وكان سقراط يأوي إلى زير مكسور يستكن فيه من البرد، وإذا طلعت الشمس خرج منه فجلس عليه يستدفئ بالشمس، ولهذا سمي سقراط الحُبَّ. ومن كلامه قوله: إملاً الوعاء طيباً أي حكمة.

وقوله: لا تأكل الأسود الذئب أي احذر الخطيئة.

وقوله: لا تتجاوز الميزان أي لا تتجاوز الحق.

وقوله: ازرع بالأسود، واحصد بالأبيض أي ازرع بالبكاء، واحصد / ١٠ / بالسرور.

وقوله: لا تشيلن الإكليل أي السنن الجميلة لا ترفعنها لا يحوط حياطة الإكليل

للرأس.

وقوله: عجباً لمن علم فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس له فناء.

وقوله: اتفاق النفوس باتفاق هممها، واختلافها باختلاف مرادها.

وقوله: من بخل على نفسه، فهو على غيره أبخل.

وقوله: ما ضاع من عرف نفسه، وما أضيع من جهل نفسه.

وقوله: ستة لا تفارقهم الكتابة: الحقود، والحسود، وحديث عهد بغنى، وغنى

يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم.

وقوله: العقل مواهب، والعلوم مكاسب.

وقوله: اتقوا من تبغضه قلوبكم.

وقوله: إذا وليت أمراً بعدد عنك الأشرار، فإن جميع عيوبهم منسوبة إليك.

وقوله: إنما أهل الدنيا كصور في صحيفة، كلما نُشر بعضها، طوى بعضها.

وقوله: ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب المريض.

وقوله: طالب الدنيا قصير العمر، كثير الفكر.
 وقوله: من كان شريراً، فالموت سبب راحة الناس من شره.
 وقوله: إنما جعل للإنسان لسان واحد وأذنان، ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلمه.
 وسئل: أي الأشياء ألد؟ فقال: استفادة الأدب، واستماع أخبار لم تكن سمعت.
 وقوله: أنفع ما اقتناه الإنسان الصديق المخلص.
 وقوله: الصامت يُنسب إلى العي ويسلم، والساكت ينسب إلى الفضول ويندم.
 وقوله: من سرَّ الزمان في حالةٍ ساءه في أخرى.
 وقوله: لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء.
 وقوله لتلميذه: يا بني إن كان لا بد لك من النساء، فاجعل لقاءك لهنَّ كأكل الميته لا تأكلها إلا عند الضرورة.
 وقوله: وقد قيل له: ما تقول في النساء؟ فقال: هنَّ شجر الدفيل له رونق وبهاء، فإذا أكله الغرُّ قتله.
 وقوله: لا يصدرك عن الإحسان جحود جاحد النعمة.
 وقوله: الجاهل من عثر بحجر مرتين.
 /١١/ وقوله: اعلم أنك في أثر من مضى سائر، وفي محلٍّ من مات مقيم، وإلى العنصر الذي بدأت منه تعود.
 وقوله: رُبَّ محترزٍ من الشيء تكون منه آفته.
 وقوله: داووا الغضب بالصمت.
 وقوله لأهل الاعتبار: في صروف الدهر كفاية، وكل يوم يأتي عليك منه علمٌ جديد.

وله شعر باليونانية عُرِّب فكان شعراً، وهو: [من المديد]
 إِنَّمَا الدُّنْيَا وَإِنْ مَوْتٌ خَطَرَةٌ مِنْ لَحْظٍ مُلْتَفٍ
 وعاش نحو ثمانين سنة.
 ومنهم:

[٧]

أفلاطون^(١)

رجل ترى النجوم لديه أسافل، والخصوم بين يديه جوافل، والغيوم معذرة إليه إذ

(١) ولد أفلاطون سنة (٤٤٧ ق.م) وتوفي سنة (٣٤٧ ق.م).

أنته حوافل، يطأ الأراقم، ويطاول الخطب المتفاقم، ويكف بعقله النوازي، ويجلب بعقاله الجوازي، وتقصر روية الأفكار إذا ارتجل، وتقصي إذا ارتحل، وتقدم النظراء إليه، ثم لا ترى إلا مبلسة، وتقدم الآراء، ثم لا تنفذ إلا وسهامها مرسله.

قال ابن جليل^(١): هو من مدينة أثينا، رومي فلسفي، يوناني، طبي، عالم بالهندسة، وطبائع الأعداد، وله في الطب كتاب بعثه إلى طيماوس تلميذه، وله في الفلسفة كتب وأشعار، وله في التأليف كلام لم يسبقه أحد إليه، ضبط به صنعة الديباج، وهو الكلام المنسوب إلى الخمس نسب التأليفية التي لا سبيل إلى وجود غيرها، ثم استشرف إلى علم العالم كله، وعرف موانع الأجزاء المؤتلفات الممتزجات باختلاف ألوانها وأصباغها واثلافها على قدر الشبه، فوصل إلى علم التصوير فقامت له صناعة الديباج، وصناعة كل مؤتلف به، وله في الفلسفة كلام عجيب.

وكان قد أخذ في أول أمره في تعلم علم الشعر واللغة، فبلغ من ذلك مبلغاً عظيماً إلى أن حضر يوماً سقراطيس وهو يثلب صناعة الشعر فأعجبه ما سمعه منه، وزهد فيما كان عنده منه، ولزم سقراط، وسمع منه خمس سنين ثم مات سقراط، فقصد/١٢/ مصر للقاء أصحاب فيثاغورس.

وكان يتبع سقراط في الأشياء المحسوسة، ويتبع فيثاغورس في الأشياء المعقولة، وكان يتبع سقراطيس في أمور التدبير، ثم رجع إلى بلده ونصب فيه بيتي حكمته، وعلم الناس، وفعل الجميل، وأعان الضعفاء، وكان حسن الأخلاق، كريم الأفعال، كثير الإحسان إلى كل ذي قرابة منه وإلى الغرباء، ثباتاً، حكيماً، صبوراً، وكان يرمز حكمته، ويشير إليها ويتكلم بها ملغوزة حتى لا يظهر مقصده إلا لذوي الحكمة، وصنف عدة كتب، وكتبه يتصل بعضها ببعض أربعة أربعة يجمعها غرض واحد. ويخص كل غرض حد منها غرض خاص يشتمل عليه ذلك الغرض العام، ويسمى كل واحد منها رابوع، وكل رابوع منها يتصل بالذي قبله.

وكان محباً للخلوات والصحارى والوحدة، وكان في الأكثر لا يستدل على

⁼ ترجمته في: الفهرست ٢٤٥-٢٤٦، وتاريخ اليعقوبي ٩٦، وطبقات الأمم ص ٢٣، وأخبار العلماء ص ١٧، وعيون الأنباء ٧٩-٨٦، ومختصر الدول ص ٩٠-٩١، وفي منتخب الصوان لوحة ٣٢، وفي نزهة العيون لوحة ٨٨-١٠٠، والملل والنحل ٢/ ١٩٠ وفي دائرة المعارف الإسلامية مادة «أفلاطون»، طبقات الأطباء والحكماء: هامش (ص ٢٣).

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص ٢٣.

موضعه إلاً بصوت بكائه، وكان يُسمع على ميلين، وكان منقوشاً على خاتمه: تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

ومن كلامه قوله: للمادة على كل شيء سلطان.

وقوله، وقد قيل له: لم لا تجتمع الحكمة والمال؟ فقال: لعز المال.

وقوله: غاية الأدب أن يستحي المرء من نفسه.

وقوله: إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرت، ونفقت الرذائل ونفعت، وكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر.

وقوله: العزيز النفس هو الذي لا يذل للفاقة.

وقوله: الحسنُ الخلق من صبر على السيئ الخلق.

وقوله: أشرف الناس من شرفته الفضائل لا من تشرف بالفضائل.

وقوله: الأمل خداع النفوس.

وقوله: المشورة تريك طبع المستشار.

وقوله: اطلب في حياتك العلم والمال والعمل الصالح، فإن الخاصة تفضلك بما تحسن، والعامة بما تملك، والجميع بما تعمل.

وقوله، وقد سئل عند موته عن الدنيا، فقال: خرجت إليها مضطراً، وعشت فيها متحيراً، وها أنا أخرج منها كارهاً، /١٣/ ولم أعلم فيها إلا أنني لا أعلم. وعاش ثمانين سنة.

ومنهم:

[٨]

أرسطوطاليس^(١)

هو ابن نيقوماخس، ذهب مذهب فيثاغورس، رجل لا يقاس به أحد، ولا يقال إن مثله البحر فيخص بحد. أنواع العلماء عليه ضيوف، وأقوال الحكماء لديه زيوف،

(١) يكتب أيضاً «أرسطو» (٣٨٤-٣٢٢ ق.م).

ترجمته في: تاريخ اليعقوبي ١٠٧-٣٢، الفهرست ص ٢٤٦-٢٥٢، طبقات الأمم ص ٢٤، وأخبار العلماء ص ٢٧، وعيون الأنباء ٨٦-١٠٥، ومختصر الدول ص ٩١-٩٤، ومنتخب الصوان لوحة ٣٦، ونزهة العيون لوحة ١٠٠-١١٦، وفي الملل والنحل ٤/٣، وفي دائرة المعارف الإسلامية مادة: «أرسطو»، طبقات الأطباء والحكماء ص ٢٥.

طلع صباحه فطمى جدولته على الكواكب وطمسها، وطمَّ جُرف نهاره المنهار حُفر الغياهب ودمسها، وعُرف فضله بالضرورة، وفعله بالمآثر المبرورة، وعني بمداواة الافهام فأبرأ سقيمها، وأنتج عقيمها، فشفى من لمم، وأسمع من صمم، وحاز بانضواء الاسكندر الذي هو أحد ملوك العالم إليه فخراً أصبح به نذَه يُفغم، وضده يُرغم، إذ كان لا تناط لديه إشارته بإهمال، ولا تنال عنده إلا بالتعويل عليه أعمال، وحسب واصفه أن لا يجد غير قائل، ولا يُحد إلا ثلب الناس وهو قائل.

ذكره أبو القاسم بن صاعد وقال: انتهت إليه فلسفة اليونان، وكان خاتم حكمائهم، وسيد علمائهم، وهو أول من خلَّص البرهان من الصناعات المنطقية، وصَوَّرها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة العلوم النظرية حتى لُقِّب بصاحب المنطق، وله في جميع العلوم الفلسفية كتب شريفة كلية وجزئية.

قال ابن جلدج^(١): كان فيلسوف الروم وعالمها، وجهبذا ونحريها، وخطيبها وطبيبها، وكان أوحداً في الطب، وغلب عليه علم الفلسفة.

قال المبشر بن فاتك: كان أرسطو كثير التلاميذ من الملوك وأبناء الملوك وغيرهم، وعدَّ منهم أناساً منهم الإسكندر وسماه الاسكندروس.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان نيقوماخس أبو أرسطوطاليس طبيب فيلبس أبي الإسكندر، وكان كل من أبيه وأمه من ولد قلنيوس، وأخذ أرسطو عن أفلاطون، وكان أرسطو خليفة على دار التعليم. ولما قدم أفلاطون من صقلية انتقل أرسطو إلى لوقيون، واتخذ هناك دار التعليم المنسوبة إلى المشائين ثم رجع/ ١٤ / إلى مدينة الحكماء، ثم صار إلى مقدونيا يعلم إلى أن تجاوز الإسكندر بلاد آسيا، ثم استخلف في مقدونيا فسعى إليه بعض الكهنة في أرسطو ونسبه إلى الكفر لكونه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تعبد، فشخص أرسطو إلى بلاده، وبقي بها إلى أن مات وهو ابن ثمانين سنة.

ثم ان أهل أسطا نقلوا بدنه، وصيّروه في الموضع المعروف بالأرسطوطاليسي، وصيروا عنده مجتمعهم للمشاورة في جلائل الأمور، وكانوا يرون عنده تفريح أحزانهم، وإذا صعب عليهم شيء من فنون العلم، أتوا إلى مكان قبره فتناظروا ما بينهم فيظهر لهم ما أشكل، وكانوا يرون اجتماعهم عنده يذكي عقولهم، ويصحح فكرهم، وكانوا لا يزالون في أسفٍ لفراقه، وحُزنٍ لما فقدوه من ينابيع حكمته.

وذكر المسعودي أنه في بلرم من صقلية، وكان جليل القدر في الناس، مُكرماً عند

(١) طبقات الأطباء والحكماء ص ٢٥. (٢) عيون الأنباء ٨٦ - ٨٧.

ملوك زمانه، وكان يحسن السفارة عندهم للرعية حتى اتخذوا عموداً ونقشوا عليه اسمه، وحُسن ما كان يصنعه معهم إلاَّ فرد رجل غاب عن رأيهم في هذا العمود، وعاب أرسطو، وهمَّ بإزالة نقش العمود فأمسك وقتل ثم عمدوا إلى عمود آخر. فزبروه بالبناء عليه كالأول، وذكروا المتعرض المخالف الذي قتل ولعنوه وتبرأوا منه.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): إن الإسكندر لما ملك صار أرسطو إلى التبتل والتخلي مما كان فيه من الاتصال بالملوك والملازمة لهم، ولزم موضع التعليم وهو رواق المشائين، وأقبل على العناية بمصالح الناس، ورفد الضعفاء وأهل الفاقة، وتزويج الأيامي وعول اليتامى، ورفد طلبة العلم والتأدب مَنْ كانوا، وأي نوع من العلم والأدب طلبوا، والصدقة على الفقراء، ولم يزل في غاية لين الجانب والتواضع وحسن اللقاء للصغير والكبير، والقوي والضعيف. وأمَّا قيامه بأمر أصدقائه فلا يوصف.

وقال المبشر بن فاتك: إن أرسطو لما بلغ ثمان سنين حمله أبوه إلى بلد الحكماء، وضمه أبوه إلى الشعراء والبلغاء والنحويين، / ١٥ / فأقام متعلماً منهم تسع سنين. وكان اسم هذا العلم عندهم «المحيط» أعنى علم اللسان لحاجة جميع الناس إليه؛ لأنه المؤدي لكل حكمة، وبه يتحصل كل علم، ثم بلغه أن قوماً من الحكماء أزرؤا بعلم البلغاء واللغويين، وعتفوا المتشاغلين به، وزعموا أنه لا تحتاج إليه الحكمة؛ لأن النحويين معلمو الصبيان، والشعراء أصحاب أباطيل وكذب، والبلغاء أصحاب تمحل ومرء، فأدرسته الحفيظة لهم فناضل عنهم، واحتج لهم، وقال: إن فضل الإنسان على البهائم بالنطق، وأحقهم بالأنسيَّة لبلغهم فيه، وإذا كانت الحكمة أشرف الأشياء، فينبغي أن تكون العبارة عنها بأشرف المنطق، لأن العيَّ يذهبُ بنور الحكمة، ويقطع عن الأداء، ويقصر عن الحاجة، ويُلْبَس على المستمع، ويفسد المعاني، فيورث الشبهة.

ثم انتقل أرسطو إلى أفلاطون لتعلم العلوم الأخلاقية والسياسية والطبيعية والتعليمية والإلهية، وكان أفلاطون إذا استدعي منه الكلام، يقول: اصبروا حتى يحضر الناس، فإذا جاء أرسطو قال: تكلموا فقد حضر الناس، وربما كان يقول: اصبروا حتى يحضر العقل، فإذا حضر أرسطو، قال: تكلموا فقد حضر العقل.

وقال حنين: كان منقوشاً على خاتم أرسطو: «المنكر لما لا يعلم أعلم من المقرر بما لا يعلم».

ومن كلامه قوله: بالفكر الثاقب يُدرك الرأي العازب، وبالتأني تسهل المطالب،
وبلين الكلمة تدوم المودة في الصدور، وبخفض الجناح تتم الأمور، وبسعة الأخلاق
يطيب العيش، ويكمل السرور، وبالإنصاف يحبُّ التواصل، وبالتواضع تكثر المحبة،
وبالعفاف تزكو الأعمال، وبالعدل يقهر العدو، وبالحلم تكثر الأنصار، وبالرفق
تستخدم القلوب.

بالوفاء يدوم الإخاء.

بالصدق يتم الفضل.

الأيام تفيد الحكم، ومن الساعات تتولد الآفات.

بالعافية يوجد طيب الطعام والشراب، وبحلول المكاره تتكدرُ النعم، وبالمن
يُدحض الإحسان، وبالجحود يستوجب الحرمان، والبخيل ذليل وإن كان غنياً، /١٦/
والجواد عزيز وإن كان مُقلاً.

الطمع الفقر الحاضر، واليأس الغنى الظاهر.

لا أدري، نصف العلم.

الأدب يغني عن الحساب.

التقوى شعار العالم، والرياء لباس الجاهل.

مقاساة الأحق عذاب الروح.

الاشتغال بالفئات يضيع الأوقات.

التمني سبب الحسرة.

الصبر تأييد العزم.

صديق الجاهل مغرور.

المخاطر خائب.

من عرف نفسه لم يضع.

المجرب أحكم من الطبيب.

إذا فاتك الأدب فالزم الصمت.

من لم ينفعه العلم لم يأمن من ضرر الجهل.

من افتخر ارتطم.

من عجل تورط.

من تفكر سلم.

من سأل علم.
 للعادة على أحد سلطان.
 كل شيء يستطاع نقله إلاّ الطباع.
 كل شيء يحتال له إلاّ القضاء.
 من عرف الحكمة لحظته العيون بالوقار.
 لا يؤتى الناطق إلاّ من سوء فهم السامع.
 الجزع عند مصائب الأحزان أحمد من الصبر.
 وصبر المرء على مصيبته أحمد من الجزع.
 ليس شيء أقرب إلى تغيير النعم من الإقامة على الظلم.
 من طلب خدمة السلطان بلا أدب خرج من السلامة إلى العطب.
 إذا أردت الغنى، فاطلبه بالقناعة، فإن من لم تكن له قناعة، لا يغيثه المال وإن كثر.
 لا تبطل لك عُمرًا في غير نفع ولا تضع لك مالاً في غير حق، ولا تصرف لك
 قوة في غنى، ولا رأياً في غير رشد.
 العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن
 عالماً.
 اطلب الغنى الذي لا يفنى، والحياة التي لا تتغير، والملك الذي لا يزول،
 والبقاء الذي لا يضمحل.
 أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك.
 افترص من عدوك الفرصة، واعمل على أن الدهر ذو دول.
 لا تصادم من كان على الحق، ولا تجاذب من كان متمسكاً بالدين.
 لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يثبت.
 لا تغفل فإن الغفلة تورث الندامة.
 لا ترج السلامة لنفسك حتى يسلم الناس من جورك، ولا تعاقب غيرك على أمر
 ترخص فيه لنفسك.
 اعتبر بمن تقدم، واحفظ ما مضى، والزم الصحة يلزمك النصر.
 الصدق قوام أمر الخلائق.
 ١٧/ الكذب داء لا ينجو من نزل به.

من تجبّر على الناس أحبّ الناس ذلته.
 من أفرط في اللوم كرهت حياته.
 من مات محموداً كان أحسن حالاً ممّن عاش مذموماً.
 من نازع السلطان مات قبل يومه.
 أي ملك نازع السوقه هتك شرفه.
 من مات قلّ حاسده.
 الحكمة شرف من لا قديم له.
 سوء الأدب يهدم ما بناه الأدب.
 الجهد شرّ الأصحاب.
 النميّة تُهدي إلى القلوب البغضاء. ومن واجهك فقد شتمك، ومن نقل إليك نقل عنك.
 الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديقاً لغيره.
 الوفاء نتيجة الكرم.
 لسان الجاهل مفتاح حتفه.
 الحاجة تفتح باب الحيلة.
 بترك ما لا يعينك يتم لك الفضل.
 ليس زيادة القوة بكثرة ما يرد البدن من الغذاء ولكن بكثرة ما يقبل منه.
 امتحن المرء في وقت غضبه لا في وقت رضاه، وفي وقت قدرته لا في وقت ذلته.
 خير الأشياء أجدها إلّا المودّات خيرها أقدمها.
 وكتب إلى الإسكندر: إذا أعطاك الله الظفر، فافعل ما أحبّ من العفو.
 وكتب إليه: الأردياء ينقادون بالخوف، والخيار ينقادون بالحياء، فميز بين
 الطبقتين، واستعمل في أولئك البطش والخوف، وفي هؤلاء الأفضال والإحسان.
 وكتب إليه: ليكن غضبك بين المنزلتين لا شديداً فاشياً، ولا فاتراً ضعيفاً، فإن
 هذه من أخلاق السباع، وهذه من أخلاق الصبيان.

[مشاهير الفلاسفة في الجانب الشرقي]

ومنهم:

[٩]

يعقوب بن إسحاق الكندي، أبو يوسف^(١)

فيلسوف العرب، من ولد الأشعث بن قيس، والأشعث من ولد معاوية الأكبر ابن الحارث الأصغر ابن معاوية بن الحارث الأكبر، وكان الأشعث ملكاً على كندة، وله صحبة، وللاعشى فيه مدائح، وكان من آبائه ملوك بالمشقر واليمامة والبحرين. وكان

(١) يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، أبو يوسف: فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ في البصرة. وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة، يزيد عددها على ثلاثمائة. ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم، فوشي به إلى المتوكل العباسي، فضرب وأخذت كتبه، ثم ردت إليه. وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً. قال ابن جليل: «ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس» توفي نحو سنة (٢٦٠هـ/ نحو ٨٧٣م)، من كتبه «رسالة في التنجيم - ط» و«اختيارات الأيام - خ» و«تحاويل السنين - خ» و«إلهيات أرسطو - خ» و«رسالة في الموسيقى - خ» و«الأدوية المركبة» ترجمت إلى اللاتينية وطبعت بها، و«رسم المعمور» خرائط وصور عن الأرض، ذكره المسعودي، و«الترفق، في العطر - خ» في العطور، و«السيوف وأجناسها - ط» رسالة نشرت في مجلة الكتاب، و«المد والجزر - خ» و«ذات الشعبين - خ» وهي آلة فلكية، و«خمس رسائل، أولها في ماهية العقل - ط» ترجمت إلى اللاتينية، و«الشعاعات - خ» و«الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد - ط» نشر باسم «كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى». ونشر الدكتور أبو ريدة «رسائل الكندي - ط» في جزأين، اشتملا على بعض رسائله، ومثله زكريا يوسف ببغداد نشر «مؤلفات الكندي في الموسيقى - ط»، ورسالة الكندي في «النغم - ط»، ورسالة الكندي في عمل الساعات - ط» و«عمل السيوف - ط» و«حوادث الجو - ط». وللشيخ مصطفى عبد الرزاق: كتاب «فيلسوف العرب والمعلم الثاني - ط» صغير، في سيرته وسيرة الفارابي، ومثله لمحمد كاظم الطريحي، والسيد محمد بحر العلوم وغيرهم.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٨٥-٢٩٣، والمقتطف ١١/٥٧، وابن النديم، طبعة فلووجل ٢٥٥-٢٦١، وتاريخ حكماء الإسلام لليهقي ٤١، وطبقات الأطباء والحكماء، لابن جليل ٧٣، =

إسحاق بن الصباح على الكوفة للمهدي والرشد، وكان ابنه يعقوب لهذا عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم، وابنه أحمد، أملاكه بالبصرة، وتأدب ببغداد.

وكان عالماً بالطب، والفلسفة، / ١٨ / والحساب، والمنطق، واللحون، والهندسة، وطبائع الأعداد، والنجوم، ولم نجد في الإسلام فيلسوفاً خلف أرسطو سواه. له تصانيف كثيرة في فنون العلم، خدم الملوك، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة، وبين ما جمجم على أهل المعرفة، واحجم على مشاورته كل قسورة، وخاتل دون مساورته كل ابن بهماء مقفرة، وأثرى بعلمه كل مُملق، أربى في يمه كل محملى، وقَصَّر لديه حجة كل مناظر، ودرس محجة كل خاطر، وردَّ من عادى كندة من كنود الأبطال، وأكبد بفضلها كبود أهل المطال، حتى خشي من كاد كندة، وخزي بالقبيح لحسن ما عنده، فلو نُشِرَ ملكها الضليل لما فخر بلسانه قدر ما فخر بإحسانه، ولما حمل راية الشعراء بيده إلا بعد أخذ أمانه، ولا طلب ثأر أبيه ولو قدر عليه إلى زمانه.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(١): وذكر من كلامه قوله في وصية: وليتق الله المتطبب ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض.

وقوله: كل ما يجب أن يقال كان سبب عافية العليل وبرءه احذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته.

وقوله مما أوصى به ولده: يا بني الأب ربّ، والأخ فخ، والعم غمّ، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب، وقول لا، يصرف البلاء، وقول نعم، يزيل النعم، وسماع الغناء برسام حادّ؛ لأن الإنسان يسمع فيطرب، فينفق فيسرف، فيفتقر فيغتّم، فيعتل فيموت، والدينار محموم فإن أصرفته مات، والدرهم محبوس فإن

⁼ وأخبار العلماء للقفطي ٢٤٧-٢٤٠، والمرزباني ٥٠٧، وابن العبري ٢٥٩، ولسان الميزان ٦/ ٣٠٥، والفهرس التمهيدي ٥٤٥، وآداب اللغة ٢/ ٢١٢، ومجلة الكتاب ٦/ ٣٩٩-٤٠٥، وصرح العيون ١٢٣، وانظر: مفتاح الكنوز ٢٣٦، ٣٧٢، ٣٧٣.

يقول الزركلي: وأراد الأب «لويس شيخو» أن يجعله «نصرانياً» على عادته في كثير من الجاهلين وبعض الإسلاميين، فعرفه في كتاب مجاني الأدب ٤/ ٣٠٧ بـ«الكندي النصراني» (كذا) فتصدى له الأب «أنستاس الكرمللي» في مجلة لغة العرب ٥/ ٣٠٢ فأظهر تحريفه للنصوص، وأتى بما لا يقبل الشك في أن الكندي «مسلم» من أسرة عريقة في الإسلام.

وانظر: المخطوطات المطبوعة ٢/ ١١١-١١٢، ومشاركة العراق، الرقم ٣٩٢، الإعلام ٨/ ١٩٥.

أخرجته فَرَّ، والناس سحرةً فخذ شئهم واحفظ شئك، ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة تذر بالدار بلاقع.

قلت: وهذا الكندي هو الذي حضر أبا تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم قوله فيه: [من الكامل]

ما في وقوفك ساعةٍ من باسٍ
وهو صاحب الواقعة معه فيها. وهي في موضعها من ذكر أبي تمام أشبه.
ومنهم:

[١٠]

أبو العباس^(١). أحمد بن الطيب السرخسي

مفتنٌ جليل المفاخر، / ١٩ / متقن لعلوم الأوائل، وطرف من علوم الأواخر، هذا إلى خشن مناظرة، وحسن محاضرة، وبوادٍ أجوبة حاضرة، ونوادٍ ما أتت بحرارها أهل بادية ولا حاضرة، ومع هذا كله يزن عقله الجبال، ويوقر فضله الجمال، ويقتدي بفيضه البحر إلا أنه لا يمر، والسحاب إلا أنه الذي ينسكب ولا يدر.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): وهو ممن ينتمي إلى الكندي وعليه قرأ، وكان مفتناً في علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف، أخذاً في النحو والشعر، فصيح الشعر، مليح النادرة، وسمع الحديث الشريف. وكان خليعاً ظريفاً، وولي حبة بغداد أيام المعتضد، وكان قبل هذا يعلمه ويناديه، وكان يفضي إليه بأسراره، ويستشير في أمور ملكه.

وكان يغلب علم السرخسي على عقله، وقتله بحيلة دبّرها الوزير عليه حتى أخذ خط المعتضد بقتل رجال دسّه بينهم، فلما قتل سأل عنه المعتضد، فأخبره القاسم أنه قتل فأنكر خطه فأراه خطه، فسكت ومضى بعد أن بلغ السماء رفعة.
ومنهم:

(١) ترجمته في: مروج الذهب ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٥٠٣، ٧٣٠، ٧٣١، ١٣٢٨، ٣٣١٦، والفهرست لابن النديم ١/ ١٧١، الفن ١، ومعجم الأدباء ٩٨/ ٣-١٠٢، وأخبار الحكماء للقفطي ٧٧، وعيون الأنباء ٢٩٣-٢٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٨-٤٤٩ رقم ٢٢١، والوافي بالوفيات ٧/ ٨٥، رقم ٢٩٤٧، ولسان الميزان ١/ ١٨٩-١٩٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٨١-٢٩٠هـ) ص ٣٤١ رقم ٦٠٩.

(٢) عيون الأنباء ٢٩٣.

[١١]

كنكه الهندي^(١)

من أقدم الحكماء وأقوم القوم، يثبت ما أنزل في الأرض من خير السماء، وأعلم الكل بما ينبت من العقاقير ذوات الأسماء، أخذ عنه الحكماء أصحاب النواميس، واستمد اليونان مما وصل من كتبه إلى أرسطاطاليس، وهو الذي لا يرتفع معه ذكر نابه ولا يقاومه قدر مُشابه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): إنه حكيمٌ بارعٌ، من متقدمي حكماء الهند وأكابرهم، وله نظر في صناعة الطب، وقوى الأدوية، والطبائع المولدات، وخواص الموجودات، وكان من أعلم الناس بهيأة العالم، وتركيب الأفلاك وحركات النجوم.

وقال أبو معشر: إن كنكه هو المتقدم في علم النجوم عند جميع علماء الهند في سالف الدهر، وعدّد كتبه.

قلت: / ٢٠ / ومنها كتابٌ في أحداث العالم، والدور، والقران، وهذا كتابٌ مُجدٍ لو وجدَ وهيئات. ومنهم:

[١٢]

صنجل الهندي^(٣)

وهو ثانيه في الرتبة، وثالثه في صعود الهضبة، فلو نطقت النجوم، لما عدت شكره، أو العلوم، لما عدّت إلا برّه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٤): كان من علماء الهند وفضلائهم الخبيرين بعلم الطب والنجوم. ومنهم:

[١٣]

أبو نصر الفارابي، محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان^(٥)

من أهل مدينة فاراب من مدن الترك في أرض خراسان، وكان أبوه قائد جيش،

(١) ترجمته في: الفهرست ٤٣٤، عيون الأنباء ٤٧٣، طبقات الأمم ٢٥.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٣.

(٣) ترجمته في: الفهرست ٤٣٤، عيون الأنباء ٤٧٣-٤٧٤.

(٤) عيون الأنباء ٤٧٣.

(٥) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة =

وهو فارسي المنتسب، وكان ببغداد مدة ثم انتقل إلى الشام، وأقام به إلى حين وفاته، وكان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً، وإماماً فاضلاً، بحرّاً منه يغرف، وحبراً له يعرف، قد أتقن العلوم الرياضية، زكّي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، متقنّاً منها بما يقوم به أوده، ويسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكان له قوة في صناعة الطب، وعلم الأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): وحدثني سيف الدين أبو الحسن علي بن الآمدي رحمه الله أن الفارابي كان أول أمره ناطوراً في بستان بدمشق، وهو على ذلك دائم الاشتغال

المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة (٢٦٠هـ / ٨٧٤م) وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ / ٩٥٠م) كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: إن الآلة المعروفة بالقانون، من وضعه؛ ولعله أخذها عن الفرس فوسّعها وزادها إتقاناً فنسبها الناس إليه. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وكان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها «الفصوص - ط» ترجم إلى الألمانية، و«إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها - ط» و«آراء أهل المدينة الفاضلة - ط» و«إحصاء الإقاعات - خ» في النغم، نحو (٣٠) ورقة، في معهد المخطوطات، و«المدخل إلى صناعة الموسيقى - خ» و«الموسيقى الكبير - ط» و«الآداب الملوكية - خ» و«مبادئ الموجودات» رسالة ترجمت إلى العبرية وطبعت بها، و«إبطال أحكام النجوم - خ» نسخة بطهران، و«أغراض ما بعد الطبيعة - خ» و«السياسة المدنية - خ» و«جوامع السياسة - ط» رسالة، و«النواميس» و«الخطابة» و«ما ينبغي أن يتقدم الفلسفة» وكتاب في أن «حركة الفلك سرمدية» ولمصطفى عبد الرزاق، كتاب «فيلسوف العرب - ط» في سيرته ومثله «الفارابي - ط» لإلياس فرح، و«الفارابي - ط» لعباد محمود.

ترجمته في: الفهرست لابن النديم ٣٦٨، وطبقات الأئمة لصاعد ٥٣-٥٤، وتاريخ الحكماء للقنطري ٢٧٧-٢٨٠، وطبقات الأطباء لابن جلدجل ٦٠٣-٦٠٩، والكامل في التاريخ ٨/٤٩١، ووفيات الأعيان ٥/١٥٣-١٥٧، وعيون الأنباء ٦٠٣-٦٠٩، وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠، والمختصر في أخبار البشر ٢/٩٩، ودول الإسلام ١/٢١١، وسير أعلام النبلاء ١٥/٤١٦-٤١٨ رقم ٢٣١، والعبر ٢/٢٥١، وتاريخ ابن الوردي ١/٢٨٤-٢٨٥، والوافي بالوفيات ١/١٠٦-١١٣، ومروءة الجنان ٢/٣٢٨-٣٣١، والبداية والنهاية ١١/٢٣٤، والسيف المهند، ليدر الدين العيني ٧٨-٧٩، وشذرات الذهب ٢/٣٥٤-٣٥٥، وكشف الظنون ٥٢ وغيرها، وهدية العارفين ٢/٣٩، وديوان الإسلام ٣/٤١٥-٤١٧ رقم ١٦١٥، ومفتاح السعادة ١/٢٥٩، والأعلام ٧/٢٠، ومعجم المؤلفين ١١/١٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٣١-٣٥٠هـ) ص ١٨١ رقم ٣٠١.

بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها. وكان ضعيف الحال حتى أنه كان في الليل يسهر بالمطالعة والتصنيف، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس. وبقي كذلك مدة. ثم إنه عظم شأنه وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه، وصار أوجد زمانه وعلامة وقته. واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي وأكرمه إكراماً كثيراً، وعظمت / ٢١ / منزلته عنده، وكان له مؤثراً.

ونقلت من خط بعض المشايخ أن أبا نصر الفارابي سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، [ورجع إلى دمشق، وتوفي بها في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة]، عند سيف الدولة علي بن حمدان وفي خلافة الراضي، وصلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلاً من خاصته. ويذكر أنه لم يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه. ولم يكن معتنياً بهيأة ولا مكسب. ويذكر أنه كان يغتذي بما في قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط. ويذكر أنه كان في أول أمره قاضياً، فلما شعر بالمعارف، نبذ ذلك، وأقبل بكليته على تعليمها، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البتة. ويذكر أنه كان يخرج إلى الحراس في الليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرأه. وكان في علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه. ويذكر أنه صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات. ويذكر أن سبب قراءته للحكمة أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطوطاليس، فاتفق أن نظر فيها، فوافقت منه قبولاً، وتحرك إلى قراءتها، ولم يزل إلى أن أتقنها فهماً وصار فيلسوفاً بالحقيقة.

ونقلت من كلام لأبي نصر الفارابي في معنى الفلسفة قال: اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل إلى العربية، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفياً ومعناه إثارة الحكمة. وهو مركب من فيلا ومن سوفيا، ففيلا الإيثارة وسوفيا الحكمة. والفيلسوف مشتق من الفيلسفة، وهو على مذهب لسانهم فيلوسوفوس. فإن هذا التعبير هو تعبير كثير من الاشتقاقات عندهم، ومعناه المؤثر للحكمة. والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة.

وحكى أبو نصر الفارابي في ظهور الفلسفة ما هذا نصه قال: إن أمر الفلسفة اشتهر / ٢٢ / في أيام ملوك اليونانيين، بعد وفاة أرسطوطاليس بالإسكندرية إلى آخر أيام المرأة. وأنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً، وتوالى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس. وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها أوغسطس الملك من أهل رومية، وقتلها واستحوذ على

الملك. فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعتها، فوجد فيها نسخاً من كتب أرسطوطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو [فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو] وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي. وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومية. فصار التعليم في موضعين وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية، وبقي بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا العلم وما يبطل. فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده؛ لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه لا يستعان به على نصرته دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقي بها زماناً طويلاً، إلى أن بقي معلم واحد، فتعلم منه رجلان، وخرجا ومعهما الكتب، وكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو، فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزي والآخر يوحنا بن جيلان. وتعلم من الحراني الأسقف وفوتري وساروا إلى بغداد فتشاغل أيضاً بالدين، وأخذ فوتري في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فإنه تشاغل أيضاً / ٢٣ / بدينه وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها. وتعلم منه متى بن يونان وكذلك يتعلم في آخر الأشكال الوجودية.

وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان. وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرىء بعد ذلك، وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي الإسلام أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان.

وحدثني عمي رشيد الدين أبو الحسن علي بن الخليفة: أن الفارابي توفي عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان أخذ الصناعة عن يوحنا بن جيلان ببغداد، وكان في أيام المقتدر وكان في زمانه أبو البشر متى بن يونان وكان أسنَّ من أبي نصر، وكان أبو نصر أحَدَ ذهناً منه وأعذب كلاماً. وتعلم أبو البشر متى من إبراهيم المروزي. وتوفي أبو البشر في خلافة الراضي فيما بين سنة ثلاث وعشرين إلى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وكان يوحنا بن جيلان وإبراهيم المروزي قد تعلموا جميعاً من رجل من أهل مرو.

وقال الشيخ أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني في معلقاته: إن يحيى بن عدي أخبره أن متى قرأ إيساغوجي على إنسان نصراني، وقرأ قاطغوريوس وبارميناس على إنسان يسمى روبيل، وقرأ كتاب القياس على أبي يحيى المروزي.

وقال القاضي صاعد بن أحمد بن صاعد في كتاب التعريف بطبقات الأمم: إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلان المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر فبذ جميع أهل الإسلام فيها، وأربى عليهم في التحقيق بها. وشرح غامضها، وكشف سرها، وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في ٢٤ / كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم. وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمسة، وإفادة وجوه الانتفاع بها، وعرف طرق استعمالها، وكيف تصرف وجوه القياس في كل مادة منها. فجاءت كتبه في ذلك الغاية القصوى الكافية، والنهاية الفاضلة. ثم له بعد ذلك كتاب شريف في إحصاء العلوم، والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه. لا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتمام به، وتقدير النظر فيه. وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون، وأرسطوطاليس، يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقيق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر، وتعرف وجوه الطلب، اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً، وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض، ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف بغرضه منها، وسمى تواليفه فيها. ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطو فقدم له مقدمة جليلة، عرف فيها بتدرجه إلى فلسفته ثم بدأ بوصف أغراضه في تواليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً، حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة إلينا إلى أول العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه. ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منها؛ فإنه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها. ولا سبيل إلى معاني قاطغوريوس وكيف بين الأوائل الموضوعة لجميع العلوم. ثم له بعد ذلك في العلم الإلهي والعلم المدني كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة عرف فيهما بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطوطاليس في مبادئ السنة الروحانية، وكيف يؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة. ٢٥ / وعرف فيها مراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرق بين الوحي والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة، واحتياج المدينة إلى السيرة الملكية والنواميس النبوية.

أقول: وفي التاريخ أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر بن السراج يقرأ عليه صناعة

المنطق. وكان الفارابي يشعر أيضاً. وسأل بعضهم أبا نصر: من أعلم أنت أم أرسطو؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته. ويذكر عنه أنه قال: قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة، وأرى أنني محتاج إلى معاودته^(١).

ومن شعر أبي نصر الفارابي^(٢): [من مخلع البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ الزَّمَانَ نَكْسًا وَلَيْسَ فِي الصُّحْبَةِ انْتِفَاعٌ
كُلُّ رَئِيسٍ بِهِ مَلَالٌ وَكُلُّ رَأْسٍ بِهِ صُودَاعٌ
لَزِمْتُ بَيْتِي وَصُنْتُ عِرْضًا بِهِ مِنَ الْعِزَّةِ انْتِفَاعٌ
أَشْرَبُ مِمَّا اقْتَنَيْتُ رَاحًا لَهَا عَلَى رَاحَتِي شُعَاعٌ
لِي مِنْ قَوَارِيرِهَا نَدَامَى وَمِنْ قَرَارِ قِيرِهَا سَمَاعٌ
وَأَجْتَنِي مِنْ حَدِيثِ قَوْمٍ قَدْ أَقْفَرْتُ مِنْهُمْ الْبِقَاعُ
وَقَالَ أَيْضًا^(٣): [من المقارب]

أَخِي خَلَّ حَيَّرَ ذِي بَاطِلٍ وَكُنْ لِلْحَقَائِقِ فِي حَيِّزٍ
فَمَا الدَّارُ دَارَ خُلُودٍ لَنَا وَلَا الْمَرْءُ فِي الْأَرْضِ كَالْمُعْجَزِ
وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا خَطُوطٌ وَقَعْنَ عَلَى كُرَّةٍ وَقَعَ مُسْتَوْفِزِ
يُنَافِسُ هَذَا لِهَذَا عَلَى أَقْلٍ مِنَ الْكَلِمِ الْمُوجِزِ
مَحِيطُ السَّمَاوَاتِ أَوْلَى بِنَا فَلِمَ ذَا التَّنَافُسِ فِي الْمَرَكِزِ
ومنهم:

[١٤]

يحيى بن عدي، أبو زكرياء المنطقي^(٤)

حكيم علمه والودق شيثان، وقلمه والبرق سيان، كان أول حاله علماً في ملته، ومعلماً لأهل قبلته، / ٢٦ / وعرف بالمنطق مع أنه بعض علومه، ومن جملة ما دخل من الخصائص في عمومته، وأضاءت له من الأدب لمع تَمَّت فضائله، ونمت هلاله، والبدور الكوامل متضائلة.

(١) الترجمة منذ بدايتها إلى هنا. منقولة عن عيون الأنباء ٦٠٣-٦٠٦.

(٢) عيون الأنباء ٦٠٧. (٣) عيون الأنباء ٦٠٧.

(٤) يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا، أبو زكريا: فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره ولد بتكريت سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٤م)، وانتقل إلى بغداد. وقرأ على الفارابي، وترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية، وتوفي ببغداد سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) ودفن في بيعة القطيعة.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): انتهت إليه الرياسة، ومعرفة العلوم الحكيمية في وقته، وكان أوحده دهره في مذهب النصارى اليعقوبية، وكان كثير الكتابة، وكتب تفسير الطبري مرتين، وقال: لعهدي بنفسي أكتب في اليوم واليلة مائة ورقة وأقل.

وأوصى أن يكتب على قبره: [من الخفيف]

رُبَّ مَيِّتٍ قَدْ صَارَ فِي الْعِلْمِ حَيًّا وَمُبَقِّى قَدْ مَاتَ جَهْلًا وَعِيًّا
فَاقْتَنُوا الْعِلْمَ كِي تَنَالُوا خُلُودًا لَا تَعْدُوا الْحَيَاةَ فِي الْجَهْلِ شَيْئًا
ومنهم:

[١٥]

أبو بكر، محمد بن زكرياء الرازي^(٢)

لم يبق علم ما أتى منه بجذوة، ولا عالم إلا ولديه حبة. تفنن في أنواع العلوم، فقرأ منها ما أقر حمل خاطره، وملا إناء ماطره، وكان فكره المقترح شرر زناد، ونظره

= كان ملازماً لنسخ الكتب بيده، كتب نسختين من تفسير الطبري، وأهداهما إلى بعض الملوك، ونسخ كثيراً من كتب المتكلمين. وقال أبو حيان: «كان شيخاً لِنَ العريكة، فروقة مشوّه الترجمة، رديء العبارة.. ولم يكن يلوذ بالالهيّات، كان ينهر فيها ويضل في بساطتها». من كتبه «تهذيب الأخلاق - ط» و«شرح مقالة الإسكندر» في الفرق بين الجنس والمادة، و«مقالة في الموجودات - خ» و«مقالة أرسطو في علم ما بعد الطبيعة - خ» و«الرد على ما تعتقده الفرق الثلاث، اليعقوبية والنسطورية والملكية - خ» في مكتبة الفاتيكان، و«المسائل - خ» سبع عشرة مسألة، و«مقالة في أن حرارة النار ليست جوهرًا للنار» و«رسالة في الرد على القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ» و«رسالة في تحليل القياسات» و«رسالة في ما تحقق من اعتقاد الحكماء» ومما ترجمه عن السريانية إلى العربية «النواميس» لأفلاطون، و«ما بعد الطبيعة» و«الكلام على الشعر» وأصلح بعض ما نقله بشر بن متى إلى العربية. وله «تفسير الألف الصغرى - خ» فيما بعد الطبيعيات، و«نفي القول بأن الأفعال لله والاكتساب للعبد».

ترجمته في: أخبار الحكماء، للقفطي ٢٣٦-٢٣٨، وعيون الأنباء ٣١٧-٣١٨، وحكماء الإسلام ٩٧، والإمتاع والمؤانسة ٣٧/١، ومفتاح الكنوز ٣٧٢، والفهرست ٢٦٤، وابن العبري ٩٣، ٢٩٦، واللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ٣٥٨، ومخطوطات دير الشرفة ٣٤٥، والآصفية ٤٩٠/٣، تاريخ الحكماء ٣١٦، وعلق أحمد عبيد على كتابه «تهذيب الأخلاق - ط» بقوله: ونسب في إحدى طبعاته إلى الجاحظ، كما نسب في طبعة أخرى لابن عربي، الأعلام ١٥٦/٨.

(١) عيون الأنباء ٣١٧-٣١٨.

(٢) أبو بكر الرازي محمد بن زكريا الرازي، فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب. من أهل الري. ولد بها سنة (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) وتعلم فيها. وسافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين. يسميه كتاب اللاتينية «رازيس». Rhazes. أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر في صغره. واشتغل بالسيمايا والكيمياء،

الملتحم شرك ازدياد، وفضله المتنوع جمّ المذاهب جماع المحاسن الذواهب، وأكثر النقل تقف عنده سلسلته، وأعمق المشكل به تعرف مسألته.

قال ابن أبي أصيبعة: مولده ومنشؤه بالري، وسافر إلى بغداد، وأقام بها مدة وكان نهماً في العلوم العقلية، مشغلاً بها، وتعلّم الأدب ونظم الشعر.

قال: وكان سبب تعلمه الطب أنه لما أتى مدينة السلام، ودخل البيمارستان العضدي، فرأى الصيدلاني به فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها، فقال له: إن

ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره، فنبغ واشتهر، وتولى تدبير مارستان الريّ، ثم رياسة أطباء البيمارستان المقتدري في بغداد. قال أحد معاصريه: كان شيخاً كبير الرأس، مسقطه، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخر؛ فيجيء المريض فيذكر مرضه لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعدهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك. وعمي في آخر عمره. ومات ببغداد سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م). وفي سنة وفاته خلاف، بين نيف و٢٩٠ و٣٢٠هـ.

له تصانيف، سمي ابن أبي أصيبعة منها ٢٣٢ كتاباً ورسالة. منها «الحاوي - خ» في صناعة الطب، وهو أجل كتبه، ترجم إلى اللاتينية وطبع فيها، و«الطب المنصوري - خ» طبع باللاتينية و«الفصول في الطب» ويسمى «المرشد - ط» نشر في مجلة معهد المخطوطات. و«الجدي والحصبة - ط» و«برء الساعة - ط» رسالة، و«الكافي - خ» و«الطب الملوكي - خ» ومقالة في الحصى والكلبي والمثانة - ط» و«الأقرباذين - خ» و«تقسيم العلل - خ» و«المدخل إلى الطب - خ» و«خواص الأشياء - خ» و«الفاخر في علم الطب - خ» و«الباه ومنافعه ومضاره ومداواته - خ» و«سر الصناعة - خ» طبعت ترجمته اللاتينية باسم «الأسرار» و«أسئلة من الطب - خ» و«تلخيص كتاب جالينوس في حلية البرء - خ» و«منافع الأغذية ودفع مضارها - ط» وكتاب «الفقراء والمساكين - خ» و«جرب المجربات وخزانة الأطباء - خ» و«الخواص - خ» رسالة، ومقالة في النقرس - خ» و«القولنج - خ» و«مجموع رسائل - ط» نشرته الجامعة المصرية، يشتمل على ١١ رسالة، وكتاب «من لا يحضره الطبيب - خ» بالمدينة. وفي مكتبة Marciana بالبندقية، مجموعة من «رسائله» في الطب (رقم ١٥٧=١٠٧=٤١). وللدكتور داود الجلبي الموصلي كتاب «محمد بن زكريا الرازي - ط».

ترجمة في: طبقات الحكماء لابن جليل ٧٧، والفهرست لابن النديم ٥٠٤، وطبقات الأمم لصاعد ٣٣، وتاريخ الحكماء ٢٧٨-٢٨٢، وعيون الأنباء ٤١٤-٤٢٧، وتاريخ مختصر الدول ١٥٨، ووفيات الأعيان ١٥٧/٥-١٦١ رقم ٧٠٧، والعبر ١٠٥/٢، وسير أعلام النبلاء ١٤/٣٥٤، ودول الإسلام ١/١٨٨، والوافي بالوفيات ٣/٧٥-٧٧، ونكت الهميان ٢٤٩-٢٥٠، ومراة الجنان ٢/٢٦٣-٢٦٤، والبداية والنهاية ١١/١٤٩، وتاريخ الخميس ٤/٣٨٩، ٣٩٠، والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٩، وتاريخ الخلفاء ٣٨٥، ومفتاح السعادة ١/٢٦٨-٢٦٩، وشذرات الذهب ٣/٢٦٣، وروضات الجنات ١٦٥-١٦٦، وكشف الظنون ٥٧٧، وغيرها، وهدية العارفين ٢/٢٧، وديوان الإسلام ٢/٣٤٠-٣٤٣ رقم ١٠٠٧، والأعلام ٦/١٣٠، ومعجم المؤلفين ١٠/٦، الأعلام ٦/١٣٠، تاريخ الاسلام (السنوات ٣٠١-٣٢٠هـ) ص ٤٢٦ رقم ٤٠.

أول ما عرف منها حياة العالم، وذلك أن رجلاً كان به ورمٌ حارٌّ في ذراعه، فلما أشفى منه ارتاح إلى الخروج إلى شاطئ نهر، فحمل إليه وكان عليه نباته، فوضع يده عليه تبرّداً به، فخف ألمه بذلك، فاستطال وضعها عليه ثم أصبح يفعل ذلك فبرىء. فلما رأى الناس سرعة برئه، علموا أنه إنما كان بما وضع يده عليه فسّمّوه حياة العالم، ثم جففوه. ثم لم يزل الرازي /٢٧/ يسأل حتى حسن له التعليم، فتعلم. قال: والذي صَحَّ عندي أن الرازي كان أقدم زماناً من عضد الدولة بن بويه، وإنما كان تردده إلى المارستان قبل أن يجدد.

وقال ابن جلجل: إن الرازي كان في ابتداء أمره يضرب بالعود، ثم أكب على النظر في الفلسفة والطب، فبرع براعة المتقدمين.

وقال صاعد: إنما لم يوغل في العلم الإلهي، ولا فهم غرضه الأقصى فاضطرب رأيه، وتقلد آراء سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثة، وذم أقواماً لم يفهم عنهم، ولا اهتدى لسبيلهم، وكان يتنقل في البلدان، وكان كريماً متفضلاً، باراً بالناس، محسناً إلى الفقراء، يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم، وكان لا يفارق التسويد والتبييض، وكان في بصره رطوبة لكثرة أكل الباقلا ثم عمي آخر عمره.

قال التنوخي: إن غلاماً قدم الري وهو ينث الدم، فأحضر إليه الرازي، فلم تظهر له علائم سل ولا قرحة، فسأله متى بدأ به المرض فقال: من الطريق، فسأله عن المياه التي شربها في طريقه، فأخبره أنها من الصهاريج ومستنقعات الأرض، فوقع في نفس الرازي أنه ابتلع علقة، وأن نفث الدّم منها، فقال له: إذا كان في غد جئتك فداويتك، ثم لا أنصرف عنك حتى تبرأ بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما أمرهم، فقال: نعم، فلما أصبح أنه بطحلب كثير، وقال له: ابتلع هذا، فابتلع يسيراً ثم قال: لا أستطيع، فأمر الغلمان بأن ينيموه على قفاه ويفتحوا فاه ثم جعل يبلعه الطحلب كُرْهاً، ويطلبه ببلعه، والرجل يستغيث، والرازي لا يكف إلى أن ذرع الرجل القيء، فقفذ ما في جوفه، وإذا به اعتلقت به العلقة؛ لأن الطحلب لما وصل إليها رمت إليه بالطبع والثقت عليه، ثم قام الرجل مُعافى.

وقال ابن معروف: كان الرازي يقول: أنا لا أُسمّي فيلسوفاً إلا من علم صناعة الكيمياء؛ لأنه يكون قد استغنى عن الناس، وتنزه عما في أيديهم.

وحكي: أن الوزير /٢٨/ أكل عند الرازي أطعمة استطابها، فتحيل في مشترى طباعته، ثم لم يجد بطبيخها له ما في نفسه، فسألها عن السبب، فأخبرته أن قدور الرازي وماعونه كله ذهب وفضة، فسأله أن يعلمه علم الكيمياء، فأنكره، فخنقه بوتر.

ومن كلامه :

قوله : الحقيقة في الطب غاية لا تدرك ، والعلاج بالكتب دون عمل الحكيم الماهر برأيه خطر .

وقوله : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض ، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه واقتصر على ما جربت .

وقوله : الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار .

وقوله : ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ، وإن كان غير واثق بها ، فمزاج البدن تابع لأخلاق النفس .

وقوله : ينبغي للمريض أن يقتصر على واحدٍ يثق به من الأطباء ، فخطؤه في جنب صوابه يسيراً جداً .

وقوله : من يتطبَّب عند كثير من لأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحدٍ منهم .

وقوله : بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات .

وقوله : إن استطاع الحكيم أن يُعالج دون الأدوية فقد وافق السَّعادة .

ومن شعره : [من الطويل]

لَعَمْرِي ما أدري وقد أذنَ البَلَى يُعاجلُ تَرحالي إلى أينَ تَرحالي
وأينَ مَحَلُّ الرُّوحِ بعدَ خَروجِها مِن الهيكَلِ المُنحَلِّ والجَسَدِ البالي^(١)
ومنهم

[١٦]

أبو سليمان السجستاني^(٢)

حكيمٌ حكي من فضله العجائب ، وجيء من سجله بالسَّحائب ، وبعد في العلم

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤١٤ - ٤٢١ .

(٢) محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، أبو سليمان المنطقي : عالم بالحكمة والفلسفة والمنطق . من أهل سجستان (والنسبة إليها سجستاني وسجزي) سكن بغداد ، ولزم منزله ، لعور فيه وبرص كانا يمنعان من غشيان منازل الأمراء والوزراء . وأقبل العلماء والحكماء عليه . وكان عضد الدولة فناخسرو شاهنشاه يكرمه ويفخمه ، توفي نحو سنة (٣٨٠هـ / نحو ٩٩٠م) . له تصانيف ، منها رسالة في «مراتب قوى الإنسان» ورسالة في «المحرك الأول» ورسالة في «اقتصاص طرق الفضائل» وكتاب «صوان الحكمة - ط» و«شرح كتاب أرسطو» .

ترجمته في : تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ١٥ ، ٨٢ ، وأخبار الحكماء للقفطي ١٨٥ ، والإمتاع والمؤانسة (الفهارس) ، الأعلام ٦ / ١٧١ ، الفهرست ٤٢٥ ، عيون الأنباء ٤٢٧ - ٤٢٨ .

الجم قليبه، وسعد بالسقيا به بعيدة وقريبه. انبعث طِبُّهُ في العلل انبعاث النفوس في الأبدان، والشموس في البلدان ولم يزل حتى اطلع بعلم، واضطلع من كُلِّ مُهِمٍّ، فاستعطفت الأجسام أرواحها، واستكفت المنايا رماحها، فأضحت به الصحة مضمونة، والسلامة محققة، وكانت مظنونة، اللهم إلا ما آن لبقية أنظرت، وآجال بها علمت نفس ما أحضرت، وتلك العقرب التي لا يتوقى لها ديب، والداء الذي أعيأ دواؤه كل طبيب.

٢٩/ قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي، وكان مُتَقَنَّناً للعلوم الحكيمة مُطَّلِعاً على دقائقها، واجتمع بيحيى بن عدي وأخذ عنه، وكان له نظرٌ في الأدب وشعرٌ.

ومنه قوله^(٢): [من الكامل]

لَا تَحْسِدَنَّ عَلَى تَظَاهِرِ نِعْمَةٍ
أَوْ لَيْسَ بَعْدَ بُلُوغِهِ أَمَالُهُ
لَوْ كُنْتُ أَحْسِدُ مَا يُجَاوِزُ خَاطِرِي
وقوله^(٣): [من الكامل]

الْجُوعُ يُدْفَعُ بِالرَّغِيفِ الْيَابِسِ
وَالْمَوْتُ أَنْصَفَ حِينَ سَاوَى حَكْمُهُ
وقوله^(٤):

أَصْبَحْتُ رَمَةً تَزَايِلُ عَنْهَا
وَتَلَاشَى كِيَانُهَا الْحَيَوَانِيَّ
وَالْحَوَاسِ الْخَمْسُ الَّتِي كُنَّ فِيهَا
ذَهَبَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ جَمِيعاً
ومنهم:

[١٧]

ابن الخمار، وهو أبو الخير، الحسن بن سوار بن بابا^(٥)

طبيب شفى طِبُّهُ الأمراض، وكفى قربه منافياً للأعراض، لم يوجد في كلامه

(٢) عيون الأنباء ٤٢٧.

(١) عيون الأنباء ٤٢٧.

(٤) عيون الأنباء ٤٢٨.

(٣) عيون الأنباء ٤٢٨.

(٥) ترجمته في: الفهرست ٤٢٥، تاريخ حكماء الإسلام ٢٦، عيون الأنباء ٤٢٨-٤٢٩، تاريخ الحكماء ٢٩٦.

الفضول ولم يوجد إلا الفضول، وقع بحدسه الصائب على الوجد، واستعاد ذاهب الصحة وارتجع، وأحسن الاستدلال بالعلامات والاستقلال بعلاج من حيي ومات، ولم يزل، وما إن طُرَّ شاربه ولا استقل بحبله غاربه مُكَبَّاً على الطلب، وقد وُكِّلَ به منه طرماً لا يهجع، وإنسان عين بسوى فقد النظر لا يُفجع حتى انتقلت إلى أحناء صدره تلك الأوقار، وبقي على هذا حتى تقصّت تلك اللبانات / ٣٠ / والأوطار.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان نصرانياً عالماً بأصول صناعة الطب وفروعها، خبيراً بغوامضها، كثير الدّراية لها، ماهراً في الحكمة، وكان في نهاية الذكاء والفطنة. قال ابن رضوان في «حل شكوك الرازي على جالينوس» ما هذا نصه: كما فعل في عصرنا هذا الحسن بن سوار بن بابا المعروف بابن الخمار، فإنه وصل بالطب إلى أن قبّل له محمود الملك الأرض. وكان محمود عظيمًا جداً، وذلك أن هذا الرجل فيلسوف حسن العقل، حسن المعرفة، حسن السياسة لفقهائ الناس، ورؤساء العوام، والعظماء، والملوك وكان إذا دعاه زاهدٌ مشى إليه راجلاً، وقال له: جعلت هذا المشي كفارة لمروري إلى أهل الفسق والجباية، وإذا دعاه السلطان ركب إليه في زي الملوك والعظماء حتى ربما حجبه ثلاثمائة غلام تركب الخيل الجياد بالملابس البهية، ووفّى الصناعة حقها في اللين للضعفاء، والتعاضم على العظماء. وهذه كانت طريق أبقرط وجالينوس وغيرهما من الحكماء.

ومنهم:

[١٨]

أبو الفرج ابن هندو^(٢)

منقّب عن البيان يكشف خبأه، ويبعث له في كل معنى نشأه، وينفث فيه رُوحاً

(١) عيون الأنباء ٤٢٨-٤٢٩.

(٢) علي بن الحسين بن محمد بن هندو، أبو الفرج: من المتميزين في علوم الحكمة والأدب، وله شعر. نشأ بنيسابور. وكان من كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة. ولبس الدّراعة على رسم الكتاب في ذلك العصر. وتوفي بجرجان سنة (٤٢٠هـ / ١٠٢٩م). له كتب، منها «الكلم الروحانية من الحكم اليونانية - ط» و«أنموذج الحكمة» و«الرسالة المشرقة» و«مفتاح الطب - خ» في طهران، و«المقالة المشوقة» في المدخل إلى علم الفلك، جمع شعره وحققه د. عبد الرزاق حويزي - ط القاهرة (٢٠٠٠م).

ترجمته في: فوات الوفيات ٢/ ٤٥، كشف الظنون ١٧٦، عيون الأنباء ٤٢٩-٤٣٤، حكماء الإسلام ٩٤، تمّة اليتيمة ١/ ١٣٤، مجلة معهد المخطوطات ٦/ ٧٥، تاريخ الحكماء ٣١٤، الأعلام ٤/ ٢٧٨.

كانه يحسن لكل فكرة نبأه، ويفتق أكمام الأدب فقل ﴿كَزَّرَعْ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾^(١) سرُّ دقيق فتن الناس، وخمرٌ يذهب بالبأس لا كالتى تدخل بالالتباس على الحواس، وسحرٌ يستلذه الذوق، وينقطع عنده القياس، لو أنَّ للدهر رِفَّتُهُ لَانَ قَاسِيهِ، أو للجافي ذكر العهد ناسه، أو للأمل ألقى إلى قبضة اليد مراسيه، وما أغیره شهادة، ولا أميره الحسنى إلاَّ امتاز بزيادة، وكانت بضاعته من الطب غير مُزجاة، وصناعته تحقق للمتطبب ما يترجاه لفضل تجلبب بشعاره، وجلب زيادة الحكمة إلى أشعاره، وعلو همته إلى علومها، وقراءة / ٣١ / مادة كل علم على عليمها، إلى أن جنى ثمر الفنون وجرب كل شيء ولم يقدر على دفع المنون، وكان له بالخدم في صناعة الكتابة ارتزاق وبشت بضاعة أرزاق، إلاَّ أنه لم يُقدر عليه بها قوته، وما كان لمرء لا يفوته، وبقي على تعلّاته واختلاف علّاته إلى أن أتاه هاذمُ الأعمار، ووافاه قادم الموت مبسوط الأعذار.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): هو الأستاذ السيد الجليل أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو من الأكابر المتميزين في علوم الحكمة، والأمور الطبية، والفنون الأدبية، له الألفاظ الرائقة، والأشعار الفائقة، والتصانيف المشهورة، والفضائل المذكورة، وكان يخدم بالكتابة واشتغل على ابن الخمار، وكان من أفضل المشتغلين عليه. قال الثعالبي في اليتيمة فيه: هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهم الفائزة، وملكه رِقُّ البلاغة والبراعة؛ فرد الدهر في الشعر وواحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد، ونظم القلائد، وترصيع الفرائد، مع تهذيب الألفاظ البليغة، وتقريب الأغراض البعيدة، ويذكر الذين يسمعون ويرون ﴿أَفْسَحَرُ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا بُصْرُونَ﴾^(٣).

وأنشد له قوله^(٤): [من الطويل]

يقولون لي ما بال عَيْنِكَ إِذْ رَأَتْ
فَقُلْتُ زَنْتُ عَيْنِي بِطَلْعَةِ وَجْهِهِ
وقوله^(٥): [من البسيط]

قَوَّضَ خِيَامَكَ عَنْ أَرْضٍ تُضَامُ بِهَا
وَارْحَلْ إِذَا كَانَتِ الْأَوْطَانُ مَنْقَصَةً
وقوله^(٦): [من المنسرح]

(٢) عيون الأنباء ٤٢٩-٤٣٠.

(٤) شعره ص ٧١.

(٦) شعره ص ٧٠.

(١) سورة الفتح: الآية ٣٩.

(٣) سورة الطور: الآية ١٥.

(٥) شعره ص ٢٧.

أُخْرَى فَمَا تَسْتَقْرِ أَحْمَالِي
تَبْقَى مَدَى لَحْظَةٍ عَلَى حَالٍ

يَسْمُو إِلَيْهِنَّ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
وَأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدُ

وَحَادِعَ النَّفْسِ إِنَّ النَّفْسَ تَنْخَدِعُ
فَمَا لِحُبِّ سِوَاهُ فِيهِ مُتَّسِعُ

فَاتَّفَقَا فِي الْجَمَالِ وَاخْتَلَفَا
وَيَنْقُصُ الْوَرْدُ كُلَّمَا قُطِفَا

بُهِتُ فَلَمْ أَمْلِكْ لِسَاناً وَلَا طَرْفَا
فَلَمَّا التَّقِينَا مَا نَطَقْتُ وَلَا حَرْفَا

عَبُثْتُمْ وَغَبُثْتُمْ عَنِ الْجَمَالِ
تَوَلَّدُ الْمِسْكُ فِي الْعُزَالِ

فَإِنَّ لِلْمَجْدِ تَدْرِيجاً وَتَرْتِيبَا
تَنْمِي وَتَصْعَدُ أَنْبُوباً فَأَنْبُوبَا

إِذَا بَدَتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ
عَطَّتْ عَلَيْهِ دِمَاءُ عَيْنَيْهِ

إِنْ رَحْتُ عَنْ بِلْدَةٍ غَدَوْتُ إِلَى
كَأَنَّنِي فِكْرَةُ الْمُوسُوسِ لَا
/ ٣٢ / وقوله ^(١): [من الكامل]

مَا لِلْمُعِيلِ وَلِلْمَعَالِي إِنَّمَا
فَالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ فَرِيدَةً
وقوله ^(٢): [من البسيط]

قَالُوا اشْتَغَلْ عَنْهُمْ حِيناً بغيرِهِمْ
قَدْ صَبَغَ قَلْبِي عَلَى مِقْدَارِ حُبِّهِمْ
وقوله ^(٣): [من البسيط]

عَارِضٌ وَرَدُّ الْخُدُودِ وَجَنَّتَهُ
يَزْدَادُ بِالْقَطْفِ وَرَدُّ وَجَنَّتِهِ
وقوله ^(٤): [من الطويل]

تَمَنَّيْتُ مَنْ أَهْوَى فَلَمَّا لِقِيْتُهُ
وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِي أَمُورٌ كَثِيرَةٌ
وقوله ^(٥): [من مخلع البسيط]

عَابُوه لَمَّا التَّحَى فَقُلْنَا
هَذَا غَزَالٌ وَلَا عَجِيبٌ
وقوله ^(٦): [من البسيط]

لَا يُؤَيِّسُنَّكَ مِنْ مَجْدٍ تَبَاعَدَهُ
إِنَّ الْقِنَاءَ الَّتِي أَبْصَرْتَ رَفَعَتْهَا
وقوله ^(٧): [من المنسرح]

تَقُولُ: لَوْ كَانَ عَاشِقاً دَنَفَاً
لَا تُنْكِرِيهِ فَإِنَّ صُفْرَتَهُ
/ ٣٣ / وقوله ^(٨): [من مخلع البسيط]

(٥) شعره ص ٦٩.

(٦) شعره ص ٢٥.

(٧) شعره ص ٨٨.

(٨) شعره ص ٧٣.

(١) شعره ص ٤٠.

(٢) شعره ص ٥٥.

(٣) شعره ص ٥٧.

(٤) شعره ص ٦٥.

يَسْتَلُّ مِنْ فَكِّهِ حُسَامَا
فَصَارَ جِلْمِي لَهُ فِدَامَا

وَأَنْفُ أَنْ أَعَزَى إِلَيْهِ بِجَهْلِهِ
فَتَأَخِيرُهَا الْإِنْسَانَ بُرْهَانُ فَضْلِهِ
تَقَلَّدَهُ الْإِنْسَانُ قُدَّامَ نَصْلِهِ

أَبْقَى عَلَى وَرَعِي وَلَا نُسْكِي
غُمَسْتُ أَكَارِعُهُنَّ فِي مِسْكِي

يَتَّيَهُ فِي كُنْهِ وَصْفِهَا الْفَطْنُ
قَدْ كَانَ غُضْنًا فَأُورِقَ الْغُصْنُ

يُونَهُ لَمَّا تَوَقَّضَ
فِي كَوَانَيْنِ زَبَرْجَدُ

وَأَنْزَى وَمِنْ أَيْنَ قَدْ جَاءَ
تَفَرَّغَ بِالزَيْتِ أَمْعَاءُ^(٦)

كَمْ مِنْ مَلِيحٍ عَلَى أَذَاهُ
صَبَّ قَذَى الْقَوْلِ فِي صِمَاحِي
وقوله^(١): [من الطويل]

يَسُرُّ زَمَانِي أَنْ أُنَاطَ بِجُهِدِهِ
وَيُعْجِبُنِي أَنْ أَخَرَّتَنِي صُرُوفُهُ
فَإِنَّا رَأَيْنَا قَائِمَ السَّيْفِ كُلَّمَا
وقوله^(٢): [من الكامل]

أَوْحَى لِعَارِضِهِ الْعِذَارُ فَمَا
فَكَأَنَّ نَمْلًا قَدْ دَبَّ بِنَ بِهِ
وقوله^(٣): [من المنسرح]

يَا شَعْرَاتِ جَمِيعُهَا فِتْنُ
مَا غَيَّرُوا مِنْ عِذَارِهِ سَفْهًا
وقوله^(٤): [من مجزوء الرمل]

رَبِّ رَوْضٍ خِلْتُ أَذْرُ
ذَهَبًا أَشْعَلَ مِسْكَأ
وقوله^(٥): [من المتقارب]

عَجِبْتُ لِقَوْلِنِجَ لِلْأَمِيرِ
وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ حُقْنَةُ
ومنهم:

[١٩]

الشيخ الرئيس، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن

الحسين بن علي بن سينا^(٧)

رجل الدنيا وواحدتها، وعديم النظراء وواحدتها. ولد المعاني / ٣٤٠ / وولدها،

(٢) شعره ص ٦٥.

(٤) شعره ص ٧٦.

(١) شعره ص ٧٢.

(٣) ديوانه ص ٨٥-٨٦.

(٥) شعره ص ٢٣.

(٦) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.

(٧) الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شَرَفَ الْمُلْكُ: الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في =

= الطب والمنطق والطبيعات والإلهيات، أصله من بلخ، ومولده في إحدى قرى بخارى سنة (٣٧٠هـ/ ٩٨٠). نشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد. وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتواری. ثم صار إلى اصفهان، وصنف بها أكثر كتبه.

وعاد في أواخر أيامه إلى همذان، فمرض في الطريق، ومات بها سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م). قال ابن قيم الجوزية: «كان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه، من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين». وقال ابن تيمية: «تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات، والنبويات، والمعاد، والشرائع، لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم، ولا بلغت علمهم؛ فإنه استفادها من المسلمين، وإن كان إنما يأخذ عن الإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم، من أتباع الحاكم العبيدي، صنف نحو مئة كتاب، بين مطوّل ومختصر، ونظم الشعر الفلسفي الجيد، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين. أشهر كتبه «القانون - ط» كبير في الطب، يسميه علماء الفرنج «Canonmedicina» بقي معولاً عليه في علم الطب وعمله، ستة قرون، وترجمه الفرنج إلى لغاتهم، وكانوا يتعلمونه في مدارسهم، وطبعوه بالعربية في رومة وهم يسمون ابن سينا Avicenne وله عندهم مكانة رفيعة. ومن تصانيفه «المعاد - خ» رسالة في الحكمة، و«الشفاء - ط» في الحكمة، أربعة أجزاء، و«السياسة» و«أسرار الحكمة المشرقية - ط» ثلاث مجلدات وأرجوزة في «المنطق - ط» ورسالة «حي بن يقظان - ط» وهي غير رسالة ابن الطفيل المسماة بهذا الاسم، و«أسباب حدوث الحروف - ط» رسالة، و«الإشارات - ط» و«الطير» في الفلسفة، و«أسرار الصلاة - ط» في ماهية الصلاة وأحكامها الظاهرة وأسرارها الباطنة الخ، و«لسان العرب» عشر مجلدات في اللغة، و«الإنصاف - خ» في الحكمة، و«النبات والحيوان - خ» رسالة، ورسالة في «الهيئة - خ» و«أسباب الرعد والبرق - خ» رسالة، و«الدستور الطبي - خ» قطعة منه، و«أقسام العلوم - خ» رسالة، و«الخطب - خ» رسالة، و«العشق - ط» رسالة في فلسفته. وأشهر شعره عينيته التي مطلعها: «هبطت إليك من المحل الأرفع» وقد شرحها كثيرون، وله «ديوان شعر» حققه ونشره د. حسين علي محفوظ، طهران (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٩م)، ولجميل صليبا «ابن سينا - ط» ولجورج شحاتة قنواتي كتاب «مؤلفات ابن سينا - ط» المخطوط منها والمطبوع، ولعباس محمود العقاد «الشيخ الرئيس ابن سينا - ط» ولبولس مسعد «ابن سينا الفيلسوف - ط» ولحمودة عزابة «ابن سينا بين الدين والفلسفة - ط»، ومثلهم لمحمد كاظم الطريحي.

ترجمته في: الإكمال لابن ماكولا ٤٨٣/١، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ٧٢-٥٢، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٨٧، وتاريخ الزمان، له ٨٨-٨٩ وفيه وفاته سنة ٤٢٧هـ. والكمال في التاريخ ٤٥٦/٩، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٣٧-٤٥٩، والأنساب ١٦٢/٢، وتاريخ الحكماء لابن القفطي ٤١٣-٤٢٦، ووفيات الأعيان ١٥٧-١٦٢ و٢٥١/٤ و١٥٣/٥ و٣٦٣ و٦/٧٥، و٢٧٠ و٣١٥/٧، وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية ٢/٢٦٦، والمختصر في أخبار البشر ٢/١٦١-١٦٢، ودول الإسلام ١/٢٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٧/٥٣١-٥٣٧ رقم ٣٥٦، والإعلام بوفيات الأعلام ١٧٨، والعبر ٣/١٦٥، وميزان الاعتدال ١/٥٣٩، وتاريخ ابن الوردي

وعقم القرائح ووأدها، لا يجيء أرسطو منه سينه، ولا أفلاطون في جبلته طينه، لو أنه في زمن اليونان، لجلس في صدر الرواق، ولاستقلت طوائف المشائين حوله المشي على الأحداق، لعلم جمع بين علوم الإسلام واليونان، ووقع على ما لا يلقط مثله من الأفنان، ولم يقنع إلا بكل عباب، ولا رضي من جنات التصانيف حتى دعي إليها من كل باب، لو قرن به الفارابي لفرّ، أو الكندي لما كدّ نفسه ولا كَرَّ، بل لو تقدم في عصور الأوائل لتكلم، وسكت كل قائل، وأقرّ كل طائر الصيت بأنه ما هو عنده طائل، علم أعلام، ومملي كلام، وماليء طروس وأقلام، شعلة ذكاء. لم يبق شرق ولا

= ١/٣٤٤-٣٤٥، وتاريخ الحكماء للشهرستاني ٤١٣-٤٢٦، وعيون التواريخ ١٢/١٥٩، ١٦٦ ب، والوافي بالوفيات ١٢/٣٩١-٤١٢، ومرة الجنان ٣/٤٧-٥١، وطبقات الفقهاء لطاش كبري زاده ٧٠، والوفيات لابن قنفذ ٢٣٥-٢٣٦ رقم ٤٢٨، وتاريخ الخميس ٢/٣٩٩، والرد على المنطقيين ١٤١-١٤٤، والشقائق النعمانية ١/٤٧٥-٤٧٨، والمجددون في الإسلام للصعيد ١٨٥-١٨٩، ولسان الميزان ٢/٢٩١-٢٩٣، والنجوم الزاهرة ٥/٢٥-٢٦، وتاج التراجم لابن قطلوبغا ١٩، والطبقات السنية، رقم ٧٦١، وشذرات الذهب ٣/٢٣٤-٢٣٧، وخزانة الأدب للبغداد ٤/٤٦٦، وتاريخ الخلفاء ٤٢٢، وروضات الجنات ٣/١٧٠-١٨٥، وإيضاح المكنون ٢/٥٥٥، ٦٧٢، وهدية العارفين ١/٣٠٨-٣٠٩، والفهرس التمهيدي ٤٥٣-٤٦٤، ٥١٦-٥٦٦، وأعيان الشيعة ٢٦/٢٨٧-٣٣٧، والذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢/٩٦-٩٨، ٧/١٨٤، وتاريخ فلاسفة الإسلام للطفي جمعة ٥٣-٦٦، وتاريخ الفلسفة في الإسلام ١٦٤-١٨٨، والخالدون ١٠١-١١٦، وكشف الظنون ١٢/٣٦، ٥١، ٦٣، ٩٤، ١٨٣، ٢٠١، ٢٣٨، ٣٧٧، ٣٨٠، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٦٢٤، ٦٨٥، ٧٣٦، ٧٥٧، ٧٦٦، ٨٤١، ٨٤٣، ٨٤٦، ٨٥٢، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٧٠، ٨٧٦، ٨٨٠، ٨٨٩، ٨٩١، ٨٩٤، ٨٩٦، ٨٩٧، ٩٠٠، ٩٥٣، ١٠٥٥، ١١٨٦، ١٣١١، ١٣٢٧، ١٣٤١، ١٣٨٩، ١٤٠٨، ١٤٣٠، ١٤٤٠، ١٤٥٤، ١٤٦٦، ١٥٢٠، ١٥٣٣، ١٥٥٠، ١٦٢١، ١٧٨٣، ١٧٩٣، ١٩٠٠، ٢٠٣١، وتراث العرب العلمي لطوقان ٢٨٦-٢٩٧، وعقود الجواهر لجميل العظم ١٣٣-١٤١، وفهرس مخطوطات الموصل ١٦٦، ٢٣٧، وفهرس المخطوطات المصورة ١/١٢٨، ١٩٩، ٢٠٢-٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥، وفهرس دار الكتب المصرية ٢/٢، وفهرست الخديوية ٢/٦، ٣، ١٥، ٢٧، ٤٦، ٩، وسيرة الشيخ الرئيس لعبد الواحد الجوزجاني، والعلماء المسلمون لفهمي إسحاق ٥٣-٦٤، والشيخ الرئيس ابن سينا للعقاد، وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون، ترجمة الشواربي ١٢١، ودائرة المعارف الإسلامية ١/١٠٣-٢١٠، ومؤلفات ابن سينا للأب قناتوي ٢٦، والكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لابن سينا، طبعة بغداد ١٩٥٢، ومؤلفات ابن سينا لأمين مرسي قنديل ١٩٥٠، ومعجم المؤلفين ٤/٢٠-٢٣ وفيه أسماء مصادر ومراجع أخرى، وديوان الإسلام ٣/١٢٣-١٢٤ رقم ١٢١، والأعلام ٢/٢٤١، وطبقات أعلام الشيعة (الناس في القرن الخامس) ٦٣، ومعجم المطبوعات لسركيس ١٢٧-١٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١-٤٤٠هـ) ص ٢١٨ رقم ٢٦٢.

غرب حتى أضاء فيه شعاعها، وامتد إليه شراعها، وأشرقت عليه شمسها، وانبسطت به شمسها وغلب عليه صيتها، وغُلِّبَ به عفريتها، ومشت فيها الحكماء على قانونه، ورأت الشفاء بمضمونه، وعرفت الحكم بإشارته، وسلكت مثل النحل سُبُلَهَا ذُلَّلاً بعبارته، وعلمت أنه فيلسوف الإسلام، والمسلم إليه في كل علم بسلام، والمقدم في سائر الطبقات، والمعظم على الأوقات، والمحرم من العلم المحرم إليه في الميقات، كان ندرة في العالم، وزهرة في بني آدم، والمفاض عليه من العلوم ما لا تُزَجَّرُ بحارُهُ، ولا تَزَخَّرُ إلَّا لج فوائده فرائده، وصدوره محاره. منبع العلم، وموضع الحلم، ومرتع الفضائل، ومربع الكرم، ووسمي الربيع، متضائل أعجوبة الزمان، وغريبة آل سامان، فخرت دولة ما وراء النهر منه بوزير شَرَّفَ دستها، وصَرَّفَ بجمعه لجهات الممالك شتيا، وتقلد أمورها، وقلد المنَّة بولايته أميرها، وتزيًا بزي أرباب الدول، وأصبح في أصحاب الخول، واقتنى الغلمان الأتراك، ووقع بالحبِّ في الإشراك، وكان غلماناه يلبسون الديباج المنسوج بالذهب، ويشدون مناطق الذهب، المرصعة بالجواهر، يزهر بهم جلوته، وتعمر خلوته. بيت / ٣٥ / معهم الليالي في الحمام، وبيادر بتنعمه بهم صروف الحمام، حتى قال له ملكه: كيف تنهاننا عن الاتيان في الحمام؟! فقال: لأن الملك يحب أن يعيش طويلاً، وأنا أحب أن أعيش طيباً، وكان لا يملك صبراً عن غلماناه، ولا يشغل إلا بهم فراغ زمانه حتى كانوا سبب حمامه، وجلب سماه.

وكان السبب في فعلتهم ومرشدهم في هذا إلى ضَلَّتْهم أنهم سرقوا مالاً جليلاً، ثم خافوه، وسئموا فعله الطويل بهم وعافوه، فشابوا له درياق مشرود بطوس كان يستعمله بسم، أبى إلَّا أن يقتله، فتعلَّلَ به عامه حتى ساق الأجل إليه حمامه.

وكانت الوزارة نقصاً عيب به، وأطلقت الحكماء ألسنتها فيه بسببها، وقالوا: أذل العلم ورضي من الفانية بالاستكثار، فقال: لي أسوة بأرسطو في صحبة الاسكندر، وفيما قاله نظر؛ لأن أرسطو كان معلماً للإسكندر ومشيراً، وابن سينا كان مُكَلِّفاً ووزيراً.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو أشهر من أن يذكر، وفضائله أعظم من أن تسطر. قال: ونحن نقصر في وصفه على قدر ما ذكره عن نفسه. ووصفه أبو عبيد الجوزجاني صاحبه، من أحواله. والذي ذكره هو قال: كان أبي رجلاً من أهل بلخ، وانتقل إلى بخارى في أيام نوح بن منصور، واشتغل بالتصرف، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية

يقال لها حريمين من ضياع بخارى، وهي من أمهات القرى، وبقرها قرية يقال لها أقسة، وتزوج أبي منها بوالدتي، وقطن بها وسكن، وولدت منها بها. ثم أولدت أخي بها، ثم انتقلنا إلى بخارى. وأحضرت معلم القرآن والأدب، وأكملت العشرة من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقتضي مني العجب. وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، وتقبل مذهب الاسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخي. وربما كانوا يذكرونه بينهم وأنا أسمع، وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي. وابتدأوا يدعونني / ٣٦ / إليه، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند، وأخذ يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه. ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله البابلي وكان يدعي التفلسف، فأنزله أبي إلى دارنا رجاء تعليمي منه. وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين. وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجي على البابلي. ولما ذكر لي حد الجنس، أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو، وأخذته في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله، وتعجب مني كل التعجب وحذروا والدي من شغلي بغير العلم. وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه. وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق. وكذلك كتاب إقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسني حل بقية الكتاب بأسره. ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية، قال البابلي: تول قراءتها وحلها بنفسك، ثم أعرضها عليّ لأبين لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب. فأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه. ثم فارقت البابلي متوجهاً إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب في الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، فصارت أبواب العلم تنفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب الصعبة فيه؛ وعلم الطب فليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علي علم الطب. وتعاهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف / ٣٧ / وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر إليه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على العلم والقراءات سنة ونصفاً، فأعدت قراءة

المنطق وسائر أجزاء الفلسفة وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ولا اشتغلت في النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهوراً، فكل حجة أنظر فيها أثبت مقدمات قياساته، وربتها في الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، وكلما كنت اتحير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع، وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح إلي المتعلق، وتيسر المتعسر.

وكنت أرجع بالليل إلى داري وأدع السراج بين يدي، واشتغل بالقراءة، والدرس والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي، ثم أرجع إلى القراءة ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل اتضح لي وجوها في المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما عملته في ذلك الوقت فهو الذي علمته لم أزد فيه إلى اليوم حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة. فما كنت أفهم ما فيه، والتبس علي غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين يوماً وصار لي محفوظاً. وأنا مع ذلك لا أفهم المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبید الدلال مجلد ينادي عليه. فعرضه علي فرددته متبرماً، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشترمني هذا؛ فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته وإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، فرجعت إلى بيتي، فأسرعت قراءته، / ٣٨ / فانفتح عليّ في هذا الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب. وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله عز وجل. وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور، واتفق له مرض بلج الأطباء فيه، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على العلم والقراءة. فأجروا ذكرى بين يديه، وسألوه إحضاري، فحضرت وشاركتهم في مداواته، وتوسمت بخدمته، فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق من الكتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد.

وطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها. ورأيت من الكتب ما لا يقع اسمه على كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد.

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها. وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء.

وكان في جوارى رجل يقال له أبو الحسن العروضي. فسألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم، فصنفت له المجموع وسميته به، وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي، ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري.

وكان في جوارى أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي، خوارزمي المولد، فقيه النفس، متوجه في الفقه والتفسير والزهد، مائل إلى هذه العلوم؛ فسألني شرح الكتب، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلداً، وصنفت له في الأخلاق كتاب سميته كتابه البر والإثم. وهذان الكتابان فلا يوجدان إلا عنده فلم يعر أحداً أن ينسخ منه: ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان / ٣٩ / ودعيتي الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج. وكان أبو الحسين المحب لهذه العلوم بها وزيراً، وقدمت على الأمير بها، وهو علي بن المأمون وكنت على زي الفقهاء إذ ذاك بطيلسان تحت الحنك، وأثبتوا لي مشاركة دارة تقوم بكفاية مثلي. ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا، ومنها إلى مازر ومنها إلى طوس، ومنها إلى سمنيقان، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان، ومنها إلى جرجان، وكان قصدي الأمير قابوس، فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس، وحبسه في بعض القلاع، وموته هناك، ثم مضيت إلى دهستان، ومرضت بها مرضاً صعباً، وعدت إلى جرجان، فاتصل أبو عبيد الجرجاني وأشدت في حالي قصيدة فيها بيت القائل: [من الكامل]

لَمَّا عَظُمْتُ وَلَيْسَ مَصْرٌ وَاسِعِي لَمَّا غَلَا ثَمَنِي عَدِمْتُ الْمُشْتَرِي
قال أبو عبيد الجرجاني: فهذا ما حكاه لي الشيخ من لفظه ومن ههنا شاهدت أنا من أحواله. كان بجرجان رجل يقال له أبو محمد الشيرازي يحب هذا العلم، وقد اشترى للشيخ داراً في جواره أنزله بها، وأنا اختلف إليه في كل يوم أقرأ المجسطي وأستملي المنطق. وصنف لأبي محمد الشيرازي كتاب المبدأ والمعاد، وكتاب الأرصاد الكلية. وصنف هناك كتباً كثيرة، كأول القانون، ومختصر المجسطي، وكثيراً من الرسائل، ثم صنف في أرض الجبل بقية كتبه.

كتاب المجموع مجلد، الحاصل والمحصول عشرون مجلداً، الإنصاف عشرون مجلداً، البر والإثم مجلدان، الشفاء ثمانية عشر مجلداً، الأرصاد الكلية مجلد، النجاة ثلاث مجلدات، الهداية مجلد، المختصر المتوسط مجلد، العلائي مجلد، القولنج

مجلد، لسان العرب عشر مجلدات، الأدوية القلبية مجلد، بعض الحكمة المشرقية مجلد، بيان ذوات الجهة مجلد، كتاب المعاد مجلد، كتاب المبدأ والمعاد مجلد.

ومن رسائله: القضاء والقدر، الآلة الرصدية، غرض قاطيغورياس. المنطق بالشعر، قصائد في العظة / ٤٠ / والحكمة في الحروف. تعقب المواضع الجدلية. مختصر أوقليدس، مختصر في النبض بالعجمية، الحدود، الأجرام السماوية. الإشارة إلى علم المنطق، أقسام الحكمة في النهاية واللانهاية، عهد كتبه لنفسه، حي بن يقظان، في أن أبعاد الجسم غير ذاتية له. خطب الكلام في الهندبا، في أنه لا يجوز أن يكون شيء واحد جوهرياً وعرضياً. في أن علم زيد غير علم عمرو. ورسائل له إخوانية وسلطانية. مسائل جرت بينه وبين بعض الفضلاء.

ثم انتقل إلى الري بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة، وعرفوه بسبب كتب وصلت معه تتضمن تعريف قدره، وكان مجد الدولة إذ ذاك قد غلبته السوداء، فاشتغل بمداواته، وصنف كتاب المبدأ والمعاد، وأقام بها إلى أن قصد شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسويه وهزيمة عسكر بغداد.

ثم اتفقت له أسباب أوجبت بالضرورة خروجه إلى قزوین، ومنها إلى همدان، واتصاله بخدمة كذبانويه والنظر في أسبابها.

ثم اتفق معرفة شمس الدولة وإحضاره مجلسه بسبب قولنج قد أصابه، وعالجه حتى شفاه الله، وفاز من ذلك المجلس بخلع كثيرة، ورجع إلى داره بعدما أقام هناك أربعين يوماً بلياليها، وصار من ندماء الأمير. ثم اتفق نهوض الأمير إلى قرمسين لحرب عناز، وخرج الشيخ في خدمته، ثم توجه نحو همدان منهزماً راجعاً.

ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها، ثم اتفق تشويش العسكر عليه، وإشفاقهم منه على أنفسهم، فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس، وأغاروا على أسبابه، وأخذوا جميع ما كان يملكه. وسألوا الأمير قتله، فامتنع منه، وعدل إلى نفيه إلى عز الدولة طلباً لمرضاته، فتوارى في دار الشيخ أبي سعيد بن دحدول أربعين يوماً فتعاود الأمير شمس الدولة القولنج، وطلب الشيخ يحضر مجلسه، فاعتذر الأمير إليه بكل الاعتذار، فاشتغل بمعالجته، فأقام عنده مكرماً مبعلاً. وأعيدت الوزارة إليه ثانية.

ثم سأله أنا شرح كتب أرسطوطاليس، / ٤١ / فذكر أنه لا فراغ له في ذلك الوقت. ولكن إن رضيت مني بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين، ولا الاشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك فرضيت به. فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه كتاب الشفاء، وكان قد صنف الكتاب الأول من القانون.

وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من الشفاء نوبة. وكان يقرأ غيري من القانون نوبة. وكان يقرأ فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيء مجلس الشراب بآلاته، وكنا نشتغل به، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ من النهار خدمة للأمير، فقضينا على ذلك زمناً، ثم توجه شمس الدولة إلى صارم لحرب الأمير بهاء الدولة، وعأوده القولنج قريب ذلك الموضوع واشتد عليه، وانضاف إلى ذلك أمراض أخر جلبها سوء تدبير، وقلة القبول من الشيخ، فخاف العسكر وفاته فرجعوا طالبين به همدان في المهدي، فتوفي في الطريق في المهدي. ثم بويح ابن شمس الدولة، وطلبوا استيزار الشيخ فأبى عليهم وكتب علاء الدولة سراً يطلب خدمته، والمصير إليه، والانضمام إلى جوانبه. وأقام في دار أبي غالب العطار متوارياً، وطلبت منه اتمام كتاب كتاب الشفاء، فاستحضر أبا غالب، وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما، وكتب الشيخ في عشرين جزءاً على ثمن بخط رؤوس المسائل. وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها، بلا كتاب يحضره، ولا أصل يرجع إليه، بل من حفظه، وعن ظهر قلبه. ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد، فكان ينظر في كل مسألة، ويكتب شرحها، وكان يكتب في كل يومين خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات. وابتدأ بالمنطق فكتب منه جزءاً. ثم اتهمه تاج الملك بمكاتبتة علاء الدولة، فأنكر عليه ذلك، وحث في طلبه فدل عليه بعض أعدائه، فأخذوه وأدوه وأرسلوه إلى قلعة يقال لها فردجان وأنشد هناك قصيدة منها: [من الكامل]

٤٢/ دُخُولٌ بِالْيَقِينِ كَمَا تَرَوْهُ وَكُلُّ الشَّكِّ فِي أَمْرِ الْخُرُوجِ
وبقي فيها أربعة أشهر. ثم قصد علاء الدولة همدان وأخذها، وانهزم تاج الملك ومراً إلى تلك القلعة بعينها. ثم رجع علاء الدولة عن همدان، وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة إلى همدان [وحملوا معهم الشيخ إلى همدان] ونزل في دار العلوي، واشتغل هناك بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء، وكان قد صنف بالقلعة كتاب الهدايات، ورسالة حي بن يقظان، وكتاب القولنج. وأما الأدوية القلبية فإنه صنفها أول وروده إلى همدان، وكان قد تقضى على هذا زمان، وتاج الملك في أثناء هذا يمتيه بمواعيد جميلة، ثم عنّ للشيخ التوجه إلى أصفهان، فخرج متنكراً وأنا وأخوه وغلامان في زي الصوفية إلى أن وصلنا إلى طبران على باب أصفهان، بعد أن قاسينا شدائد في الطريق، فاستقبلنا أصدقاء الشيخ، وندماء الأمير علاء الدولة وخواصه، وحمل إليه الثياب والمراكب الخاصة، وأنزل في محلة يقال لها كونكيد في دار عبد الله بن بيبي،

وفيها من الآلات والفرش ما يحتاج إليه. وحضر مجلس علاء الدولة فصادف من منزله الإكرام والإعزاز اللذين يستحقهما مثله. ثم رسم الأمير علاء الدولة ليأتي الجماعات مجلس النظر بين يديه بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم، والشيخ في جملتهم. فما كان يطاق في شيء من العلوم.

واشتغل بأصفهان بتتيميم كتاب الشفاء، ففرغ من المنطق والمجسطي، وكان قد اختصر أوقليدس والأرثماتيقي والموسقى. وأورد في كل كتاب من الرياضيات زيادات رأى أن الحاجة إليها داعية. أما في المجسطي فأورد عشرة أشكال في اختلاف المنظر وأورد في آخر المجسطي في علم الهيئة أشياء لم يسبق إليها، وأورد في أوقليدس شُبهاً، وفي الأرثماتيقي خواص حسنة، وفي الموسيقى مسائل غفل عنها الأولون، وتم الكتاب المعروف بالشفاء ما خلا كتابي النبات والحيوان؛ فإنه صنفهما في السنة التي توجه فيها / ٤٣ / علاء الدولة إلى سابور خواست في الطريق. وصنف أيضاً في الطريق كتاب النجاة، واختص بعلاء الدولة، وصار من ندمائه إلى أن عزم علاء الدولة قصد همذان، وخرج الشيخ في الصحبة، فجرى ليلة بين يدي علاء الدولة ذكر الخلل الواقع في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة، فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال برصد هذه الكواكب، وأطلق له من الأموال ما يحتاج إليه. وابتدأ الشيخ به وولاني اتخاذ آلاتها واستخدام صناعاتها حتى ظهر كثير من المسائل، فكان يقع الخلل في أمر الرصد لكثرة الأسفار وعوائقها. وصنف الشيخ بأصفهان الكتاب العلائي.

وكان من عجائب أمر الشيخ أني صحبته وخدمته خمساً وعشرين سنة، فما رأيته إذا وقع له كتاب مجدد ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشككة، فينظر ما قاله مصنفه، فيتبين مرتبته في العلم ودرجته في الفهم. وكان الشيخ جالساً يوماً من الأيام بين يدي الأمير وأبو منصور الجبائي حاضر فجرى في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره، فالتفت أبو منصور إلى الشيخ وقال له: أنت تقول أنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها، فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان تصنيف أبي منصور الأزهري، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلاً، وأنشد ثلاث قصائد وضمنها ألفاظاً غريبة في اللغة. وكتب ثلاثة كتب أحدها على طريقة ابن العميد، والآخر على طريقة الصاحب، والآخر على طريقة الصابي، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها، ثم أوعز الأمير فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي. وذكر إنا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد فنحب أن

تتفقددها، وتقول لنا ما فيها، فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير ما فيها. فقال له الشيخ إن ما تجهله من هذا الكتاب هو المذكور / ٤٤ / في الموضع الفلاني من كتب اللغة، وذكر له كثيراً من الكتب فيما يورده من اللغة المعروفة. ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ، وأن الذي حملة عليه ما جبهه به ذلك اليوم، فتنصل واعتذر إليه ثم صنف الشيخ كتاباً في اللغة سماه لسان العرب لم يصنف في اللغة مثله ولم ينقله إلى البياض حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه.

وكان قد حصل للشيخ تجارب كثيرة فيما باشرها من المعالجات عزم على تدوينها في كتاب القانون. من ذلك أنه صدع يوماً فتصور أن مادة تريد النزول إلى حجاب رأسه، وأنه لا يأمن من ورم يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثير، ودقه ولفّه في خرقة، وأمر بتغطية رأسه بها، ففعل ذلك حتى قوي الموضع، وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي، ومن ذلك امرأة مسلوكة بخوارزم أمرها أن لا تتناول من الأدوية سوى الخلنجيين السكري حتى تناولت على الأيام نحو مائة من وشفيت المرأة.

وكان الشيخ قد صنف بجرجان المختصر الأصغر في المنطق، وهو الذي وضعه بعد ذلك في النجاة، ووقعت نسخة إلى شيراز، فنظر فيها جماعة من أهل العلم هناك، وقعت لهم الشبهة في مسائل منها، فكتبوها على جزء. وكان القاضي بشيراز من جملة القوم، فأنفذ بالجزء إلى أبي القاسم الكرمانى صاحب إبراهيم بن بابا الديلمي المشتغل بعلم المناظر، وأضاف إليه كتاباً إلى الشيخ أبي القاسم وأنفذها على يدي ركابي قاصد، وسأله عرض الجزء على الشيخ أبي القاسم فدخل على الشيخ عند اصفرار الشمس في يوم صائف، وعرض عليه الكتاب والجزء، فقرأ الكتاب ورده عليه، وترك الجزء بين يديه وهو ينظر فيه والناس يتحدثون. ثم رجع أبو القاسم، وأمرني الشيخ بإحضار البياض، وقطع أجزاء منها فسدت خمسة أجزاء كل واحد منها / ٤٥ / عشرة أوراق بالربع الفرعوني، وصلينا العشاء، وقدم الشمع، فأمر بإحضار الشراب وأجلسني وأخاه وأمرنا بتناول الشراب، وابتدأ هو بجواب تلك المسائل. وكان يكتب ويشرب إلى نصف الليل حتى غلبني وأخاه النوم، فأمرنا بالانصراف. فعند الصباح قرع الباب فإذا رسول الشيخ يستحضرني، فحضرته وهو على المصلى، وبين يديه الأجزاء الخمسة، فقال: خذها وصر بها إلى الشيخ أبي القاسم الكرمانى، وقل له استعجلت في الإجابة عنها؛ لئلا يتعوق الركابي، فلما حملته تعجب كل العجب، وصرف الفيح وأعلمهم بهذه الحالة، وصار هذا الحديث تاريخاً بين الناس.

ووضع في الآت الرصد ما لم يسبق إليه، وصنف فيها رسالة وبقيت أنا ثمانى

سنين مشغولاً بالرصد، وكان غرضي تبين ما يحيكه بطليموس عن قصته في الأرصاد، فتبين لي بعضها.

وصنف الشيخ كتاب الإنصاف واليوم الذي قصد فيه السلطان مسعود إلى أصفهان نهب عسكره فيها الشيخ، وكان الكتاب في جملة النهب، وما وقف له على أثر. وكان الشيخ قوي القوى كلها، وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى وأغلب.

وكان الشيخ يعتمد على قوة مزاجه حتى صار أمره في السنة التي حارب فيها علاء الدولة تاش فراش على باب الكرخ أخذ الشيخ قولنج، ومن حرصه على برئه إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه في يوم واحد ثمان مرات، فتقرّح بعض أمعائه وظهر به سحج، وأحوج إلى المسير مع علاء الدولة، فأسرعوا نحو إيذج، فظهر به هناك الصرع الذي كان يتبع علته. ومع ذلك كان يدبر نفسه، ويحقن نفسه لأجل السّحج ولبقة القولنج، فأمر يوماً باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة ما يحتقن به وخلطه به طلباً لكسر الرياح، فقصد بعض الأطباء الذين كان يتقدم /٤٦/ هو إليه بمعالجته، وطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم لست أدري عمداً فعله أم أخطأ؛ لأنني لم أكن معه، فازداد السحج به من حدة ذلك البزر. وكان المشرود بطوس لأجل الصرع فقام بعض غلمان، وطرح شيئاً كثيراً من الأفيون فيه، وناولوه، فأكله وكان سبب ذلك خيانتهم في مالٍ كثير من خزانته، فتمنوا هلاكه؛ ليأمنوا عاقبة أعمالهم.

ونقل الشيخ كما هو إلى أصفهان، فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي، وحضر مجلس علاء الدولة. ولكنه مع ذلك لا يتحفظ، ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلة كل البرء، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت. ثم قصد علاء الدولة همذان، فسار معه الشيخ، فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان، وعلم أن قوته قد سقطت، وأنها لا تفي بدفع المرض، فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة. وبقي على هذا أياماً، ثم انتقل إلى جوار ربه. وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكان موته في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكانت ولادته في سنة خمس وسبعين وثلثمائة.

هذا آخر ما ذكره أبو عبيد من أحوال الشيخ الرئيس رحمه الله، وقبره تحت السور من جانب القبلة من همذان. وقيل: إنه نقل إلى أصفهان، ودفن في موضع على باب كونكند.

ولما مات ابن سينا من القولنج الذي [عرض له] قال فيه بعض أهل زمانه: [من المتقارب]

رَأَيْتُ ابْنَ سِينَا يُعَادِي الرِّجَالَ وَبِالْحَبْسِ مَاتَ أَحْسَنَ الْمَمَاتِ
فَلَمْ يَشْفِ مَا نَالَهُ بِالشِّفَاءِ وَلَمْ يَنْجُ مِنْ مُوتِهِ بِالنَّجَاةِ
وقوله بالحبس يعني انحباس البطن من القولنج الذي أصابه، والشفاء والنجاة يريد الكتابيين من تأليفه، وقصد بهما بعض أصدقائه، وهو أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي.

ومن كلامه قال:

ليكن الله تعالى أَوَّلَ فكرٍ وآخره، وباطن اعتبارك / ٤٧ / وظاهره، ولتكن عين نفس الرجل مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثل بين يديه؛ مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى، وما فيه من آيات ربه الكبرى. وإذا انحط إلى قراره، فلينزله الله تعالى في آثاره، فإنه باطن ظاهر، تجلّى لكل شيء بكل شيء: [من المتقارب]

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
فإذا صارت هذه الحال له ملكة، انطبع فيها نفس الملكوت، وتجلّى له قدس اللاهوت، فألف الأنس الأعلى، وذاق اللذة القصوى، وأخذ عن نفسه من هواها أولى، وفاضت عليه السكينة، وحفّت به الطمأنينة. وتطلع إلى العالم الأدنى اطلاع راحم لأهله، مستوهم لحيله، مستخف لثقله، مستحسن به لعقله، مستضل لطرقه؛ وتذكر نفسه وهي بها لهجة، وببهجتها بهجة، فتعجب منها ومنهم تعجبهم منه، وقد ودّعها، وكان معها كأن ليس معها. وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثلة السكّنات الصيام، وأنفع البر الصدقة، وأزكى العمل الاحتمال، وأبطل السعي المراءاة. ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال. وخير العمل ما صدر عن خالص نية؛ وخير النية ما يفرج عن جناب علم؛ والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١) ثم يقبل على هذه النفس المؤمنة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطيخ بما يشينها من الهيئات الانقيادية للنفوس المادية التي إذا بقيت في النفس المزينة، كان حالها عند الانفصال كحالها عند الاتصال؛ اذ جوهرها غير مشاوب، ولا مخالط، وإنما يدنسها هيئة الانقياد لتلك الصواحب؛ بل يفيدها هيئات الاستيلاء والاستعلاء

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

والرياسة. وكذلك يهجر الكذب قولاً وفعلاً حتى تحدث للنفس هياة صدوقة، فتصدق الأحلام والرؤيا. وأما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة وإبقاء الشخص والنوع، والسياسة. / ٤٨ / أما المشروب. فإن يهجر شربه تلهياً بل تشفياً وتداوياً؛ ويعاشر كل فرقة بعادته ورسومه؛ ويسمح بالمقدور والتقدير من المال؛ ويركب لمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه. ثم لا يقصر في الأوضاع الشرعية، ويعظم السنن الالهية والمواظبات على التعبّدات البدنية. ويكون دوام عمره إذا خلا وخلص من المعاشرين تطريه الرتبة في النفس والفكرة في الملك الأول وملكه، وكبس النفس عن عثار الناس من حيث لا يقف عليه الناس عاهد الله أنه يسير بهذه السيرة، ويدين بهذين الديانة، والله ولي الذين آمنوا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ومن شعر الشيخ الرئيس قاله في النفس وهي من أحسن قصائده وأشرفها^(١): [من

الكامل]

وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعٍ
وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرَّقِعْ
كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفْجُعٍ
أَلْفَتْ مُجَاوِرَةَ الْخَرَابِ الْبَلَقِعِ
وَمَنَازِلًا بِفِرَاقِهَا لَمْ تَفْنَعْ
فِي مِيمٍ مِرْكَزَهَا بِذَاتِ الْأَجْرَعِ
بَيْنَ الْمَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الْخُضْعِ
دَرَسَتْ بِتَكَرُّرِ الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ
وَدَنَا الرِّوَاخِ إِلَى الْفَضَاءِ الْأَوْسَعِ
مَا لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْعُيُونِ الْهُجَعِ
عَنْهَا حَلِيفُ الثَّرْبِ غَيْرِ مُشْئِعِ
وَالْعِلْمُ يَرْفَعُ كُلَّ مَنْ لَمْ يُرْفَعْ
سَامَ إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الْأَوْضَعِ
طُوِيَتْ عَنِ الْفُطْنِ اللَّيْبِ الْأَوْرَعِ
لِتَكُونَ سَامِعَةً لِمَا لَمْ تَسْمَعْ
فِي الْعَالَمِينَ فَخَرَّقُهَا لَمْ يُرْقِعْ

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مُقْلَةٍ عَارِفٍ
وَصَلَتْ عَلَى كَرِهِ إِلَيْكَ وَرُبَّمَا
أَبَقْتُ وَمَا أَيْسْتُ فَلَمَّا وَاصَلْتُ
وَأَظْنُهَا نَسِيتُ عُهُودًا بِالْجَمَى
حَتَّى إِذَا اتَّصَلْتُ بِهَاءِ هُبُوطِهَا
عَلِقْتُ بِهَا ثَاءً الثَّقِيلِ فَأَصْبَحْتُ
وَتَظَلُّ سَاجِدَةً عَلَى الدَّمَنِ الَّتِي
حَتَّى إِذَا قَرُبُ الْمَسِيرِ مِنَ الْجَمَى
سَجَعْتُ وَقَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ فَأَبْصَرْتُ
وَعَدْتُ مُفَارَقَةً لِكُلِّ مُكَلَّفٍ
وَعَدْتُ تُغَرِّدُ فَوْقَ ذُرَّةٍ شَاهِقٍ
/ ٤٩ / فَلَايُ شَيْءٍ أَهْبَطَ مِنْ شَاهِقٍ
إِنْ كَانَ أَرْسَلَهَا إِلَهُ لِحِكْمَةٍ
فَهُبُوطُهَا إِنْ كَانَ ضَرْبَةً لِأَزْبٍ
وَتَعُودُ عَالِمَةً بِكُلِّ خَفِيَةٍ

وهي التي قَطَعَ الزمانُ طريقَها
فكأنها بَرَقَتْ تَأَلَّقَ لِلْحَمَى
وقال في الشيب والحكمة والزهد^(١): [من الوافر]

أما أصبحتَ عَنْ لَيْلِ التَّصَابِي
تَنْفَسُ فِي عِذَارِكَ صَبْحُ شَيْبٍ
شِهَابُكَ كَانَ شَيْطَانًا مَرِيدًا
وَأَسْرَبَ مَنْ يَزَاةَ الدَّهْرِ أَحْوَى
عَفَا رَسَمَ الشَّبَابِ وَرَسَمُ دَارٍ
فَذَاكَ أبيضٌ مِنْ قَطَرَاتِ دَمْعِي
فَذَا يَنْعَى إِلَيْكَ النَّفْسَ نَعِيًا
كَذَا دُنْيَاكَ تَرَأْبُ لَانْصِدَاعٍ
وَيَعْلَقُ مُشْمِئُزُّ النَّفْسِ عَنْهَا
فَلَوْلَاهَا لَعَجَلْتُ انْسِلَاخِي
عَرَفْتُ عُقُوقَهَا فَسَلَوْتُ عَنْهَا
بُلَيْتُ بِعَالَمٍ يَعْلُو أَدَاهُ
وَسُئِلَ لِلصَّوَابِ خِلَاطُ قَوْمٍ
فَعَالَطَهُمْ وَنَفْسِي فِي مَكَانٍ
/ ٥٠ / وَلَسْتُ بَمَنْ يَخْلُطُهُ خِلَاطُ
إِذَا مَا لَجَّتِ الْأَبْصَارُ نَالَتْ
وقال أيضاً^(٢): [من الكامل]

خَيْرُ النَّفُوسِ الْعَارِفَاتِ ذَوَاتَهَا
وَبِمَ الَّذِي حَلَّتْ وَمِمَّ تَكُونَتْ
نَفْسُ النَّبَاتِ وَنَفْسُ حِسٍّ رُكْبَا
يَا لِلرَّجَالِ لِعِظَمِ رُزْءٍ لَمْ تَنْزِلْ
وقال أيضاً^(٣): [من الخفيف]

هَذَبِ النَّفْسَ بِالْعُلُومِ لِتَرْقَى
وَذَرِ الْكُلَّ فَهِيَ لِلْكُلِّ بَيْتٌ

(٢) ديوانه ص ١١.

(١) كاملة في ديوانه ص ١٣-١٤.

(٣) ديوانه ص ٢٠.

إِنَّمَا النَّفْسُ كَالزَّجَاجَةِ وَالْعِلْدُ مُمْ سِرَاجٌ وَحِكْمَةُ اللَّهِ زَيْتٌ
وَقَالَ أَيْضاً^(١): [من الرمل]

صَبَّهَا فِي الْكَاسِ صِرْفاً غَلَبَتْ ضَوْءُ السُّرَاجِ
ظَنَّهَا فِي الْكَاسِ نَاراً فَطَفَّأَهَا بِالْمِزَاجِ
وَقَالَ أَيْضاً^(٢): [من الكامل]

قُمْ فَاسْقِنِيهَا قَهْوَةً كِدِمِ الطَّلَا يَا صَاحِبَ الْقَدَحِ الْمَلَا بَيْنَ الْمَلَا
خَمِراً تَظَلُّ لَهَا النَّصَارَى سُجَّداً وَلَهَا بَنُو عَمْرَانَ أَخْلَصَتِ الْوَلَا
لَوْ أَنَّهَا يَوْمًا وَقَدْ وُلِّعَتْ لَهُمْ قَالَتْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى
نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^(٣).
وَقَالَ: [من الرمل]

نَزَلَ الْبَلَاهُوتُ فِي نَاسُوتِهَا كَنَزُولِ الشَّمْسِ فِي أَبْرَاجِ يُوحِ
قَالَ فِيهَا بَعْضُ مَنْ هَامَ بِهَا مِثْلَ مَا قَالَ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ
هِيَ وَالْكَاسُ وَمَا مَازَجَهَا كَأَبٍ مُتَّحِدٍ وَابْنِ رُوحِ
/ ٥١ / وَقَالَ: [الطويل]

شَرِبْنَا عَلَى الصَّوْتِ الْقَدِيمِ قَدِيمَةً لِكُلِّ قَدِيمٍ أَوَّلٍ هِيَ أَوَّلُ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَيِّزٍ قَلْتُ إِنَّهَا هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى الَّتِي لَا تُعَلَّلُ
وَقَالَ أَيْضاً، وَقِيلَ إِنَّهَا لِلطُّغْرَائِي: [من الكامل]

عَجَباً لِقَوْمٍ يَحْسِدُونَ فَضَائِلِي مَا بَيْنَ عَانِي إِلَى عُذَائِلِي
عَتَبُوا عَلَيَّ فَضْلِي وَذَمُّوا حِكْمَتِي وَاسْتَوَحْشُوا مِنْ نَقْصِهِمْ وَكَمَالِي
إِنِّي وَكَيْدِهِمْ وَمَا عَبَثُوا بِهِ كَالطُّودِ يَحْقِرُ نَظْحَةَ الْأَوْعَالِ
وَقَالَ أَيْضاً: [من الكامل]

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ الزَّمَانَ بِصَرْفِهِ أَبْلَى جَدِيدَ قَوَائِي وَهُوَ جَدِيدُ
وَقَالَ أَيْضاً وَقِيلَ، إِنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ إِذَا قِيلَتْ عِنْدَ رُؤْيَا عَطَارِدَ وَقْتِ شَرْفِهِ، فَإِنَّهَا
تَفِيدُ عِلْماً وَخَيْراً: [من الطويل]

عُطَارِدُ قَدْ وَاللَّهِ طَالَ تَرْدُدِي مَسَاءً وَصُبْحاً كِي أَرَاكَ فَأَغْنَمَا

(٢) أخل بها ديوانه.

(١) أخل بها ديوانه.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

فَهَا أَنْتَ فَا مَدُّنِي لَكِي أُدْرِكَ الْمُنَى وَأَحْوِي الْعُلُومَ الْغَامِضَاتِ تَكْرُمًا
وَوَقِّنِي الْمَحْذُورَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِأَمْرِ مَلِكٍ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ^(١)
ومنهم:

[٢٠]

أبو الفرج، عبد الله بن الطيّب، كاتب الجائليق^(٢)

كان مع توسعه في الحكمة، وتتبعه لُسُرجها المضية في كل ظلمة، مُصرّاً على نصرانيته، معظماً لأُمور رهبانيته، ينقاد إلى خُدها، ولا يخفى عليه أنها ضلال، ويتدرد إلى بيعها ولا يعتريه ملال، ويعظم صورها الممثلة، ويظل عليها عاكفاً وإليها عاطفاً، وهو على يقين من أنها لا تنطق ولا تمسك عليه من خزائن رزقها ولا تنفق، على أنه كان إماماً في الطبيعي لا يعدو علمه ولا يخاف عدمه، فأما من ذكر سواه فكثيراً ما يجد من واساه.

ذكره ابن أبي أصيبعة / ٥٢ / وقال^(٣): هو الفيلسوف الإمام العالم. كان متميزاً بين النصارى ببغداد، ويقرى الطب في بیمارستان العضدي، جليل المقدار، واسع العلم، شرح كثيراً من كتب أرسطو وأبقراط وجالينوس، وكانت له قوة في التصنيف، وأكثر ما كانت تؤخذ عنه إملاءً من لفظه، وكان الرئيس يحمده في الطب ويذمه في الحكمة.

وقال فيه: وكان يقع إلينا كتب يعملها الشيخ أبو الفرج بن الطيب في الطب ونجدها صحيحة مرضية خلاف تصانيفه في المنطق والطبيعات، وما يجري معها.

وحكى ابن القف: أن رجلين أتيا من بلاد العجم للقراءة على ابن الطيب، فقبل لهما: إنه في الكنيسة للصلاة، فأتيا إليه في الكنيسة، فوجداه لابساً ثوب صوف مكشوف الرأس، وبيده مبخرة فيها بخور، وهو يدور في الكنيسة يبخرها، فتأملاه

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.

(٢) عبد الله بن الطيّب، أبو الفرج: طبيب عراقي، واسع العلم، كثير التصنيف، خبير بالفلسفة. قال ابن أبي أصيبعة: كان كاتب «الجائليق» ومتميزاً في النصارى ببغداد، يعلم الطب في بیمارستان العضدي، ويعالج المرضى فيه. وكان معاصراً للرئيس ابن سينا، توفي سنة (٤٣٥هـ / ١٠٤٣م). له «مقالات أرسطو - خ» و«شرح أربع رسائل من كتب جالينوس - خ» وهي: الفرق، والصناعة الصغيرة، وكتاب النبض الصغير، وكتاب جالينوس إلى أغلوqn. وله «شرح مسائل حنين - خ» كما في أنوار البدرين (١٧٠) ونحو أربعين كتاباً في الطب والفلسفة، قرئ عليه بعضها سنة (٤٠٦هـ). ترجمته في: عيون الأنباء ٢٣-٣٢٥، ابن العبري ٣٣٠-٣٣١، وتاريخ حكماء الاسلام ٣٠٨، وهدية العارفين ١/ ٤٥٠، والأعلام ٩٤/ ٤.

(٣) عيون الأنباء ٣٢٣-٣٢٤.

وتحدثنا بالفارسية، وأداما النظر إليه والتعجب من فعله هذا، وهو من أجل الحكماء، فكأنه رأيهما وفهم عنهما ما هما فيه. فلما فرغ من شأنه، لبس ثيابه المعتادة، وقربت له البغلة فركبها، ومشت الغلمان حوله، فتبعاه وسألوه أن يقرئهما، فقال لهما: أحججتما قط، فقالا: لا، فقال: لا أقرئكما حتى تحجا، فحجا ثم أتياه وقد علاهما الشحوب، ورؤوسهما محلقة، فسألهما عن مناسك الحج وما فعلاه فيها، فأخبراه بها، فقال لهما: لما رميتما الجمار بقيتما غُراء موشحين وبأيديكما الحجارة وأنتما تهرولان وترميان بها، قالوا: نعم، فقال: هكذا الأمور الشرعية، تؤخذ نقلاً لا عقلاً، فعرفا قصده وعجبا منه. ثم اشتغلا عليه وكانا من أجل تلامذته.

ومنهم:

[٢١]

أبو الوليد، محمد بن محمد بن المجلي الجزري،

المعروف بابن الصائغ^(١)

أثرى بالفضائل وما كنزها، وأثار علوم الأوائل وما ركزها، هذا مع أدب لا يُرَنَّق، وطلب لبس ثوب نمر لا يبتق، وشعر هو شعاع بنت الزرجون، وشعاع الفجر المتفرق تحت أرز الدجون.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان إماماً/٥٣/ مشهوراً، وعالماً مذكوراً، وفيلسوفاً مميّزاً، وأديباً مبرزاً، ويعرف بالعنثري؛ لأنه كان في صباه يكتب أحاديث عنترة العبسي. ومن كلامه قوله:

تعلم العلم فإنه لو لم ينل به من الدنيا إلا الغنى عمن يستعبدك بحق أو باطل.

(١) محمد بن المجلي بن الصائغ الجزري، أبو المؤيد العنثري: طبيب، عالم بالحكمة والفلسفة، أديب، جيد الشعر. من أهل «الجزيرة» بين دجلة والفرات. كان في أول أمره يكتب أخبار «عنترة العبسي» فاشتهر بنسبته إليه. وصنف كتباً، منها: «النور المجتبى» في الأدب والأخبار، رتبته على فصول السنة، و«الجمانة» في العلم الطبيعي والإلهي، و«العشق الإلهي والطبيعي» رسالة، و«الأقرباذين» كبير.

توفي نحو سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م).

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٨٩-٣٩٩، معجم الأطباء ٤٢١، وفيه وفاته سنة «٦٥٠ تقريباً» خطأ، الوافي بالوفيات ٣٨٤/٤، وفيه تاريخ وفاته سنة «٥٦٠ تقريباً»، الأعلام ١٩/٧.

(٢) عيون الأنباء ٣٨٩-٣٩٩.

تعلم العلم ليريك العالم يقادون بأزمة الجهل إلى الخطأ والصواب.

الجاهل عبدٌ لا يعتق إلا بالمعرفة.

الحكمة سراج النفس فمتى عدمتها، عميت عن الحق.

الحكمة دواء من الموت الأبدي.

الشخص بلا علم كالجسد بلا روح.

من أحب أن ينطق باسمه، فليكثر من العناية بعلمه.

العالم المحروم أشرف من الجاهل المرزوق.

الجاهل يطلب المال، والعالم يطلب الكمال.

الغم ليل القلب والسرور نهاره، وشرب السم أهون من معاناة الهم.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ كُلَّ مَا عَلِمَ الْوَرَى حَقًّا لَكُنْتُ صَدِيقَ كُلِّ الْعَالِمِ
لَكِنْ جَهِلْتُ فَصِرْتُ تَحْسِبُ كُلَّ مَنْ يَهْوَى خِلَافَ هَوَاكَ لَيْسَ بَعَالِمِ
اسْتَحْيَ إِنْ الْعَقْلُ أَصْبَحَ ضَاحِكًا مِمَّا تَقُولُ وَأَنْتَ مِثْلُ النَّائِمِ
وقوله: [من الخفيف]

قَدْ كَشَفْتُ الْأَشْيَاءَ بِالْفِعْلِ حَتَّى ظَهَرْتُ لِي وَلَيْسَ فِيهَا التَّبَاسُ
وَعَرَفْتُ الرِّجَالَ بِالْعِلْمِ لَمَّا عَرَفَ الْعِلْمَ بِالرِّجَالِ النَّاسُ
وقوله: [من الكامل]

لَا تُدْنِينَ فِتْنَى يَوَدُّكَ ظَاهِرًا مِنْهُ وَضِدُّ وَدَادِهِ فِي طَبْعِهِ
وَاهْجُرْ صَدِيقَكَ إِنْ تَنَكَّرَ وَدُّهُ فَالْعَضْوُ يُحْسِمُ دَاوُهُ فِي قَطْعِهِ
وقوله: [من الكامل]

عَدْلٌ مِزَاجُكَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا تَكُنْ كُمُ سَوْفٍ آذَى بِهِ التَّخْلِيْطُ
وَاحْفَظْ عَلَيْكَ حَرَارَةً بِرُطُوبَةٍ تَبْقَى فَتَرْكُكَ حِفْظُهَا تَفْرِيطُ
/ ٥٤ / وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ كَالسَّرَاجِ بَقَاؤُهُ
ما دَامَ فِي طَرْفِ الذُّبَالِ سَلِيْطُ

وقوله في مליح تنقل بالرمان على الخمر: [من السريع]

تَنْقُلُ الرُّمَانَ إِثْرَ الطَّلَا مَخَافَةً مِنْ ضَرَرِ الشُّكْرِ
كَأَنَّهُ وَهُوَ خَبِيرٌ بِهِ يُكْسِرُ الْيَاقُوتَ بِالْدَّرِّ

وقوله: [من مخلع البسيط]

رَأَيْتُ فَوْقَ الرَّئِيسِ عِلْجاً
يَدْفِنُ فِي الْعَاجِ أَبْنَوْساً

وقوله: [من مخلع البسيط]

قَدْ أَقْبَلْتُ غَوْلَةَ الصَّبَايَا
فَقُلْتُ مِنْ أَعْظَمِ الرِّزَايَا

وقال: [من الكامل]

احْفَظْ بُنْيَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا
قَدِّمْ عَلَى طَبِّ الْمَرِيضِ عِنَايَةً
بِالشُّبْهِ تَحْفَظْ صِحَّةً مُوجُودَةً
أَقْلَلْ نِكَاحَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ
وَاجِعِلْ طَعَامَكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً
لَا تَحْقِرِ الْمَرَضَ الْيَسِيرَ فَإِنَّهُ
وَإِذَا تَغَيَّرَ مِنْكَ حَالٌ ظَاهِرٌ
لَا تَهْجُرَنَّ الْقِيَّءَ وَاهْجُرْ كَلِمَا
إِنَّ الْحِمَى عَوْنُ الطَّبِيعَةِ مُسْعِدٌ
لَا تَشْرِبَنَّ عَقِيبَ أَكْلٍ عَاجِلٍ
/ ٥٥ / وَالْقِيَّءُ يَقْطَعُ وَالْقِيَامُ كِلَاهُمَا
وَخِذِ الدَّوَاءَ إِذَا الطَّبِيعَةُ كُذِّرَتْ
إِيَّاكَ تَلْزِمُ أَكْلَ شَيْءٍ وَاحِدٍ
وَإِذَا الطَّبِيعَةُ مِنْكَ نَقَتْ بَاطِناً
وَتَزِيدُ فِي الْأَخْلَاطِ إِنْ نَقَصَتْ بِهِ
وَالطَّبُّ جَمَلُهُ إِذَا حَقَّقَتْهُ
وَلِعَقْلٍ تَدْبِيرِ الْمِزَاجِ فَضِيلَةٌ

فَالطَّبُّ مَجْمُوعٌ بِنَصِّ كَلَامِي
فِي حِفْظِ قُوَّتِهِ مَعَ الْأَيَّامِ
وَالضَّدُّ فِيهِ شِفَاءُ كُلِّ سَقَامٍ
مَاءُ الْحَيَاةِ يُرَاقُ فِي الْأَرْحَامِ
وَاحْذَرْ طَعَاماً قَبْلَ هَضْمِ طَعَامٍ
كَالنَّارِ تُصْبِحُ وَهِيَ ذَاتُ ضَرَامٍ
فَاحْتَلْ لِرَجْعَةِ حَلٍّ كُلِّ نِظَامٍ
كَيْمُوسُهُ سَبَبٌ إِلَى الْأَسْقَامِ
شَافٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْآلَامِ
أَوْ تَأْكُلَنَّ عَقِيبَ شُرْبِ مُدَامٍ
بَهُمَا وَلَيْسَ بِنَوْعٍ كُلُّ قِيَامٍ
بِالْإِحْتِلَامِ وَكَثْرَةِ الْأَحْلَامِ
فَتَقْوَدَ نَفْسَكَ لِلْأَذَى بِزِمَامٍ
فَدَوَاءُ مَا فِي الْجِلْدِ بِالْحَمَّامِ
زَادَتْ فَتَنْقُصُ فَضْلَهَا بِقَوَامِ
حَلٍّ وَعَقْدُ طَبِيعَةِ الْأَجْسَامِ
يُشْفَى الْمَرِيضُ بِهَا وَبِالْأَوْهَامِ

وهي تروى للرئيس ابن سينا، ولابن بطلان، والصحيح أنها لأبي الوليد^(١).

ومنهم:

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٨٩-٣٩٩.

[٢٢]

ابن الخطيب الرازي، ابن خطيب الري

وهو: محمد بن عمر بن الحسين، أبو عبد الله الإمام فخر الدين^(١).

حبر الأعلام، وبحر الكلام، طالما أغصَّ المناظر، وخصَّ بالعجب كل ناظر، وقطف الكلام منوراً، وجلا سدف الظلام منوراً، ونظر في كل فن، وحضر له تحقيق في كل ظن، وجاء بحلية المناقب، وزينة النجوم الثواقب، وطاب بذكره كل سمر.

(١) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري سنة (٥٤٤هـ/ ١١٥٠م) وإليها نسبته، ويقال له «ابن خطيب الري» رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة سنة (٦٠٦هـ/ ١٢١٠م). أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه «مفاتيح الغيب - ط» ثمانى مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات ط» و«معالم أصول الدين - ط» و«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين - ط» و«المسائل الخمسون في أصول الكلام - ط» و«الآيات البينات - خ» مع شرح ابن أبي الحديد له، في خزانة الأسكوريال، المجموعة (٣٣) و«عصمة الأنبياء - خ» كراريس من أوله، في خزانة الرباط «المجموعة ١٨٨٠ كتاني» و«الإعراب - خ» في شسترتي، الرقم (٣٣٧٤)، و«أسرار التنزيل - خ» في التوحيد، و«المباحث المشرقية - ط» و«أنموذج العلوم - خ» و«أساس التقديس - ط» رسالة في التوحيد، و«المطالب العالية - خ» في علم الكلام، و«المحصول في علم الأصول - خ» و«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ط» بلاغة، و«السر المكتوم في مخاطبة النجوم - خ» و«الأربعون في أصول الدين - ط» و«نهاية العقول في دراية الأصول - خ» في أصول الدين. و«القضاء والقدر» و«الخلق والبعث» و«الفراسة» و«البيان والبرهان» و«تهذيب الدلائل» و«الملخص» في الحكمة، و«النفس» رسالة، و«النبوات» رسالة، و«كتاب الهندسة» و«شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا - ط» تهذيبه، و«شرح سقط الزند للمعري» و«مناقب الإمام الشافعي - ط» و«شرح أسماء الله الحسنى - ط» و«تعجيز الفلاسفة» بالفارسية، وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظاً بارعاً باللغتين.

ترجمته في: الكامل في التاريخ ٢٨٨/١٢، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم، ورقة ٢٣٠، ورقة ٢٣٠، وتاريخ الحكماء ٢٩١-٢٩٣، ومرآة الزمان ج ٨ ق ٢/٥٤٢، ٥٤٣، وقلائد الجمان لابن الشعار ٨٠/٦-٨٨ رقم ٦١٣، والتكملة لوفيات النقلة ١٨٦/٢-١٨٧ رقم ١١٢١، وذيل الروضتين ٦٨، وعيون الأنباء ٤٦٢-٤٧٠، والجامع المختصر ٣٠٦-٣٠٧، وتاريخ مختصر الدول ٢٤٠، ووفيات الأعيان ٢٤٨/٤، ٢٥٢، وتاريخ الزمان لابن العبري ٢٤٩، وآثار البلاد وأخبار العباد ٣٧٧-٣٧٩، وتلخيص مجمع الآداب ٣٥٧/٣، وتاريخ إربل ٣٢٩/١، والمختصر في أخبار البشر ١١٢/٣، ونهاية الأرب ٥١/٢٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣١٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٤٩، وسير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠-٥٠١ رقم ٢٦١، وميزان الاعتدال ٣/٣٤٠ رقم ٦٦٨٦ «الفخر بن الخطيب»، والمغني في الضعفاء ٥٠٨/٢ رقم ٤٨٨٩، ودول الإسلام ٢/ =

وصدق منه حديث ابن عمر، هذا إلى توقيير الملوك لجنابه، وتوفير خاطره الذي لو شاء لجنى به، وتعظيم حل به الذرى، وحلّى ببعضه الورى، وحلّى سهلاً ما بين الثريا والثرى، لعلم قصر من لبيه، ومَسَكَ الناس بسببه، وجال ما بين الخافقين، وجاب به فامتدت الجداول من منبعه، وعدّت يد الأنواء دون اصبعه، وسرى صيته، والرياح رواكد، وشرّق في البلاد وغرّب، والنجوم إلى الصباح رواصد، وقطع في التصانيف النافعة شُقّق الأيام العريضة، وجعل جناح النسر في الليالي الطوال مثل جناح البعوضة، حتى طافت الأقطار، وطارَت في كل مطار، وها هي الآن ملتزمة في الأيدي مثل خطوط الراح، وفي نظر العيون مثل فلق الصباح.

⁼ ١١٢-١١٣، والعبر ١٨/٥-١٩، وتاريخ ابن الوردي ١٢٧/٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣٣/٥-٤٠، ٨/٨١٩٦، ومراة الجنان ٤/٧-١١، والوافي بالوفيات ٤/٢٤٨-٢٥٩، والبداية والنهاية ١٣/٥٥-٥٦، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٥٤-١٥٥ب، وطبقات الشافعية للمطري، ورقة ١٩٤ب، والوفيات لابن قنفذ ٣٠٨ وفيه «ابن الخطيب الرازي»، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/٢٦٠-٢٦١، والعقد المذهب لابن الملتن، ورقة ٧٤-٧٥، وتاريخ الخميس ٢/٤١٠، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٣٩٦-٣٩٨ رقم ٣٦٦، وطبقات النحاة واللغويين، له ورقة ٤٨، والعسجد المسبوك ٣٣٢ وفيه مولده سنة ٥٤٣هـ، ٣٣٢-٣٣٣ وفيه مولده سنة ٥٤٤هـ. ولم يتنبه المحقق للكتاب إلى أن صاحب الترجمة قد تكرر في الستين، وهما واحد، ولسان الميزان ٤/٤٢٦-٤٢٩ رقم ١٣١١، وعقد الجمان ١٧/ ورقة ٣٢٢-٣٢٤، وتاج التراجم ٩٣، والنجوم الزاهرة ٦/١٩٧-١٩٨، ومفتاح السعادة ١/٤٤٥، وكشف الظنون ٦١، ٦٧، ٨٣، ٩٤، ١٢٠، ٢٠٤، ٢٢٤، ٩٦٢، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٥٩، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٤، ٥١٥، ٦٠٥، ٦٣٣، ٧٢٥، ٧٣٠، ٧٣٩، ٧٦٠، ٩٥٤، ٩٨٩، ٩٩٣، ١٠٣٥، ١١١٣، ١١٤١، ١١٨٦، ١٣١٢، ١٤٤٥، ١٤٦٧، ١٥٦١، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦٩٧، ١٧١٤، ١٧٢٦، ١٧٢٧، ١٧٥٦، ١٧٧٤، ١٨١٩، ١٨٤٠، ١٨٦٤، ١٩٠٥، ١٩٧٣، ١٩٨٦، ١٩٨٨، ٢٠٠٢، وشذرات الذهب ٥/٣١، وروضات الجنات ١٩٠-١٩٢، وهدية العارفين ٢/١٠٧-١٠٨، وإيضاح المكنون ٢/٢٦٩، وديوان الإسلام ٢/٣٣٨-٣٤٠ رقم ١٠٠٥، وطبقات الشافعية لابن هداية الله ٢١٦-٢١٧، وطبقات المفسرين للسيوطي ٣٩، ومعجم الشافعية لابن عبد الهادي، ورقة ٤٧-٤٨، وتاريخ ابن سباط تحقيق التدمري ١/٢٤٨، وفهرس مخطوطات الظاهرية للعش ٦/٢٤٩، وفهرس المخطوطات المصورة ١/٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٥٣، وفهرست الخديوية ١٠/١٧٣، ٢١٣-٢١٦ و ٥/١٥٨، ١٥٩، ٣٧٠ و ٦/١٠٥، والخالدون العرب لطوقان ٦٩-٧٦، والمجددون في الإسلام للصعدي ٢٢٤-٢٢٨، ومعجم المؤلفين ١١/٧٩-٨٠، ومعجم طبقات الحفاظ والمفسرين ٢٨٢، رقم ٥٥٠، الأعلام ٦/٣١٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٠١-٦١٠هـ) ص ٢١١ رقم ٣١١.

وحدثني شيخنا قاضي / ٥٦ / القضاة جلال الدين القزويني، وقد جرى ذكره، قال: كانت الملوك تتقي حد لسانه حتى احتاج صاحب الألموت إلى أعمال الحيلة في مداراته، وتَسَبَّبَ لمال قبله منه، وأخافه لاستصلاح خاطره؛ لأنه كان لا يزال يبحث في فساد عقيدته، وتزييف أقواله، فينفر الناس عن دعائه، ويرد بالحرمان مساعي سعته. وإذا كان هذا فعله بصاحب الألموت، وهو الذي كان من عاداه يموت، فكيف كان من يتهيب الآجال، وما عنده إلا نساء في زي رجال.

ذكره ابن أبي أصيبعة، فقال^(١): أفضل المتأخرين وسيد الحكماء المتقدمين، قد أشرعت سيادته، واشتهرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته، وكان إذا ركب يمشي حوله نحو ثلاثمائة تلميذ من الفقهاء وغيرهم، وكان خوارزم شاه يأتي إليه. وكان ابن الخطيب شديد الحرص على تحصيل العلوم الشرعية والحكومية، جيد الفطرة، حاد الذهن، حسن العبارة، كثير البراعة، قوي النظر في منازع الطب، ومباحثه، عارفاً بالأدب وشعوبه، وله شعر بالعربي والفارسي، وكان عبل البدن، ربع القامة كبير اللحية، وكان في صوته فخامة، وكان يخطب في بلدة الري، وغيرها من البلاد، ويتكلم على المنبر بأنواع من الحكمة، وكان الناس يقصدونه من البلاد، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفننهم فيما يشتغلون به، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه، وكان الإمام فخر الدين قد قرأ الحكمة على مجد الدين الجيلي بمراغة، وكان مجد الدين هذا من الأفاضل العظماء في زمانه، وله تصانيف جليلة.

وحكى لنا القاضي شمس الدين الجبوني عن الشيخ فخر الدين ابن الخطيب أنه قال: والله إنني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز.

وحدثني محيي الدين قاضي مرند قال: لما كان الشيخ فخر الدين بمرند أقام بالمدرسة التي كان أبي مدرستها، وكان يشتغل / ٥٧ / عنده بالفقه، ثم اشتغل بعد ذلك لنفسه بالعلوم الحكومية، وتميز حتى لم يكن أحد يضاهيه، واجتمعت به أيضاً بهمذان واشتغلت عليه، قال: وكان لمجلسه، جلالة عظيمة، وكان يتعاضم حتى على الملوك، وكان إذا جلس للتدريس يكون قريباً منه جماعة من تلاميذه الكبار مثل زين الدين الكتبي، والمصري، والقطب، وشهاب الدين النيسابوري، ثم يليهم بقية التلامذة، وسائر الخلق على قدر مراتبهم، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثونه أولئك

التلامذة الكبار، فإن جرى بحثٌ مشكّلٌ أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه، ويتكلم في ذلك المعنى بما يفوق الوصف.

وحدثني شمس الدين محمد الوتار الموصلي، قال: كنت في بلد هراة في سنة ست وستمئة، وقد كان قصدها فخر الدين بن الخطيب من بلد باميان، وهو في أبهة عظيمة، وحشم كبير، فلما ورد إليها تلقاه السلطان بها وهو حسين بن جرمين وأكرمه إكراماً كثيراً، ونصب له بعد ذلك منبراً وسجادة في صدر الإيوان ليجلس في ذلك الموضع ويكون له يوم مشهود يراه فيه سائر الناس ويسمعون كلامه. وكنت ذلك اليوم حاضراً مع جماعة من الناس وإلى جانبي شرف الدين ابن عُنَيْن الشاعر رحمه الله، وذلك المجلس حفل جداً بكثرة الناس، والشيخ فخر الدين في صدر الإيوان، وعن جانبه يمنة ويسرة صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف، وجاء إليه السلطان حسين بن جرمين صاحب هراة فسلم، وأمره الشيخ بالجلوس إلى جانبه أو قريباً منه، وجاء إليه أيضاً السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغوري صاحب كيروزكوه فسلم، وأشار إليه الشيخ بالجلوس في موضع آخر قريباً منه من الناحية الأخرى، وتكلم الشيخ في النفس بكلام عظيم وفصاحة بليغة. قال: وبينما نحن عنده في ذلك الوقت وإذا بحمامة تدور في الجامع وخلفها صقر يكاد أن يقتنصها، وهي تطير في جوانب الجامع إلى أن عييت، فدخلت / ٥٨ / الإيوان الذي فيه الشيخ، ومرت طائرة بين الصنفين إلى أن رمت نفسها عنده. فذكر لي شرف الدين بن عُنَيْن أنه عمل شعراً على البديهة، ثم نهض لوقته واستأذنه في أن يورد ما قاله في المعنى، فأمره الشيخ، فقال^(١): [من الكامل]

جاءتْ سُلَيْمَانَ الزَمَانِ حِمَامَةٌ وَالْمَوْتُ يَلْمُعُ مِنْ جَنَاحِي خَاطِفٍ
مَنْ نَبَأَ الْوَرَقَاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ حَرَمٌ وَأَنْتَكَ مَلْجَأٌ لِلْخَائِفِ
فطرب لها الشيخ فخر الدين وأدناه وأجلسه قريباً منه، وبعث إليه، بعد ما قام من مجلسه، خلعة كاملة ودنانير كثيرة، وبقي دائماً يحسن إليه.

قال لي شمس الدين الوتار: لم ينشد قدامي لابن خطيب الري سوى هذين البيتين، وإنما بعد ذلك زاد فيها أبياتاً آخر. هذا قوله. وقد وجدت هذه الأبيات المزادة في ديوانه على هذا المثال^(٢). [من الكامل]

يَا ابْنَ الْكَرَامِ الْمُطْعَمِينَ إِذَا شَتَّوْا فِي كُلِّ مَخْمَصَةٍ وَثَلَجٍ حَاسِفٍ

العاصمين إذا النفوس تطايرت
 مَنْ نَبَأَ الورقاءَ أَنَّ محلَّكُمْ
 وفدت إليك وقد تدانى حتفها
 ولو أنها تحيا بمالٍ لانشئت
 جاءت سليمان الزمان بشجوها
 قرم لوأه القوت حتى ظلُّه

قال: ومما حكاه شرف الدين بن عنين أنه حصل من جهة فخر الدين بن خطيب الري وبجابه في بلاد العجم نحو ثلاثين ألف دينار، قال: ومن شعره فيه قوله وسيرها إليه من نيسابور إلى هراة. ويهنيه فيها بكون السلطان محمود خوارزم شاه ولاه أمور الوقوف والمدارس في سائر بلاد السلطان / ٥٩ / وهي مدن كثيرة يقول^(١): [من الكامل]

ريح الشمال عساك أن تتحملي
 وقفي بواديه المقدس وانظري
 من دوحة فخرية عمرية
 مكية الأنساب زاك أصلها
 واستمطري جدوى لديه فطالما
 تغدو سحائبها تعم كما بدت
 بحر تصدّر في العلوم ومن رأى
 ومثيم في الله يسحب لللقى
 ماتت به بدع تمادى عمرها
 فعلا به الإسلام أرفع هضبة
 غلط امرؤ بأبى علي قاسه
 لو أن رسطاليس يسمع لفظة
 ويحار بطليموس لولا قاه من
 فلو أنهم جمعوا إليه تيقنوا
 وبه يبيت الحلم معتصماً إذا
 يعفو عن الذنب العظيم تكرماً

خدمي إلى صدر الإمام الأفضل
 نور الهدى متألّقا لا يأتلي
 طابت مغارس مجدها المتأثل
 وفروغها فوق السماك الأعزل
 خلف الحيا في كل عام ممجل
 لا يعرف الوسمي منها والولي
 بحراً تصدّر قلبه في محفل
 والدين سريال العفاف المسبل
 دهرأ وكاد ظلامها لا ينجلي
 ورسا سواه في الحضيض الأسفل
 هيهات قصّر عن مداه أبو علي
 من لفظه لعرثه هزة أفكل
 برهانه في كل شكل مشكل
 أن الفضيلة لم تكن للأول
 هزت رياح الطيش صفحة يذبل
 ويجود مسؤلاً وإن لم يسأل

أَرْضَى إِلَهَ بِفَضْلِهِ وَدَفَاعِهِ عَنْ دِينِهِ وَأَقَرَّ عَيْنَ الْمُرْسَلِ
يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي دَرَجَاتُهُ تَرْنُو إِلَى فَلَكِ النَوَائِبِ مِنْ عَلِ
مَا مَنْصَبٌ إِلَّا وَقَدْرُكَ فَوْقَهُ فَبِمَجْدِكَ السَّامِيِّ يَهْنِي مَا تَلِي
فَمَتَى أَرَادَ اللَّهُ رِفْعَةَ مَنْصَبِ أَفْضَى إِلَيْكَ فَنَالَ أَشْرَفَ مَنْزِلِ
/ ٦٠ / لَا زَالَ رَبُّكَ لِلْفُؤُودِ مُحِطَةً أَبَدًا وَجُودُكَ كَهَفَ كُلِّ مُؤَمِّلِ

وحدثني نجم الدين يوسف بن شرف الدين علي بن محمد الاسفرايني، قال:
وكان الشيخ الإمام ضياء الدين عمر والد الإمام فخر الدين من الري، وتفقه واشتغل
بعلم الخلاف والاصول حتى تميَّز تميَّزاً كثيراً، وصار قليل المثل، وكان يدرس بالري
ويخطب في أوقات معلومة هنالك، ويجتمع عنده خلق كثير من حسن ما يورده في نطقه
وبلاغته، حتى اشتهر بذلك بين الخاص والعام في تلك النواحي. وله تصانيف عدة
توجد في الأصول وفي الوعظ وغير ذلك، وخلف ولدين أحدهما الإمام فخر الدين،
والآخر هو الأكبر سناً كان يلقب بالركن، وكان هذا الركن قد قرأ شيئاً من الخلاف
والفقه والاصول إلا أنه كان أهوج، كثير الاختلال، فكان أبداً لا يزال يسير خلف أخيه
الإمام فخر الدين، ويتوجه إليه في أي بلد قصده، ويشنع عليه، ويسفه المشتغلين بكتبه
والناظرين أقواله، ويقول: ألسنت أكبر منه، وأكثر معرفة بالخلاف والاصول؟ فلم يقول
الناس: فخر الدين، فخر الدين، ولا أسمعهم يقولون ركن الدين؟ وكان ربما صنف
شيئاً يزعمه ويقول هذا [خير] من كلام فخر الدين، والجماعة يعجبون منه، وكثير منهم
يصفونه ويهزؤون منه. وكان الإمام فخر الدين كلما بلغه شيء من ذلك صعب عليه، ولم
يؤثر أن أخاه بتلك الحالة ولا أحد يسمع قوله. وكان دائم الإحسان إليه، وربما يسأله
المقام في الري أو في غيره وهو يتفقده ويصله بكل ما يقدر عليه. فكان كلما سأله ذلك
يزيد في فعله ولا ينقص من حاله. ولم يزل كذلك لا ينقطع عنه، ولا يسكت عما هو
فيه، إلى أن اجتمع الامام فخر الدين بالسلطان خوارزمشاه، وأنهى إليه حال أخيه وما
يقاسي منه، والتمس منه أن يتركه في بعض المواضع، ويوصي عليه أن لا يمكِّن من
الخروج والانتقال عن ذلك الموضع، وأن يكون له ما يقوم بكفايته من / ٦١ / كل ما
يحتاج. فجعله السلطان في بعض القلاع التي له، وأطلق له إقطاعاً يقوم به كل سنة بما
مبلغه ألف دينار، ولم يزل هنالك مقيماً حتى قضى الله فيه أمره.

قال: وكان الإمام فخر الدين علامة وقته في كل العلوم، وكان الخلق يأتون إليه
من كل ناحية، وكان الخطيب أيضاً بالري. وكان له مجلس عظيم للتدريس. فإذا تكلم بدَّ
القائلين.

وكان عبل البدن باعتدال، عظيم الصدر والرأس، كث اللحية. ومات وهو في سن الكهولة، أشمط مغير اللحية. وكان كثيراً ما يذكر الله تعالى ويستغفره، ويسأله الرحمة والقبول والتجاوز عن زلّله ويقول: إنني حصلت من العلوم ما يمكن تحصيله بحسب الطاقة البشرية، وما بقيت أؤثر إلا لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم.

قال: وخلف فخر الدين ولدين ذكرين أكبرهما يلقب بضياء الدين، وله اشتغال ونظر في العلوم، والآخر وهو الصغير لقبه شمس الدين وله فطرة فائقة وذكاء حاذق، وكان كثيراً ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء، ويقول: إن عاش هذا فإنه يكون أعلم مني، وكانت النجابة تتبين فيه من الصغر. ولما توفي الإمام فخر الدين بقي أولاده مقيمين في هراة، ولقب ولده الصغير بعد ذلك فخر الدين لقب والده، وكان الوزير علاء الملك العلوي متقلداً الوزارة للسلطان خوارزمشاه، وكان علاء الملك عالماً فاضلاً متقناً لعلوم الأدب، ويشعر بالعربية وبالفارسية. وكان قد تزوج بابنة الشيخ فخر الدين، ولما جرى أن جنكلي خان ملك التتر قهر خوارزمشاه وكسره، وقتل أكثر عسكره، وبعد خوارزم شاه توجه علاء الملك قاصداً إلى جنكز خان ومعتصماً به فلما وصل إليه أكرمه وجعله من جملة خواصه عندما استولى التتر على بلاد العجم وخربوا قلاعها ومدنها وكانوا يقتلون في كل مدينة جميع من بها، ولا يبقوا أحداً بها، تقدم علاء الملك إلى جنكز خان، وقد توجهت فرقة من عساكره إلى مدينة هراة ليخربوها، ويقتلوا من بها، فسأله أن يعطيه أماناً لأولاد الشيخ / ٦٢ / فخر الدين ابن خطيب الري، وأن يجيئهم مكرمين إليه، فوهب له ذلك، وأعطاهم أماناً. ولما ذهب أصحابه إلى هراة، وشارفوا أخذها، نادوا فيها بأن لأولاد فخر الدين بن الخطيب الأمان، فلينعزلوا ناحية في مكان، ويكون هذا الأمان. وكان في هراة دار الشيخ فخر الدين هي دار السلطنة، كان خوارزمشاه قد أعطاها له وهي أعظم دار تكون وأنهاها وأكبرها وأبهاها زخرفة واحتفالاً. فلما بلغ أولاد فخر الدين ذلك، أقاموا بها مأمونين، والتحق بهم خلق كثير من أهاليهم وأقربائهم وأعيان الدولة وكبراء البلد، وجماعة كثيرة من الفقهاء وغيرهم ظناً أن يكونوا في أمان لاتصالهم لأولاد فخر الدين، ولكونهم خصيصين بهم وفي دارهم، وكانوا خلقاً عظيماً. فلما دخل التتر إلى البلاد وقتلوا من وجدوا بها وانتهوا إلى الدار نادوا بأولاد فخر الدين أن يرونيهم، فلما شاهدوهم أخذوهم، وهم ضياء الدين وشمس الدين وأختاهما. ثم سارعوا بسائر من كان في الدار فقتلوهم عن آخرهم بالسيف. وتوجهوا بأولاد الشيخ فخر الدين من هراة إلى سمرقند، لأن ملك التتر جنكز خان في ذلك الوقت بها وعنده علاء الملك، قال: ولست أعلم ما تم لهم بعد ذلك.

قال: وكان أكثر مقام الشيخ رحمه الله بالري، وتوجه أيضاً إلى بلد خوارزم ومرض بها وتوفي في عقابيله ببلدة هراة، وأملى في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني، وذلك في يوم الأحد الحادي وعشرين من شهر المحرم سنة ست وستمائة. وامتد مرضه إلى أن توفي يوم العيد غرة شوال من السنة المذكورة، وانتقل إلى جوار ربه رحمه الله تعالى.

وهذه نسخة الوصية:

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الراجي رحمة ربه الوائق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي وهو في آخر عمره وعهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه / ٦٣ / كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل واثق: إني أحمد الله تعالى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان. فأحمده بالمحامد التي تستحقها إلهيته، ويستوجبها لكمال ألوهيته، عرفتها أو لم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب؛ وأصلي على الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين. ثم أقول بعد ذلك: اعلموا إخواني في الدين، وإخواني في طلب اليقين أن الناس يقولون إن الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق، وهذا العالم مخصوص بوجهين: الأول أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سبباً لذلك، والدعاء له أثر عند الله. والثاني ما يتعلق بمصالح الأطفال والأولاد والمعارف وأداء المظالم والجنايات. أما الأول فاعلم أنني كنت رجلاً محباً للعلوم فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كميته وكيفيته سواء كان حقاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً. إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتمدة لي، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزّه عن مماثلة المتحيزات والأعراض، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة. وقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن. إنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات. وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك الأودية العميقة، والمناهج الخفية فلماذا أقول:

كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده ووحدته وبرأته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك الذي أقول به وألقى الله تعالى به. وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق

عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو. والذي / ٦٤ / لم يكن كذلك، أقول: يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فلك ما مر به قلبي أو خطر ببالي فاستشهد علمك. وأقول: إن علمت مني أنني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله؛ وإن علمت مني أنني ما سعت إلا في تقرير ما اعتقدت أنه هو الحق، وصورت أنه هو الصدق، فلتكن رحمتك معي فذاك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة. فأعني، وارحمني، واستر زلتي، وامح حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينتقص بخطأ المجرمين. وأقول: ديني متابعة سيد المرسلين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما. اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقييل العثرات، ويا راحم العبرات، ويا قيّام المحدثات والممكنات. أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت: أنا عند ظن عبدي بي. وأنت قلت: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾^(١) وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾^(٢) فهب أنني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم، وأنا المحتاج اللئيم. واعلم أنه ليس لي أحد سواك، ولا أجد أكرم منك ولا أحداً محسناً سواك، وأنا معترف بالزلة والقصور، والعيب والفتور، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمناً من عذابك قبل الموت، وعند الموت، وبعد الموت، وسهل علي سكرات الموت، وخفف عني نزول الموت، ولا تضيق علي سبب الآلام والأسقام، فأنت أرحم الراحمين.

وأما الكتب العلمية التي صنفتها واستكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه، على سبيل التفضيل والإنعام، وليحذف القول السيء؛ فإنني ما أردت إلا تكثير البحث وتشحيد الخواطر والاعتماد في الكل على الله تعالى.

وأما المهم الثاني / ٦٥ / وهو إصلاح أمر الأطفال والعورات والاعتماد فيه على الله تعالى، ثم على نائبه في أرضه السلطان محمد. اللهم اجعله قرين محمد الأكبر في الدين والعلو، إلا أن السلطان الأعظم لا يمكنه أن يشتغل بمهمات الأطفال، فرأيت أن أفوض وصاية ولدي إلى فلان، وأمرته بتقوى الله تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ﴾^(٣).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٦.

(١) سورة النمل: الآية ٦٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٨.

وسرد الوصية إلى آخرها، ثم قال:

وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي أبي بكر. فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه، ولعل الله تعالى يوصله إلى خير. وأمرته وأمرت تلامذتي وكل من لي عليه الحق أني إذا مت يبالغون في إخفاء موتي، ولا يخبرون أحداً به، ويكفونني ويدفنونني على الوجه الشرعي، ويحملونني إلى الجبل المصاقب لقريّة مزرجان، ويدفنونني هناك. وإذا وضعوني في اللحد قرأوا علي ما قدروا عليه من آيات القرآن، ثم ينثرون علي التراب. بعد الإتمام ويقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج إليك فأحسن إليه. وهذا منتهى وصيتي من هذا الباب، والله تعالى الفعال لما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة والإحسان جدير.

ومن شعر فخر الدين ابن الخطيب أنشدني بديع الدين السكري مما سمعه من الشيخ فخر الدين ابن خطيب الري لنفسه فمن ذلك قال: [من الطويل]

نهاية إقدام العقولِ عقالٌ	وأكثرُ سعيِ العالمينَ ضلالٌ
وأرواحنا في غفلةٍ منْ جُسومِنا	وحاصلُ دُنْيانا أذى ووبالٌ
ولمْ نستفدْ منْ بحثِنا طولَ عُمرِنا	سِوَى أنْ جَمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا منْ رجالٍ ودولةٍ	فبادُوا جميعاً مُسرعينَ وزالوا
وكم من جبالٍ قد علَتْ شُرفائِها	فزالوا جميعاً والجبال جبال

وقال: [من الطويل]

فلو قنعتُ نفسي بميسورِ بُلغةٍ	لما سبقتُ في المَكْرَماتِ رجالَها
/٦٦/ ولو كانتِ الدنيا مناسبةً لها	لما استحققتُ نُقصانَها وكمالَها
ولا أرمقُ الدنيا بعينِ كَرامةٍ	ولا أتوقّى سُوءَها واختلالَها
وذلك أني عارفٌ بَقَنائِها	ومُستيقنٌ تَرَحّالِها وانحلالَها
أرومُ أموراً يصغرُ الدهرُ عندها	وتستعظمُ الأفلاكُ طُرُقَ اتصالِها

وقال أيضاً: [الطويل]

أرواحنا ليسَ تَدري أينَ مَذْهَبُها	وفي الترابِ تُوارى هذه الجُثثُ
كُونُ يُرى وفسادٌ جاءَ يتبعُها	اللهُ أعلمُ ما في خَلْقِهِ عَبَثٌ ^(١)

ومنهم:

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٦٢-٤٧٠.

[٢٣]

القطب المصري، وهو إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، أبو إسحاق، الإمام قطب الدين^(١)

وكان قطب دائرة، ومركز شهب سائرة، ومظهر عجائب، ومشهر غرائب، ومُبين فضائل، ومُفنن خمائل، وآية فضل تدرس ومعالها واضحة، وعلومها ناضحة، وهو وإن كان من الغرب مرماء، فإن في المشرق منما، وهكذا صاحب تاريخ الأطباء وسماه، وما عدا في هذا واجباً، ولا نكب عن الحق جانباً إذ كان إنما استفاد المشرق وغاية المعلم الذي به ذكر، والفضل الذي عليه قصر.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): قديم أصله مغربي، وأتى مصر وأقام بها مدة، ثم سافر إلى بلاد العجم. ولقي الإمام الرازي فلزمه واشتغل عليه واشتهر هناك، وكان من أجل تلاميذ ابن الخطيب وأميزهم. وصنف كتباً كثيرة في الطب والحكمة، وشرح الكليات بأسرها. قال: ووجدته في كتابه هذا يفضل المسيحي وابن الخطيب على ابن سينا، قال: وهذا نص قوله:

والمسيحي أعلم بصناعة الطب من أبي علي فإن مشايخنا كانوا يرجحونه على جمع عظيم ممن هم أفضل من أبي علي في هذا الفن. وقال أيضاً: عبارة المسيحي أوضح وأبين مما قاله الشيخ وغرضه في كتبه تقييد العبارة من غير فائدة وقال في تفضيل ابن الخطيب على ابن سينا: / ٦٧ / فهذا ما تنخل من كلام الإمامين الفاضلين العظيمين الإمام المتقدم، والإمام المتأخر عنه زماناً، الراجح عليه علماً وعملاً واعتقاداً ومذهباً. وقتل القطب المصري في نيسابور فيمن قتله التتار بها رحمه الله تعالى. ومنهم:

(١) إبراهيم بن علي بن محمد السلمي، المعروف بالقطب المصري: طبيب، مغربي الأصل، أقام مدة بمصر ورحل إلى خراسان فتتلمذ للفخر الرازي، وصنفا كتباً في الطب والفلسفة، وشرح «الكليات - خ» من كتاب «القانون» لابن سينا، في شسترتي (٤١٣٣) ومنه مخطوطة في استنبول. وقتل بنيسابور لما استباحها التتار سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م). ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧١، وطبقات الشافعية للإسنوي ٤٤٦/٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤٨/٥، ١٢١/٨، ١٢٢، والوافي بالوفيات ٦٩/٦ رقم ٢٥٠٨، معجم الأطباء ٥٨، طبقات الأطباء طويقبو ٣/٨١٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣٨٣/٢ رقم ٥٥١٠، والمقفى الكبير ٢٠٨/١-٢٠٩ رقم ٢٣٠، وحسن المحاضرة ٣١٢/١، وهديّة العارفين ١١/١، والأعلام ٥١/١، ومعجم المؤلفين ٦٧/١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦١١-٦٢٠هـ ص ٣٩٦ رقم ٥١٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٧١.

[٢٤]

عبد اللطيف البغدادي، هو ابن يوسف [بن] محمد بن علي بن أبي سعيد، عرف بابن اللباد، موفق الدين، أبو محمد، الموصلي الأصل، البغدادي المولد، ويعرف بالجدي المطبَّج^(١)

مَسْرَحَ أمل، ومطمح علم وعمل، وزينة أرض ما هي في السماء لجدي ولا حَمَل، ناطح جديه الكباش فكسرها، ومزقها بظلفه ونسرها، إلى أن أخلى منها

(١) عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة: من فلاسفة الإسلام، وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والتاريخ والبلدان والأدب. مولده سنة (٥٥٧هـ / ١١٦٢م) في بغداد ووفاته فيها سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) أقام مدة بحلب، وزار مصر والقدس ودمشق وحران وبلاد الروم وملطية والحجاز وغيرها. وحظي عند الملوك والأمراء. وكان دميم الخلقة قليل لحم الوجه، قوي الحافظة. من كتبه «الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار - ط» رسالة، و«قوانين البلاغة» و«الإنصاف بين ابن بري وابن الخشاب» في كلامهما على المقامات، و«الجامع الكبير» في المنطق الطبيعي والإلهي، عشر مجلدات، و«بلغة الحكيم» و«الكلمة في الربوبية» و«الحكمة الكلامية» و«تهذيب كلام أفلاطون» و«القياس» أربع مجلدات، و«السماع الطبيعي» و«غريب الحديث» و«المغني الجلي - خ» في الحساب، و«التجريد - خ» في اللغة، و«ملخص مقالات التاج - خ» في الحلية النبوية، و«ذيل الفصح - ط» لثعلب، و«شرح أحاديث ابن ماجه المتعلقة بالطب» واختصر كتباً كثيرة، منها الحيوان للجاحظ، وكتاب في النبات، وكتب رحلات وصف بها أسفاره والبلدان التي زارها. وله رسائل صغيرة سماها «مقالات» منها «النفس» و«العلم الإلهي» و«الماء» و«الحركات المعتاصة» و«العادات» و«حقيقة الدواء والغذاء» و«الحواس» و«النفس والصوت والكلام» و«المدينة الفاضلة» و«العلوم الضارة» و«تزييف ما يعتقد ابن سينا» و«إبطال الكيمياء» و«اللغات وكيفية تولدها» و«القدر».

ترجمته في: التقييد لابن نقطة ٣٨٢-٣٨٣ رقم ٤٩٥، وذيل تاريخ بغداد لابن الدبيشي ٢٦٧/١٥، وإنباه الرواة للقفطي ١٩٣/٢، والتكملة لوفيات النقلة ٢٩٧/٣-٢٩٨ رقم ٢٣٦٨، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٦٨٣-٦٩٦، وسير أعلام النبلاء ٣٢٠-٣٢٣ رقم ١٩٥، والمختصر المحتاج إليه ٦٥-٦٦ رقم ٨٦٢، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٥٩، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣١، والمعين في طبقات المحدثين ١٩٤ رقم ٢٠٥٤، وتذكرة الحفاظ ١٤١٤/٤، والعبر ١١٥/٥-١١٦، وتلخيص ابن مكنوم، ورقة ١١٤-١١٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٧٣-١٧٤ رقم ١٢٨، وفوات الوفيات ١٦/٢-١٩، ومرآة الجنان ٦٨/٤، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢٧٣-٢٧٤، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٣٢/٥، ٣١٣/٨ رقم ١٢١٧، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧١، وذيل التقييد للفاسي ١٥٠-١٥١ رقم ١٣٢٧، والوافي بالوفيات ١٠٧/١٩-١١٥ رقم ٩٩ مكرر، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٣، وطبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شهبه، رقة ١٩٠-١٩١، وطبقات الشافعية، له ٤١٠/٢ =

المظان، وأبدل بسواد المعزى بياض الضَّان، وأعطاه أهل زمانه حقه في التعظيم وغمط، وناظر كل قرين وهو الجدي وغيره الذي سُمط، فهادنته جناة الذئاب، وهابته جناة القرظ وطال عليهم الاياب، وجال في الجيل الأول وقد شمش بقرنه، وسمح لقرنه، وجلّ فلم ينتسب إليه كل عنزي من عنزة، ولا حسب كفوءاً لقرنه كبش كتيبة، ولا حديد عنزة، وأنسى كل من تقدمه هدياً، وفخر به كل بلد قدمه وقدمت دمشق جدياً، وعلم العلم أنه له منتصب، وقامت قامة بلده وقد قيل لها حدياء؛ لأنها تصحيفه إذا نصب.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان مشهوراً بالعلوم، متحلياً بالفضائل، مليح العبارة، جيد التصنيف. وكان متميزاً في النحو واللغة والعربية، عارفاً بعلم الكلام والطب. وكان قد اعتنى كثيراً بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها. وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه؛ وكان والده قد أشغله بصناعة الحديث في صباه. وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشغولاً بعلم الحديث، بارعاً في علوم القرآن والقراءات، محموداً في المذهب والخلاف والأصول. وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين [فقيهاً مجيداً. وكان الشيخ موفق الدين] عبد اللطيف كثير الاشتغال لا يخلي أشياء من أوقاته من النظر في الكتب / ٦٨ / والتصنيف والكتابة والذي وجدته من خطه أشياء كثيرة جداً بحيث إنه كتب من مصنفاته نسخاً متعددة، وكذلك صحبة كثيرة بالديار المصرية لما كان بها. وكان أبي وعمي اشتغلا عليه بعلم الأدب. واشتغل عليه عمي أيضاً بكتب أرسطوطاليس. وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها، والفهم لمعانيها. وأتى إلى دمشق من الديار المصرية، وأقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمه. ورأيت في آخر مرة بدمشق، وهو شيخ نحيف الجسم، ربع القامة، حسن الكلام، جيد العبارة؛ وكانت مسطرته أبلغ من لفظه. وكان رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه. وكان ينتقص الفضلاء الذين في زمانه وكثيراً من المتقدمين. وكان وقوعه كثيراً جداً في علماء العجم ومصنفاتهم، وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه.

ونقلت من خطه في سيرته التي ألفها ما هذا مثاله قال: «إني ولدت بدار لجدي في درب الفالوذج في سنة سبع وخمسين وخمسمائة وتربيت في حجر الشيخ لا أعرف

⁼ رقم ٣٧٨، والمسجد المسبوك ٤٥٠/٢، وبغية الوعاة ٣١١/٢ رقم ١٥٥٥، وكشف الظنون ٣٠ وغيرها، وشذرات الذهب ١٣٢/٥، وهدية العارفين ٦١٤/١، وديوان الإسلام ١٥٧-١٥٥/٤ رقم ١٨٧٤، والأعلام ٦١/٤، ومعجم المؤلفين ١٥/٦، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٢١-٦٣٠هـ) ص ٣٥٣ رقم ٥٢٢.

(١) عيون الأنباء ٦٨٣.

اللهو واللعب، وأكثر زمانني مصروف في سماع الحديث، وأخذت لي إجازات من مشايخ بغداد وخراسان والشام ومصر. وقال لي والذي يوماً: قد سمعتك جميع عوالي بغداد. [وكنت في أثناء ذلك] أتعلم الخط، وأحفظ القرآن والفصيح، والمقامات، وديوان المتنبي ونحو ذلك، ومختصراً في الفقه، ومختصراً في النحو. فلما ترعرعت حملني والذي إلى كمال الدين عبد الرحيم الأنباري، وكان يومئذ شيخ بغداد، وله بوالدي صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية. فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذى كلاماً كثيراً متتابعاً فلم أفهم منه شيئاً، لكن التلاميذ حوله تعجبوا منه. ثم قال: أنا أجفو عن تعليم الصبيان احمله إلى تلميذي الوجيه [يقرأ عليه فإذا توسطت حاله قرأ علي. وكان الوجيه] عند بعض أولاد رئيس الرؤساء، وكان رجلاً أعمى من أهل الثروة والمروءة. فأخذني بكلتي يديه، وجعل يعلمني من أول النهار إلى آخره / ٦٩ / بوجوه كثيرة من التلطف، وكنت أحضر بحلقته بمسجد الظفرية، ويجعل جميع الشروحات لي ويخاطبني بها. وفي آخر الأمر أقرأ درسي ويخصني بشرحه. ثم نخرج من المسجد فيذاكرني في الطريق، فإذا بلغنا منزله أخرج الكتب التي يشتغل بها مع نفسه فأحفظه وأحفظ معه، ثم يذهب إلى الشيخ كمال الدين، فيقرأ درسه ويشرح له، وأنا أسمع. وتخرجت إلى أن صرت أسبقه في الحفظ والفهم، وأصرف أكثر الليل في الحفظ والتكرار، وأقمنا على ذلك برهة، كلما جاء حفطي كثر وزاد، وفهمي قوي واستثار، وذهنني احتد واستقام، وأنا أأزم الشيخ وشيخ الشيخ. وأول ما بدأت حفظت اللمع في ثمانية أشهر، أسمع كل يوم شرح أكثرها مما يقرؤه غيري، وانقلب إلى بيتي فأطالع شرح الفارسي، وشرح الشريف عمر بن حمزة، وشرح ابن برهان، وكل ما أجد من شروحها. وأشرحها لتلاميذ بحضوري إلى أن صرت أتكلم على باب باب كرايس، ولا ينفد ما عندي. وحفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظاً متقناً. أما النصف الأول ففي شهور. وأما تقويم اللسان ففي أربعة عشر يوماً؛ لأنه كان أربع عشرة كراسة. ثم حفظت مشكل القرآن وغريب القرآن له، وكان ذلك في مدة يسيرة. ثم انتقلت إلى الإيضاح لأبي علي الفارسي فحفظته في شهور كثيرة، ولازمت شروحه، وتتبعته التبع التام، وتبحرت فيه وجمعت ما قال الشراح. وأما التكملة فحفظتها في أيام يسيرة كل يوم كراساً، وطالعت الكتب المبسوطة والمختصرات وواظبت على المقتضب للمبرد، وكتاب ابن درستويه. في أثناء ذلك لا أغفل عن سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضالان بدار الذهب، وهي مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب.

قال: وللشيخ كمال الدين مائة وثلاثون تصنيفاً، أكثرها في النحو وبعضها في

الفقه وفي الأصولين وفي التصوف والزهد، وأتيت على أكثر تصانيفه / ٧٠ / سماعاً وقراءة. وشرع في تصنيفين كبيرين أحدهما في اللغة، والآخر في الفقه، ولم يتفق له إتمامها، وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه وأكبت على المقتضب فأتممته. بعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافي. ثم قرأت على أبي عبيدة الكرخي كتباً كثيرة منها كتاب الأصول لابن السراج، والنسخة في وقف ابن الخشاب بالمأمونية. وقرأت عليه الفرائض والعروض للخطيب التبريزي، وهو من خواص تلاميذ ابن الشجري. وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءاته معاني الزجاج على الكاتبة شهدة بنت الابري، وسمعت منه الحديث المسلسل وهو: «الراحمون يرحمهم الرحمن؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقال أيضاً موفق الدين البغدادي: إن من مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد أمين الدولة بن التلميذ. وبالغ في وصفه وكثر، وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين، وإلاً فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة ولا قريباً منها.

وقال: إنه ورد إلى بغداد رجل مغربي طوال في زي التصوف له أبهة، وليس بمقبول الصورة، عليه مسحة الدين، وهياة السياحة، يتعقل لصورة من يراه يعرف بابن نائلي، يزعم أنه من أولا المتلثمة. خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن. فلما استقر ببغداد اجتمع إليه جماعة من الأكابر والأعيان، وحضر الرضي القزويني، ومشايخ الشيوخ. وكنت واحداً ممن حضره فافتراني مقدمة حساب، ومقدمة ابن بابشاذ في النحو، وكان له طريق في التعلم عجيب. ومن يحضره يظن أنه متبحر وإنما كان متطرفاً، لكنه قد أمعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما جرى مجراها، وأتى على كتب جابر بأسرها، وعلى كتب ابن وحشية. وكان يخلب القلوب بصورته ومنطقة وإيهامه. فملاً قلبي شوقاً إلى العلوم كلها، واجتمع بالإمام الناصر لدين الله وأعجبه. ثم سافر وأقبلت على الاشتغال، وشمرت / ٧١ / ذيل الجد والاجتهاد، وهجرت النوم واللذات، وأكبت على كتب الغزالي المقاصد، والمعيار، والميزان، ومحك النظر. ثم انتقلت إلى كتب ابن سينا صغارها وكبارها، وحفظت كتاب النجاة، وكتبت الشفاء وبحثت فيه، وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سينا وحصلت كثيراً من كتب جابر بن حيان الصوفي وابن وحشية وباشرت على الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة، وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة الذي تتم به فلسفته التي لا تزدد بالتمام إلا نقصاً.

قال: ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ

بقلي ويملاً عيني، ويحل ما يشكل عليّ، حتى دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي، لكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً في باقي أجزاء الحكمة، قد استغرق عقله وحسه حسرة الكيمياء وعملها، حتى صار يستخف ما عداها. واجتمع إليّ جماعة كثيرة، وعُرضت عليّ مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها. وأقمت بالموصل سنة كاملة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً، وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا أحداً من قبلي مثل ما رأوا مني في سعة المحفوظ، وسرعة الخاطر وسكون الطائر، وسمعت الناس يلهجون في حديث الشهاب السهروردي المتفلسف، ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين، وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء، فهممت لقصده، ثم أدركني التوفيق، وطلبت من ابن يونس شيئاً من تصانيفه، وكان أيضاً معتقداً عليه فوقفت على التلويحات، واللمحة، والمعارج، فصادت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان، ووجدت لي تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأول. وفي أثناء كلامه يثبت حروفاً مقطعة يوهم بها أمثاله أنها من أسرار إلهية.

قال: / ٧٢ / ولما دخلت إلى دمشق، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي، جمعاً كثيراً، منهم: جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبي النجيب، وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء، وابن طلحة الكاتب، وبيت ابن جهير، وابن العطار المقتول الوزير، واجتمعت بالكندي البغدادى النحوي، وجرى بيننا مباحثات، وكان شيخاً ذكياً ثرياً، له جانب من السلطان، لكنه كان معجباً بنفسه مؤذياً لجليسه، جرت بيننا مباحثات، فأظهرني الله عليه في مسائل كثيرة. ثم أني أهملت جانبه، فكان يتأذى بإهمالي له أكثر ما يتأذى به الناس منه.

وعملت بدمشق تصانيف جمة منها: غريب الحديث الكبير، جمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطابي، وكنت ابتدأته بالموصل، وعملت له مختصراً سمّيته المجرد، وعملت كتاب الواضحة في إعراب الفاتحة نحو عشرين كراساً، وكتاب الألف واللام، وكتاب رُبِّ، وكتاباً في الصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلمين. وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندي، ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن بابلي نازلاً بالمأذنة الغربية، وقد عكف عليه جماعة، وتحدث الناس فيه له وعليه، وكان الخطيب الدولعي عليه، وكان من الأعيان له منزلة وناموس. ثم خلط ابن بابلي على نفسه فأعان عدوه عليه، وصار يتكلم في الكيمياء والفلسفة، وكثر التشنيع عليه. واجتمعت به وصار يسألني عن أعمال اعتقد أنها خسيصة

نزرة، فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها مني، فكاشفته فلم أجده كما كان في نفسي، فساء به ظني وبطريقه، ثم باحثته في العلوم فوجدت عنده منها أطرافاً نزرة، فقلت له يوماً: لو صرفت زمانك الذي ضيعته في طلب الصنعة إلى بعض العلوم الشرعية والعقلية / ٧٣ / كنت اليوم فريد عصرك، مخدوماً طول عمرك، وهذا هو الكيمياء لا ما تطلبه. ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله، والسعيد من وعظ بغيره. فأقلعت ولا كل الإقلاع. ثم إنه توجه إلى صلاح الدين بظاهر عكا وشكا إليه الدولعي، وعاد مريضاً وحمل إلى البيمارستان فمات. وأخذ كتب المعتمد مشيخة دمشق وكان متيمماً بالصنعة. ثم أني توجهت إلى زيارة البيت المقدس، ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا واجتمعت ببهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ، وكان قد اتصل به خبري بالموصل، فانبسط إليّ وأقبل علي. وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب، وخيمته إلى خيمة بهاء الدين، فوجدته يكتب كتاباً إلى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة. وقال: هذا كتاب إلى بلدكم، وذاكرني في مسائل في علم الكلام، وقال: قوموا بنا إلى القاضي الفاضل فدخلنا عليه، فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكان يكتب بجملته أعضائه. وسألني القاضي الفاضل عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوُوبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾^(١) أين جواب إذا. وأين جواب لو في قوله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾^(٢) وعن مسائل كثيرة، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والإملاء. وقال لي: ترجع إلى دمشق، وتجري عليك الجرايات، فقلت: أريد مصر، فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها، فقلت: لا بد لي من مصر، فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها.

فلما دخلت القاهرة جاء وكيله، وكان شيخاً جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلني داراً قد أزيحت عللها، وجاءني بدنانير وغلة. ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل فدرت الهدايا والصلات من كل جانب. وكان كل عشرة أيام ونحوها تصل تذكرة القاضي / ٧٤ / الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة، وعليها فصل فصل تأكيد الوصية في حقي. فأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ أقرئ الناس، وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس ياسين السماني، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي، وأبو القاسم الشارعي، وكلهم جاءوني. أما ياسين فوجدته محالياً كذاباً، يشهد للساقاني

بالكيمياء، ويشهد له الساقاني بالسيما، ويقول عنه أنه يعمل أعمالاً يعجز موسى بن عمران عنها. وأنه يحضر المضروب متى شاء، وبأي مقدار شاء، وبأي سكة شاء. وأنه يجعل ماء النيل خيمة، ويجلس فيها وأصحابه تحتها. وكان ضعيف الحال. وجاءني موسى فوجدته فاضلاً في الغاية قد غلب عليه حب الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا. وعمل كتاباً في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس، ومن خمسة كتب أخرى، وشرط أن لا يغير فيه حرفاً إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل، وإنما ينقله فصلاً يختارها. وعمل كتاباً لليهود وسماه كتاب الدلالة، ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني. ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها، وكنت ذات يوم بالمسجد، وعندى خلق كثير، فدخل شيخ رث الثياب، نير الطلعة، مقبول الصورة، فهابه الجميع، ورفعوه فوقهم، وأخذت في إتمام كلامي، فلما تصرم المجلس، جاء إمام المسجد وقال: أتعرف هذا الشيخ؟ هذا أبو القاسم الشارعي، فاعتنقته وقلت: إياك أطلب، فأخذته إلى منزلي، وأكلنا الطعام، وتفاوضنا الحديث، فوجده كما تشتهي النفس، وتلذذ العين. سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته. قد رضي من الدنيا بالقليل، لا يتعلق بشيء منها يشغله عن طلب الفضل، ثم لازمني فوجدته قيماً بكتب القدماء، وكتب أبي نصر الفارابي، ولم يكن لي اعتقاد في هؤلاء؛ لأنني كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه، فكنا إذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن، / ٧٥ / ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجة. وأنا فلا تلين قناتي لغمزه، ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه، فصار يجذبني شيئاً بعد شيء من كتب أبي نصر والاسكندر وثامسطيوس، يؤنس بذلك نفاري، ويلين عريكة شماسي حتى عطف عليه أقدم رجلاً وأءخر أخرى.

وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج، وعاد إلى القدس، فقادت الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني، وتوجهت إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة. قريباً بعيداً، سهلاً مجيباً، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾^(١) وأول ليلة حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك، ويأتي بكل معنى بديع. وكان مهتماً في بناء سور بيت المقدس وحفر خندقه،

يتولى ذلك بنفسه، ويحمل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، فيأتي داره، فيمد السماط فيأكل ويستريح. ويركب العصر ويرجع في المشاعل، ويصرف أكثره في ما يعمل نهاراً. فكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع بدمشق وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار.

ورجعت إلى دمشق، وأكبيت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع. وكلما أمعنت في كتب القدماء ازددت فيها رغبة، وفي كتب ابن سينا زهادة. واطلعت على بطلان الكيمياء، وعرفت حقيقة الحال في وضعها، ومَن وضعها، وكذب بها، وما كان قصده في ذلك. وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين. وتضاعف شكري لله تعالى على ذلك، فإن أكثر الناس إنما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء.

/٧٦/ ثم إن صلاح الدين دخل دمشق، وخرج يودع الحجاج، ثم رجع فحمّ، فقصده من لا خبرة عنده فخارت القوى، ومات قبل الرابع عشر، ووجد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبياء. وما رأيت ملكاً حزن الناس لموته سواه؛ لأنه كان محبوباً يحبه البر والفاجر، والمسلم والكافر. ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادي سباً، ومزقوا في البلاد كل ممزق، وأكثرهم توجه إلى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها.

أقمت بدمشق وملكها الملك الأفضل وهو أكبر الأولاد في السن إلى أن جاء الملك العزيز بعساكر مصر يحاصر أخاه بدمشق، فلم ينل منه بغية. ثم تأخر إلى مرج الصفر لقولنج عرض له فخرجت إليه بعد خلاصه منه، فأذن لي في الرحيل معه، وأجرى عليّ [من] بيت المال كفايتي وزيادة.

وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلازمني صباحاً ومساءً إلى أن قضى نحبه. ولما اشتد مرضه، وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه، وأشرت عليه بدواء فأنشد:

[المديد]

أَذُوذُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ
ثم سأله عن ألمه فقال: [من الخفيف]

مَا لُجِرَ بِمَيِّتٍ إِلَّا

وكان سيرتي في هذه المدة، أنني أقرئ الناس في الجامع الأزهر إلى نحو الساعة الرابعة. وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع، فيقرأ قوم آخرون. وفي الليل أشتغل مع نفسي. ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز، وكان شاباً كريماً، شجاعاً، كثير الحياء لا يحسن قول لا. وكان مع حدثه سنه

وشرة شبابه كامل العفة عن الأموال والفرج.

أقول: ثم إن الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة، وله الراتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين، وأتى إلى مصر ذلك الغلاء العظيم والموت الذي لم يشاهد مثله. وألف الشيخ موفق الدين في ذلك كتاباً ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها / ٧٧ / ممن عاينها تذهل العقل، وسمى ذلك الكتاب كله «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر».

ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق، وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين، وانتزع ملكهم توجه الشيخ موفق الدين إلى القدس، وأقام به مدة. وكان يتردد إلى الجامع الأقصى ويشغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنف هنالك كتباً كثيرة. ثم إنه توجه إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية، وذلك في سنة أربع وستمئة، وشرع في التدريس والاشتغال، وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرأون أصنافاً من العلوم. وتميز في صناعة الطب بدمشق، وصنف في هذا الفن كتباً كثيرة وعرف به. وأما قبل ذلك فإنما كانت شهرته بعلم النحو، وأقام بدمشق مدة وانتفع به الناس. ثم إنه سافر إلى حلب، وقصد بلاد الروم، وأقام بها سنين كثيرة، وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان. وكان مكيئناً عنده، عظيم المنزلة، وله منه الجامكية الوافرة، والصلوات المتواترة، وصنّف باسمه عدة كتب. وكان هذا الملك عالي الهمة، كثير الحياء، كريم النفس. وقد اشتغل بشيء من العلوم. ولم يزل في خدمته إلى أن استولى على ملكه صاحب أرزن الروم، وهو السلطان كيخسرو بن قلج أرسلان، فقبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر.

قال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف: ولما كان في سابع عشر ذي الحجة من سنة خمس وعشرين وستمئة، توجهت إلى أرزن الروم، وفي حادي عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمئة، رجعت إلى أرزنجان من أرزن الروم، وفي نصف ربيع الأول توجهت إلى كماخ، وفي جمادى الأولى توجهت منها إلى دير زكي، وفي رجب توجهت منها إلى ملطية، وفي آخر / ٧٨ / رمضان توجهت منها إلى حلب.

أقول: وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه، وكثرت تصانيفه. وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك العسكر بحلب جاري حسن، وهو متخلي لتدريس صناعة الطب وغيرها، ويتردد إلى الجامع يسمع الحديث ويقرئ العربية. وكان دائم الاشتغال، ملازماً للكتابة والتصنيف. ولما أقام بحلب قصدت أن

أتوجه إليه واجتمع به فلم يتفق ذلك، وكانت كتبه أبداً تصل إلينا ومراسلاته، وبعث إليّ بأشياء من تصانيفه بخطه، وهذا نسخة كتاب كتبه إليه لما كان بمدينة حلب: «المملوك يواصل بدعائه وثنائه، وشكره وانتمائته إلى عبودية المجلس السامي المولوي، السيدي السندي، الأجلي الكبير، العالمي الفاضلي، موفق الدين، سيد العلماء في الغائبين والحاضرين، جامع العلوم المتفرقة في العالمين، ولي أمير المؤمنين. وأوضح الله به سبل الهدى والهداية، وأنار ببقائه طرق الدراية، وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية. ولا زالت سعاداته دائمة البقاء، وسيادته سامية الارتقاء، وتصانيفه في الآفاق قدوة العلماء، وعمدة سائر الأدباء والحكماء. المملوك يجدد الخدمة، ويهدي من السلام أطيبه، ومن الشكر والثناء أعذبه، وينهي ما يكابده من أليم التطلع إلى مشاهدة أنوار شمس المنيرة، وما يعانیه من الارتياح إلى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة، وما تزايد من القلق، وتعظم عند سماعه قرب المزار من الأرق: [من الوافر]

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا إِذَا دَنَتْ الدِّيارُ مِنَ الدِّيارِ
ولولا أمل قفول الركاب العالي، ووصول الجنب الموفق الجلالی، لسارع المملوك إلى الوصول، ولبادر المبادرة بالمثل، ولجاء إلى شريف خدمته وفاز /٧٩/
بالنظر إلى بهي طلعه. فيأ سعادة من فاز بالنظر إليه، ويا بشرى من مثل بين يديه، ويا هناء من حظي بوجه إقباله عليه، ومن ورد بحار فضله روي من نديرها، واستضاء بشمس علمه، فسرى في ضياء منيرها، نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع، وتحصيل الجمع بين مسرتي الأبصار والأسماع، بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

ومن مراسلات الشيخ موفق الدين عبد اللطيف أنه بعث إلى أبي في أول كتاب، وهو يقول فيه عتي: ولد الولد أعز من الولد. وهذا موفق الدين ولد ولدي وأعز الناس عندي، وما زالت النجابة تبين لي فيه في الصغر. ووصف واثنى كثيراً.

وقال فيه: «لو أمكنني أن آتي إليه بالقصد ليشغل علي لفعلت».

وبالجملة فإنه كان قد عزم أن يأتي دمشق ويقيم بها، ثم خطر له أنه كان يحج قبل ذلك، ويجعل طريقه على بغداد. وأن يُقدّم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه. ولما وصل إلى بغداد مرض في أثناء ذلك.

وتوفي رحمه الله يوم الأحد ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة، ودفن بالوردية عند أبيه، وذلك بعد أن خرج عن بغداد، وبقي غائباً عنها خمساً وأربعين عاماً. ثم إن الله تعالى ساقه إليها وأماته بها.

ومن كلام موفق الدين عبد اللطيف، مما نقلته من خطه قال:

«ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى فراشك، وتنظر ما اكتسبت في

يومك من حسنة تشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة تستغفر الله منها، وتقلع عنها. وترتب في نفسك ما تعمله في غدك من الحسنات، وتسأل الله تعالى الإعانة على ذلك». وقال: «أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب، وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم. وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه، ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه. وعليك بتعظيمه وترحيبه، وإن قدرت أن تفيده من دنيائك فافعل، وإلا بلسانك وثنائك. / ٨٠ / وإذا قرأت كتاباً فأحرص كل الحرص على أن تستظهره، وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم، وأنت مستغن عنه، لا تحزن لفقده. وإذا كنت مكباً على قراءة كتاب وتفهمه فإياك أن تشتغل بآخر غيره معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه. وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله. فإذا قضيت وطرك فانتقل إلى علم آخر. ولا تظن أنك إذا حصلت علماً فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته؛ [ومراعاته] تكون بالمذاكرة والتفكير، واشتغال العلم بالتعليم والتصنيف. وإذا تصديت لتعلم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره، فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه كمن يستعين بلغة أخرى إذا ضاقت عليه أو جهل بعضها».

وقال: «وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم، وعرف خيرهم وشرهم».

قال: «وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول، فأقرأ سيرة النبي ﷺ، وتتبع أحواله وأفعاله، واقتف آثاره ما أمكنك، وبقدر طاقتك. وإذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه، ومنامه، ويقظته، وتمرضه، ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأفعاله مع أعدائه، وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد».

قال: «وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم، وتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار، ومع الاستبداد الزلل. ومن يتردد إلى أبواب العلماء، لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس، ومن لم ييكتوه لم يسد، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن / ٨١ / لم يكدح لم يفلح. وإذا خلوت من التعلم والتفكير فحرك لسانك بذكر الله وبتسابيحه، وخاصة عند النوم، فتشربه لبك، ويتعجن في خيالك، وتتكلم به في منامك. وإذا حدث لك فرح أو سرور ببعض أمور الدنيا، فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات؛ وإذا حزبك أمر، فاسترجع، وإذا اعترتك غفلة، فاستغفر، واجعل الموت نصب عينك، والعلم والتقى زادك إلى الآخرة. وإذا طلبت أن تعصي

الله، فاطلب مكاناً لا يراك فيه. واعلم أن الناس عيون الله على العبد يريهم خيره وإن أخفاه، وشره وإن ستره، فباطنه مكشوف لله، والله يكشفه لعباده. فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهره، وسرك أصح من علانيتك. ولا تتألم إذا عرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل. وقلما يتعلق في العلم ذو الثروة، إلا أن يكون شريف الهمة جداً، وأن يثري بعد تحصيل العلم. وإني لا أقول: إن الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها؛ لأن همة مصروفة إلى العلم فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجودها، فإذا غفل عن أسبابها، لم تأت وأيضاً فإن طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة، والمكاسب الدنية، وعن أصناف [التجارات]، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أحوالهم. ولبعض إخواننا بيت شعر: [من الكامل]

مَنْ جَدَّ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ فَإِنَّهُ شَرَفُ الْعُلُومِ دَنَاءُ التَّحْصِيلِ
وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ لها وحذق فيها، وصرف الزمان إليها. والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك، وإنما ينتظر أن تأتبه الدنيا بلا سبب، وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها، وهذا ظلم منه وعدوان. ولكن إذا تمكن الرجل في العلم وشهر به، خطب من كل وجه وعرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور، وعرضه ودينه مصون. / ٨٢ / واعلم أن للدين عقبة وعرفاً ينادي على صاحبه، ونوراً وضياء يشرق عليه ويدل عليه، كتاجر المسك لا يخفى مكانه، ولا تجهل صناعته. وكمن يمشي بمشعل في ليل مُدْلهِم. والعالم مع هذا محبوب أينما كان، وكيفما كان، لا يجد إلا من يميل إليه، ويؤثر قربه ويأنس به، ويرتاح بمداناته. واعلم أن العلوم تغور، ثم تفور في زمان، وتغور في زمان بمنزلة النبات وعيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم ومن صقع إلى صقع.

وقال: «إياك والهذر، والكلام فيما لا يعني؛ وإياك والسكوت في محل الحاجة، ورجوع النوبة إليك إما لاستخراج حق، أو اجتلاب مودة، أو تنبيه على فضيلة. وإياك والضحك مع كلامك، وكبر الكلام، وتنبيهه. بل اجمع كلامك سرداً بسكون ووقار، بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه، وأنه عن خميرة سابقة، ونظر متقدم».

وقال: «إياك والغلظة في الخطاب، والجفاء في المناظرة. فإن ذلك يذهب بهجة الكلام، ويسقط فائدته، ويعدم حلاوته، ويجلب الضغائن، ويمحق المودات، ويصير القائل مستثقلاً، سكوته أشهى إلى السامع من كلامه، ويثير النفوس على معاندته، ويبسط الألسن بمخاشنته وإذهاب حرمة».

وقال: «لا تسترفع بحيث تستقل، ولا تتنازل بحيث تستخس وتستحقر». ومن دعائه رحمه الله قال: «اللهم أعذنا من شמוש الطبيعة، وجموح النفس

الردية. واسلس لنا مقاد التوفيق، وخذ بنا في سواء الطريق. يا هادي العمى؛ يا مرشد الضلال، يا محيي القلوب الميتة بالإيمان، يا منير ظلمة الضلالة بنور الإيقان؛ خذ بأيدينا من مهواة الهلكة، ونجنا من ردة^(١) الطبيعة، وطهرنا من درن الدنيا الدنية، بالإخلاص لك والتقوى. إنك مالك الآخرة والدنيا.

وله تسبيح أيضاً: «سبحان من عم بحكمته الوجود، واستحق بكل وجه أن يكون هو المعبود. / ٨٣ / تلاًأت بنور وجهك وجلالك الآفاق، وأشرقت شمس معرفتك على النفوس إشراقاً وأي إشراق»^(٢).

ومنهم:

[٢٥]

ابن الخُوئي، أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى
الشافعي، شمس الدين أبو العباس قاضي القضاة^(٣)

أوحد العلماء، مجموع الفضائل، دوحة مجد، اخضر فرعها، ودر كالمعصرات

(١) الردغة: الطين والوحل الشديد.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٨٣-٦٩٦.

(٣) أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، أبو العباس شمس الدين المهلب الخوي: قاض شافعي، من العلماء بالكلام. له معرفة بالطب. ولد في خوي (بأذربيجان) سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) وتعلم بها وبخراسان. ثم ولي قضاء القضاة بالشام. وتوفي بدمشق سنة (٦٣٧هـ/١٢٤٠م) له كتب، منها: كتاب في «علم الأصول» وكتاب قال ابن أبي أصيبعة: يشتمل على رموز حكمية صنفه للسلطان الملك المعظم، عيسى بن أبي بكر بن أيوب، و«السفينة النوحية - خ» في النفس والروح، ذكر في مقدمته أنه كان يزعم شرح كتاب الفخر الرازي في النفس وأحجم عنه إلى تأليف هذا الكتاب المختصر وضم فيه ما يغني عن التطويل. والنسخة خزائنية نفيسة كتبت سنة (٨٦٨)، وفي (٣١) ورقة، في مجموع بدمشق. وله كتاب في «العروض» قال أبو شامة؛ هو عندي بخطه. وهو والد القاضي محمد بن أحمد، المتوفى سنة ٦٩٣هـ كما في الأعلام.

ترجمته في: قلاند الجمان لابن الشعار ١/ ٢٤٩-٢٥١ رقم ٩٨، ومراة الجنان ج ٨ ق ٢/ ٨٣٠، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٥٣٧ رقم ٢٩٤١، والتاريخ المنصوري ١٢٢، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٦٤٦-٦٤٧، وذيل الروضتين ١٦٩، وبغية الطلب لابن العديم المصور ١٤٨/٢ رقم ٦٦، وتكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ١٠٦-١٠٩، ونهاية الأرب ٩/ ٢٧٢-٢٧٤، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٩، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦٤، والعبر ٥/ ١٥٢-١٥٣، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ٦٤-٦٥ رقم ٤٧، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤١٥، والمشتبه ١/ ١٩٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٠٠-٥٠١، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٥أ، ب، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥٥، والوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ٣٨٧٨، ونثر الجمان للشافعي ٢/ ورقة ١١٢-١١٣، ومراة الجنان ٤/ ٢٢٢، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨/ ١٦-١٧ رقم ١٠٤٤، وطبقات الشافعية

ضرعها، ومدّت الأفياء والظلال، وردّت الأحياء والضال، طال على يد المجتني منعها، وطاب ثمرها المثمر ونبعها، جاءت له العلياء وفاقاً، وجادت له السحب الرواء دفاقاً، فطنبت شمسها على السماء رواقاً، وتطلبت فواضله للنفاق أشواقاً، ثم حل لدن المعظم شرف الدين عيسى فحل بيت شرفه، وحل مكاناً في مقاعد غرفه، ثم لم يتحول من أفقه، ولا أضاء له ضوء نهار إلا بين أصيله وشفقه.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان أوحّد زمانه في العلوم الحكمية، وعلامة وقته في العلوم الشرعية، عارفاً بأصول الطب وغيره، حسن الصورة، كريم النفس، كثير الحياء، مُحِباً لفعل الخير، ملازماً للصلاة والصيام وقراءة القرآن، اتصل بالملك المعظم عيسى فعرف فضله، وقرر له الراتب، وقرأ عليه الطلبة، وانتفعوا به، وكان حسن العبارة، قوي البراعة، فصيح اللسان، بليغ البيان، وافر المروءة، ظاهر الفتوة، أخذ عن القطب المصري، وأخذ المصري عن الإمام الرازي، ثم ولاه المعظم قضاء الشام، وكان عظيم التواضع، لطيف الكلام، يمشي إلى الجامع الأموي لأداء فرائض الصلوات في أوقاتها، ولم يزل على هذا حتى توفي في سن الشباب في سبع شعبان سنة تسع وثلاثين وستمائة.

قلت: وحكى لي شيخنا الإمام شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب قال: لحقت جماعة أدركوا شمس الدين الخويي أيام قدومه دمشق، وحدثوني / ٨٤ / أنه قدم في زي فقير صوفي، وكان يلعب ببعض آلات الطرب حتى عرف بذلك، وكان يستدعى به لأجل ذلك، والملك المعظم صاحب دمشق إذ ذلك، فقبل له عنه، فأمر به فأحضر، ولعب بين يديه، فأعجبه لعبه لا تقان صنعته، فجعله من ندمائه، فلما تردد إليه ظهر له علمه، وتحقق لديه فضله، فاختره بالمجالسة وقربه منه، فلما خلا القضاء عينه له فاستغفاه، فألزمه به حتى وليه، فلما ولي القضاء انقطع عن الملك المعظم فقده في أوقات أنسه، فقال له: مالك انقطعت هذه الليالي، فجعل يعتذر والملك المعظم لا يقبل منه، ويحثه على الملازمة على عادته، فقال له: مولانا يعلم ما بقي يتعلق بي وبذمتي من أفضية المسلمين وعقودهم وما يجمل بي أن أظهر العدالة، وأبطن الفسق،

= الوسطى له، ورقة ٢٦ب، ونزهة الأنام لابن دقماق، ورقة ٤٠، طبقات الأطباء ١٧١/٢، وشذرات ١٨٣/٥، ونشرة ٢٨٠/٣، والخزانة التيمورية ٩٤/٣، وذيل الروضتين لأبي شامة ١٦٩ وفيه: ولادته سنة ٥٨٢ ١١٨٦م، وطبقات النحاة واللغويين لابن قاضي شعبة، ورقة ٨٣، وطبقات الشافعية، له ٤٠١/٢ رقم ٣٧٠، والمقفى الكبير للمقريزي ١٦٦/٥-١٦٧ رقم ١٧١٦ في ترجمة ابنه محمد، وتبصير المتنبي ٣٧٦/١، وتوضيح المشتبه ٥٤٥/٢، وعقد الجمان ١٨/ ورقة ٢٣٢-٢٣٣، والنجوم الزاهرة ٣١٦/٦، والقضاة الشافعية للنعمي ٦٥-٦٦، وشذرات الذهب ١٨٣/٥، ومعجم المؤلفين ٢١٦/١، الأعلام ١٢١/١، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣٠-٦٤٠هـ) ص ٣١٥ رقم ٤٥١. (١) عيون الأنباء ٦٤٦.

وقد صرت قاضياً. ومولانا مخيراً إن شاء تركت القضاء، وعدت إلى ما كنت عليه في خدمته، وإن شاء تركني على القضاء وأعفاني؛ لأخلص ذمتي وذمته. فقال: بل استمر على القضاء، ودع ما سواه، فكان غاية في الخير حتى كان كأنه لم يكن ذاك. ومنهم:

[٢٦]

الرفيع الجيلي، أبو حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي^(١)

شجرة توقدت ناراً، وأوقدت شناراً، فحنظلت ثمراتها، وأبرت سمراتها، طلعتها كأنه رؤوس الشياطين، وينعها كأنه تلفٌ لنفوس السلاطين، وذلك أنه والى عدو الدين، وتبعه في بعض ما يدين. صحب السامرة، وسحب في أنديتهم أذيال المسامرة، ولم يكن بزة بالرفيع، ولا زمنه بالربيع، فجّد السامري في غيه، ومدّ له من حبال بغيه، وكان قد اتخذ له منه عجلًا جسداً، واتحد به حتى تفقأ منه حسداً، حتى سقط في مهواته، وسقى دمه الجبل بل لهواته.

(١) عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل، ربيع الدين الجيلي: طبيب، باحث، من أهل جيلان (وراء طبرستان) تميز في علوم الطب والفلسفة والدين، وسكن دمشق، وولي قضاء بعلبك، ثم قضاء القضاة بدمشق سنة (٦٣٨ هـ). وساءت سيرته، فقبض عليه في دمشق، وقتل بالقرب من بعلبك سنة (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤ م)، له «شرح الإشارات والتنبيهات» ألفه للمظفر الأيوبي، و«اختصار الكليات» من قانون ابن سينا.

ترجمته في: مفرّج الكروب ٥/ ٢٣٧، ٣٤١-٣٤٢، ومرآة الزمان ج ٨/ ٧٤٩-٧٥١، وذيل الروضتين ١٧٣-١٧٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٦٤٧-٦٤٨، ونهاية الأرب ٢٩/ ٣٠٣-٣٠٤، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٠٩-١١١ رقم ٨٤، والعبر ٥/ ١٧٢-١٧٣، ودول الإسلام ٢/ ١١١، والمختار من تاريخ ابن الجوزي ١٩٤-١٩٦، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٢٧-١٤٢٨، وفوات الوفيات ٢/ ٣٥٢-٣٥٤ رقم ٢٨٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٧٣-١٧٤ وفيه: «الرفيع» وفاته في سنة ٦٤١ هـ، والبداية والنهاية ١٣/ ١٦٢-١٦٣، في وفيات ٦٤١ هـ، وطبقات الشافعية لابن كثير مخطوط روقة ١١٧١-١١٧٢ أ، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/ ٥٩٢-٥٩٤ رقم ٥٩٧، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٢٤-٥٢٦ رقم ٥٢٦، وعيون التواريخ ٢٠/ ١٧١-١٧٢، والعسجد المسبوك ٢/ ٥٣٤ وفيه «عبد العزيز بن إسماعيل بن عبد الهادي» وهو خطأ، والفلاكة والمفلوكون للدلجي ٧٥، وفيه وفاته ٦٤٣ هـ، والمنهل الصافي ٧/ ٢٨٢-٢٨٥ رقم ١٤٣٦، والدليل الشافي ١/ ٤١٥ رقم ١٤٣٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٠، والدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٨٨، وقضاة دمشق للنعماني ٦٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢١٤-٢١٥، الأعلام ٤/ ٢٢، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي للتدمري ج ٢/ ٢١٣-٢١٤ رقم ٥٤٩، ومعجم المؤلفين ٥/ ٥٢١-٢٥٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١-٦٥٠ هـ) ص ١٢٥ رقم ١٠٤.

قال ابن أصيبعة^(١). كان من الأكابر في الحكمة، وأصول الدين والفقه، والعلم الطبيعي، والطب، وكان فقيهاً بالعذراوية / ٨٥ / يشتغل بها، ثم ولي القضاء ببلبك، وأقام بها، وكان صديقاً لأمين الدولة وزير الصالح اسماعيل، فلما ملك الصالح دمشق وتوفي قاضيها شمس الدين الخويي ولي عوضه، وارتفعت منزلته، ووقع بينه وبين أمين الدولة وأثرى، وكثر تظلم الناس منه، وشكواهم من سوء سيرته، فانتهى إلى أن قبض عليه وقتل. بُعِثَ إلى هوة عظيمة قريب ببلبك لا يعرف لها قرار تعرف بمغارة آدم، فكف ودفع فيها. وقال بعض الذين كانوا معه: إنه لما دفع في تلك الهوة تحطم في نزوله، وكأنه تعلق في بعض جوانبها، قال: بقينا نسمع أنيه نحو ثلاثة أيام، وكلما مرَّ يوم يضعف ويخفى حتى تحققنا موته ورجعنا عنه.

قلت: وقد حكى الثقات أنه كان يفتعل الحجة بشهود زور، كان أعددهم على الرجل ذي الجدة واليسار، ويكتبها لمن يطلب الرجل إلى مجلسه، ويدعي بالمبلغ عليه، فإذا أنكر أقام تلك البينة عليه، ثم يلزمه بالمال، فإذا قبض كان للسلطان النصف، وله ولأمين الدولة وللشهود والمدعي النصف، وجرى على هذا مدة ثم كان لا ينصف أمين الدولة، ففسد ما بينهما وقالوا: إنه لما كثر فعل مثل هذا من القاضي الرفيع عرف عليه، فصار ذوو المال يأتونه قبل افتعال الحجج، فيقدمون له ما يختص به فيسكت عنهم فإذا ذكرهم الأمين الخائن له دافع عنهم، فأوغر ذلك صدره وكدر له ورده وصلره، حتى حالت به الحال، وآل إلى ما آل.

وحكى لي شيخنا الإمام أبو الشناء محمود الحلبي الكاتب قال: حدثني شيخنا قاضي القضاة ابن خلكان قال: كان الرفيع ذا كرم وسخاء، وكان جاريه لا يقوم ببعض كفايته، فكان يتجشم البلايا، ولقد ألجأته الضرورة إلى أن باع مرةً عمامته وانفق ثمنها، فلما أصبح وأراد الركوب إلى موكب السلطان، استعار ما لبسه وركب به.

قلت: / ٨٦ / وقد رأيتُ كتباً كثيرةً من كتب الأملاك والأوقاف، وفيها إسطالات على القاضي الرفيع، فلما اتصلت تلك الكتب بمن بعده من القضاة وصلوها إليهم بمن كان قبل الرفيع وأضربوا عنه، فلم ينفذ له حاكم جاء بعده حُكماً إلا كتاباً واحداً كان في وقف مدرسة بالمدينة الشريفة النبوية، وأظن أنه سُومح فيه لتيقن براءته من غرض في ذلك إذ كان لجهة برٍّ، ولم يكن هو أول من حكم به، ولا أول من نفذ حكم من حكم به، ومع هذا لم أرَ من كبار أهل هذا الشأن إلا من عجب منه، وأحببت التنبيه على ذلك ليعرف عند الحاجة لثلا ينسى بتناول المُدد.

ومنه:

[٢٧]

الشهاب السهروردي^(١)

المقتول، والردي المختول، جاء بما سحر أعين الناس وحيّر الألباب، فحيّر الفطن، وحيز كل الأرض إلى محل الوطن بخوارق حملت على المخاريق، وأحلت دمه

(١) عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله - ويلقب عمويه - بن سعد بن الحسن بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، أبو حفص شهاب الدين القرشي التيمي البكري السهروردي: فقيه شافعي، مفسر، واعظ. من كبار الصوفية. مولده في «سهرورد» سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٥م) ووفاته ببغداد سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) كان شيخ الشيوخ ببغداد. وأوفده الخليفة إلى عدة جهات رسولاً. وأقعد في آخر عمره، فكان يحمل إلى الجامع في محفة، له كتب، منها «عوارف المعارف - ط» و«نخبة البيان في تفسير القرآن - خ» و«جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب - ط» رسالة، و«السير والطير - خ» رسالة. وله شعر حسن في «كناش - خ» عند الزركلي. وله «مشيخة - خ» عند الزركلي أيضاً تصويرها، له عليها سماع سنة (٦٢٠) لعلها الوارد ذكرها في شستريتي، الرقم (٣٤٩٥) الفقرة التاسعة. و«رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية - خ» ذكرته مجلة oriens.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٤١-٦٤٦، معجم البلدان ٣/ ٢٠٤، وذيل تاريخ مدينة السلام بغداد لابن الدبيثي بارس ٥٩٢٢ ورقة ٢٠٢، ومراة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٦٧٩-٦٨٠، والتكملة لوفيات النقلة ٣/ ٣٨٠-٣٨١ رقم ٢٥٦٥، وذيل الروضتين ١٦٣، والجامع المختصر لابن الساعي ٩٩، ١٤٥، ٢٥٩، وأخبار الزهاد له، ورقة ٩٥-١٠٢، وتاريخ إربل لابن المستوفي ١/ ١٩٢-١٩٤ رقم ٩٦، وقلاند الجمان لابن الشعار ٥/ ١٩٠-١٩١ رقم ٥٣١، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٤٦-٤٤٨، والحوادث الجامعة ٤٢، وتلخيص مجمع الآداب ١/ ٦٨، ١٢٣، ١٥٨، ٢١٤، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٩٢ وفيات ٦٣هـ، وسير الأولياء للخزرجي ٦٧، ودول الإسلام ٢/ ١٣٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٤، والمعين في طبقات المحدثين ١٩٦ رقم ٢٠٧٦، والعبر ٥/ ١٢٩، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٥٨، وميزان الاعتدال ٢/ ٢٦٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٧٣-٣٧٧ رقم ٢٣٩، والمختصر المحتاج إليه ٣/ ١٠٨-١٠٩ رقم ٩٥٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦١-١٦٣، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٠٩-٢١٠ رقم ١٦١، ومراة الجنان ٤/ ٧٩-٨٢، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٦٣-٦٤ رقم ٦٥١، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/ ١٤٣، ٣٣٨-٣٤١، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٧-٦٨، والبداية والنهاية ١٣/ ١٣٨-٣٤٣، ٦٣١هـ و٦٣٢هـ، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٦ب-١٦٧، والعقد المذهب لابن الملكن، ورقة ١٧٥، وطبقات الأولياء له ٢٦٢، ٢٦٥، ٤٦٨، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٥، ونزهة الأنام لابن دقماق ورقة ٩-٨ والفلاكة والمفلوكون ١٢٠، والعسجد المسبوك ٢/ ٤٦٧-٤٦٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٨٣-٢٨٥ في وفيات ٦٣١هـ، والقلاند للتادفي ١١١-١١٢، وطبقات الشافعية لابن قاضي شبة ٢/ ٤١٣-٤١٤ رقم ٣٨١، وتاريخ الخميس ٢/ ٤١٤، ولسان الميزان ٤/ ٣١٧، وحسن المحاضرة ١/ =

للمريق، فأرى ما لا يرى وصَوَّر ما لم يوجد، وأتى بما ادعاه بعض ذوي العقول الأفنة من المتصوفة من طي الزمان المكان، وجاء بما لم يكن في إمكان، فخيَّل ما لم يكن، وهَوَّن ما لم يهن، وأضلَّ جبلاً كثيراً، واستزلَّ جبلاً كبيراً، ولو طال لبشه أو خلى ماؤه الآجن حتى يطول مكثه لأكثر وأكبر البلية وساد، لكن الله سلَّم وذبحه، وكان لو كلم جماداً تكلم. قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان أوحَد في العلوم الحكيمة، جامعاً للفنون الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة. لم يناظر أحداً إلا بذه، ولم يباحث محصلاً إلا أربى عليه. وكان علمه أكثر من عقله.

حدثني الشيخ سديد الدين بن عمر قال: كان شهاب الدين السهروردي قد أتى إلى شيخنا فخر الدين المارديني وكان يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد أحداً / ٨٧ / مثله في زمانني، إلا أنني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره، وقلة تحفظه أن يكون ذلك سبباً لتلافه. قال: فلما فارقت شهاب الدين السهروردي من الشرق، وتوجه إلى الشام وأتى إلى حلب وناظر بها الفقهاء، ولم يجاره أحد، فكثرت تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام. فتكلم معهم بكلام كثير بأن له فضلاً عظيم، وعلم باهر، وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه، وصار مكيناً عنده مختصاً به، فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وأرسلوها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين. وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق فهو يفسد كل ناحية كان فيها من البلاد. وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه: إنَّ الشهاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه. ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك، وأيقن أنه يقتل، وليس له جهة إلى الإفراج عنه، اختار أن يقرر في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقي الله تعالى، ففعل به ذلك. وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب، وكان عمره نحو ست وثلاثين.

قال الشيخ سديد الدين محمود بن عمر: لما بلغ شيخنا فخر الدين المارديني قتله قال لنا: أليس كنت قلت لكم عنه هذا من قبل، وكنت أخشى عليه منه.

= ٢٤٦، وشذرات الذهب ١٥٣/٥-١٥٤، وروضات الجنات ٥٠٥، وكشف الظنون ١٢٦، وإيضاح المكنون ٦٣/١، ١١٨، وهدية العارفين ٧٨٥/١، وديوان الإسلام ٤٣٤-٤٣٥ رقم ١٦٤١، وتاريخ الأدب العربي ٤٤٠/١، ومعجم المؤلفين ١٣١٣/٧، والأعلام ٦٢/٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص ١١٢ رقم ١١٢.

أقول: ويحكى عن شهاب الدين السهروردي أنه كان يعرف علم السيمياء، وله فيه نوادر شوهدت عنه من هذا الفن. من ذلك حدثني الحكيم إبراهيم/ ٨٨/ بن أبي الفضل بن صدقة أنه اجتمع به وشاهد عنه ظاهر باب الفرج، وهم يتمشون إلى ناحية الميدان الكبير، ومعه جماعة من التلاميذ، وغيرهم، وجرى ذكر هذا الفن وبدائعه وما يعرف الشيخ منه وهو يسمع. فمشى قليلاً، وقال: ما أحسن دمشق وهذه المواضع. قال: فنظرنا وإذا من جهة الشرق جواسق عالية متدانية بعضها من بعض مُبَيَّضة، وهي من أحسن ما يكون بناءً مزخرفاً، ولها طاقات كبار وفيها نساء أحسن ما يكون منهن، وأصوات المغاني والملاهي ورأينا أشجاراً ملتفة بعضها على بعض، وأنهاراً جارية كباراً، ولم نكن نعرف ذلك قبل ذلك، فعجبنا من ذلك وانذهل الجماعة مما رأوا. قال: فبقي ذلك ساعة ثم غاب عنا، وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول الزمان. قال: إلا أنني في رؤية تلك الحالة العجيبة أحس في نفسي كأنني في سِنَةٍ خفية لم يكن إدراكي كالحالة التي أتحدثها مني.

وحدثني بعض الفقهاء العجم قال: كنا مع الشيخ شهاب الدين عند القابون، ونحن مسافرون عن دمشق، فوجدنا قطع غنم مع تركمان، فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذا الغنم رأساً نأكله، فقال: معي عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم لكم. فأخذناها فاشترينا رأساً من التركماني ومشينا فلحقنا رفيق التركماني وقال: ردوا الرأس وخذوا أصغر منه، فإن هذا ما عرف يبيعكم يسوى هذا الرأس الذي معكم أكثر من الذي قبض منكم. فتناولنا نحن وإياه، ولما عرف الشيخ ذلك، قال لنا: خذوا الرأس واحشوا وأنا أقف معه وأرضيه، فتقدمنا وبقي الشيخ يتحدث معه ويمنيه، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت إليه، ولما لم يكلمه لحقه بغیظ وجذب يده اليسرى وقال: أين تروح وتخليني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه، وبقيت في يد التركماني ودمه يجري/ ٨٩/ من يده، فبهت التركماني، وتحير في أمره، ورمى اليد وخاف. فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا. وبقي التركماني راجعاً وهو يلتفت إلينا حتى غاب. ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديله لا غير.

وحدثني صفى الدين خليل بن أبي الفضل الكاتب قال: حدثنا الشيخ ضياء الدين بن صقر رحمه الله أن في سنة تسع وتسعين وخمسائة قدم إلى حلب شهاب الدين السهروردي، ونزل في مدرسة الحلاوية، وكان مدرستها يومئذ الشريف رئيس الحنفية افتخار الدين رحمه الله. فلما حضر شهاب الدين وبحث مع الفقهاء، كان لا بس دلق، وهو مجرد بابريق وعكاز خشب، وما كان أحد يعرفه. فلما بحث تميَّز بين الفقهاء، وعلم افتخار الدين أنه فاضل فأخرج له منديلاً فيه ثوب عتابي وغلالة ولباس وبقيار، وقال

لولده: تروح إلى هذا الفقير، وتقول له: والدي يسلم عليك ويقول لك أنت رجل فقير، وتحضر مجالس الفقهاء في الدرس، وقد أرسل إليك شيئاً تلبسه إذا حضرت. فلما وصل ولده إلى الشيخ شهاب الدين، وقال له ما أوصاه به، سكت ساعة وقال له: يا ولدي حطّ هذا القماش، وتفضل واقض لي حاجة. وأخرج له فص بلخش في قدر بيضة الدجاجة رُمّاني اللون، ما ملك أحد في قدره ولونه، وقال: تروح إلى السوق، وتنادي على هذا الفص، ومهما جاب لا تطلق بيعه حتى تعرفني. فلما وصل إلى السوق قعد عند العريف، نادى على الفص، فأنهى ثمنه إلى خمسة وعشرين ألف درهم. فأخذه العريف وطلع إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وهو يومئذ صاحب حلب وقال: هذا الفص قد جاب هذا الثمن، فأعجب الملك الظاهر قدره ولونه وحسنه فبلغ به إلى ثلاثين ألف درهم. فقال العريف: حتى أنزل إلى ولد افتخار الدين وأقول له. وأخذ الفص ونزل إلى السوق وأعطاه له، وقال له: تروح تشاور والدك على هذا الثمن. واعتقد العريف / ٩٠ / أن الفص من عند افتخار الدين، فلما جاء إلى شهاب الدين السهروردي وعرفه بالذي جاب الفص صعب عليه، وأخذ الفص وجعله على حجر وضربه بحجر آخر حتى فثته وقال لولد افتخار الدين: خذ يا ولدي هذه الأثواب، وارجع إلى والدك، وقبل يده عني وقل له لو أردنا الملبوس ما غلبنا عنه، فمضى إلى والده، وعرفه صورة ما جرى، فبقي حائراً في قضيته. وأما الملك الظاهر، فإنه طلب العريف، وقال له: أريد الفص. فقال له: يا مولانا أخذه صاحبه ابن الشريف افتخار الدين مدرس الحلاوية. فركب السلطان ونزل إلى المدرسة فقعد في الإيوان، وطلب افتخار الدين إليه وقال له: أريد الفص فعرفه أنه لشخص فقير نازل عنده. قال: فأفكر السلطان وقال: يا افتخار الدين، إن صدق حدسي فهذا شهاب الدين السهروردي. ثم قام السلطان واجتمع بشهاب الدين وأخذه معه إلى القلعة، وصار له شأن عظيم. وبحث مع الفقهاء في سائر المذاهب وعجزّهم، واستطال على أهل حلب، وصار يكلمهم كلام من هو أعلى منهم قدراً، فتعصبوا عليه وأفتوا في دمه حتى قتل. وقيل: إن الملك الظاهر أرسل إليه من خنقه، قال: ثم إن الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه، وقبض على جماعة منهم واعتقلهم، وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة.

قال العدل بهاء الدين الديلمي: كنت أصحب الشيخ شهاب الدين السهروردي الحكيم بحلب، فلما اعتقل بقلعة حلب كنا نتردد إليه، وكان تحت القلعة شخص جزار، وكان كلما رأنا مترددين إلى الشيخ يسبه ويسبنا، فلما أكثر حكيماً أمره للشيخ، فقال: احتالوا على أن تأخذوا طوله، وتأتونني به، فاحتالوا لذلك وأحضره إليه، فأمرهم أن يقطعوا عصا على مقدار طوله فلما أحضرها حَزَّ فيها حَزّاً مثل الرأس، وأمر بعض تلامذته أن يأخذ معه سكيناً وإذا قال له: اضرب يضرب بها، فقعد الشيخ وجعل

يقرأ شيئاً في / ٩١ / نفسه، ثم قال لحامل السكين: اقطع فقطع من الموضع الذي حزه، وإذا صيحة هائلة تحت القلعة، فسألوا عنها، فقل إن الشخص الجزار قد قتل أو كما قال.

حدثني سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن رقيقة. قال: كان الشيخ شهاب الدين السهروردي لا يلتفت إلى ما يلبسه، ولا له احتفال بأمور الدنيا.

قال: وكنت أنا وإياه نتمشى في جامع ميفارقين، وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجله زربول ورآني صديق لي، وهو إلى جانبي فقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخبرندار؟ فقلت له: اسكت هذا سيد الوقت، شهاب الدين السهروردي. فتعاطم قلبي، وتعجب ومضى.

وحدثني بعض أهل حلب قال: لما توفي شهاب الدين رحمه الله، ودفن بظاهر مدينة حلب، وجد مكتوباً على قبره، والشعر قديم: [من البسيط]

قَدْ كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ جَوْهَرَةً مَكْنُونَةً قَدْ بَرَاهَا اللَّهُ مِنْ شَرَفٍ
فَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الْأَيَّامُ قِيَمَتَهُ فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدَفِ
ومن كلامه قال في دعاء:

اللهم يا قَيَّامَ الوجود، وفائض الوجود، ومنزل البركات، ومنتهى الرغبات، نور النور، ومدير الأمور، وواهب حياة العالمين، امددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك، ومعاينة أضوائك، ومجاورة مقربيك، وموافقة سكان ملكوتك. واحشرنا اللهم مع الذين أنعمت اللهم عليهم من الملائكة والصديقين، والأنبياء، والمرسلين.

ومن شعره قوله: [من الكامل]

أَبْدَأْ تَحَنُّنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ
وَقَلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ
وَإِذَا هُمْ كَفُّوا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ
فَإِلَى لِقَاكُمْ نَفْسُهُ مُشْتَاقَةٌ
/ ٩٢ / عُودُوا بِنُورِ الْوَصْلِ مِنْ غَسَقِ الْجَفَا
وَتَمَتَّعُوا فَالْوَقْتُ طَابَ لَكُمْ وَقَدْ

وقوله: [من الوافر]

أقولُ لجارتي والدمعُ جاري ولي عزمُ الرحيلِ عَنِ الديارِ
 ذَرِينِي أَنْ أَسِيرَ وَلَا تَنُوحِي فَإِنَّ الشُّهْبَ أَشْرَقُهَا السَّوَارِي
 فَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءاً كَأَنَّ اللَّيْلَ زُيِّنَ بِالنَّهَارِ
 وَلَمْ أَرْضَ الْإِقَامَةَ فِي فَلَاةٍ وَفَوْقَ الْفِرْقَدِينَ رَأَيْتُ دَارِي
 وَيَأْتِينِي مِنَ الْجَرَعَاءِ بَرْقٌ يَذْكَرُنِي بِهَا قُرْبُ الدِّيَارِ
 وقوله: [الرملة]

قُلْ لِأَصْحَابِ رَأُونِي مَيِّتاً فبَكُونِي إِذْ رَأُونِي حَزْناً
 لَا تَظُنُّونَنِي بِأَنِّي مَيِّتٌ لَيْسَ ذَاكَ الْمَيِّتُ وَاللَّهُ أَنَا
 أَنَا عُصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي طَرْتُ عَنْهُ فَتَخَلَّى بَدْنَا
 وَأَنَا الْيَوْمَ أَنَا جِي مَلَأٌ وَأَرَى اللَّهَ عَيَاناً بِهِنَا
 فَاخْلَعُوا الْأَنْفُسَ مِنْ أَجْسَادِهَا لَتَرَوْا لِلْحَقِّ حَقّاً بَيِّنَا
 لَا تَرُعَكُمُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ فَمَا هِيَ إِلَّا انْتِقَالٌ مِنْ هُنَا^(١)

قلت: حدثني شيخنا أبو الثناء الكاتب الحلبي رحمه الله عن أشياخه أن الشهاب السهروردي كان لا يقرُّ للملك الظاهر بمعرفة السيمياء وينكره ذلك، وكان الملك الظاهر لا يشك في أنه يعرف ذلك ويحب أن يراه، وكان لا يزال يقول له عن ذلك وهو ينكره ويجحد، فلما كان ذات يوم قال له: بالله يا مولانا أرني شيئاً من السيمياء، فقال له: بسم الله، وكان الملك الظاهر واقفاً على بركة يريد أن يغتسل فيها ثم إن الملك الظاهر نزل فغطس، ثم طلع ومملوكه / ٩٣ / واقف بيده منشفة، فلما خرج ناوله المنشفة فتششف، ثم قال: أين أنا، فقال له ذلك المملوك: هنا في دارك وملكك بحلب، فقال: ويلك كم لي غائب عنكم، فقال: قدر ما غطست في الماء، فقال: ويلك أنا لي غائب عنكم سنين وغرقت فما طلعت إلا من ساحل بحر عدن، وتزوجت امرأة هناك من بيت خطاب، وأولدتها أولاداً فقال المملوك: أعيذك يا خوند بالله، وأعيذك عقلك، وكلما قال هذا يغتاظ الملك الظاهر، ويقول: ويلك تغالطني وتدهيني في عقلي، والمملوك يعيد قوله، فضحك السهروردي، ففطن الملك الظاهر، وقال له: هذه عملاتك معي، فقال له السهروردي: لا والله بل هذه عملاتك أنت مع نفسك.

وأجريت ذكره مرة مع الشيخ العارف جمال الدين الحويزاوي شيخ الشيوخ بالديار المصرية، فقال: كان رجلاً جليل القدر من أفراد العالم وفضلاء الدهر وأعيان

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٤١-٦٤٦.

أهل التصوف، وأخذ نفسه في أول حاله بالتجريد، واجتهد فيه، ولكن غلبت عليه شقاوته وجهل صباه، فقتل بسيف الشرع، ثم أنشد: [من الطويل]
وذاك قَتِيلٌ لا يُظَلُّ لَهُ دَمٌ

ومنهم:

[٢٨]

الخُسْرُو شَاهِي، عبد الحميد بن عيسى، شمس الدين،

أبو محمد^(١)

نسبة إلى قرية تعرف بخسروشاه من قرى تبريز.

سَمَرُ حديث مغرب، وقمرٌ مشرقٌ ومغرب، قدم الشام فكان أزين له من هشام، وحلَّ في أم بلدانه حلول ابن ذي يزن في غمدانه، ونزل بالكرك، وأناخ نزول بالشاذياخ فأسعف وأعان، وذَكَرَ المنازل أهلها بين البلقاء ومعان، وأفاض في تلك المعالم الإحسان فوق آل غسان، استقدمه الناصر داود وقدمه تقديم الودود، فنشر علم علمه، وشرَّع مورد يَمِّه، وجعل حوضه لمن يمتاح، وروضه لمن يرتاح، فغدت حضرته محطاً للركائب، ومحلاً للرغائب، فكثر من عنده المماتار، ورجع يشهده المشتار، ونمى عدد

(١) عبد الحميد بن عيسى بن عثويه بن يونس بن خليل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد، شمس الدين: من علماء «الكلام» نسبته إلى خسروشاه (من قرى تبريز) ومولده فيها سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م). تقدم في علم الأصول والعقليات والفقه، وأقام في دمشق والكرك، عند الملك الناصر داود، سنين كثيرة، وتوفي بدمشق سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م). له «اختصار المذهب» في فقه الشافعية، و«اختصار الشفا» لابن سينا، و«تلخيص الآيات البيئات» للفخر الرازي. ترجمته في: عيون الأنباء ٦٤٨-٦٥٠، والفوائد الجلية ١٥١-١٥٢، ومعجم البلدان ٣/٤٣٨، ومراة الزمان ج ٨ ق ٢/٧٩٣، وذيل الروضتين ١٩٨، الإعلام بوفيات الأعلام ٢٧٢، والعبر ٥/٢١١-٢١٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٥١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/٢٨١، والوافي بالوفيات ١٨/٧٥٠-٧٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/٦٠، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١١٧٥، والبداية والنهاية ١٣/١٨٥، وعيون التواريخ ٢٠/٧٧، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٤٣٩ رقم ٤١٠، والنجوم الزاهرة ٧/٣٢، وشذرات الذهب ٥/٢٥٥، وهدية العارفين ١/٥٠٦، والعسجد المسبوك ٢/٦٠٦، والأنباء ٦٤٨، الحوادث الجامعة، وفيه: «عبد الحميد بن حسن بن شاهي»، وعقد الجمان ١/٩٤، والدليل الشافي ١/٣٩٥ رقم ١٣٥٩، والمنهل الصافي ٧/١٤٩ رقم ١٣٦٣ وتاريخ الخلفاء ٤٧٦، ومعجم المؤلفين ٥/١٠٣، والأعلام ٣/٢٨٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٥١-٦٦٠هـ) ص ١٢٥ رقم ٦٨

الفضلاء، وطمى مدد الفضل في ذلك / ٩٤ / الفضاء، وتزاحمت الملوك على خطبته، واستزارته من خطته، وهو بذروة ذلك الجبل ممتنع، ويسير ذلك البلبل مقتنع، ودأبه في زيادة علوم وإفادة خصوص وعموم، وأيامه بالفضائل مشحونة، ولياليه من الرذائل مصونة، ثم أتاه أجله، وحلَّ عليه من دين النعاء مؤجله، فاتصلت تلك الروح الزكية بعالمها، وخلصت من ظلم الدنيا ومظالمها.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو إمام العلماء، وسيد الحكماء، قدوة الأنام، شرف الإسلام. تميز في العلوم الحكيمة، وحرر الأصول الطبية، وأتقن الأحكام الشرعية ولم يزل دائم الاشتغال، جامعاً للفضل والإفضال. وكان شيخه الإمام فخر الدين بن خطيب الري وهو من أجل تلامذته. ومن حين وصل الشام اتصل بخدمة الملك الناصر داود بن المعظم، وأقام عنده بالكرك، وكان عظيم المنزلة عنده وله من الإحسان الغزير والإنعام الكثير. ثم أتى دمشق وتوفي بها في شوال سنة اثنتين وخمسين وستمائة. ودفن بجبل قاسيون.

قال: رأيت يوماً وقد أتاه بعض فقهاء العجم بكتاب دقيق الخط ثمن البغدادي، معتزلي القطع. فلما نظر فيه صار يقبله ويضعه على رأسه، فسألته عن ذلك فقال: هذا خط شيخنا الإمام فخر الدين بن الخطيب رحمه الله.

قلت: ولما كان الشيخ شمس الدين الخسروشاهي عند الملك الناصر داود بالكرك، كان جدي الصاحب جمال الدين أبو المآثر فضل الله وزيراً عنده، واتحدت له صحبة بالشيخ، فأخذ معه ولده عمي الصاحب شرف الدين أبا محمد عبد الوهاب رحمه الله وقدمه للشيخ، وقال: هذا ولدي وأعز ما أقدر عليه، وقد قدمته لك، فقبله منه قبولاً حسناً، وأقرأه «الأربعين في أصول الدين»، وانتفع به. ثم لما أتى الأمير الكبير الكافل جمال الدين أبو الفتح موسى بن يغمور لزيارة الشيخ طلب منه عمي / ٩٥ / أن يكون عنده فأثره به، ثم اتصل بالملك الصالح أيوب بسببه على ما ذكرت ذلك في ترجمة عمي في «فواضل السمر».

ورثي الخسروشاهي جماعة منهم العز الضرير منها: [من الطويل]

أصابَ العُلا شمسُ العُلا عندما استوتْ	وأودى ببدرِ الفضلِ والبدرُ كاملُ
فتى بَذَّ كلَّ العالمينَ بصمتهِ	فكيف إذا وافيته وهو قائلُ
أتدري المنايا مَنْ رَمَتْ بسهامِها	وأَيَّ فتى أودى وغالَ الغوائلُ
رمتْ واحدَ الدنيا وبحرَ علومِها	ومنْ قصرَتْ في الفضلِ عنه الأوائلُ

ولو كَانَ بِالْفَضْلِ الْفَتَى يَدْفَعُ الرَّدَى لَمَّا غَيَّبَتْ عَبْدَ الْحَمِيدِ الْجَنَادُ
فَبَعْدَكَ شَمْسَ الدِّينِ أَعْوَزَ عَالَمٌ وَأَبْدَى الدَّعَاوَى فِي الْمَحَافِلِ جَاهِلٌ^(١)
ومنهـم:

[٢٩]

السيف الأمدي، علي بن [أبي] علي بن محمد بن سالم، سيف
الدين أبو الحسن التغلبي الأمدي^(٢)

سيف لا يعرف التقليد، وسيل يشيب لهولُه الوليد، توقَّى كل مناظر حدَّ مضربه،
وعاد كل صادر بريق مشربه، ساجل فقطع غمار اللجج، وجادل فقطع حجاج الحجج،

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٤٨-٦٤٩.

(٢) علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الأمدي: أصولي، باحث. أصله من آمد (ديار بكر) ولد بها سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م)، وتعلم في بغداد والشام. وانتقل إلى القاهرة، فدرس فيها واشتهر. وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة، فخرج مستخفياً إلى «حماة» ومنها إلى «دمشق» فتوفي بها سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م). له نحو عشرين مصنفاً، منها «الإحكام في أصول الأحكام - ط» أربعة أجزاء، ومختصره «منتهى السؤل - ط» و«أبكار الأفكار - خ» في طويقو، الأول والثاني منه، في علم الكلام، و«لباب الألباب» و«دقائق الحقائق» و«المبين في شرح معاني الحكماء والمتكلمين - خ» كراستان، في المكتبة العربية بدمشق.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٥٠-٦٥١، تاريخ الحكماء للقفطي ٢٤٠-٢٤١، ومراة الزمان ج ٨ ق ٢/٦٩١، والتكملة لوفيات النقلة ٣/٣٥٩-٣٦٠ رقم ٣٥٠٨، وذيل الروضتين ١٦١، ووفيات الأعيان ٣/٢٩٣-٢٩٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٥٥-١٥٦، وسير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٤-٣٦٦ رقم ٢٣٠، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٦١، دول الإسلام ٢/١٣٦، والعبر ٥/١٢٤-١٢٥، مفرج الكروب ٥/٣-١١ وفيات ٦٣٠هـ، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٦٠، ومراة الجنان ٤/٧٣-٧٥، والوافي بالوفيات ١٢/١٢٤-١٢٦، ونثر الجمان للفيومي ٢/ ورقة ٦٠-٦١، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/١٣٧-١٣٨، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/١٢٩، ٨/٣٠٦-٣٠٧، والبداية والنهاية ١٣/١٤٠-١٤١، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٦٦ ب، والعقد المذهب لابن الملقن، ورقة ١٧٥، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/٤١٠-٤١٢ رقم ٣٧٩، والوفيات لابن قنفذ ٣١٢-٣١٣ رقم ٦٣١، والنجوم الزاهرة ٦/٢٨٥، وتاريخ الخلفاء ٤٦٤، وحسن المحاضرة ١/٢٥٩، مفتاح السعادة ٢/٤٩، وتاريخ الأزمنة للدويهي ٢١٧، وشذرات الذهب ٥/١٤٢-١٤٤، وديوان الإسلام ١/٧٦-٧٧ رقم ٨٣، ومعجم المؤلفين ٧/١٥٥، الأعلام ٤/٣٣٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص ٧٤ رقم ٤٥.

ولم يخل منهله من زحام، ولا تصرفه من زمام، فكم جاءت إليه الأفواج، وتزاحمت في بحره الأمواج، ونداه يسع، وجداه لا يدع، وجعل مدينة حماة سوقاً لفوائده، ومعدناً لفرائده، وكان قصدها لا يعد إلا في معالي الرتب، ولا يزال يرحل إليه على كور وقطب، وهو على هذا الازدحام، وكثرة من حلق عليه وحام، لا يودع الحكم غير أهلها، ولا يدع للشفة إلا قدر نهله، فكان لا يزال لديه شفيح لطالب، ومتوسل بخلائقه الأطايب، فلم يكن مثله سيف لا يزال يخدمه القلم، وينشر لعلمه على جناح الجوزاء العلم، وكانت ملوك زمانه تجله، ولو قدرت عرفت من نجاد ممالكها أين تحله، فقد كان سيفاً مشرفاً، ومثقفاً سمهرياً، طالما طال / ٩٦ / المفارق والطلا، وطاب معدنه، فلم يحتج إلى تنميق الحمائل والحلى، هذا وليس به فلول من قراع الكتائب ولا ذهول، وبحره جم العجائب.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان أذكى أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالحكمة والشريعة والمبادئ الطبية، بهي الصورة، فصيح اللسان، جيد التصنيف، خدم الملك المنصور صاحب حماة، وأقام عنده سنين ورتب له الرواتب السنية، فلما توفي أتى الملك المعظم عيسى فبالغ في الإنعام عليه وإكرامه، وولاه التدريس، وكانت الناس تتعجب له في المناظرة والبحث، وقل أن كان يشتغل في العلوم الحكمية. وتشفع العماد السلماسي بابن بصاقة اليد ليقراه، فكتب إليه: [من البسيط]

يا سيداً جَمَلَ اللهُ الزمانَ بهِ وأهلهُ [من] جميعِ العُجمِ والعَرَبِ
العبدُ يذكُرُ مَولاهُ بما سَبَقَتْ وعودُهُ لعمادِ الدينِ عَنْ كُتُبِ
ومثلُ مَولايَ مَنْ جاءَتْ مَواهِبُهُ مِنْ غيرِ وعدٍ وجَدَواهُ بلا طَلَبِ
فأَصْغَفَ مِنْ بحركِ الفَيَّاضِ مَورِدَهُ وأَغْنِيهِ مِنْ كُنُوزِ العِلْمِ لا الذَّهَبِ
واجعَلْ لَهُ نَسَباً يُدلي إِلَيْكَ بِهِ فُلُحْمَةُ العِلْمِ تَعْلُو لُحْمَةَ النَسَبِ
ولا تَكِلْهُ إلى كُتُبٍ تُنبِئُهُ (فالسيفُ أَصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ)^(٢)
ومنهم:

[٣٠]

البَدِيعُ الأَضرُّ لابي، وهو بديع الزمان أبو القاسم، هبة الله بن

الحسين بن أحمد البغدادي^(٣)

حكيمٌ فاق بتفنن علمه الحكماء، ولم يكف نظره فسيح الأرجاء حتى شق

(١) عيون الأنباء ٦٥٠. (٢) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٦٥٠-٦٥١.

(٣) البَدِيعُ الأَضرُّ لابي: هبة الله بن الحسين بن يوسف الأضرُّ لابي، أبو القاسم، فيلسوف من علماء الأطباء ومن كبار علماء الفلك. من أهل بغداد. كان في أصبهان سنة (٥١٠) واشتهر بعمل الآلات =

السماء، ولم يقنع باستقصاء أمزجة البشر حتى سأل عن أمزجة النجوم، وميّز ذوات البشر وأمنها والوجوم، وأتقن عمل الاضطراب ليقوم تحريكه للعضادة مقام جسسه للنفض، ونظره لما بين المشارق والمغارب بمحيط ما يجمع الأرض. هذا مع اتقان بقية فنون الحكمة، وما في غضون ذلك من الأمور المهمة. على انه لم يخل الأدب من / ٩٧ / لطيف نظر، وشريف ذكاء وقف به على ما لا تنافر من محاسن كل نفر.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(١): من الحكماء الفضلاء، والأدباء النبلاء، عالم، فيلسوف، متكلم، غلبت عليه الحكمة وعلم الكلام، والرياضي، وكان متقناً لعلم النجوم والرصد، وكان أوجد أهل زمانه في علم الاضطراب وعمله، فعرف به.

ومن بديع شعر البديع قوله: [من الهزج]

قَامَ إِلَى الشَّمْسِ بِأَلَاتِهِ لِيَنْظُرَ السَّعْدَ مِنَ النَّحْسِ
فَقُلْتُ: أَيْنَ الشَّمْسُ؟ قَالَ الْفَتَى فِي الثَّوْرِ. قُلْتُ: الثَّوْرُ فِي الشَّمْسِ
وقوله [من المديد]:

قِيلَ لِي: قَدْ عَشَقَّتْهُ أَمْرَدُ الْحَدِّ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ نَكْرِشُ
قُلْتُ: فَرَحُ الطَّائِفِ أَحْسَنُ مَاكَ إِذَا مَا عَالَهُ الرَّيْشُ

⁼ الفلكية اختراعاً. وحصل له من عملها مال كثير في خلافة «المسترشد» العباسي. ولما مات لم يخلفه في عملها مثله. وكان أديباً شاعراً، يميل إلى المجون والفكاهة. له «ديوان» جمعه هو، و«زيج» سماه «المعرب المحمودي» ألفه للسلطان محمود أبي القاسم بن محمد. وأولع بشعر ابن حجاج، فجمعه ورتبه وسماه «درة التاج من شعر ابن حجاج» وتوفي في بغداد بعلة الفالج. سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م، وعرفه ابن العبري بهبة الله «الأصفهاني» وقال: كان في وسط المئة السادسة من الأطباء المشار إليهم في الآفاق ثلاثة أفاضل معاً، من ثلاث ملل، كل منهم هبة الله اسماً ومعنى، من النصارى واليهود والمسلمين: «هبة الله بن صاعد بن التلميذ، وهبة الله بن ملكا، وهبة الله بن الحسين».

ترجمته في: معجم الأدباء ١٩/ ٢٧٣-٢٧٥، وأخبار العلماء للقفطي ٢٢٢، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١١٢، وعيون الأنباء ١/ ٣٧٦-٣٨٠، ووفيات الأعيان ٦/ ٥٠-٥٢، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٢ رقم ٣٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٨، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد للدمياطي ٢٤٥-٢٤٦ رقم ١٩٠، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦١-٢٦٣، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٤٨-٣٥٠ وفيات ٥٢٣هـ، وفوات الوفيات ٢/ ٦١٤-٦١٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٥ وفيات ٥٣٩، وكشف الظنون ١/ ٧٣٩ و٧٦٥، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٣-١٠٤، وهدية العارفين ٢/ ٥٠٥، وتاريخ ابن سباط ويقال: هبة الله بن الحسن، الأعلام ٩/ ٨١، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١-٥٤٠هـ) ص ٣٦١ رقم ٢٢١.

وقوله: [من مجزوء الكامل]

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنِّي قَدْ صُغْتُ قَلْباً مِنْ حَدِيدٍ
وَقَعْدْتُ أَنْظُرُ الْكُؤُوفَ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالْبَعِيدِ

وقوله في جزع دان، وهو الذي يوضع في مجالس الكبراء لصب تكعيب القدح:

[من المنسرح]

إِنِّي إِذَا مَا قَعْدْتُ فِي مَلَأٍ عُدِدْتُ مِنْ بَعْضِ آلَةِ الْفَرْحِ
إِذَا تَصَدَرْتُ فِي مَجَالِسِهِمْ تَنَعَّصُوا لِي بِفَاضِلِ الْقَدَحِ

وقوله: [من السريع]

هَلْ عَثَرْتُ أَقْلَامَ خَطِّ الْعِذَارِ فِي مَشْقَاهَا. فَالْخَالُ نَقْطُ الْعِثَارِ؟
أَوْ اسْتَدَارَ الْخَطُّ لَمَّا عَدْتُ نَقْطَتُهُ مَرْكَزَ ذَاكَ الْمَدَارِ^(١)

ومنهم:

[٣١]

وهو أبو علي، الحسين بن عبد الله / ٩٨ / بن يوسف بن شبيل

البغدادي شبيل^(٢)

حكيم رأي الدنيا بعين الاحتقار، ونظر كل ما فيها بذل الافتقار، وزخرت له

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٣٧٦-٣٨٠.

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف بن الشَّيْبِل، البغدادي، أبو علي: شاعر حكيم. من أهل بغداد مولداً ووفاء، توفي سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م). قرأ علوم الفلسفة والأدب، ونظم الشعر الجيد. وكان ظريفاً نديماً له «ديوان شعر».

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٣٣-٣٤٠، دمية القصر ٩٠٧/٢-٩٠٨، والأنساب المتفقة ٨٥، والمنتظم ٣٢٨/٨-٣٢٩ رقم ٤١٧، ١٦/٢١٣-٢١٤ رقم ٣٥١١، والأنساب ٧/٢٨٤، ومعجم الأدباء ١٠/٢٣-٢٥، وفيه: «الحسين بن عبد الله بن يوسف»، واللباب ٢/١٠، وخريدة القصر قسم شعراء العراق ٢/٢٤٧، والمحمدون من الشعراء للقفطي ٤٦٢-٤٧٠، تاريخ إربل لابن المستوفي ١/٢٤٩، وطبقات الأطباء ١/٢٤٧-٢٥٢ وفيه: «الحسين بن عبد الله»، ووفيات الأعيان ٤/٣٩٣ في ترجمة ابن نقطة وفيه: «محمود بن الحسن بن أبي الشَّيْبِل»، وسير أعلام النبلاء ١٨/٤٣٠-٤٣١ رقم ٢١٧، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٨-٩، والوافي بالوفيات ٣/١١-١٦، والبدية والنهاية ١٢/١٢١-١٢٢، وفوات الوفيات ٣/٣٤٤-٣٤٠، والبدر السافر ٩١، والنجوم الزاهرة ٥/١١١، وكشف الظنون ٧٦٦، ٣١٣، ودائرة معارف بطرس البستاني ٣/٢٥١، والأعلام ٦/١٠٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٧١-٤٨٠هـ) ص ٩٩ رقم ٩٠.

بحار الحكم، فخاض لججها الغمار، وأذكيته له سرجها فجنى من غصونها المهل له الثمار، وتناهى نظره في المال، فلم يزد بصيرة في الاعتبار، ولم يرد زيادة للاختبار، إلا أنه كان جريء اللسان، مسيء الإحسان، خرجت به الفلسفة إلى مهامها العريضة، فضل في فجاجها الفيح، وظل في ذيل انفراجها الفسيح، ودام يخطب في سماء سماواتها، ويخطب ولا يلج خطبه اسماع أهل مداواتها، وأعذب مساع نطقه، ومسالك باطله المموه بحقه، تأدب بأدب الحياة في الوجنات، وذو الإغفاء في المقل السنوات بالطف منه موقعاً، وأعطف لأعنة الأذنين إليه معاً، ولكنه لم يجد أذناً، ولم يلق من يعير بصيرته فطناً.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): مولده ومنشؤه ببغداد، وكان حكيماً فيلسوفاً، متكلماً فاضلاً، أديباً بارعاً، شاعراً مجيداً، ومن شعره قوله: [من الوافر]

بربك أيها القلک المذار مذارک قل لنا في أي شيء
وفیک نرى الفضاء. فهل فضاء وعندک تُرفعُ الأرواح أم هل
وموجُ ذا المجرة أم فريد وفیک الشمسُ رافعة شعاعاً
وطوق في النجوم من اللآلي وشهبُ ذا الخواطب أم دُبال
وترصیعُ نجومک أم حباب تمُدُّ رُقومها ليلاً وتطوي
٩٩/ فکم بصقالها صدی البرایا تُباري (ثم) تُخنسُ راجعات
فبینا الشرق یَقْدُفُها صُعوداً على ذا ما مَضَى وعليه یَمْضی
وأيامُ تفرقنا مُداهَا ودهرٌ ینثرُ الأعمارَ نثرأ
ودنیاً کُلما وَضَعَتْ جَنیناً غذاءُ مِن نوائبها ظُؤارُ

هي العَشَوَاءُ مَا خَبَطْتُ هَشِيمًا
فَمِنْ يَوْمٍ بَلَا أَمْسَ لِيَوْمٍ
وَمِنْ نَفْسَيْنِ فِي أَخْذٍ وَرَدٍّ
فَكَمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَلْفَتْ نَفُوسٌ
وَنَنْتَظِرُ الرِّزَايَا وَالْبَلَايَا
وَنَخْرُجُ كَارْهَيْنَ مَا دَخَلْنَا
أَلَمْ تَكُثُ بِالْجَوَارِحِشِ أَنْسَاتِسْ
فَإِنْ يَكُ آدَمُ أَشْقَى بَنِيهِ
وَلَمْ يَنْفَعْهُ بِالْأَسْمَاءِ عِلْمٌ
فَأُخْرِجْ ثُمَّ أَهِيْطْ ثُمَّ أَوْدَى
فَأَدْرَكُهُ بِعِلْمِ اللَّهِ فِيهِ
وَلَكِنْ بَعْدَ غُفْرَانٍ وَعَفْوٍ
لَقَدْ بَلَغَ الْعَدُوُّ بَنَا مَنَاهُ
وَقَفْنَا تَائِهَيْنَ كَقَوْمِ مُوسَى
/ ١٠٠ / فَيَا لَكَ لُقْمَةً قَدْ كَانَ مِنْهَا
نُعَاقِبُ فِي الظُّهُورِ وَمَا وُلِدْنَا
فَمَاذَا الْاِمْتِنَانُ عَلَى وُجُودِ
وَكَاثُ أَنْعَمًا لَوْ أَنْ كُنَّا
أَهَذَا الدَّاءِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ
تَحْيَرُ فِيهِ كُلُّ دَقِيقٍ فَهَمٍ
إِذَا التَّكْوِيرُ غَالَ الشَّمْسَ عَنَّا
وَبُدِّلْنَا بِهِذِي الْأَرْضِ أَرْضًا
وَأَذْهَلَتِ الْمَرَاضِعُ عَنْ بَنِيهَا
وَعَشَى الْبَدْرُ مِنْ فَرْقٍ وَذُعُرٍ
وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكُنَّ كُثْبًا
فَأَيْنَ ثَبَاتُ ذِي الْأَلْبَابِ مِنَّا
وَأَيْنَ عَقُولُ ذِي الْأَفْهَامِ فِيمَا
وَأَيْنَ يَغِيبُ لُبٌّ كَانَ فِينَا
وَمَا أَرْضُ عَصَثَتْهُ وَلَا سَمَاءُ

هي العجماءُ ما جَرَحَتْ جُبَارُ
بَغِيرِ غَدٍ إِلَيْهِ مَا يُسَارُ
لِرُوحِ الْمَرءِ فِي الْجِسْمِ انْتِشَارُ
جُسُومًا عَنْ مَجَائِمِهَا تُطَارُ
وَبَعْدُ فَبِالْوَعِيدِ لَنَا انْتِظَارُ؟
خُرُوجُ الضَّبِّ أَخْرَجَتْهُ الْوَجَارُ
فَكَمْ بِالْقُرْبِ عَادَ لَهَا نِفَارُ
بِذَنْبِ مَا لَهُ مِنْهُ اعْتِذَارُ
وَمَا نَفَعَ السُّجُودُ وَلَا الْجَوَارُ
فَتُرِبُ السَّافِيَاتِ لَهُ شِعَارُ
مِنَ الْكَلِمَاتِ لِلذَّنْبِ اغْتِفَارُ
يُعَيَّرُ مَا تَلَا لَيْلًا نَهَارُ
وَحَلَّ بِآدَمَ وَبَنَا الصَّغَارُ
وَلَا عِجْلُ أَضْلُ وَلَا خَوَارُ
عَلَيْنَا نِقْمَةٌ وَعَلَيْهِ عَارُ!
وَيُذْبَحُ فِي حَشَا الْأَمِّ الْحُورُ
لِغَيْرِ الْوَاجِدِينَ بِهِ الْخِيَارُ؟
نُخَيِّرُ قَبْلَهُ أَوْ نُسْتَشَارُ
وَهَذَا الْكُسْرُ لَيْسَ لَهُ انْجِبَارُ
وَلَيْسَ لِعُمُقِ جُرْحِهِمْ انْسِتَارُ
وَعَالٌ كَوَاكِبِ اللَّيْلِ انْتِثَارُ
وَطَوَّحَ بِالسَّمَاوَاتِ انْفِطَارُ
لِخَيْرَتِهَا وَعُظِّلَتِ الْعِشَارُ
خُسُوفٌ لِلتَّوَعُّدِ لِاسْرَارُ
مَهِيلَاتٍ وَسُجَّرَتِ الْبِحَارُ
وَأَيْنَ مَعَ الرُّجُومِ لَنَا اصْطِبَارُ؟
يُرَادُّ بَنَا وَأَيْنَ الْاِعْتِبَارُ؟
ضِيَاؤُكَ مِنْ سَنَاهُ مُسْتَعَارُ؟
فَفَيْمَ يَغُولُ أَنْجَمُهَا انْكَدَارُ؟

وقد وافئته طائعة وكانت
قضاها سبعة والأرض مهداً
فما لسمو ما أعلى انتهاء
ولكن كل ذا التهويل فيه
ومنه قوله: [من الوافر]

وكأنما الإنسان فيه عبرة
١٠١ / متصرفاً وله القضاء مُصرف
وقوله: [من المتدارك]

ثقلت زجاجات أتنا فرغاً
خفت فكات أن تطير بما حوت
وقوله: [من البسيط]

قالوا: القناعة عز والعفاف غنى
صدقتم من رضاه سد جوعته
وقوله: [من البسيط]

تلق بالصبر ضيف الهَمّ ترحله
فالحطْبُ ما زاد إلا وهو مُنتقص
فروح النفس بالتعليل ترض به
وقوله: [من البسيط]

بشنا إلى الدير من درني صبابات
فكم قضيت لبانات الشباب به
ما أمكنت دولة الأفراح مقبلة
قم فاجل في فلك الظلماء شمس ضحى
تلوح في أذرع الساقين أسورة
قد وقع الدهر سطرأ في صحيفته
خذ ما تعجل، واترك ما وعدت به
ومنهم:

دخاناً ما لثائره شرار
دحاها فهي للأموات دار
ولا لسموك ما أرسى قرار
لذي الأبواب وعظ وازدجار

مُتلوناً. والحسن فيه معار
ومكلفاً وكأنه مختار

حتى إذا ملئت بصرف الراح
وكذا الجسوم تخف بالأرواح

والذل والعار حرص النفس والطمع
إن لم يصبه بماذا عنه يقتنع؟

إن الهُموم ضيوف أكلها المهج
والأمر ما ضاق إلا وهو مُنفرج
عسى إلى ساعة من ساعة فرج

فلا تلمني فما تُغني الملامات
غنماً وكم بقيت عندي بقيات
فأنعم وكذا، فإن العيش تارات
بروجها الدهر طاسات وكاسات
تبراً. وفوق نحور الشرب جامات
لا فارقت شارب الخمر المسرات
فعل اللبيب فللتأخير آفات^(١)

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٣٣٣-٣٤٠.

[٣٢]

النصير الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين، أبو عبد الله،
الطوسي الفيلسوف^(١)

رجل ما عرف أياماً، ولا تبرقع بالحياء لثاماً، أقدم على خالقه، / ١٠٢ / وحصل من السعي على خافقه، وتجاهر بالفسوق، وتظاهر بالتبضع من السوق، ولم يخف عاقبة التهور، ولا التدلي على الشريعة والتسور، فلم يزل في قبح أحوثه، وطريق سبيل عهود منكوثه، على توسعه في العلم، ومعرفته بما به يستتم، فقد كان ذا فضائل غزيرة،

(١) محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر، نصير الدين الطوسي: فيلسوف. كان رأساً في العلوم العقلية، علامة بالأرصاء والمجسطي والرياضيات. علت منزلته عند «هولاكو» فكان يطيعه فيما يشير به عليه. ولد بطوس (قرب نيسابور) سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠١م) وابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ خزانة ملاًها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، اجتمع فيها نحو أربعمئة ألف مجلد، وقرر منجمين لرصد الكواكب وجعل لهم أوقافاً تقوم بمعاشهم. وكان «هولاكو» يمدّه بالأموال. وصنف كتباً جلييلة، منها «شكل القطاع - ط» يقال له «تربيع الدائرة» و«تحرير أصول إقليدس - ط» و«تجريد العقائد - ط» يعرف بتجريد الكلام، و«تلخيص المحصل - ط» مختصر المحصل للفخر الرازي، و«حل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا - ط» و«شرح قسم الإلهيات من إشارات ابن سينا - ط» و«أوصاف الأشراف - خ» و«تحرير المجسطي - خ» في الهيئة و«الأكر - خ» و«الحرارة والبرودة وتضادّ فعليهما - خ» رسالة، و«تحرير كتاب المساكن - خ» و«تحرير كتاب المناظر - خ» و«مئة مسألة وخمس من أصول إقليدس - خ» و«تحرير الطلوع والغروب - خ» و«تحرير المطالع - خ» و«تحرير المأخوذات - خ» و«تحرير المفروضات - خ» و«التذكرة في علم الهيئة - ط» بإيران، و«تحرير ظاهرات الفلك - خ» و«تحرير جرمي النيرين وبعديهما - خ» و«شرح كتاب ثمرة بطليموس - خ» و«المتوسطات الهندسية - خ» منه نسخة قديمة نفيسة في اللورنزيانة، بفلورانس، رقم (١٦٤) شرقي؛ و«تحرير الكرة المتحركة - خ» و«المقالات الست - ط» و«البارع - خ» في علم الهيئة والبلدان، و«التحصيل - خ» في النجوم، و«المخروطات» و«بقاء النفس بعد بوار البدن - ط» مع شرح للزنجاني، باسم «بقاء النفس بعد فناء الجسد» قاله عبيد. و«مصارع المصارع - خ»، و«آداب المتعلمين - ط» و«الجبر والمقابلة» و«إثبات العقل»، ومن مطبوعات حيدرآباد بالهند «مجموعة» في مجلدين، تشتمل على (١٦) رسالة له، بينها بعض ما تقدم ذكره. وله شعر كثير بالفارسية. توفي ببغداد سنة (٦٧٢هـ / ١٢٧٤م).

ترجمته في: الحوادث الجامعة ١٨٣، وتاريخ الملك الظاهر ٩٨، والمقتفي للبرزالي ١ / ورقة ٤٣ أ، والمختصر في أخبار البشر ٨ / ٤، وذيل مرآة الزمان ٧٩ / ٣، وتاريخ الزمان ٣٣٠، وتاريخ مختصر الدول ٢٨٦-٢٨٧، وتذكرة الحفاظ ١٤٩١ / ٤، ودول الإسلام ١٤٧ / ٢، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٦٦، والعبر ٣٠٠ / ٥، ومسالك الأبصار (خ) ٣٨٠-٣٨٦، وتاريخ ابن الوردي ٢ / ٢٢٣، والبداية والنهاية ١٣ / ٢٦٧-٢٦٨، والوافي بالوفيات ١ / ١٧٩-١٨١ رقم ١١٢،

وفواضل غزيرة، واستيلاء على عقول السلاطين، واستخفاء في كيد ولا تبليغه الشياطين، مع كرم عميم، وكر على مال، ولا يبقى معه عديم، وتظاهر بفراغ وطلب فصل رام مثله وراغ، ولكن الله إذا أرد لا مريء أمراً يسره لفعله، وقدره على فعله ليمضي سابق إرادته، ويقضي بشقاء العبد أو سعادته، ولهذا لج في عمه ولم يبصر، ودام على غيه ولم يقصر، فما أقبل على اعتذار ولا أسمع المشيب الإنذار.

كان رأساً في علم الأوائل، لا سيما في الأرصاد، والمجسطي؛ فإنه فاق الكبار. قرأ على المعين سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي وغيره، وكان ذا حرمة وافرة، ومنزلة عالية عند هولاء، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصرفه، فابتنى في مدينة مراغة قبة ورصداً عظيماً واتخذ في ذلك خزانة عظيمة، فسيحة الأرجاء، وملاًها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمئة ألف مجلد، وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة والفضلاء، وجعل لهم الجامكية، وكان سمحاً، كريماً، جواداً، - حليماً، حسن العشرة، غزير الفضائل، جليل القدر، ذا حياة.

حكى لنا شيخنا الأصفهاني: أنه أراد العمل للرصد، فرأى هولاء كثرة ما ينصرف عليه، فقال: هذا العلم المتعلق بالنجوم ما فائدته؟ أيدفع ما قدر أن يكون؟ فقال: أنا أضرب لمنفعته مثلاً، القان يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان، ويدعه يرمي من أعلاه طست نحاس كبيراً من غير أن يعلم به أحداً، ففعل ذلك، فلما وقع كانت له وقعة عظيمة هائلة رَوَّعَتْ مَنْ هناك، وكاد بعضهم يصعق، وأما هو وهولاء فإنيهما ما تغير عليهما شيء لعلمهما بأن / ١٠٣ / ذلك واقع، فقال له: هذا العلم النجومي له هذه الفائدة يعلم المتحدث فيه ما يحدث، فلا يحصل له من الروعة والاكتراث ما يحصل للذاهل الغافل عنه، فقال: لا بأس بهذا، وأمره بالشروع فيه أو كما قيل.

= وفوات الوفيات ٣٠٧/٢، وعيون التواريخ ٥٢/٢١، والسلوك ج ١ ق ٦١٤/٢، وعقد الجمان ١٢٤-١٢٥، والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٧، وتاريخ ابن سباط ٤٣٦/١، وكشف الظنون ٩٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٩١، ٨٥٩، ٨٩٦، ٩٥٠، ٩٦٩، ١١٠٣، ١٣٦١، ١٤٣٦، ١٤٩٣، ١٦٤٤، ١٧٣٩، وشذرات الذهب ٣٣٩/٥-٣٤٠، وإيضاح المكنون ٢/٢٤٣، ٣٥٢، ٣٥٣، ٤٢٠، ٤٢١، وهدي العارفين ١٣١/٢، والفوائد الرضوية لعباس القمي ٦٠٢-٦١٥، وأعيان الشيعة ٤٦/٤-١٩، والأعلام ٣٠/٧-٣١، ومعجم المؤلفين ١١/٢٠٧-٢٠٨، وتاريخ الخلفاء ٤٨٣، وديوان الإسلام ٣٠٨-٣٠٩ رقم ٢٠٨٥، وروضات الجنات ٦٠٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٧١-٦٨٠هـ) ص ١١٣ رقم ٨٦.

ومن دهائه ما حكاه لي عنه شيخنا الأصفهاني أيضاً قال: إنه حصل له غضب على الجويني صاحب الديوان، وأظنه قال علاء الدين فأمر بقتله، فجاء أخوه إليه، وذكر له ذلك، فطلب منه إبطال ذلك، فقال: هذا القان وهؤلاء القوم إذا أمروا بأمر ما يمكن رده، خصوصاً إذا برز إلى الخارج، فقال: لا بد من الحيلة في ذلك، فتوجه إلى هولاكو، وبيده عكاز وسبحة واصطرلاب، وخلفه من يحمل مبخرة والبخور يضرم، فرآه خاصة هولاكو الذين على باب المخيم، فلما وصل أخذ يزيد في البخور، ويرفع الاسطرلاب ينظر فيه ويضعه، ويسأل عن هولاكو ويقول: هو سالم، هو سالم، يكرر ذلك، ويقولون: نعم، فيحمد الله ويسجد، فلما رأوه يفعل ذلك دخلوا إلى هولاكو، وأعلموه وخرجوا إليه، فقالوا: ما الذي أوجب هذا؟ فقال: القان أين هو؟ قالوا له: جوا، قال: طيب معافى موجود في صحة؟ قالوا: نعم، فسجد شكراً لله تعالى، وقال لهم: هو طيب في نفسه؟ قالوا: نعم، وكرر هذا ومثله، وقال: أريد أرى وجهه بعيني إلى أن دخلوا إليه وأعلموه بذلك، وكان وقت لا يجتمع به فيه أحدٌ، فأمر بإدخاله، فلما رآه سجد وأطال السجود، فقال له: ما خبرك؟ قال: اقتضى الطالع في هذا الوقت أن يكون على القان قطع عظيم إلى الغاية، فقممت وعملت هذا وبخرت هذا البخور ودعوت بأدعية أعرفها أسأل الله صرف ذلك عن القان، والطالع يقتضي أن يحقن القان دماء كثيرة، ويفرج عن نفوس كثيرة ليحقن دمه ويفرج عنه، ويتعين الآن أن القان يكتب إلى ممالكه ويجهز الأليّة في هذه الساعة إليها بإطلاق من في الحبوس والاعتقال، والعفو عمن له جناية أو أمر بقتله لعل الله أن يصرف هذا الحادث العظيم، ولو لم أر وجه القان ما صدقت، فأمر هولاكو في / ١٠٤ / ذلك الوقت بما قال، وأطلق صاحب الديوان في جملة الناس، ولم يذكره النصير الطوسي، وهذا غاية في الدهاء بلغ به مقصده، ودفع عن الناس أذاهم، وعن بعض الناس إزهاق أرواحهم.

قال أبو الصفاء^(١): ومن حلمه ما وقفت على ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما يقول فيها له: يا كلب يا ابن الكلب، فكان الجواب وأما قوله لي كذا وكذا، فليس بصحيح لأن الكلب من ذوات الأربع وهو نابح، طويل الأظفار، وأنا فمنتصب القامة، بادي البشرة، عريض الأظفار ناطق ضاحك، فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص، وأطال في نقض كل ما قاله، هكذا برطوبة وتأن غير منزعج ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة.

ومن تصانيفه «كتاب المتوسّطات بين الهندسة والهيئة» وهو جيد إلى الغاية، و«مقدمة في الهيئة» وكتاب وضعه للنصيرية، وأنا أعتقد أنه ما يعتقده؛ لأن هذا فيلسوف، وأولئك يعتقدون إلهية علي، واختصر «المحصل» للإمام فخر الدين وهذبه وزاد فيه، وشرح «الإشارات» وردّ فيه على الإمام فخر الدين في شرحه، وقال: هذا جرح وما هو شرح. قال فيه: إني حررت في عشرين سنة وناقض فخر الدين كثيراً. ولقد ذكره قاضي القضاة جلال الدين القزويني رحمه الله يوماً، وأنا حاضر، وعظّمه - أعني الشرح - فقلت: يا مولانا ما عمل شيئاً؛ لأنه أخذ شرح الإمام، وكلام سيف الدين الأمدي، وجمع بينهما، وزاده يسيراً، فقال: ما أعرف للآمدي في الإشارات شيئاً، قلت: نعم كتاب صنّفه وسماه «كشف التموهيات عن الإشارات والتنبيهات»، فقال هذا ما رأيته.

ومن تصانيفه: «التجريد في المنطق»، و«أوصاف الأشراف»، و«قواعد العقائد» و«التلخيص في علم الكلام» و«العروض» بالفارسية، و«شرح الثمرة» لبطليموس و«كتاب مجسطي» و«جامع الحساب في التخت والتراب» و«الكرة» و«الأسطوانة» و«المغطيات» و«الظاهرات» و«الباطن» و«الليل والنهار» و«الكرة المتحركة» و«الطلوع والغروب» و«تسطيح الكرة» و«المطالع» ١٠٥ / و«تربيع الدائرة» و«المخروطات» و«الشكل المعروف بالقطائع» و«الجواهر» و«الأسطوانة» و«الفرائض على مذهب أهل البيت» و«تعديل العيار في نقد تنزيل الأفكار» و«بقاء النفس بعد بوار البدن» و«الجبر والمقابلة» و«إثبات العقل الفعال» و«شرح مسألة العالم» «رسالة الإقامة» «رسالة إلى النجم دبيران الكاتب في إثبات واجب الوجود» و«حواشي على كليات القانون» و«رسالة ثلاثون فصلاً في معرفة التقويم» و«كتاب كرمانالوين» و«الزيغ الإيلخاني» وأكثر ما ورثه سبعون، وله شعر كثير بالفارسية.

وقال الشمس بن المؤيد العرضي: أخذ النصير العلم عن الشيخ كمال الدين ابن يونس الموصللي، والمعين سالم بن بدران المصري المعتزلي وغيرهما. قال: وكان منجماً لأبغا بعد أبيه، وكان يعمل الوزارة لهولاكو من غير أن يدخل يديه في الأموال، واحتوى على عقله حتى أنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به، ودخل عليه مرة ومعه كتاب مصور في عمل الدرياق الفاروق فقرأه عليه، وعظّمه عنده، وذكر منافعه، وقال: إن كان منفعتك كذا، فتسحق مفرداته في هاون ذهب، فأمر له بثلاثة آلاف دينار لعمل الهاون.

وولاه هولاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده، وكان له في كل بلد نائب يستغل

الأوقاف، ويأخذ عشرها، ويحملة إليه ليصرفه في جامكيات المقيمين بالرصد، ولما يحتاج إليه من الأعمال بسبب الأرصاد.

وكان للمسلمين به نفع خصوصاً الشيعة والعلويين والحكماء وغيرهم، وكان يبرهم، ويقضي أشغالهم، ويحمل أوقافهم، وكان مع هذا كله فيه تواضع وحسن ملتقى.

قال حسن بن أحمد الحكيم: سافرت إلى مراغة، وتفرجت في هذا الرصد، ومتوليه صدر الدين علي بن خواجا نصير، وكان شاباً فاضلاً في التنجيم والشعر بالفارسية، وصادفت الشمس ابن المؤيد العروضي والشمس الشرواني، وكمال الدين الأيكي، وحسام الدين الشامي، فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً، منها ذات الحلق، وهي خمس دوائر متخذة من 106 / نحاس الأول دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، ودائرة الدائرة الشمسية يعرف بها سمت الكواكب، وإسطرلاب يكون سعة قطره ذراعاً، وإسطرلابات كثيرة وكتب كثيرة.

قال: وأخبرني شمس الدين بن العرضي: أن النصير أخذ من هولاء بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه إلا الله، وأقل ما كان يأخذ بعد فراغ الرصد لأجل الآلات وإفراغها وإصلاحها عشرون ألف دينار خارجاً عن الجوامك للحكماء والقومة.

وقال الخواجا نصير الدين في الزيج الإيلخاني: إني جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء منهم: المؤيد العُرَضي من دمشق، والفخر المراغي الذي كان بالموصل، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس، والنجم دبيران القزويني، وابتدأنا ببنائه في سنة سبع وخمسين وستمائة في جمادى الأولى بمراغة، والأرصاد التي بنيت قبل، وعليها كان الاعتماد دون غيرها هو رصد ابن بحيش وله مبنياً ألف وأربعمائة سنة، وبعده رصد بطليموس، وله ألف ومائتا سنة وخمس وثمانون سنة، وبعده في ملة الإسلام رصد المأمون ببغداد وله أربعمائة سنة وثلاثون سنة، والرصد الثاني في حدود الشام، والرصد الحاكمي بمصر، ورصد بني الأعلم ببغداد، وافق فيها الرصد الحاكمي، ورصد ابن الأعلم ولهما مائتان وخمسون سنة. وقال الأستاذون: إن أرصاد الكواكب السبعة لا يتم في أقل من ثلاث وثلاثين سنة؛ لأن فيها يتم دور هذه السبعة، فقال هولاء: اجتهد أن يتم رصد هذه السبعة في اثني عشر سنة، فقلت له: أجهد في ذلك.

وكان النصير قد قدم من مراغة إلى بغداد، ومعه جماعة كثيرة من تلامذته وأصحابه، فقام بها مدة أشهر ومات، وخلف من أولاده صدر الدين علي، والأصيل، والفخر أحمد، وولي صدر الدين علي بعد أبيه غالب مناصبه، 107 / فلما مات ولي

مناصبه أخوه الأصيل، وقدم الشام مع غازان، وحكم تلك الأيام في أوقاف دمشق، وأخذ منها جملة، ورجع مع غازان، وولي ولاية بغداد مديدة فأساء السيرة فعزل وصودر وأهين، فمات غير حميد. وأما أخوهما الفخر أحمد فقتله غازان لكونه أكل أوقاف الروم وظلم. ومنهم:

[٣٣]

القطب الشيرازي^(١)

رجلٌ يرجع إلى خير، وينتجع في أول وأخير، فلم يغفل واديه من منتجع، ولا نأديه من حفل قوم مجتمع، وكان له من بني جنكزخان محلٌ حلّى بالمنن ترائبه، وخلّى كمد داء الأنواء راتبه، حتى اصطفاه السلطان أحمد، فبعثه إلى الحضرة المنصورية رسولاً، وبلغه من المسرة بتلك المشاهد سولاً، فحالت الأقدار دون مُرادِه، وأحلت له السمام في مُرادِه، فلم يُبلغ الرسالة، ولا سوع له زمنه الذي أسأله.

(١) محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي، قطب الدين الشيرازي: قاض، عالم بالعقليات، مفسر. ولد بشيراز سنة (٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، وكان أبوه طبيباً فيها، فقرأ عليه، ثم قصد نصير الدين الطوسي وقرأ عليه. ودخل الروم فولّي قضاء سيواس وملطية. وزار الشام. ثم سكن تبريز، وتوفي بها (سنة ٧١٠هـ/١٣١١م). وكان ظريفاً لا يحمل همّاً ولا يغير زي الصوفية، يجيد لعب الشطرنج ويديمه، ويتقن الشعبة، ويضرب بالرباب ويجلس في حلق المساخِر. وهو من بحور العلم. من كتبه «فتح المنان في تفسير القرآن» نحو (٤٠) مجلداً، منه الجزء الأول مخطوط، و«مشكلات التفاسير - خ» و«حكمة الإشراق - ط» و«تاج العلوم - خ» و«شرح كليات القانون في الطب لابن سينا - خ» المجلد الرابع منه بخط مشرقى مشرق، كتب سنة (٧٣١) في خزانة الرباط (١٤٨ كتاني) و«مفتاح المفتاح - خ» في البلاغة، و«غرة التاج» في الحكمة، و«نهاية الإدراك في دراية الأفلاك» في علم الهيئة، و«شرح الأسرار للسهروردي» و«رسالة في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم - خ» و«الانتصاف، شرح الكشاف - خ» و«شرح مختصر ابن الحاجب - خ» و«التحفة الشهية - خ» في الهيئة، و«التبصرة - خ» هيئة، و«شرح التذكرة الناصرية - خ» و«رسالة في البرص - خ».

ترجمته في: الوفيات لابن رافع ١٠/١٢٩-٢٢٨، ٩٤/٣٣٩-٣٤١، وذيل العبر ٥٥، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٩٨، والتحفة المملوكية ٢٣٨، والمختصر في أخبار البشر ٤/٦٣، والمقننى ٢/ ورقة ١٦٦ أ، ومراة الجنان ٤/٢٤٨-٢٤٩، وفيه: «محمد»، وطبقات الشافعية الكبرى ٦/٢٤٨ وفيه: «محمد»، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/٢٨٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٥٩، وتاريخ ابن قاضي شهبة ٢/٩١-٩٢ رقم ٥٢٣، والسلوك ج ٢ ق ٩٦-٩٧، والنجوم الزاهرة ٩/٢١٣، وبغية الوعاة ١/٣٩٠، ومفتاح السعادة ١/١٦٥، والبدر الطالع ٢/٢٩٩، وهدية العارفين ٢/

وحدثني شيخنا الأصفهاني قال: كان لا يزال بينه وبين خواجا رشيد الوزير بغضاء تفرق اللحم، وتدب دبيب النار في الفحم، وكان لا يزال ينغص عليه مقرره، ولا يريه إلا مكدره، فكانت جدته لا تقوم بتكاليفه، ومواده لا تنهض بمصاريفه، على أنه كان ينسب إلى هنات ومعاييب بينات على فضل يتتاب، وكرم لا يرد بعتاب. ومنهم:

[٣٤]

الشيخ صفي الدين الهندي^(١)

إمام لم يبق إلا من اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، واشترف به على ما أعيان العيان، وأخفى البيان، وقرب البعيد ولم يأن، وكان بحرأ يطفح، وقطراً يسفح، يرجع

٤٠٦، وتاريخ الأدب العربي ٢/٢١١، وذيله ٢/٢٩٦، والأعلام ٨/٦٥، ومعجم المؤلفين ١٢/٢٠٢، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/٤٢٨، وأعيان العصر ٥/٤٠٩-٤١٢ رقم ١٨٤٨، وكشف الظنون ٣٦٧، ٣٦٨، ٦٨٤، ١٢٣٥، ١٤٧٧، ١٦٩٥، ١٧٦٣، ١٨٥٣، ١٩٨٥، وروضات الجنات ٢١٤-٢١٥، وفهرست الخديوية ٥/٢٢٥، وإيضاح المكنون ١/٢٥٠، وفهرس المخطوطات المصورة ٣/١٠٧-١٠٨، والأعلام ٧/١٨٧-١٨٨، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ) ص ١٠٠ رقم ٢٥٤.

(١) محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، أبو عبد الله، صفي الدين الهندي: فقيه أصولي. ولد بالهند سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)، وخرج من دهلي سنة (٦٦٧هـ)، فزار اليمن، وحج، ودخل مصر والروم. واستوطن دمشق (سنة ٦٨٥) وتوفي بها سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م). ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية. له مصنفات، منها «نهاية الوصول إلى علم الأصول - خ» ثلاثة مجلدات منه، و«الفائق - خ» في أصول الدين، و«الزبدة» في علم الكلام، و«الرسالة التسعينية في الأصول الدينية - خ». ترجمته في: المقتفي للبرزالي ٢/ ورقة ٢٣٤أ، ونهاية الأرب ٣٢/٢٣٠، وذيل العبر ٨٣-٨٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٣٠١، ومعجم الشيوخ ٥١٧ رقم ٧٦٧، ودول الإسلام ٢/٢٢١، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/٢٤٠، وطبقات الشافعية الوسطى، ورقة ٧٩ ب، ومراة الجنان ٤/٢٧٢، ونثر الجمان ٢/ ورقة ١١١ ب، والبداية والنهاية ١٤/٧٤-٧٥، ودرة الأسلاك ١/ ورقة ٢٠٣، وتذكرة النبيه ٢/٧٢-٧٣، ونزهة الخواطر ٢/١٣٨، وطبقات الشافعية لابن قاضي شعبة ٣/٨٢-٨٣ رقم ٥١٥، والوافي بالوفيات ٣/٢٣٩، وأعيان العصر ٤/٥٠١-٥٠٥ رقم ١٦١٣، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/٤٨٣، والسلوك ج ٢ ق ١/١٥٨، والبدر الطالع ٢/١٨٧، ومفتاح السعادة ٢/٢١٨، وتاريخ الخلفاء ٤٨٧، وهدية العارفين ٢/١٤٣، والدارس ١/١٣٠، وكشف الظنون ٧٨٣، شذرات الذهب ٦/٣٧، وديوان الإسلام ٣/٢٠١ رقم ١٣٢٠، وتاريخ الأدب العربي ٢/١١٦، وذيله ٢/١٤٢، والأعلام ٦/٢٠٠، ومعجم المؤلفين ١٠/١٦٠، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ)، ص ١٣٧ رقم ٤٢١.

إلى كرم سجايا لو قذف بها النار، لما اضطربت، أو سجرت بها البحار لما التطمت،
إلاً أنه كان لا تطيعه العبارة إذا نطق، ولا يحذر صيب سيله إذا اندفق.

أخذ عنه أكابر العلماء بدمشق كابن المراحل، وابن الزمكاني، وبلغوا به فوق
الأمانى، وحصل به / ١٠٨ / ابن المرحل علوماً كانت نجايا الصدر، وأمن ابن
الزمكاني أن يعرف النقص كماله كما يعرف البدر، ولولاه لما اتسع بالشام مجال الكلام،
ولا طلعت للمعقول شمسٌ تمحق الظلام، وكان على تدفق بحره، وتألق سحره لا ينفث
سحره في عقد الأقلام، ولا يكتب في نهايته إلا ما لا يرضى به في بدايته من الغلام.
ومنهم:

[٣٥]

علي بن اسماعيل بن يوسف الإمام العلامة، القدوة العارف، ذو

الفنون، الشيخ علاء الدين، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ

أبو الحسن، القونوي، التبريزي^(١)

جمع الطريقتين، ونفع الفريقين، ولي المنصبين، ورعى في جانبيهما المخصبين،
فعلا على الألى، وارتقى أهل النقى، وعلا على مجد ما وصل إليه ذو مجد، ودّرس في
الإقليمين فأعجب، وغرس فيهما كل غرس فأنجب، ولم يرد أهل العلم والصلاح إلا
بقيته، ولا شهد أهل مصر والشام إلا أولويته، ذلت له فيهما الرتب، وسهلت عليه
الأمانى فبلغ أقصى علاهما، وطاب به الواديان كلاهما.

(١) علي بن اسماعيل بن يوسف القونوي، أبو الحسن، علاء الدين: فقيه، من الشافعية. ولد بقونية
سنة (٦٦٨هـ / ١٢٧٠م)، ونزل بدمشق سنة (٦٩٣هـ). وانتقل إلى القاهرة، فتصوف، وتلقى علوم
الأدب والفقه. ثم ولي قضاء الشام سنة (٧٢٧هـ)، فأقام بدمشق إلى أن توفي سنة (٧٢٩هـ /
١٣٢٩م). له «شرح الحاوي الصغير - خ» فقه، و«الابتهاج في انتخاب المنهاج - خ» في شسترتي
(٣٠٨١) و«التصرف في التصوف» و«الطعن في مقالة اللعن - خ» رسالة.

ترجمته في: دول الإسلام ٢/ ٢٣٨، وذيل العبر ١٦٢-١٦٣، والإعلام بوفيات الأعلام ٣٠٨،
والمعجم المختص ١٦٢ رقم ١٩٨، وتاريخ حوادث الزمان ٢/ ٣٦٧-٣٧٠ رقم ٣٧٥، وطبقات
الشافعية الكبرى ٦/ ١٤٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٩١-٢٩٢، و«مرآة الجنان» ٤/ ٢٨٩، وأعيان
العصر ٣/ ٢٨٥-٢٩٥ رقم ١١٢٢، والبداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، وطبقات الشافعية للإسنوي ٢/
٣٣٤-٣٣٦ رقم ٩٦٩، و«درة الأسلاك» ٢/ ورقة ٢٥٩، وتذكرة النبيه ٢/ ١٩٣-١٩٤، وطبقات
الشافعية لابن قاضي شعبة ٣/ ١٢٤-١٢٥ رقم ٥٥٢، ونهاية الأرب ٣٣/ ٢٩٥، ونثر الجمان ٣/
ورقة ٩٠، والسلوك ج ٢/ ٣١٥، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، وبغية الوعاة ٢/ ١٤٩-١٥٠ رقم

ولد سنة ثمان وستين وستمائة، وتوفي بدمشق سنة تسع وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة، ودفن بسفح جبل قاسيون بترية اشترت له. تفقه وتفنن وبرع وناظر، وقدم دمشق أول سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فرتب صوفياً، ثم درّس بالإقبالية، وسمع من أبي حفص بن القواس، وأبي الفضل بن عساكر وجماعة بمصر من الأبرقوهي وطائفة، واستوطن مصر، وولي مشيخة سعيد السعداء، وأقام عشرين سنة يصلي الصبح ويقعد للأشغال إلى أذان الظهر، وتخرج به الأصحاب، وانتفع به الطلبة خصوصاً في الأصول، وكان ساكناً، وقوراً، حليماً، مليح السمات والوجه، تام الشكل، حسن التعليم، ذكياً، قوي اللغة والعربية، كثير التلاوة والخير. درّس بالشريفية بالقاهرة، وبها كان سكنه واشتغاله ثم لما حضر قاضي القضاة القزويني إلى الديار المصرية عوضاً عن قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة عينه / ١٠٩ / السلطان لقضاء قضاء الشام، فأخرج كارهاً وكان يقول لأصحابه الأخصاء سرّاً: أخملني السلطان كونه لم يولني قضاء الديار المصرية، وليت كان عيني لذلك، وكنت سألته الإعفاء.

ولما خرج إلى الشام حمل كتبه على البريد معه وأظنها كانت وقر خمسة عشر فرساً أو أكثر، وباشر المنصب أحسن مباشرة بصلف زائد، وعفة مفرطة، ولم يكن له نهمة في الأحكام بل رغبته وتطلعه إلى الاشتغال والإفادة، وطلب الإقالة أولاً من السلطان، فما أجابه، وكان منصفاً في بحوثه، رضيعاً معظماً للآثار، ولم يغير هيئة التصوف. خرّج له ابن طغريل وابن كثير ووصلهما بجملة، وشرح الحاوي في أربع مجلدات موجودة، وله «مختصر المنهاج» للحليمي سماه «الابتهاج» وله «التصرف شرح التعرف من التصرف».

وكان يعرف الأصلين والمنطق وعلوم الحكمة، ويعرف الأدب، وكان مع مخالفته لابن تيمية وتخطئته له في أشياء كثيرة يثني عليه ويعظمه، ويذب عنه إلا أنه لما توجه من مصر إلى دمشق قال له السلطان: إذا وصلت خل نائب الشام يفرج عن ابن تيمية، قال: يا خوند على ماذا حبستموه؟ فقال: لأجل ما أفتى به في تلك المسألة

⁼ ١٦٧٤، والبدر الطالع ١/ ٤٣٩-٤٤١، وتاريخ الخلفاء ٤٨٨، وقضاة دمشق ٩١، والدارس ١/ ٩٧، وتاريخ ابن سباط ٢/ ٦٥٠، وكشف الظنون ٤١٨ و٤٢٠ و٦٢٥ و١٨٧١، وشذرات الذهب ٩٠/ ٦، وهدية العارفين ١/ ٧١٧، وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٨٦، وذيله ٢/ ١٠١، وديوان الإسلام ٤/ ٣١-٣٢ رقم ١٦٩٩، الأعلام ٤/ ٢٦٤، معجم المؤلفين ٨/ ٣٧-٣٨، وموسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ق ٢ ج ٣/ ٢٩-٣٠ رقم ٧٠٨، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ)، ص ٢٦٤ رقم ٨١٩.

فقال: إنما حبس للرجوع عنها، فإن كان قد رجع أفرجنا عنه، فكان ذلك سبب تأخيره في السجن، وكان له ميل إلى محبي الدين بن العربي إلا أن له ردوداً على أهل الإلحاد، وكان يتحدث على حديث أبي هريرة: «كنت سمعه الذي يسمع به»، ويشرحه شرحاً حسناً ويبينه بياناً شافياً، وكان يكتب مليحاً قوياً جاريماً.

قال أبو الصفاء^(١): ورأيت يكتب بخطه على ما يقتنيه من الكتب التي فيها مخالفة السنة من اعتزال أو غيره: [من الهزج]

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقُّيهِ
وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ مِنَ الْخَيْرِ يَقَعُ فِيهِ

/ ١١٠ / وكان يترسل جيداً من غير سجع، ويستشهد بالآيات المناسبة والأحاديث والآيات اللاتقة بذلك المقام، ومات بورم الدماغ بقي به أحد عشر، ومات في بستان ضمنه، وتأسف الناس لموته أسفاً كثيراً: [من الكامل]

عَمَّتْ فَضَائِلُهُ فَعَمَّ مُصَابُهُ فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ
كتب^(٢) إلى ناصر الدين شافع، وقد طلب منه شيئاً من شعره: [من الكامل]

غَمَرْتَنِي الْمَكَارِمُ الْعُرُ مِنْكُمْ وَتَوَالَتْ عَلَيَّ مِنْهَا فُنُونُ
شَرُطُ إِحْسَانِكُمْ تَحَقُّقٌ عِنْدِي لَيْتَ شِعْرِي الْجَزَاءُ كَيْفَ يَكُونُ
يقبل اليد الشريفة لا زالت للمكارم مستديمة، وفي سبل الخيرات مستقيمة، وينتهي أن بضاعة المملوك من كل الفنون مزجاة، لا سيما من الأدب فإنه فيه في أدنى الدرجات، وقد وردت عليه إشارة مولانا حرسه الله تعالى، في طلب شيء من الشعر الذي ليس المملوك منه في غير ولا نفير، ولا حظي منه بنقير ولا قطمير^(٣)، سوى ما نبذ من الهذيان، الذي لا يصلح لغير الكتمان، ولا يحفظ إلا للنسيان، والمسؤول من فضل مولانا، وكرمه المبدول أن يتم إحساناً إليه بالستر عليه، فإنه وجميع ما لديه من سقط المتاع، ولا يعار لسقاطته ولا لنفاسته ولا يباع، والله يؤيد مولانا ويسعده، ويعرسه بالملائكة ويعضده.

وكتب إليه وقد وقف على كتابه الذي سماه «مخالفة المرسوم في حل المنشور والمنظوم»: [من الطويل]

مَخَالَفَةُ الْمَرْسُومِ وَافَقَتِ الْمُنَى وَحَازَتْ مِنَ الْإِحْسَانِ حَصْلَ الْمَفَاضِلِ

(١) أعيان العصر ٣/ ٢٩١. (٢) أعيان العصر ٣/ ٢٩١-٢٩٢.

(٣) القطمير: القشرة الخفيفة بين النواة والتمر.

أثارت على بُخلِ الأثيرِ أثارةً مِنْ الْعِلْمِ مَفْتُوناً بِهَا كُلُّ فَاضِلٍ^(١)
ومنهم:

[٣٦]

القاضي جلال الدين القزويني، أبو المعالي، محمد ابن القاضي سعد الدين أبي
القاسم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد الشافعي الدُّلَفي^(٢)

قاضي القضاة، خطيب الخطباء، أُوحد الأئمة، مفيد العلماء، عمدة الطالبين،
لسان المتكلمين، / ١١١ / من ولد أبي دُلف، ومن مدد ذلك السلف، ومن بيت قضاء
وإمامة، وضرائر بحر وغمامة. ولي أبوه وأخوه، وتشبهت النظراء ولم يواخوه، قدم مع

(١) إلى هنا من أعيان العصر.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب
دمشق. من أحفاد أبي دلف العجلي: قاض، من أدياء الفقهاء. أصله من قزوين، ومولده بالموصل
سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م). ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق سنة (٧٢٤هـ)، فقضاء
القضاة بمصر (سنة ٧٢٧) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة (٧٣٨) ثم ولاه القضاء
بها، فاستمر إلى أن توفي سنة (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م). من كتبه «تلخيص المفتاح - ط» في المعاني
والبيان، و«الإيضاح - ط» في شرح التلخيص، و«السور المرجاني من شعر الأرجاني» وكان حلو
العبارة، أديباً بالعربية والتركية والفارسية، سمحاً، كثير الفضائل.

ترجمه في: ذيل العبر ٢٠٥-٢٠٦، والإعلام بوفيات الأعلام ٣١٣، وذيل تذكرة الحفاظ ٢١-
٢٢، ودول الإسلام ٢/ ٢٤٥، المختصر في أخبار البشر ٤/ ١٢٨-١٢٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/
٣٢٤-٣٢٥، ومروءة الجنان ٤/ ٣٠١، وطبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٢٣٨-٢٣٩، عيون التواريخ
١/ ورقة ١٣٥، وذيل تذكرة الحفاظ ٢١، والوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٢-٢٤٣، رقم ١٢٥٥، وأعيان
العصر ٥/ ٤٩٢-٤٩٩ رقم ١٦١٠، والبداية والنهاية ١٤/ ١٨٥، ونثر الجمان ٣/ ورقة ١٧٣ب-
١٧٤أ، طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ٢٣٩ رقم ٩٦٣، وتاريخ الملك الناصر للشجاع ٥٤،
طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣/ ١٣٨-١٤٠ رقم ٥٦٣، ٩٤/ ٣-٦ رقم ٢، والنجوم الزاهرة
٩/ ٣١٨، والمنهل الصافي ٦/ ورقة ٦٨٥أ، ب، وبغية الوعاة ١/ ١٥٦-١٥٧ رقم ٢٦١، تاريخ
ال خلفاء ٤٨٨، والدارس ١/ ١٩٦-١٩٧، وقضاة دمشق ٨٧-٩١، ومفتاح السعادة ١/ ٢٠٩-٢١٠
و٢/ ٣٥٩-٣٦٠، وكشف الظنون ١/ ٢١٠ و٤٧٣، و٤٧٤ و٢/ ١٠٠٩ و١٦٩٢ و١٧٦٤، وشذرات
الذهب ٦/ ١٢٣-١٢٤، والبدر الطالع ٢/ ١٨٣-١٨٤، وهدية العارفين ٢/ ١٥٠، ودائرة المعارف
الإسلامية ٤/ ٨٩٦، وفهرس المخطوطات الإسلامية في قبرص ٣٩٥-٣٩٦ رقم ٧٢٣ و٧٢٤،
وتاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٢، وذيله ٢/ ١٥، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١٤٥، ورفع الإصر ورقة
١٠٤، والدارس ٢/ ١٩٧، وطبقات الفقهاء الشافعي للعبادي ١٧٨-١٧٩، وتذكرة النبيه ٢/ ٢٩٩-
٣٠٠، ودررة الأسلاك ٢/ ٣١٠، والأعلام ٦/ ١٩٢، وذيل الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ)
ص ٣٥٣ رقم ١٠٦٣.

أخيه الشام وناب عنه بمدينة دمشق واستوطنها، وولي الخطابة وسقى فتنها، ورقى أعواد المنابر وهزَّ غُصنها، وكان صدر المحافل إذا عقدت، وصير في المسائل إذا انتقدت، وإذا جمعت المجالس كان لسانها، وإذا نظرت المدارس كان إنسانها. وكان خرق اليدين وطلق الكرم وإن كان بالدين، وكان له من سلطاننا نظرة عناية ترمقه، وتكبت به البحر إذا أشبهه تدفقه، وكذلك كانت له من كافل الممالك تنكز حتى اتخذته في حجه رفيقاً، وجعله له إلى الله طريقاً، ثم تنكر له بحره، فكادت تنسفه أمواجه، وتلقيه في مهالكها فجأجه، ودام السلطان له على كرم سجيته، وشيم أريحيته، فكتب إلى تنكز في توليته قضاء القضاء بالشام حين خلا منصبه، وتخلّى له مخصبه، فأظهر تنكز له المعاييب، وأساء محضره وهو غائب، فأصر السلطان على ولايته وصمم، وكمل بادي رأيه فيه وتمم، وطلبه إلى حضرته مكرماً، وأحمد عنه نار النائرة متضرماً، وأوفى عنه ما أثقل إصره من الديوان الذي اتخذها ذلك المنكر له عيباً، وانتهب له غيباً، ثم قدم دمشق جامعاً بين الخطابة والقضاء، وتصرف في الإنفاق والإمضاء، ثم لم تطل به المدة حتى طلبه السلطان إلى حضرته ثانياً وولاه بحضرته القضاء، وأظهر به إذا كرهه نائبه الارتضاء، وكان له منه المنزلة الرفيعة، والمكانة التي ما ردت قط شفيعه، حتى حدثت هنات، وجنيت نبات، فأعاده إلى الشام على القضاء، فما لبث حتى حل به صرف القضاء.

وكان ممن قدم وحصل جانباً صالحاً من الفقه واللغة، وعلم المعاني والبيان، وعلم الكلام، واعتنى به وبرع فيه، وأتقن علم الحكمة إتقاناً قل فيه من كان يدانيه، واشتهر بحسن البديهة في المجالس والمدارس، / ١١٢ / ولم يك مقصراً في شأن، ولا ثانياً من عنان، وتزيد في دمشق إكبابه على الاشتغال وطلب العلم وتحصيله وقراءة الكتب ومطالعتها ومذاكرة العلماء ومباحثتهم.

حكى لي: أنه كان لشدة حرصه يحضر بعض خزائن الكتب المشهورة الموقوفة وكان خازنها لا يرى إخراجها إلى عارية أحد فكان، يقنع منه بأن يجلس عنده يومه كله لمطالعة ما يحتاج إليه منها، وأنه دام على هذا سنين كثيرة.

وهو من بيت تقدم أولوه، وتصرفوا في القضاء ولوه، وهم من أقرباء القاضي رضي الدين قاضي قزوین المبعوث منها هو وابن صاحب ختن إلى حضرة منكوتمرقان لإحضار طائفة لاقتلاع قلاع الاسماعيلية حين عمَّ ضررهم، واستشرى شرهم، فبعث هولاء بن تولي فتجاوز الحد وقتل ونسي العد، وكاد يبلغ بخيله أقصى المغرب، وبعث لأمر فجعله طلب ملك لنفسه.

ولما قدم قاضي القضاة إمام الدين أبو حفص عمر قدم معه أخوه جلال الدين

هذا، فلما ولي الحكم بدمشق ناب عنه، وسدد خلل أخيه لنقص علم كان فيه، ثم لما ولي ابن صصرى القضاء استنابه ثم خاف منه وقيل له إنه اتفق هو وجماعة من الفقهاء والصاحب أبي يعلى حمزة بن القلانسي، وطائفة من الرؤساء بدمشق على عمل محضر عليه يحكم فيه بنفسه، وأنه كُتب وهبىء ليحكم به في صبيحة يومه، فسارع ابن صصرى إلى عزله، وعجل إعلامه به مع العدول الثقات، فبطل ما عملوا، وذهب الصباح بما كانوا بيتوا له، وبقي في قلب جلال الدين من هذا ما لم يكن له معه حيلة، إلا أنه اتفق مع ابن الزملكاني على إدامة تبكيته في المجالس وإظهار جهله وتزييف كلامه وداما على هذا وكان يحتاج إلى أنه لا يزال يداريهما ويصانعهما ويضيفهما ويتفقدهما بالعطايا وهما على ما هما عليه من تتبع عثراته وتقصد مساويه.

حكى لي الأمين سليمان الحكيم المتطبب قال: حضرت مرة عنده في بستانه بالسَّهم وهما عنده في يوم قد أضافهما فيه / ١١٣ / واحتفل، فقال لي: أقم اليوم عندنا فأقمت فرأيت من تنوع إكرامه لهما ما يتجاوز الوصف ورأيتهما يتغامزان عليه ويتحدثان فيه إذا قام بأنواع القبائح وينسبان إليه غرائب الفضائح، فلما انصرفا تقدمت إليه وقلت له: قد كان من إكرامك لهذين الرجلين ما لا يُحدّ وهما يفعلان كذا ويقولان كذا، فما الذي يحملك على إنفاق مالك على من تكون هذه أفعاله في حقك، وهذا باطنه في أمرك؟ فقال لي: يا أخي أنا والله أعلم منهما ما قلت، وفوق ما قلت وإنما كيف عملي، هذان رجلان إمامان عالمان فاضلان جريئان وما عندهما تقوى. هذا ابن القلانسي كما تعرف، وإذا أراد استشهد كل أهل دمشق بأن النهار ليل والليل نهار فعل ولم يعجز، وهذا قاضي القضاة التقي سليمان الحنبلي قاض بطاش، ويرى ضرري وضرر أمثالي من الشافعية قرية ولولا هذا والله ما داريتهما، ولكن احتاج مع وجود هذه البلايا إلى مداراتهما من خلف أذني. قال: فسكت وعلمت عذره.

قلت: فلما مات ابن صصرى، وولي الزرعي خاب أمل جلال الدين وكان يظن أن المنصب لا يتخطاه، فكان هو وابن الزملكاني وابن القلانسي ممن حسنوا في أمره ما حسنوا حتى سلفته الألسنة، وتجنبت له الذنوب، وعزل، ثم صمم السلطان على ولاية جلال الدين، وتنكر يعيبه، وآخر ما عابه بما عليه من الدين وبولده عبد الله، وما هو عليه من سوء السيرة، فطلبه السلطان وأوفى دينه، وترك عبد الله مقيماً بمصر، وأعاد جلال الدين إلى دمشق حاكماً كما تقدم.

فشرع في معاداة الكبراء وإسقاط قلوب الرؤساء، وراك المدارس بين الفقهاء، وطلب الفقهاء بالعرض، وبقي يقول للرجل تعرض وإلا تعرض، وأتاه رجل من الفقهاء

بأبيات فقال: الشعر للمجالس والفقه للمدارس، وبقي النائب يعجبه وقوع مثل هذا منه، ويظهر له الاستحسان له؛ ليغري به الناس ويملاً عليه الصدور، وكان يريد ذهاب روحه، فبينما هو في هذا إذ سأل قاضي القضاة بدر الدين / ١١٤ / ابن جماعة الإقالة لكبر سنه وعجزه، فأقبل وصرف إلى بيته مكرماً وطلب جلال الدين وولي قضاء القضاة بمصر عوضه، وولي ابنه بدر الدين محمد الخطابة بدمشق عوضه مضافاً إلى تدريس المدرسة الشامية الجوانية، فدخل جلال الدين في عين السلطان ومساء الحظ من خاطره، وصار يحدث السلطان في كثير من أمور الناس، وقضيت للناس على يده حوائج، ونجحت مطالب، وبلغت مآرب، فكثر ولده عبد الله واقتنى كرائم الخيل الثمينة، وصار يسابق بها الأمراء، وخدام الأدر السلطانية، ويخالط أولاد الأمراء، ويتوسع في الأبنية واقتناء الجواري الحسان والمطربات، ويتعرض إلى أمور كثيرة، وكان يحمل حب أبيه له على أنه لا يرده عنها، إلى أن فاض خاطر السلطان، وامتلاً عليه وطرد ابنه عنه، ثم توسل في إعادته، فأعيد ثم طرده، ثم توسل في إعادته فأعيد، ثم سعى النشو ناظر الخاص، وابن المرواني والي القاهرة عليه، وأطلقا فيه ألسنتهما وأوصلا به سعائتهما وسددا فيه نكائتهما، فعزله السلطان، وأراد تعريضه للهوان فنهض له فرد الدهر الأصفهاني، وقام معه قيام مثله من أفراد الدهر، وركب إلى سرياقوس، وكان السلطان قد خرج إليها بعد أن صرف جلال الدين عن القضاء، وأتى قوصون وكان قوصون لا يرى إلا أنه ولد له، فلما أتاه قام له وأكرمه، وقال له: قد جئت إليكم لأجتمع بالسلطان في مصلحة له ولكم ما أمكنني إخفاؤها عنكم، فقام قوصون لوقته وعزف السلطان بمجيئه بما قال، فأكبر السلطان مجيئه، وقال: قل له يعرفنا بالمصلحة التي رآها، فقال له، فقال: اعلم أن هذا القاضي جلال الدين قاضي كبير ومشهور في الشرق والغرب، وقد زوج بناتكم، وزوجكم، وأثبت كتب أملاككم وأوقافكم، وحكم لكم أحكاماً كثيرة، ومتى عزل هكذا وخلي بلا قضاء مع كونه لم يعجز، ولا بلغ به الكبر، حصل / ١١٥ / هذا التطرق إليه، وإذا تطرق إليه انتقض عليكم جميع ما حكم لكم به. وقال له من هذا ومثله ما بلغه إلى السلطان، فقال: صدق الشيخ ولوه قضاء الشام كما كان، فأمر له به وجهزه إليه فأقام به مدة، وتنكر لا ييش به ولا يمكنه منعه، ثم حصل له استرخاء وفالج أبطله، فاستناب ولده الخطيب عنه في كل ما ولاه السلطان، وبقي يراجع في جلائل الأمور إلى أن مات، ودفن بمقابر الصوفية.

وهو ممن أخذت عنه علم المعاني والبيان، وقلت أرثيه وكتبت بها إلى ولده الخطيب بدر الدين محمد: [من الطويل]

أَحَقّاً بِأَنَّ الْبَحْرَ خَفَّ مَعِينُهُ
 أَحَقّاً بِأَنَّ السِّيفَ أَغْمَدَ حَدَّهُ
 أَحَقّاً بِأَنَّ الشَّمْسَ غَابَ ضِيَاؤُهَا
 أَحَقّاً بِأَنَّ النَّوْءَ أَقْلَعَ نَائِيَا
 أَحَقّاً بِأَنَّ الدَّرَّ أَنْ ابْتَذَالَهُ
 أَحَقّاً بِأَنَّ الْعِلْمَ خَفَّ نَبَاتُهُ
 أَحَقّاً لَقَدْ غَاظَ النَّدَى بِكَمَالِهِ
 أَحَقّاً دَعَا دَاعِيَ الرَّدَى عَلَّمَ الْبُهْدَى
 لَقَدْ خَرَّ فِي الْمِحْرَابِ تَقْوَى مَنِيْبَةٍ
 مَضَى بِجَلَالِ الدِّينِ كُلِّ فَضِيلَةٍ
 مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ مَا شَانَ عِرْضُهُ
 مَضَى وَهُوَ مَلَأَ الدَّسْتِ صَدْرًا مُعْظَمًا
 إِذَا مَا يَرَاغَ الْخَطُّ صَرَّ صَرِيرُهُ
 نَعَى بِاسْمِهِ النَّاعِي فَمَا شَكَّ سَامِعُ
 /١١٦/ تَغَيَّرَ ضَوْءُ الصَّبْحِ يَوْمَ وَفَاتِهِ
 كَأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ مَا كَانَ فِي الْوَرَى
 فَتَى دَلْفِي فِي الْأَبُوءِ جَدُّهُ
 سَقَى قَبْرَهُ الْوَضَاحَ مِثْلَ بَنَانِهِ
 يَضَاحُكُهُ بِالسَّفْحِ بَارِقُ لَيْلِهِ
 فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ يَدْخُرُ الْفَتَى
 أَرَى الْخُطْبَاءَ الْيَوْمَ بَعْدَكَ أَلْبَسُوا
 أَرَى مَنْصَبَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ تَضَاعَلَتْ
 أَرَى الْمَنْبَرَ الْعَالِيَّ اسْتَكَنَّ لِمَا بِهِ
 أَرَى قَلَمَ الْإِفْتَاءِ قَدْ فَاتَ وَقْتُهُ
 أَرَى مَنْطِقَ التَّدْرِيسِ أُخْرِسَ نُطْقُهُ
 أَرَى مَجْلِسَ التَّصْدِيرِ أَقْوَتْ رِحَابُهُ
 لَقَدْ أَغْلَقَ التَّصْنِيفُ أَبْوَابَ كُتُبِهِ
 فَمَنْ لِلْمُرْجِي خَابَ مَا كَانَ يَرْتَجِي
 لَعَمْرُكَ مَا يُجْدِي الْحَنِينُ عَلَى أَمْرِي

وَأَنَّ وَقُورَ الطَّوْدِ خَفَّ رَزِينُهُ
 بِطِيفِ كَرَى لَيْسَتْ تَنَامُ جُفُونُهُ
 وَقَدْ بَانَ مِنْ بَدْرِ التَّمَامِ جَبِينُهُ
 وَآلَى يَمِينًا لَا تَجُودُ يَمِينُهُ
 وَأَهْوَى مِنَ الْجَفْنِ الْقَرِيحِ ثَمِينُهُ
 وَأَضْحَى فَمَا فَاءَتْ عَلَيْهِ غُصُونُهُ
 نَعَمْ وَمَضَى تَحْتَ الثَّرَابِ خَدِينُهُ
 أَمِ الدَّهْرُ بِالْعَلِيَاءِ جُنَّ جُنُونُهُ
 وَفِي صَدْرِ إِيوَانِ الْقَضَاءِ مَبِينُهُ
 وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ الْمَفَاخِرِ دِينُهُ
 حَسُودٌ إِذَا مَا شَاءَ شَيْنًا يَرِينُهُ
 يَطْوُلُ إِلَيْهِ شَوْقُهُ وَحَنِينُهُ
 فَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلْعَوِيلِ أُنِينُهُ
 بِأَنَّ انْقِضَاءَ الدَّهْرِ قَدْ حَانَ حِينُهُ
 فَلَمْ يَبْقَ فِي الْآفَاقِ مَنْ يَسْتَبِينُهُ
 إِمَامًا لَهُمْ حَتَّى أَتَتْهُ مَنُونُهُ
 أَبُو دَلْفٍ هَلْ شَبَّهَهُ أَوْ قَرِينُهُ
 سَكُوبُ الْعَوَادِي لَا تَغْبُ هُتُونُهُ
 تَغَازَلُهُ تَحْتَ الظَّلَامِ جُفُونُهُ
 بُكَاءٌ عَزِيزًا عِنْدَهُ لَا يَهِينُهُ
 حِدَادًا عَلَيْهِمْ فِي الْمَلَابِسِ جُونُهُ
 مَعَالِيَهُ وَأَرْفَضَتْ عَلَيْهِ مُتُونُهُ
 وَكَانَ بِهِ فَوْقَ السُّهَى مُسْتَكِينُهُ
 وَكَانَ نَضِيرَ الْغُصْنِ تُجْبَى فُنُونُهُ
 وَأَصْبَحَ إِنْ قَالَ النُّهَى لَا تَبِينُهُ
 وَلَمْ يَرْضَ إِيدَاعَ الصُّدُورِ ضَنِينُهُ
 وَأَغْفَتْ لِأَحْدَاثِ الزَّمَانِ عِيُونُهُ
 وَمَاتَ أَرِيحِي كَرِيمٌ يُعِينُهُ
 تَحُطُّ بِأَكْنَفِ الْقُبُورِ ظُغُونُهُ

تمهّل به يا حاملَ النعشِ إِنَّهُ
 وهلْ يعلمُ الآتي إلى لَحْدِهِ بِهِ
 لقدْ عَظَلَ الدَّسْتُ الرّحيبُ أَمَامَهُ
 واللهُ إِنَّ المَوتَ أَكْرَمُ نَازِلٍ
 فهلْ ساكِنٌ في الدهرِ ليسَ يسُوؤُهُ
 وذو غَرَرٍ بالموتِ أَلَا تَغْرُهُ
 / ١١٧ / لَتَبِكَ المَعَالِي بِالدِّمَاءِ سَوَاكِباً
 فَيَا أَيُّهَا النّاعِي رُويْدَكَ إِنَّهُ
 غَلَطَتْ أَهْلٌ قَاضِي القَضَاةِ قَضَى رَدَى
 تَرَفَّقْ وَلَا تَبْغِي العُلا بِوَفَاتِهِ
 لَعَلَّ حَزِيناً يَمْلِكُ الصَّبْرَ قَلْبُهُ
 فَيَا سَائِقَ الْأَظْعَانِ قَدْ أَمَّ جَلَقاً
 تَعَمَّدُ بِنَا تِلْكَ القُبُورَ فَإِنَّا
 وَقَفَ بِي عَلَى ذَاكَ الضَّرِيحِ مُسَلِّماً
 إِلَيْكَ وَإِلَا لَا يَتْنُ صَبَابَةٌ
 تَوَلَّى ابْنَ إِدْرِيسٍ وَوَلَّيْتَ ذَاهِباً
 تَضَعُضِعُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْقَ مَذْهَبُ
 فَمَنْ بَعْدَهُ هَلْ فِي الطَّرِيقَيْنِ سَالِكُ
 فَكُلُّ طَرِيقٍ مِنْهُ قَدْ سُدَّ مَذْهَبُ
 وَلَوْ لَا كِرَامٌ مِنْ بَنِيهِ أَعَزَّةُ
 وَمَنْ مِثْلُ بَدْرِ الدِّينِ بَلْ لَيْسَ مِثْلُهُ
 فَمَا مِثْلُ مَنْ قَدْ مَاتَ فِي النَّاسِ سَيِّدُ

ويعز عليه أن يكتب إلى مولانا معزياً، أو يسليه عمن لم يجد هو ولا جميع أهل
 الدنيا عنه مسلياً، وإنما هي عادة الأيام، وسنة الدين والإسلام، فالله يعظم أجر مولانا،
 ويرحم ميتة، ويحسن عزاء الإسلام فيمن شيد بجهاذه بناءه وثبته، فلقد كان والله من
 حماة الدين بسيفه وقلمه، وكماة الكلام في المدارس والمنابر بعمله وعلمه، فرحم الله
 تلك المزايا الكرام، وفتح لها أبواب الجنة، وأدخلها / ١١٨ / إليها بسلام، والعزاء
 مشترك، ومن نظر بعين الحقيقة علم أن الدهر أخذ أقل مما ترك.

وتوفي في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين عن أربع وسبعين سنة.

قلت: ولما ولي كراي المنصوري كفالة الشام أتاها وقد هبت به ريح العدو والمتنسم، والثغور قد استطار برعب من جاورها قلب بارقها المتبسم، طلب خيل الحجر التي جرت العادة بطلبها معونةً من البلاد إذا قدم العدو وعدم الهدو، ولم يكن الاضطراب قد بلغ إلى حد تطلب فيه المعونة، وتحمل به البلاد المؤونة، وشرع النجم ابن هلال في توزيع ذلك الطلب، وتفريغ ذلك الظلم الذي باء منه بسوء المنقلب، فطلب من جهات الملك والوقف ما كان يكون لها ثمناً، واتخذها له مأكلة حتى كاد يتفقد سمناً، وكان أخا بطنة يأكل حتى يكاد يتبجح، وجراً لا يبالي من أي باب منه على النار يتولج، فاجتمع أهل البلد إلى جلال الدين؛ لأنه إمامهم المتبع، ورأس المصلين في الجماعة وهم له تبع، فقام هو والعلامة مجد الدين أبو بكر التونسي في درء هذه المظلمة، وإخفاء نجم بن هلال الطالع في هذه الليلة المظلمة، فجمع أهل الجامع الأموي ومن انضم تحت أعلام الخطابة، وأسرع إلى هذه الدعوة المجابة، وخرجوا بالمصحف العثماني والأثر النبوي، وكراي راكب في موكبه قد شمشخ العجب بهامته، فحين رآهم سأل عنهم، فلما أخبر الخبر جن جنونه، وظن ظنونه، فأمر الحاجب أن يأتيهم فيأمرهم بالرجوع بالمصحف والأثر، ويتقشع سواد ذلك الجمع الذي حضر، ثم يأتيه منهم من يعي عنه الخطاب، ويسمع منه الجواب، فأتاه الخطيب والتونسي وقدا له الإنذار، وأغلظا ولا سيما التونسي في الإنكار، فأوما إلى الخطيب ليضربه بيده، وأمر بالتونسي فُرمي وكشف عن جسده ثم ضربه ضرباً جاز أدنى الحد في عده، فخرجوا والناس تتحرق ولا ماء يطفى النار، وتناكّل لهم، ولا يجد من أنصار، وكان من العجب المقدر وغرائب الاتفاق التي تذكر أن السلطان كان قد / ١١٩ / أمر بإمساك كراي، وخرج المجهز لإمساكه، ثم بقي في وثاق الحبس إلى حين هلاكه ويقال: إن التونسي كتب في ذلك اليوم له من الحروف ما كان من أسباب ما حل به من الصروف. أتى كراي بخلعة السلطان، فركب بها وجلس في الإيوان، فأحضر محضر ذلك التشريف معه كتاباً قرى وهو في تلك الحال، وقد ظن أن الدهر عن طباعه قد استحال فإذا فيه المرسوم إلى الأمراء بإمساكه، فأمسك وقيد، والخلعة عليه ما حلت إزارها، ولا أرته عينه إلا ما كأنه غرارها، ولا أجده إلا وفي نفعا ضرارها.

وكان الخطيب قد كتب إلى السلطان كتاباً مضمونه:

الحمد لله رافع السموات وبانيها، وساطح الأرض وداحيها، ومثبتها بالجبال وراسيها، ومزيح الملوك عن أسرتها وكراسيها. أرسل محمداً ﷺ إلى الخلائق جميعاً دانيها وقاصيها، وبعد ذلك لما تقدم المرسوم الشريف العالي المولوي السلطاني

الملك الناصري أدام الله أيامه، وجعل النصر وراءه وأمامه، بأن يستخرج من الأملاك التي بالبلاد الشامية حق أربع شهور، ولا يعفى عن وقف ولا عما يكون ليتيم أو مسكين، فأردنا أن ننبه الذي رسم بأن الأوقاف لا تعفى، وأن يؤخذ من الجامع الشريف ما أخفى، فطلعنا في يوم الاثنين في شهر الاستغفار جميع علماء المسلمين وأئمة الدين، الذين قال رسول الله ﷺ في حقهم: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»^(١)، وقد حملنا على رؤوسنا كتاب الله المبين وأثر سيد الأولين والآخرين حتى نعلم أن الجامع لا يوجب لأن يؤخذ منه حبة، ولا يتعرض إليه من في قلبه دين، فبدا إلينا حاجب الملك الذي ولاه أمور الدين، وجعله بجهله حاكماً على المسلمين، ولم يمكننا من الدخول إلى نائب السلطنة المعظمة حتى نشكو إليه ضرر المساكين. شهد الله العظيم أنهم ما استهابوا ولا هابوا كلام ذي القوة المتين، إلا جودوا الضرب على الرؤوس / ١٢٠ / والأكتاف والوتين، وقد طلع من كان قبلنا إلى الذي استفتح البلاد وكان كافراً بالله العظيم، فنزل عن ظهر جواده، ومشى إليه خاضعاً متذللاً كالمسكين يتذل وهو تذل مستكين، وعفا عن العباد والبلاد وأوصى جيوشه أن لا يسعوا في الأرض مفسدين احتراماً لكتاب الله ولأثر سيد الأولين والآخرين فلما طلعنا ورددنا خائبين طلب نائب السلطنة إماماً من أئمة المسلمين، وقد نفح الشيطان في معاطسه حين خلاه بما يحدث رهيناً أي رهين، وجلد ذلك الإمام وعمل شيئاً ما سبقه إليه أحد من العالمين، وجعل يقول بجهله وقلة عقله، وقد أمر بقتله: أحرقتني إن كان لك برهان من البراهين، فراقب ذلك الإمام مولاه ناداه في سره ونجواه: يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا تغلظه مسائل السائلين اقض بالحق على الظالم، يا ديان يوم الدين. أيها العبد الصالح إنا خشينا عليك أن تفتن كما فتن الذين من قبلك ثم تولوا مدبرين فإذا حكم رب السموات والأرض ونادى يوم القيامة أحضروا الظالمين، فكيف ينطق من قد افترى على العلماء والفقهاء وأئمة الدين وما احترام كتاب الله الذي أنزل فيه ﴿أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾^(٢) فهذا الكتاب يجتمع عليه فقهاء الديار المصرية، ويحكمون فيمن لا يخاف يوم تنشر فيه الدواوين، وتحشر فيه الخلائق أجمعين، وينادي مناد من قبل الله عز وجل: هذا يوم يجزي الله المتقين ويحشر فيه

(١) السلسلة الضعيفة للألباني ٦٦٦، تذكرة الموضوعات ٢٠، الأسرار المرفوعة للقاري ٢٤٧،

كشف الخفاء للعلولوني ٨٣/٢، الفوائد المجموعة ٢٨٦، الدرر المنتشرة للسيوطي ١١٣.

(٢) سورة المعارج: الآية ٣٨.

الظالمون. وقد علم سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين وهو أعلم بمن كان قبله من الملوك والسلاطين بأن لا يوجب أن يؤخذ من العامة أموالهم ولا يتعرض إليهم من في قلبه من الملوك والسلاطين بأن لا يؤخذ من العامة أموالهم ولا يتعرض إليهم من في قلبه دين إلا إذا التقت الفتتان ونودي هذا يوم لا قبله ولا بعده وكانت أمراء الدولة قد اضحمل ما عندهم من الأموال والسلاح والخيول، فهناك عمن تخلف عن ذلك اليوم فقد أمسى بما كسبت يدها، وهو رهين / ١٢١ / وأعلم أن ما يسبق أحد من خلق الله إلى الجنة غير المجاهدين، فيجب عليك أن تنصر كتاب الله وكلام الله وتأخذ الحق ممن افترى وطغى، فيقف على هذا الكتاب فقهاء الديار المصرية والسلام. ومنهم:

[٣٧]

السيد العبري، برهان الدين، عبيد الله بن محمد
الحسيني العبري^(١)

الإمام العلامة ابن الإمام العلامة، لسان جليل على الكلام، وبيان جعل لكشف الظلام، سل على الباطل حسامه، وجذب من يده خطامه، ولي القضاء فأرضى، وأقام سنة وفرضاً، وهو على ما بلغنا حي يحيا به العالم، وتجلى به العوالم، ويكف نداء وينهم، ويأمر الدهر فيأتمر، ويقف الجواد دون مداه ويستمر.

قال الدهلي: ولد بتبريز وهو الآن قد جاوز الستين إمام في العقلات منطقها وحكمتها وطبها، وله قوة عظيمة في الخلافات والجدل. بحث، مناظر في الغاية لم نرَ أحداً يقدر على التدريس مثله، يلقي الدروس في علوم شتى أكثر من ثلاثين علماً في

(١) عبد الله (أو عبيد الله) بن محمد الفرغاني الهاشمي الحسيني الملقب بالعبري: عالم بالحكمة وفقه الشافعية. كان قاضي تبريز، ووفاته فيها سنة (٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م). شرح مصنفات القاضي البيضاوي، فصنف «شرح المنهاج - خ» في أوقاف بغداد (٤٩٥٣) و«شرح المطالع - خ» بها (٥٣٦٦)، و«الغاية» و«المصباح». ولعل الأرجح في اسمه «عبيد الله» أما العبري فضبطها ابن قاضي شهبة بكسر العين، وقال: ولا أدري نسبته إلى أي شيء؟ وضبطها السيوطي بالضم وقال: نسبة إلى عبرة من بطون الأزدي. وهو في خزنة التيمورية مضبوط بالشكل بفتح العين والباء؟ ترجمته في: علماء بغداد ٧٥، والبدر الطالع ١/ ٤١١، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣٣، وخزائن الأوقاف ١٠٤، ١١٩٠، وشذرات الذهب ٦/ ١٣٩، والخزانة التيمورية ٤/ ١٦٨، معجم الأطباء ٢٨٥-٢٨٤، والأعلام ٤/ ١٢٦.

مشكلات الكتب لأفاضل الزمان في كل يوم في بيته ولم يناظره أحد إلا وغلب معه، وكان فقيهاً في مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، عريقاً في أصوله وفروعه، مفتياً لهم، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وحفظ «الحاوي» على ابن مصنفه جلال الدين محمد، وصار إماماً في مذهبه أصلاً وفرعاً، يفتي في المذهبين، وولي قضاء القضاة بجميع مملكة إيران، شرح «الطوابع» و«المصباح» في الكلام، و«المنهاج» في أصول الفقه، و«إبلاقي» في الطب، ونقد «الصحائف» في الكلام، وعمل كتاباً في المنطق في يوم، وأخذ العلوم عن القاضي محيي الدين أبي الحسن بن أبي الفضل بن عبد الحميد بن محمد القزويني قاضي القضاة، وأخذ العقليات عن قطب الدين الشيرازي والعبدي ووالده، وكان من جملة المحققين، وروى «جامع الأصول» عن القطب الشيرازي، و«شرح السنة» عن محيي الدين القزويني وروى عن أبيه / ١٢٢ / عن شيوخه منهم العلامة سيف الدين الباخرزي، قال: وله نظم مليح، وخط حسن، وجاء عظيم، وحشمة في الغاية. وترجمته عند السلاطين أستاذ البشر العقد الحادي عشر. وله ابن هو شمس الدين محمد.

قال الدهلي: هو المشتهر ببيرك. فاضل في أكثر العلوم، حسن الجد والخط والعبارة.

ولد سنة عشر وسبعمائة، وأخذ عن السيد أكثر فضلاء الشرق ومنهم النصير الحلي، وروى عن «المشارك الروية» عن الصغاني. ومنهم:

[٣٨]

الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وهو محمود بن أبي القاسم بن أحمد، أبو الثناء^(١)

الإمام، العالم، العلامة، قدوة العلماء، والحكماء، والفقهاء والفقراء. وارث العلم والحكمة، واحد الدهر، معلم الوجود. شمس أضواء، وسماء على الدنيا

(١) محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلي ثم الدمشقي، أبو الثناء. شهاب الدين: أديب كبير. استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً. ولد بحلب سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م)، وولي الإنشاء في دمشق. وانتقل إلى مصر، فكتب بها في الديوان. وعاد إلى دمشق، فولي كتابة السر نحو ثمانين سنين إلى أن توفي بها سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م). وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، ويقال: لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله. وهو إلى ذلك شاعر مكثر. له =

فأتت، وإماماً قدم دمشق وهي تحكي بغداد زمان عمارتها، وقرطبة حيث استقلت بنو أمية بإمارتها، لكثرة نجوم العلماء الطالعة، وغيوم النعماء الهامعة، وابن تيمية ونياح قمره، وابن الزملاكاني لفيف سمره، والخطيب القزويني والإجماع عليه في المعقول معقود، وحلق المسجد والفقهاء قعود، فلم يبق إلا أن اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، فخلف في فن الأصول فننها الرطب، ونسي به ابن خطيب الري فضلاً عن القزويني الخطيب، ولم يعد يلتفت عليه بعد أن قدم في الأصول حلقة إقراء، ولا شكت الوجى إليه أقدام القراء. طلع صباحاً، وسطح مصباحاً، وأتى في زي تاجر جاء بمتاع، فكانت فرائد الدرر أهون أعلاقه، وكتم نفسه وضوء الشمس لا تخفى لوامع إشراقه، ونزل بدار ابن هلال، ودارة الهلال أحق بموضعه، وطلع بدمشق وأفق السماء أولى بمطلعه، وترددت إليه العلماء، وسعت إليه العظماء، وأقام ينشر العلوم، ويمد جناح الفضائل على العموم، ويعلم في علم الأوائل أن القطب عليه دار، / ١٢٣ / وأن الطوسي وإن نشر جناح الطاووس، عجز عنه لما طار، وأن الآمدي امتد معه، فقصر في المضمار، وأن الفارابي لم يُنجه منه إلا الفرار، وأن ابن سينا ما نجا سيئه من حروفه وهي جمل الفقار، هذا إلى علوم شرعية وفهوم لودعية، ومعرفة بالفقه على مذهب الشافعي يجمع بين قوليه، ووجوه للأصحاب ناضرة ناظرة إليه، واختلاف في طرق الخراسانيين والعراقيين تتفرق وتتجمع عليه، مع علم حديث ما ابن شهاب فيه عنده إلا كالأعمش، وعربية ما الجاحظ لديه فيها إلا كالأخفش، وحقيقة ما صاحب كل طريقة بالنسبة إليها معه إلا واقف في مجاز، وتبحر في تفسير جاء فيه بالإعجاز، وغير هذا من كرم ما البحر عنده إلا مُبخل، ولا السيل المنصب من مكانه العالي إلا مخلخل، ولا الغمام إلا وقد تقطعت عُراه، وغمض جفن لأنه كراه، وقيدت إذا هم

= تصانيف، منها «ذيل على الكامل لابن الأثير - خ» و«أهني المنائح في أسنى المدائح - ط» و«الذيل على ذيل القطب اليوناني» و«مقامة العشاق» و«منازل الأحباب ومنازه الألباب - خ» و«حسن التوسل إلى صناعة الترسل - ط» وكان يكتب التقاليد الكبيرة والتواقيع بديهة من غير مسودة. وقد جمع منها بعض الفضلاء مجلدين. قال ابن حجر: إن قصائد الشهاب تدخل في ثلاثين مجلدة، ونثره لو جمع لبلغ مثلها.

ترجمته في: فوات الوفيات ٨٢/٤، والبداية والنهاية ١٤/١٢٠، والدرر الكامنة ٤/٣٢٤، وشذرات الذهب ٦٩/٦، ذيل العبر ١٤٠، والنجوم الزاهرة ٩/٢٦٤، وأعيان العصر ٥/٣٧٢-٣٩٩ رقم ١٨٤٠، القلائد الجوهريّة ٢١٤، وديوان الصفي الحلبي ٢٢٧، والدارس ٢/٢٣٦، وكتبخانة عاشر أفندي ١٦٦، والأعلام ٧/١٧٢، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٤٦-٧٥١ هـ)، ص ٢٣٢ رقم ٧٢٥.

الليل عن سراه. كل هذا إلى خلق به يتخلق الأبرار، وتحقق صفات الأخيار، ويدل على ما وراءها من العمل لما فيه نعم عقيب الدار.

كان في بلده جليلاً، وفي عدده كثيراً، لا يجد مثله إلا قليلاً، صحب السلطان محمد بن خدابنده، وكان في سيارته من مدرسي السيارة، وهم جماعة كان يقرر أن يكونوا بالاردو حيث خيم السلطان، وكان من أنظار القطب الشيرازي وأمثاله، وأحسن حالاً منه عند خواجا رشيد لما كان يجده في نفسه على الشيرازي، ويرجى به طرفه من الغضاضة، ويتقصد به جناحه من الإهاضة، وكان يُعلي شيخنا الأصفهاني ويرفعه، ويزين به أفق المجالس ويطلعه، وكان يحضره ويسامره، ويفيد العلم ويذاكره، وكان يجزل له العطاء، ويدر له الصلات، وينوه بذكره، وينبه على جلالة قدره، وقرأ عليه ابنه الوزير الكبير آخر وزراء الشرق بل ملك الرياسة بحكم الحق أمير محمد بن خواجا رشيد، وتخرج به وحصل، وقدم الشيخ الأصفهاني دمشق واستوطنها فارغاً من تلك البلاد / ١٢٤ / على عظم مكانته فيها وامتلاً صدور أهلها بتعظيمه، وأقام والطلبة تتسامع به وتتواصل إليه، وتأتيه من كل جهة ومكان.

وكان شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية يشني عليه أحسن الثناء ويصفه بالفضل الوافر والعلوم الجمة، قال لي: ما قدم البلاد علينا مثل الشيخ شمس الدين الأصفهاني.

ورأيت شيخنا الأصفهاني قد زاره مرة فقام إليه ومشى خطوات لتلقيه، وعرض عليه أن يجلس مكانه فأبى، وكُنّا في ذلك الوقت نقرأ عليه، ودخل وأنا أقرأ في المسح على الخفين من «العمدة» في الأحكام الصغرى، فقال ابن تيمية للأصفهاني: ما نتكلم وأنت حاضر.

فقال له الأصفهاني: الله، الله يا مولانا، مولانا شيخ السنة وإمام العلماء.

فقال لي ابن تيمية: ما فيها اليوم قراءة، اليوم يوم فراغ لسماع فوائد الشيخ، وأشار إلى الأصفهاني، فلبثت ساعة رأيت مجمع البحرين ومطلع النيرين، فكانا فحلين يتصارعان، وسيفين يتقارعان، تركتهما وأنا أظن أن مكة قد انطبق أخشباها، وأن المدينة قد تلاقت حرّتاها، ثم طفقت استثبت هل دمشق قد أنقع شرفاها، والأرض قد اجتمع طرفاها، ثم كنت لا أزال أسمع ابن تيمية يعظمه، وكذلك ابن الزمكاني، وأما الخطيب، فإلى غاية لا تبلغ.

وقال ابن تيمية مرة في تقرير مدرّس حضره جُلّة العلماء وحضره الأصفهاني فتكلم رجل من أعيان العلماء فيه، فقال ابن تيمية: اسكتوا لنسمع ما يقول الشيخ وأشار إلى الأصفهاني، ثم قال: الشيخ شمس الدين بزرّك، والبزرّك هو الكبير باللغة الفارسية.

ثم كان الخطيب لفرط محبته في الحكمة وعلم الكلام يدعو الأصفهاني إليه، ويدع من يقرأ بحضوره عليه ليستفيد، وجرى بينه وبين ابن جملة مرة نزاع في حديث، وكان النقل مع الشيخ فيه، فوبخ ابن جملة على تجربته على مثله، وغاية مثله أن يكون كأحد تلاميذه وطلبته الآخذين عنه، / ١٢٥ / وأقام الشيخ سنين بدمشق كأنما هو مرفوع على الرؤوس لإفراط التعظيم والإجلال، ثم لما طلب الخطيب إلى مصر وولي القضاء بها كان لا يزال يتشوق ويتشوف إلى مقدمه عليه، ومقامه بمصر، فلما طلبني السلطان شركته في ذلك وزدت عليه، واتصل خبره بالسلطان وطلبه، وأقبل عليه وأكرم، وأدنى منه مجلسه وبسطه وآنسه وأمره بالمقام بحضرته، فأقام وأجرى عليه مرتباً، وأبقى عليه معلوم التصدير بدمشق مع الإقامة بمصر للأشغال بها، ثم كنت يوماً أنا وقاضي القضاة الخطيب القزويني عند السلطان بالدركاء داخل باب مسجد رديني بالأرد السلطانية في عقد عُقد لبعض الحرم، فأجرى ذكر الشيخ الأصفهاني وكانت المدرسة المعزية بمصر المعروفة بمنازل العز قد شغرت فولها له، ثم بنى الأمير قوصون له الخانقاه التي بالقرافة، وكان ينزل في كل وقت إليه ويقعد قدامه وبين يديه، ويقضي كل حوائجه، ويبعث بالجمل ليعمل بها أوقات، ويحضرها بنفسه، ويكون فيها مثل أحد تلاميذ الشيخ. وعظمت منزلة الشيخ عند السلطان، وكبرت مكانته في صدره حتى أمر قوصون أن يقول له: السلطان يقول لك: أنت عندنا كبير، ومكانتك تعرفها، ونريد أننا لا نرد عليك قط في شيء تطلبه منا، ونحن نوصيك بأنك لا تتحدث في اثنين، ثم مهما أردت قل يسمع منك، وهما عبد الله بن القاضي جلال الدين، وأوحد ابن أخي الشيخ مجد الدين الأقسرائي شيخ خانقاتنا بسرياقوس؛ فإن هذين الاثنين قد ثبت عندنا نحسهما، وما يمكن أن نقبل فيهما شفاعة.

قلت: فكان الشيخ لهذا لا يرى التثجيل عند السلطان في شيء؛ لثلا يطلب ما يستثقل به ويقضيه رعاية له، ثم إن السلطان أبا سعيد بهادر خان بعث كتاباً إلى السلطان يطلب فيه إنفاذ الشيخ إليه لاشتياق الوزير أمير محمد وأهل البلاد إليه، وأكد في طلبه، وجاء / ١٢٦ / قرينه كتاب من الوزير يقول فيه: إنه من أولاد الشيخ وتلاميذه، وكم يصبر الولد عن والده، والتلميذ عن شيخه، وسأل الصدقات السلطانية في تجهيزه، فقال لي السلطان: نحن والله ما نسمح بالشيخ، ولكن قولوا له قد بعث أبو سعيد يطلبك هو والوزير، وأهل تلك البلاد، وقد حيَّوا السلطان بسبيك، والسلطان قد جعل الأمر إليك، فقال الشيخ: لا والله ما أفارق ظل السلطان، ولا استبدل بهذه البلاد، فأنا ما فارقت تلك البلاد بنية من يعود إليها فأعجب السلطان هذا منه كل الإعجاب، ووقع منه

أحسن المواقع، وجل في صدره، وعظم في عينه، وعرف محله، وتحقق مكانته في بلاده، وأنه مع ذلك لم يزد إلا حيث استعلت كلمة الإسلام، وكانت مبعث الأنبياء والرسول صلوات الله عليهم.

ثم لما سعت نمال النميمة في القاضي جلال الدين وتحتم عزله، وكاد يُفَضَّى به الأمر إلى ما أعاذ الله منه نواب شريعته، وعلماء دينه الذي ارتضى، قام الشيخ في أمره حتى ولي قضاء الشام على ما تقدم ذكره في ترجمته. ولما طلب السلطان أعيان الفقهاء للارتياح بعد جلال الدين لم يفصل رأياً حتى حضر الشيخ، وأخذ رأيه وكان هو المعظم في ذلك المجلس، والمقدم عند السلطان على ذلك الجمع الجَم ثم إن السلطان أمسك ابن صورة وكان على نظر الأهراء السلطانية، وكان الشيخ مُزَوَّجاً بابنته، وكان قد اتهم بأخذ مال جليل للسلطان، وقد أمسكه السلطان، وشدد عليه في الطلب، فأتى الشيخ بنفسه إلى قوصون بسببه فاعتذر إليه وقال: هذه ساعة غضب السلطان ما أقدر أكلمه فيها، فقال له الشيخ: أنا أتحدث مع السلطان ثم أتاه وطلب الإذن عليه، فأذن له فدخل، فلما رآه وقف له وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقال له: في خير ما جاء الشيخ إلأ في حاجة، فقال له: نعم. قال: ما هي؟ قال: ابن صورة، قال: خذه والله ما أقدر أردك، ولولاك / ١٢٧ / لكان له حال آخر، فخرج الشيخ فأخذه وانصرف.

قلت: وهو اليوم في مصر لإقراء أنواع العلوم الشرعية والعقلية وعلم المعاني والبيان، والنحو والعربية والإفتاء وإفادة الطلبة، والأذن لنبيه الفقهاء بالإفتاء، وإنشاء أهل العلم والتحصيل حتى كثر عدد العلماء، واخضر به قلم الإفتاء، ولولاه لجف بموت من مات من العلماء؛ لأنه أذن لجماعة بمصر والشام وحلب، وتضرّم به وقود الأذهان والتهب، وهو ممن قرأت عليه أصول الفقه وعلم المعاني والبيان، وممن أذن لي وأحسن وجاد بما أمكن.

ولما رحل صاحبنا الشيخ الإمام الفاضل بدر الدين أبو عبد الله محمد الشبلي الحنفي إلى الديار المصرية، كتب إليه بسببه كتاباً نسخته:

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، ومنهم واحد الدهر وكفى، سيدنا ومولانا ومبصرنا بمصالح آخرتنا وأولانا، ومتحفنا بما يقصر منه عن شكرنا أولانا، السيد العالم الرباني، المكمل لنقائص الصور والمعاني، المسلك على الطريقة، والمملك لأزمة الحقيقة، قطب الأولياء، وارث الأنبياء، الإمام المجتهد المطلق، والبحر المزبد المطبق، الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والساعي ببلغ من مصالح الامة في أدنى يوم ما يعجز [عنه] في سنة، الحجة الواضحة، والمحجّة

اللائحة، آخر المجتهدين، شمس الدنيا والدين، مُعلّم المتكلمين، إمام المتأخرين والمتقدمين [البسيط].

سَلْ عَنْهُ وانطِقْ بِهِ وانظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ مَلَأَ الْمَسَامِعَ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلَّ لَا زَالَتِ الْبَصَائِرُ بِهِ مُنَوَّرَةً وَالْحَدَائِقُ بِسَحْبِهِ مَنْوَرَةٌ، وَالْحَقَائِقُ بِعِلْمِهِ مَصُورَةٌ، وَالشَّرَائِعُ بِذَبْهِ عَنْ حُوزَتِهَا مَسُورَةٌ، وَالْبَحَارُ الزَّوَاخِرُ فِي مَغِيضِ صَدْرِهِ مَغُورَةٌ، وَشَمْسُ السَّمَاءِ بِضِيَاءِ شَمْسِهِ مَكُورَةٌ، وَأَرْضُ الْقَدَمَاءِ لَدَى رِيَاضِهِ الْيَانِعَةِ مُبَوَّرَةٌ، وَمَنَابِتُ الْخَطِّ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى مِيَامِنِ قَلَمِهِ تَشَاءَمْتَ بِكَعَابِ / ١٢٨ / رَمَاحِهِ الْمَدُورَةِ، وَدُولِ الْأَيَّامِ تَسْعَدُ بِخَيَالَاتِ أَيَّامِهِ الْمَطُورَةِ، وَلَا بَرَحَتْ السِّيُوفُ تَعْنُو لَهُمَمَهُ، وَالسِّيُوفُ تَعْزُو النَّفْعَ إِلَى كَرَمِهِ، وَلَا فَتَى فَتَى الدَّهْرِ وَشَيْخِ أُنْبَاءِهِ، وَلَا انْفَكَ أَنْفُ كُلِّ مُعَانِدٍ رَاغِباً بِسَارِ أُنْبَاءِهِ، وَلَا كُنْ مَكَانَ فَوْقَ فِرْقِ الْفِرْقِدِ إِلَّا دُونَ أَدْنَى بَنَائِهِ حَتَّى يَلْتَحِقَ بِالزَّمْرَةِ السَّعْدَاءِ، وَيَلْقَى اللَّهُ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾^(١).

خدم بها المملوك على قصوره، وخضوع أبياته التي كان يتناول بها في العلياء إلى شوامخ قصوره، مُذكراً بعبودية قديمة لا يزال لها في كل حين بارقة على أطلاله، وقائلة في ظلاله، وحائمة على زلاله، ومتشوقة في آفاق الأقمار إلى مطلع هلاله، وملتفة إلى ما يغض الأبصار من بديع جلاله، مع وثوقه بأنه إن أغبَّ بتذكاره أو غاب، وسكت سعيه أو هدر يطلب رغب لا يلوى لحظه من سيده مطال مطالب، ولا يغير عوائد تَعَهَّدَهُ، وراب مارب، ولا يبرح له ذاكر لا ينساه، ومؤانس له، والدهر قليل المواساة إلا صفوة إخوان بهم يُبَلِّ الرَّمَقُ وقليل ما هم، ويقل القلق وهو كثير لولاهم، ومنهم السيد الأخ العزيز، الشيخ الجليل، الإمام العالم، الفاضل الفقيه، المحدث المفضن، مجموع الفضائل، فلان المائل على حضرته المشرفة بها، والخائض إليها ظلم الليالي، لا يبالى بجنح غيبتها، وهو على ما هو عليه من التحلي بالوفاء في الزمان الغادر والإنصاف بالصفاء في وقت يبدو فيه الكدر، وأوله ما يبدو من الشفق المحمر في لُجَّ الصباح الزاخر من ذوي الفضل المتعدد، والعلم المتجدد، والذهن الساطع، والرأي الصائب القاطع، واليد التي لم تقتصر به في التصنيف، ولم تعذر بسببه فيها تهب المسامع التشنيف، هذا إلى ذهن شفت سرائره، وعرفت أمائره، وتُتْقَى صلحت مُضْغَةُ قَلْبِهِ لتصلح سائره. وقد أَمَّ الآن الديار المصرية المحروسة التي هي الآن فلك شمسهِ، وحضرة قدسه، / ١٢٩ / وموضع ثمار العلماء من غرسه، وقد حمل ظمأ إلى

بحره، وشق ظلمه إلى فجره، وجاب الفيافي في طلب العلم لديه، واشتمل ذيول الفجاج لحصول الاشتمال عليه، وله أسوة بالعلماء الذين امتدت شمس النيرة نجومهم، وقدحت مشكاته المضيئة فهمهم، وأمطرت سحبه الروية علومهم، وأطلق أذنه الشريف قلم فتاويهم، وشرف قدره المنيف همم معاليهم، ورعى إحسانه المطيف ذمم قصدهم، يقتحمون مناحل أيامهم، وجحافل لياليهم، وهو إن لم يكن أظهر منهم استحقاقاً، وأكثر لإحراز الفوائد استراقاً فما هو بدون جماعتهم ولا بأضعفهم طاقةً عن جهة استطاعتهم والمملوك ممن يثني بين يدي مولانا عليه باستحقاقه، ويصفه بما لا يقدر أحدٌ فيه على شفاعته، وسيظهر له ما يزكي شهادة المملوك في الثناء على فضله والشكر له، وإن لم يكن المملوك من رجال هذا المقام ولا من أهله، وإن لم يكن: [من الطويل]

فَقِفْ وَقِفَةً قُدَّامَهُ تَتَعَلَّمُ

وفي هذا كفاية ومقنع، وغاية وممتع، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
وكنت كتبت على يده نسخة إذن لي بالإفتاء، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع أقدار العلماء، ونقع بورد الشرائع غلل الظماء، ورفع بصباح الحق المنير دجى الظلماء، ونصب أعلام الأئمة ليهتدى بهم كنجوم السماء، نحمده على نعمه التي زينت بمجالس العلماء المعابد، وبيّنت فضل العلم إذ كان العالم الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، شهادة تهتز بها الأقلام وتعتز ألوية الأئمة الأعلام، وتبتز بأيدي حماتها حملة العلم ضوال الإسلام.

ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي هدى به من الأضاليل، وحمى من الأباطيل، وفضّله على الأنبياء، وجعل علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل صلى الله عليه وعلى آله، وصحبه أئمة الهدى، / ١٣٠ / وأزمة الندى، وتتمة كل خيرٍ بيتدا، صلاة متصلة لا تنتهي إلى مدى، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلما كان مراد العلم أخصب ما انتجع، وزمان الطلب أحق ما يبكى على فائته لو ارتجع، وهو الذي تشد إليه الرحال وتجدد إليه الرجال، وتمتطى إليه الهمم، ويخاض الليل، وقثير الصباح ما دبّ في سواد اللمم، وتركب إليه الرياح، وتنخطى إليه الرماح، ولم يزل أهل الطلب تفارق فيه الكرى، وتُسمر الأهداب للسرى وتنهض، وقد

أقعد الحرمان أكثر الورى، وتجول في طلبه الآفاق، وتجوب البلاد والنجوم في اللحاق، وتفترق الدجى والقفر وهذا البحر، وهذا الرقراق، وتتفاوت في هذا ومثله رُتب الطلب، وتتباين قصب العلم والطرب، ولأهل الحديث الشريف النبوي زاده الله شرفاً في هذا الوسع مجال، وأنجع ركائب تأتي عليها رجال عجال، ويزداد في توسيع ذيل الارتحال وتوسيع أردية الأصل قبل حطّ الرحال من تفقه في الدين وتنبه، وما له خدين واشتغل بمذهب أول الأئمة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه حتى ودَّ شقيق الشفق لو نسب إلى نعمانه، ورفيق أول السلف لو تأخر إلى زمانه، وظهر من فضائله ما وضح وضوح النهار، وأظهر فضوح البحر وفي قلبه النار، وجدل الأقران لما ناظر، وعلل السبب في رقة النسيم بلطائفه لما حاضر، وتفسح في هذا المذهب المذهب وأذكى ضرام فهمه فيه، فكاد يتلهَّب من دَلَّه علمه على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وسبب السفور لجلاء كل مظلم إذا كان العلم هو الذي يتماثل في وجوب طلبه المسلمون، ويتفاضل في علو رتبته من قرأ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). وفي الحديث «العلماء ورثة الأنبياء» وقد جاء «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وقال بعض السلف لرجل قال له: إلى متى يحسن بي التعلم، قال: ما حسنت بك الحياة. وطالب / ١٣١ / العلم نهماً لا يشبع، ومغتنم لا يقنع، وإناء لا يمتلئ، ومجتهد لا يأتلي، فلما أخذ عن علماء بلده، ونقع بماء منهله الغدير، ولم يغترف غرفة بيده، لم يجد ذلك، وإن كان البحر الزاخر ناقعاً لأوامه، ولا ذلك الخصب الممتد، وإن أمري نافعاً لسوامه، ورأى أن تلك الرحاب الفساح في الطلب لا تسعه، وأن تلك المدد الطوال التي قضاها في التحصيل لا تقنعه، فأَمَّ مصر حرسها الله تعالى حيث هي المصر الجامع، والأفق التي تُزينة من علمائه النجوم الطوالع، وأتى لا يريد إلا العلم ولقاء أهله، والزيادة منه لو وجد مزيداً من فضله، فلم يدع غمماً يُستسقى، ولا إماماً عن مثله يُتلقَى، ولا من يمتاح له من قلب، ولا من يرتاح إليه على بُعد، فكيف والمزار قريب حتى كادت ركائبه لا تنهض بما أوسقت، وسحائبه لا تبيض بما سقت، وكان فلان هو الذي استفاد وأفاد، وانتقى واستزاد، وضاهى في طلب العلم سرى العمام، وباهى البدور الكوامل، وزاد في التمام الذي اقتحم الدجى لا ترهبه الأسنة، ولا فح الرياح لا تراحمه الأعنة، وفهم التنزيل، فسكنت نفسه المطمئنة، وعلم الحديث فسلك به طراً إلى العلم ليسلك الله له به طريقاً إلى الجنة طالما رفعت أعلام

الدين بجذاله الذي يمنع، وخضعت رؤوس الخصوم بجلاده الذي لا يقنع، ووضعت الملائكة أجنحتها له لأنه طالب علم رضي بما يصنع، وهو ممن حصّل من كل علم غاية أو طرفاً، وحلّ كل علأ وتبوأ غُرفاً، وأجاد في علم الفقه وتوجيهه، وعلم تشعب طرقه ووجوهه وعرف فيه وجوه الاختلاف، ووجوب الائتلاف، ووجود المقتضي للترجيح، والمرتضى فيما يفتى به على الصحيح، ومن أين استنبطت الأدلة، وعرف المعلول والعلة، وتردد إليّ، وقرأ عليّ، وبحث مع أفاضل العلماء لديّ، وناظر بحضوري أمثال الفقهاء فملاً أذني، وتكرّر حضوره عندي، وظهر لي من مدده السحابي أنّ محلته لا تكدى، ورأيت / ١٣٢ / أهلاً للإفتاء والتدريس والتصدير وولاية المدارس وغير ذلك مما ينافس فيه من هذه الرتب العلية المنافس، وقد استخرت الله وأذنت له أن يطلق قلمه بالافتاء ويلحق بشأ الكهول في سن الفتاء، وأن يرشد الضلال، ويرشف من قلمه الزلال، ويتصدر لإشغال الطلبة، ونشر الفقه على ما يوافق في النص والقياس مذهبه واقفاً فيما يفتى به عند الصحيح الراجح والحق الواضح، والذي عليه نصّ مذهب إمامه أبي حنيفة رضي الله عنه، وأصحابه مما عليه الفتوى، وعلى ما ترشد إليه ما أوصيه به من التقوى، متيقناً أنه أطال الله عمره يموت ويبقى ما كتبت يده، وأن الفتيا إذا خرجت من يده ربما وقعت في أيدي عداه، ثم إن الله سيسأله عمّا كتب فليعدّ قبل أن يجيب على الفتوى الجواب، وليعد النظر مما يكتب به فمن أعاد النظر لم يعدم الصواب، والله تعالى يمد له أجلاً يسرى به في ليل الشيبه حتى يرى صباح المشيب، ومهلاً لا تجف لأنديته ضرع ندى ولا يخمد لهيب، وأن يبقيه خلفاً في الإسلام وما ذلك من عوائد كرم الله بعجيب. والمسؤول من الله أن يوافق ولاية الأمور أعزهم الله بعز طاعته، وصرف كلاً منهم في الخير وسع استطاعته لإعلاء قدره، واستجلاء بדרه، واستملاء ما يكنه من العلم الجم في صدره، وأن يكثرأ به في هذا الزمان عدد الفضل القليل، ويأثروا منه الأثر الجميل، ويقدموا منه مستحقاً لو أجالوا الفكر، لم يجدوا مثله في هذا الجيل؛ ليصلوا به حبلاً لولا مثل هذا في كل أوان، لانقرض، وقيموا بنياناً لولا شبه هذا في كل مكان، لانقضى، وينظروا لآخر الأمة في مدد العلم الذي لولا بقية العلماء، وهذا منهم، لم يخض.

فلما وصلت إليه، تلقاها بالقبول وكتبها بخطه إذناً له بالفتوى، وكتب إلي جوابه، فأجبت بما صورته :

يقبل الباسط الأشرف الطاهر الزكي / ١٣٣ / المولوي السيدي الإمامي العلّامي
العاملي الفريدي الأوحدي الحُجي المسلّكي العارفي المالكي المخدومي الشيعي

الشمسي، علم الأعلام، شيخ مشايخ الإسلام، مفيد أهل مصر والعراق والشام، فرد الوجود ورد الجود، منشئ العلماء والمفتين، إمام المتكلمين سيف الحق، ملجأ الخلق، جامع الطرق، شمس الأفق، ولي أمير المؤمنين لا زالت الأيام رافلة في حبره، والأقلام ناقله لخبره، والإعلام الشوامخ متضائلة لدى كبره، والكرام تعترف بفضلته الذي تُعد معه عبرة الغمام من عبره، والأحكام لا تطبع حديد مواضيها إلا من زبره، والسهام لا تقطع أراؤها الصائبة قطع سيوفه ولا تحز حز ابره تقبيلاً يؤدي حق شكره ويوفي في بعض نذره، ويولي القبل قبلة إحسانه، ويوصي بنيه بأداء ما في ذمته فرضه، وعجز عن ذكره بلسانه، وينهي ورود المثال العالي فقام المملوك له ووقف على قدمه، ووقف لديه معرضاً لخدمه، ونظر إليه فبهت، وحاول شكر أدنى معروفة فصمت واستظل بظل غمامته، واستقل سروراً بسلامته، واستقبل الدهر برفع ملامته، وتأمل كرمه، ومد يده إلى مدامته، وأفضى منه إلى فضاء ملؤه الكرم، ورسيله البحر، وتلوه الديم، فترامى المملوك عليه، وكرع في غدير تلك الصحيفة، وأمن به وقد أوجس البرق في نفسه خيفة، وبائع مؤدبه الرشيد لما رآه المهدي مهديه خليفة وقلب وجهه في سماء ذلك السماح، وقلبه في سراء تلك المواهب التي لو جاراها البحر، قالت له إياك والطماح، وجنبه في نعماء تلك النعم التي خطت إليها الرياح، وتخطت الرماح، واستبق مضمونه ولسان محضره في وصف ندى عهده، وكرم لم يزل يعد منه يداً مجدده، وهدى فرق به النحر لما أبصر فرقده، ومعروف ما برحت تعرف به الأعلام وترف به الأعلام، وتصرف بالفتاوى الأقلام وتشرف القبل / ١٣٤ / بالتهاي إلى مواطن الإقدام، وتلك صدقات مولانا التي شملت من شهد علمه الشريف باستحقاقه، ولهذا أطلق فيه رسن قلمه، ونبه له وسن طرفه من حلمه، وأذن له في الإفتاء الذي آن لأن يُشرق في أفقه بدره الطالع، ويشرق بغصص حسده عدوه الطامع، فجاء مسروراً من كريم جنابه، محبوراً بإحسانه بعد أن حظي بالمثول في فنائه الرحيب، وأحسن عن المملوك في مثابة المولى الشيخ الفقيه الإمام الكامل الفاضل الحافظ المحدث المتقن المفنن، العلامة أوجد العلماء، جمال أهل الإفتاء، فخر المحدثين، شمس العصر بدر الدين الشبلي زاده الله فضلاً ولله هو من مستحق قدم مولانا منه إماماً، وأمطر طلبية العلم به غماماً، وناول قلم الإفتاء، وقد توشح بالمداد زماماً، وكثر عدد العلماء به، وقد قلوا وأرشد السواد الأعظم ببدره الطالع، ولولاه لضلوا، وأهل الصدور التصدير منه من مطوى غلة المحاريب إحناء ضلوعها، وتجري السماء إذ لم تر مثله أعين دموعها، ووصل ووصف وأراه ما كساه، فما ظن إلا أنه عليه من ورق الجنة

قد خصف، وذكر وشكر وما جاء إلا بالمعنى المتداول مما أجمع الناس عليه من إحسان مولانا، وهو يظن أنه قد ابتكر، وقال، وقال، وهيهات أن تبلغ البلاغة أو تحيط الفكر، وناول المملوك المثال العالي الذي لا مثال له إلا ما كتبه كاتب اليمين، وذَهَبَه موقد جمر الشفق وكابت به الدر الثمين، وقبله وسابق نهب اللاثمين، وحلا بما تضمنه وإذا بالبحار الزواجر، والرياض الزواهر، والسحب إلا أنها سحب نيسان التي تولد الجواهر. والله الله في مسامحة المملوك في قصور هذا التمثيل، وفتور هذا التشبيه الذي كم له مثيل لشيء ما له مثيل، ولقد وقع هذا الإحسان بموقع من المملوك، وعم سائل القلوب وعدّ فصل النعم به إلا أنه / ١٣٥ / غير محسوب، وأرى المملوك زمان مثوله بين يدي سيده حيث المزار قريب والزمان غر، ولو لا هذا لم يكن صنعه الجميل بغريب، وقد رام المذكور على طلاقة لسنه، وامتداد سنه، وقدرته على الكلام، وكثرة حسنة، أن يعترف المملوك بما أولاه من مننه المنوَّعة، ولا زاد على أنه اعتراف أنه لا يطيق واعتذر وها هو الآن قد تصدى لما أخذ عن مولانا علمه، وحرك له عزمه، وأحيا الله به موات أموات هذا المذهب، واستعاد فوات ما لو لم يدرك مولانا بقية آخر رmqه بهذا ومثله من العلماء، لكاد أن يذهب، وألسنة أهل دمشق كلها بالأدعية لمولانا مولاهم هذه النعمة بسببه ناطقة، وبضائع صنائع مولانا في سوق شكرهم نافقه، والمملوك عنهم المترجم ولإدلاله قد طال ويقبل بثقل المتهم، والمملوك يستعرض المراسيم العالية التي هي طوابع السعود لا ما يدعيه المنجم، لا برحت طلبته مثرية المطالب مورية الهدى في الغياهب، مجرية الأقلام بالإفتاء وفي آثارها، ولا تلحق زمن الكواكب.

* * *

[مشاهير فلاسفة المغاربة وحكمائها بالأندلس]

ومن فلاسفة المغاربة وحكمائها ومتكلميها ممن كان بالأندلس :

[٣٩]

يحيى بن يحيى ، المعروف بابن السمينة^(١)

كان من أهل قرطبة، أتقن العلم والحساب، وعلم التصور والاحتساب، وعانق الصبر والاحتساب، وعانى مهم الفن حتى أوتي أجره بغير حساب، فمات وآخر الحياة الموت، ونهاية الدرك الفوت، بعد خيرات أثرها، ومبرات بقيت وقد أكلت الأيام مؤثرها، وعمل صالح بلا اكتراث، وعلم نافع يبقى إذا انقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): قال القاضي صاعد: إنه كان بصيراً بالحساب، والنجوم، والطب، متصرفاً في العلوم، متفنناً في المعارف، بارعاً في اللغة، والعروض، ومعاني الشعر، والفقه، والحديث، والأخبار، والجدل، ورحل إلى المشرق ثم انصرف.

قلت: وقد ذكره /١٣٦/ ابن المازري وقال: قدم علينا مصر حاجاً، وتسامع به الناس فأتوه من كل فج، وقرأوا عليه كتبه وغيرها، وحبوه بالذهب، وأنواع الحباء فلم يقبل لأحد شيئاً، وكان متقللاً من الدنيا، زاهداً في حطامها، لا يزال يذكر الموت وهول المطلع، ويقول: ليت أُمي لم تلدني. قال: وكان كثير الصدقة والبر ولاسيما إذا رأى ذا عجز ظاهر، ملازماً للصلوات في أوقاتها، نزل في دار قريبة من المسجد الجامع ليقرب عليه أداء الفرائض في الجماعة، وكان إذا صلى ظهر عليه من الخشوع، وفيض الدموع ما يكاد يرحمه به من رآه، قال: وكان لا يزال ينشد: [من الطويل]

إذا نظر الدنيا بصيرٌ بحالِها تيقن أن الدهرَ جَمُ المصائبِ

(١) توفي سنة (٣١٥هـ).

ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ١٨٨/٢ رقم ١٥٨٠، عيون الأنباء ٤٨٢، نفح الطيب ١٧٦/٣، وطبقات النحويين ٢٨٩، وطبقات الأئم ٨٧، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٠١-٣٢٠هـ) ص ٥٠٥ رقم ٢٤٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٢.

فَمِنْ عَارِفٍ تَصْطَادُهُ بِاِقْتِسَارِهَا وَغَرَّ بِهَا تَصْطَادُهُ بِالرَّغَائِبِ
فَمَا مَأْوَاهَا إِلَّا سَرَابٌ بِقِيَعَةٍ وَمَا عَيْشُهَا إِلَّا تَحْلُمٌ كَاذِبٍ
لَحَى اللَّهُ مُغْتَرًّا بِهَا وَبَصَرُهَا وَفِي بَعْضِهَا لِلْمَرءِ كُلُّ الْعَجَائِبِ
قال ابن المازري: وأظنها له.
ومنهم:

[٤٠]

أبو القاسم، مسلمة بن أحمد ابن المرجيطي^(١)

من أهل قرطبة، مسح الأفلاك وقسمها خططاً، ووسمها وما سامها شططا، وكان كأنه بعض كواكبها إشراقاً، وجواربها الكنس إشفاقاً، أشرق إشراق زهرها، وتدفق تدفق المجرة على زهرها، ونفض على الآفاق صبغة أصلها، وذو في مقلة الصباح زرقة كحلها، وكان بقرطبة حلية لأيام بني مروان، وزينة لذلك الأوان، أعاد ذاهب زمانهم والركائب ترد عليهم، وترد وجوه النجائب إليهم.
قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان في زمان الحكم.

وقال صاعد: كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته، وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاء الكواكب، وشغف «بالمجسطي» كتاب بطليموس، وله / ١٣٧ / عدة كتب، وأنجب له ملأ من التلاميذ الأجلاء، ولم

(١) كذا ورد في الأصل، وفي عيون الأنباء «المرجيطي»، أما في المصادر فقد ورد: «المجريطي». وهو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المَجْريطي، أبو القاسم، فيلسوف، رياضي، فلكي، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم، ولد بمجريط (مدريد) سنة ٣٣٨هـ / ٩٥٠م، وتوفي فيها سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م.

ذهب بعض المؤرخين إلى أنه مؤلف «رسائل إخوان الصفا - ط» ولم يثبت ذلك، من كتبه: «ثمار العدد» في الحساب، يعرف بالمعاملات، و«اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني» و«رتبة الحكيم - خ» و«غاية الحكيم - ط» و«كتاب الأحجار - خ» و«روضة الحقائق - خ» رسالة صغيرة. وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي فنقل تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وزاد فيه جداول حسنة، إلا أنه - كما يقول القفطي - اتبعه على خطأ ولم ينبّه على مواضع الغلط فيه.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٢-٤٨٣، والصلة لابن بشكوال ٨٩٩/٣، وطبقات الأمم ٩٠، ونفح الطيب ١٧٦/٣، وتاريخ الحكماء ٣٢٦، وطبقات الأطباء ٣٩٢/٢، وخلاصة الأثر ٨/٤، وفيه وفاته سنة ٣٥٣هـ، وأخبار الحكماء ٢١٤، جلاء العينين ٨٦، الأعلام ٢٢٤/٧.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٢.

ينجب عالم بالأندلس مثلهم، ومنهم ابن السمح، وابن الصفار، وهو أول من أتقن علم الاصطربلاب بالمغرب - والزهراري، والكرماني، وابن خلدون.

قلت: وقد رأيت اصطربلابات من عمله عليها اسمه، وكانت غاية في الحسن للعروض التي عملت لها صفائحها، إلا أن كواكبها كانت تحتاج إلى تحريك لطول المدة منذ عملت. ورأيت له رسالة في المجنب والأفاقية كتبها بخطي لإعجابي بها، ثم غالتها يد الضياع، وغالبت عليها غلبة الأيام التي لا تستطاع.

ومنهم:

[٤١]

ابن السمح، أبو القاسم، أصبغ بن محمد بن السَّمَح الغرناطي

المهندس^(١)

حكيم تعرف له المبار، وطبيب تدفع به المضار، قيمٌ بتركيب الأدوية، وتفاضل التفضيل والتسوية. أحيا الله به القوى الحيوانية، وحفظ النفس الإنسانية. سلك بنظره في الأبدان، وملك ما ليس لأحد به يدان، ونظر في تفاريق العضل، وتفاريق ما كفى من الأغذية وفضل، واستدل بالنبض على ما وراءه، وعرف دواءه على الحقيقة وداءه، بحدس صحيح حصر على ضيق المجاري واتساعها، وانحطاط الدرجات في الأدوية وارتفاعها، إلى غير ذلك من أسباب في علوم وحساب ونجوم وأمور كان بها يقوم.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان في زمان الحكم.

وقال صاعد: كان محققاً لعلم الأدب والهندسة، متقدماً في علم حياة الأفلاك،

(١) أصبغ بن محمد بن السمح المهري، أبو القاسم: عالم بالحساب والهندسة والهيئة والفلك وله عناية بالطب، من أهل قرطبة. ولد سنة (٣٦١هـ/٩٧٢م)، انتقل إلى غرناطة وتأثر فيها نعمة واسعة، ومات بها سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٥م). كان من مفاخر الأندلس. له كتاب «المدخل إلى الهندسة» و«ثمار العدد» ويعرف بالمعاملات، و«تفسير كتاب إقليدس» وكتاب كبير في «الهندسة» وكتاب في «الأسطرلاب» و«تاريخ» كبير ذكره صاحب الإحاطة ولم يسمه.

ترجمته في: التكملة لابن الأبار (انظر: فهرس الأعلام)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٤٨٣-٤٨٤، والإحاطة في أخبار غرناطة ١/٢٦٤، والوفيات لابن قنفذ ٢٣٤ رقم ٤٢٦، وكشف الظنون ٥٢٣، ٩٦٥، ١٣٩٠، ١٤٧٢، ١٦٤٢، وإيضاح المكنون ١/٥٨٣، وتراث العرب العلمي لقنبري طوقان ٢٩٩، ومعجم المؤلفين ٢/٣٠٣، الأعلام ١/٣٣٣، وتاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١-٤٤٠هـ)، ص ١٧٢ رقم ١٩٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٣.

وحركات النجوم، وكانت له عناية بالطب، وتواليف حسان، وقال: أخبرني تلميذه أبو مروان الباسي أنه توفي بغرناطة.
ومنهم:

[٤٢]

أبو الحكم الكرمانى، وهو عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي
من أهل قرطبة^(١):

طبيب لا يدق عليه غامض، ولا يشق عليه خفاء وامض، وكان مقدماً في
التعاليم، ومعظماً في الأقاليم، وجامعاً من القوى النفسانية التقاسيم، / ١٣٨ / وأجاد
الكلام في أحكام الطب، وأحكام ما يحتاج إليه المستطب، وعرف في القوى الطبيعية
المخدومة والخدمة، والبداية والخاتمة، إلى أن أبرز كل خفية وأحرز قد الكمية
والكيفية، ولم يزل يعود بملاطفته ويعود بعاطفته، حتى انتعشت به الأرواح في
أجسامها، وأمنت به من انتهاب الأقسام واقتسامها، وطردت الصحة الأمراض وقامت
جواهر النفوس بالأعراض.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): هو أحد الراسخين في العدد والهندسة.

وقال صاعد: إن تلميذه الحسين بن محمد المهندس المنجم قال: إنه ما ألقى
أحداً يجاريه في علم الهندسة. ولا شق غباره في فك غامضها، وتبين مشكلها واستيفاء
أجزائها. ورحل إلى المشرق، وانتهى إلى حران، وعني هناك بطلب الهندسة، ثم رجع
إلى الأندلس، واستوطن ثغر سرقسطة، وأدخل معه رسائل إخوان الصفا [وله عناية
بالطب] ومجربات فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكلى والكى والقطع والشق والبط،
وغير ذلك من أعمال الطب، ولم يكن بصيراً بالنجوم، ولا بالمنطق.
ومنهم:

[٤٣]

ابن وافد^(٣)

بيت حكمة، ونبت حشمة، ورئيس طب، ومنية محب، عنيت الدول برفع

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٤-٤٨٥، طبقات الأمم ٩٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٤.

(٣) الوزير، أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي: =

أخمصه، ودفع منتقصه، وقدمته باستحقاقه لأن يكون مقدماً، ويسدد رأيه ليفوت السمهري مقوماً، فلهذا كان مجاريه لا يقدر له على لحاق، وحاسده ولو كان البدر لا يرى إلا في المحاق، بلطف لو سحب رذنه الروض لأبهج رقيمه، أو لأصيل المعتد لشفاه وما صح من النسيم سقيمه. لم تمد يد إلى مجاذبته، ولا طمع في مجانبته.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو الوزير أبو المطرف، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي أحد أشرف أهل الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، والسابقة القديمة فيهم. عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها، ومطالعة /١٣٩/ كتب أرسطو وغيره من الفلاسفة وتعللها.

قال صاعد: وتمهر في تعلم الأدوية وصنف فيه كتاباً جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما قاله ديسقوريدس وجالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب. قال: وأخبرني أنه عانى جمعه وترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وتفصيل قواها وتجديد درجاتها نحواً من عشرين سنة، حتى كمل موافقاً لغرضه، مطابقاً لبغيته. وله في الطب منزع لطيف ومذهب شريف، كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو كان قريباً منها، ثم إذا اضطر إلى الأدوية لا يرى التداوي بالمركب ما أغنى المفرد بمفردها، فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب بل يقتصر على الأقل ما يمكنه منه. وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخيفة بأيسر العلاج. واستوطن طليطلة، وكان أيام ابن ذي النون ومنهم:

[٤٤]

محمد بن يوسف المنجم^(٢)

أديب غلب عليه التنجيم، وعلا قدره فما حصر بالتقويم، وسير الشهب حتى

⁼ عالم بالفلاحة والصيدلة، طبيب أندلسي من أهل طليطلة ولد سنة (٣٩٨هـ/١٠٠٨م). تعلم بقرطبة، له تأليف، منها «مجموع في الفلاحة» وكتاب في «الأدوية المفردة» استعمله أهل عصره، و«الوساد» ذكره ابن الأبار ولم يبين موضوعه. ثم قال: وهو الذي تولى غرس جنة المأمون ابن ذي النون الشهيرة في طليطلة، توفي سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٥م).

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٩٦، طبقات الأمم ١٠٦-١٠٥، أخبار الحكماء ١٥٢، لسان الميزان ٤٣٣/٣، والفهرس التمهيدي ٢١٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٢٢٥/٣، مخطوطات دار الكتب ٤، الأعلام ٣٢٦/٣.

(١) عيون الأنباء ٤٩٦.

(٢) ترجمته في: انموذج الزمان ٣٢٧، الوافي بالوفيات ٥/٢٤٨-٢٤٩ رقم ٢٣٢١.

صورها من توليد خاطره، وصيرها على لسانه بدلاً من ناظره، وحيرها حتى وقفت له فأصبحت قريحته منها متخيرة، وأضلتها بلألاء أنواره فظلت متحيرة.

قال ابن رشيق^(١): وشعره صحيح البناء، ملتئم الأجزاء، ملموم الشواء، كأنه قطعة واحدة. غلب عليه التنجيم كأبيه، وكتب ليعلى بن فرح، ثم لولده بعده، وامتدح نصير الدولة مرات.

وأورد من شعره قوله^(٢): [من الطويل]

لَعَمْرِي لئنْ كُنَّا حَلِيفِي صِنَاعَةٍ لَقَدْ سَبَقْتُ رِيَشَ الْخَوَافِي الْقَوَادِمُ
فَقُلْ لِلَّذِي اسْتَهْزَا بِنَا فِي فِعَالِهِ مَقَالِي يَقْظَانُ وَعِرْضُكَ نَائِمُ
سَيَغْسِلُ عَنِّي الْمَاءُ فِعْلَكَ كُلَّهُ وَقَوْلِي بَاقٍ وَالْعِظَامُ رَمَائِمُ
/ ١٤٠ / تَدِبُّ عَلَى الْأَعْضَاءِ مِنْهُ عَقَارُبُ وَتَنَفُّتُ فِي الْأَحْشَاءِ عَنْهُ أَرَاقِمُ
فَإِنْ كَانَ ذَا عِرْضٍ تَلُوحُ كُلُّومُهُ فَعِنْدِي ضَمَادَاتٌ لَهُ وَمَرَاهِمُ
ومنهم:

[٤٥]

أبو بكر بن باجة، ابن الصائغ، واسمه محمد بن يحيى الأندلسي^(٣)

أديب رُمي من حائق، وبُلي بحارق، ولم يقنع صاحب القلائد بأن يضع عليه سمة الفاسق، ذكره ويا بئس ما جاء به من سوقه النافق، قال فيه: رمد جفن الدين وكمد

(١) انموذج الزمان (٣٢٧).

(٢) انموذج الزمان (٣٢٧).

(٣) محمد بن يحيى بن باجّة، ويعرف بابن الصائغ، أبو بكر التجيبي الأندلسي السرقسطي: من فلاسفة الإسلام. ينسب إلى التعطيل ومذهب الحكماء. ولد في سرقسطة، واستوزره أبو بكر بن إبراهيم والي غرناطة ثم سرقسطة. وذهب إلى فاس فاتهم بالإلحاد، ومات فيها، قيل: مسموماً سنة (٥٣٣هـ/١١٣٩م)، قبل سنّ الكهولة، والإفرنج يسمونه (Avenpace) حمل عليه الفتح بن خاقان (في قلائد العقيان) حملة شديدة. وكان مع اشتغاله بالفلسفة والطبيعات والفلك والطب والموسيقى، شاعراً مجيداً، عارفاً بالأنساب. شرح كثيراً من كتب أرسطاطاليس وصنف كتباً ذكرها ابن أبي أصيبعة (في طبقات الأطباء) ضاع أكثرها، وبقي ما ترجم منها إلى اللاتينية والعبرية. ومما بقي من كتبه «مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعات - خ» و«رسالة الوداع - ط» مع رسالتين من تأليفه، هما «اتصال العقل» و«النبات» وكتاب «النفس - ط» وتعليق على كتاب العبارة للفارابي - خ» من أملائه، و«تعليق على كتاب الفارابي في القياس - خ» من تأليفه كلاهما في دار الكتب، مصوران عن الاسكوريال (٤/٦١٤ و ٥/٢١٢) كما في المخطوطات المصورة (٢٠٣/١).

نفوس المهتدين به اشتهر سخفاً وجنوناً، وهجر مفروضاً ومسنوناً.
 قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان علامة في وقته في العلوم الحكيمية، وبلي بمحن كثيرة وشناعات سيئة، وقصد هلاكه مرات. وكان حافظاً للقرآن الكريم. وقال ابن الإمام: كان في ثقابة الذهن. ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه. وكان من أجل نظار وقته أضرب عن النظر ظاهراً لما لحقه من المطالبات في دمه بسببه. وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها وزاحم لكنه لم يلح عليه ضياء هذه المعارف، ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم، فإذا قارنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي، وهما اللذان فتح عليهما بعد أبي نصر بالمشرق في فتح تلك العلوم، ودونها، بان لك الرجحان في أقاويله. وحسن فهمه. والثلاثة أئمة دون ريب.

وأشده له الفتح في القلائد قوله^(٢): [من البسيط]

يا سائقي حيث لا أسطيعُ أذرِكُهُ ولا أقولُ غداً أغدو فألقاهُ
 أمّا النهارَ قليلٌ ضمَّ شملتهُ على الصباح فأولاهُ كأخراهُ
 أغرّ نفسي بآمالٍ مُزخرقةٍ منها لقاءك والأيامُ تَبَاهُ
 وقوله^(٣): [من الكامل]

١٤١/ فَعَسَى أرى ذاكَ النَّعِيمَ ورُبُّهُ فَرِحَ ورُبُّ البُؤْسِ وهو سَقِيمٌ
 هَيَّهَاتَ ساوَتْ بينهمُ أجدائهمُ وتشابهَ المَحْسُودُ والمَرْحُومُ
 وقوله^(٤): [من الطويل]

أقولُ لنفسي حينَ قابَلها الرَّدَى فَرَاعَتْ فِراراً منه تُسري إلى يُمْنَى

= ترجمته في: قلائد العقيان ٤/ ٩٢١-٩٤٧، وخريدة القصر/ قسم شعراء المغرب والأندلس ٢/ ٣٣٢-٣٣٤، وق ٤ ج ٢/ ٦٠٨، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي ٤٠٦، وانموذج الزمان ٣٢٧، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٥١٥-٥١٧، والمغرب في حلي المغرب ١١٩/٢، ووفيات الأعيان ٤/ ٤٢٩-٤٣١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٩٣-٩٤ رقم ٥٤، والوافي بالوفيات ٢/ ٢٤٠-٢٤٢، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٤٤-٣٤٨، ومراة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٧٢-١٧٣، ونفع الطيب ٧/ ١٧-٢٥ و ٢٧، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٣، وهدية العارفين ٢/ ٨٧، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٥، ومعجم المؤلفين ١٢/ ١٠٣-١٠٤، والأعلام ٧/ ١٣٧، وإيضاح المكنون ١/ ٤٨٦، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١-٥٤٠هـ)، ص ٣٣١ رقم ١١٦٣.

(١) عيون الأنباء ٥١٥.

(٢) قلائد العقيان ٤/ ٩٣٣.

(٣) القلائد: ٤/ ٩٤١.

(٤) القلائد ٤/ ٩٤٦.

فرى يحملني بعض الذي تكرهينه فقد طالما عنيت بالفرار إلى الأهنى
وقوله^(١): [من الطويل]

أَسْكَانَ نَعْمَانَ الْأَرَاكِ تَيَقَّنُوا بَأْنَكُمْ فِي رَبْعِ قَلْبِي سَكَّانُ
وَدُومُوا عَلَى حِفْظِ الْوُدَادِ فَإِنَّا بُلِينَا بِأَقْوَامٍ إِذَا أَيْتَمَنُوا خَانُوا
سَلِ اللَّيْلِ عَنِّي مَذْنَاءَتْ دِيَارُكُمْ هَلِ اكْتَحَلْتُ لِي فِيهِ بِالنَّوْمِ أَجْفَانُ
وَهَلْ أَغْمَدْتُ يَوْمًا سُيُوفَ بُرُوقِكُمْ فَكَانَ لَهَا إِلَّا جُفُونِي أَجْفَانُ
ومنهم:

[٤٦]

المبشر بن فاتك، وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الآمري^(٢)

طبيب لو جس نبض البرق لما اختلف، أو لاطف ما ينافر من الطبائع لأتلف،
أعرف باختلال الفروق من الخيال بالطروق، وأهدى إلى معالجة الداء الدوي من الطفل
إلى الشدي، لو عالج النار لخمدها، أو البحار لجمدها، أو شكت إليه الفراق طول
السهر لرد عليها غمضها، أو السحب المتصبية من الرُحْضَاءِ لأزال ممضها. تيسرت على
يديه الممتنعات، وأمنت بحسن طبه التبعات، إلا أن أدواء المنية أعيتة، وطوارف
الأجل بيتته، فلم يجد لداء منيته طبًّا، ولا لرجاء أمنيته طبًّا، هذا مع ما كان له من
أسلاف وأمة، وبيت كم لمعتفيه من طواف به وعمره لكنه لم يدافع عنه زمرة، ولا
تجلت عنه غمره.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(٣) قال: كان من أعيان مصر وأفاضل علمائها يحب
الفضائل والاجتماع بأهلها، واجتمع بجلّة / ١٤٢ / الحكماء وأهل الطب وأخذ عنهم،
وكانت له خزائن كتب، وكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له
دأب إلاّ المطالعة والتعليق يرى أن ذلك أهم ما عنده، فلما مات عمدت زوجته إلى
الكتب فألقته في بركة ماء كبيرة كانت في وسط الدار، ثم شيلت وقد غرق أكثرها،
وإنما فعلت ذلك لحقها على الكتب؛ لكونه كان يتشاغل بها عنها.

ومنهم:

(١) القلائد ٤/ ٩٤٤.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٠- ٥٦١، وتاريخ الحكماء ٢٦٩، ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٧١.

(٣) عيون الأنباء ٥٦٠.

[٤٧]

الحفيد أبو بكر، محمد بن زُهر^(١)

فاضل متميز، وكاملٌ إلى الأطباء متحيز، أخذ من كل علم بحظ وافر، وحق ما الفائز به إلى الظافر، وكان يقيس الأمور بأنظارها، ويحوزها من سائر الأطراف باستحضارها، فأطل على ربواتها، واطلع على هفواتها، حتى كان يعرف نبض البرق في اختلافه، ويحيط علماً بكل موافق وخلافه. هذا إلى آداب ترق، ويهب لطفها النسيم ويسترق، ومات وفي يده أزمة الطب، وذهب هو والمستطب، ولم يدفع عن حوابعه تلك المعارف، ولا ذادت من حينه الأجل المشارف، فاستوطن الثُرب مخلياً للثُرب ومُخلياً للسرب، فأها ثم آهاً وويلاه لحسرات لا تتناهى كيف يأفل مثل قمره، وكيف ينقضي طيب سمره، وكيف يذهب مثله من العلماء، ويذهب من بين نجوم السماء، وطالما جلا الدجى، وأنهج طرق الحجا، وامتدت نحوه أيدي الخلفاء، واعتدت له بحسن الوفاء، وثنت العلواء له الوسائد وأخدمته الأيام والليالي ولائد.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢) فيه: هو الإمام الوزير، الحكيم، الأديب، الحسيب،

(١) ورد في الأصل: «أبو بكر بن محمد...» وما أثبتناه والمصادر الأخرى.

وهو محمد بن عبد الملك بن زُهر الإيادي، أبو بكر: من نوابغ الطب والأدب في الأنندلس. ولد بإشبيلية سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م)، وخدم دولتي الملثمين والموحدين. ولم يكن في زمنه أعلم منه بصناعة الطب، أخذها عن أبيه وعرف بالحفيد ابن زهر. له «الترياق الخمسيني» في الطب، ورسالة في «طب العيون» وشعر رقيق، وموشحات انفرادي عصره بإجاده نظمها، أشهرها موشحة مطلعها:

«ما للموله، من سكره لا يفيق»

وثانية مطلعها:

«أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع»

توفي بمراكش سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م).

ترجمته في: معجم الأدباء ٥٢١-٥٢٨، وعيون الأنباء ٥٢١-٥٢٨، والوافي بالوفيات ٤/٣٩-٤٣ رقم ١٤٩٧، ونفح الطيب ١/٦٢٥، وتاريخ الأدب العربي ١/٦٤٢، والمطرب لابن دحية ٢٠٧، والمعجب للمراكشي ١٤٥، وتكملة الصلة ٢/٢٥٥، ووفيات الأعيان ٤/٤٣٤-٤٣٧، والعبر ٤/٢٨٨، وسير أعلام النبلاء ٢١/٣٢٥-٣٢٧ رقم ١٧١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧١-٧٢، وإنسان العيون ورقة ٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٢٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ وشذرات الذهب ٤/٣٢٠، والكنى والألقاب للقمي ١/٢٩٣-٢٩٤، والأعلام ٦/٢٥٠، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١-٦٠٠هـ)، ص ٢٠٢ رقم ٢٦٥.

(٢) عيون الأنباء ٥٢١.

الأصيل مولده بمدينة إشبيلية ونشأ بها وتميز في العلوم، وأخذ الطب عن أبيه، وباشر أعمالها وكبر، ولم يتغير عليه سوى ثقل السمع. حفظ القرآن الكريم، وسمع الحديث الشريف، واشتغل بالأدب، وأتقن اللغة، وقال الشعر، وأجاد / ١٤٣ / في الموشحات. وكان متين الدين ملازماً للأمور الشرعية، قوي النفس، له جرأة في الكلام، ولم يكن في زمانه أعلم منه بالطب، لازم عبد الملك الباجي سبع سنين يشتغل عليه، وقرأ المدونة لسحنون في مذهب مالك، ومسند ابن أبي شيبة وكان يجذب قوساً وزنه مائة وخمسين رطلاً بالإشبيلي، ورطلها مائة وستون درهماً، وكان جيد اللعب بالشطرنج، وخدم الملثمين والموحدين، وبقي إلى أيام عبد الملك الناصر بن منصور يعقوب، ومات بمراكش.

وحكي: أنه كان له صديق يلاعبه الشطرنج، فرآه يوماً منقبضاً فسأله عما به، فأخبره أن له بنتاً زوّجها من رجل، وأنه يحتاج في جهازها إلى ثلاثمائة دينار، فقال له: اللعب، وما عليك فإن عندي ثلاثمائة دينار إلا خمسة، واستدعى بها فأعطاهها له، فلما كان غير بعيد أتاه الرجل بالذهب، فقال له الحفيد ابن زهر: ما هذا؟ قال: بعت زيتوناً لي بسبعمائة دينار وقد اتيتك منها بثلاثمائة إلا خمسة عوض ما أقرضتني وقد بقيت عندي البقية، فقال الحفيد: خذه إليك، فإني ما أعطيتك على أن أعود فيه. فقال له الرجل: لا تفعل فإنني في سعة وترى ذا، فقال له ابن زهر أنت عدوي أو صديقي؟ قال: بل صديقك وأحب الناس فيك، فقال: إن الصديقين مالهما واحد فخذه، فإن لم تفعل عاديتك بسببه، فأخذه وشكر له.

قال القاضي أبو مروان الباجي: وكان المنصور قد قصد أن لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده. وأباد كثيراً منها بإحراقها بالنار وشدد في أن لا يرجع أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى وجد أحداً ينظر في هذا العلم أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه، فإنه يلحقه ضرر عليه. ولما شرع في ذلك جعل أمره مفوضاً إلى الحفيد أبي بكر بن زهر، وأنه الذي ينظر إليه. وأراد الخليفة أنه إن كان عند ابن زهر وأنه الذي ينظر فيه المنطق والحكمة لم يظهر، ولا / ١٤٤ / يقال عنه إنه يشتغل بها، ولا يناله مكروه بسببها، ولما نظر ابن زهر في ذلك، وامتلأ أمر المنصور في جمع الكتب من عند الكتبيين، وغيرهم، وأن لا يبقى شيء منها، وإهانة المشتغلين بها. كان بإشبيلية رجل من أعيانها يعادي الحفيد ويحسده وعنده شر عظيم، فعمل محضراً في أن ابن زهر دائم الاشتغال بهذا الفن والنظر فيه، وأن عنده شيئاً كثيراً من كتبه، وجمع فيه شهادات كثيرة، وبعث إلى المنصور. وكان المنصور حينئذ في حصن الفرح وهو موضع

بناه قريباً من أشبيلية على ميلين منها صحيح الهواء بحيث بقيت الحنطة فيه ثمانين سنة لم تتغير من صحتة. وكان أبو بكر بن زهر هو الذي أشار أن يبنيه المنصور في ذلك الموضع، ويقيم فيه في بعض الأوقات. فلما كان المنصور به، وقد أتاه المحضر نظر إليه، ثم أمر أن يقبض على الذي عمله، وأن يودع السجن ففعل به ذلك. وانهزم جميع الشهود الذين وضعوا خطوطهم فيه. ثم قال المنصور: إنني لم أترك ابن زهر في هذا إلا حتى لا ينسبه أحد إلى شيء منه، ولا يقال عنه. والله لو أن جميع أهل الأندلس وقفوا قدامي وشهدوا على ابن زهر بما في هذا المحضر لم أقبل قولهم، لما أعرفه في ابن زهر من متانة دينه وعقله.

وحدثني أبو العباس أحمد بن محمد الإشبيلي قال: كان قد أتى إلى الحفيد اثنان يشتغلان عليه بصناعة الطب، فدخلا عليه يوماً ويبدأ أحدهما كتاب صغير في المنطق، فلما نظر إليه نهض حافياً ليضربهما وانهزما وهو يتبعهما، ولم يرجع إلا من مسافة بعيدة، وانقطعا عنه أياماً، ثم توسلا إليه واعتذارا وأظهرا التوبة مما فعلاه، فقبل عذرهما، وأذن لهما في الدخول عليه مستمرين في قراءة الطب على عادتهما، ثم بعد مدة أمرهما بحفظ القرآن، وقراءة التفسير والحديث والفقه، وأمرهما بمواظبة الأمور الشرعية وآدابها وسننها، وعدم الإخلال بذلك حتى بقي ذلك لهما سجية وطبعاً / ١٤٥ / وعادة قد ألفاها، ثم بعد ذلك أخرج لهما الكتاب بعينه، وقال لهما: الآن صلحتما لقراءة هذا الكتاب وغيره من أمثاله، وابتدأ في إشغالهما فيه، فتعجبا من فعله رحمه الله. وهذا يدل على كمال عقله وتوفر مروءته.

وحدثني القاضي أبو مروان الباجي قال: كان أبو زيد عبد الرحمن بن برجان وزير المنصور يعادي الحفيد ويحسده لما يرى من علو منزلته وعلمه فاحتال عليه في سم قدمه إلى الحفيد في بيض، وكانت عنده بنت أخته، وكانت أخته وابنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء، يدخلان على المنصور، لا يقبل للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أمها. فلما أكل الحفيد وبنت أخته من ذلك البيض ماتا جميعاً، ولم ينفع فيهما علاج. قال: ولم يمت أبو زيد عبد الرحمن بن برجان إلا مقتولاً قتله بعض أقربائه.

ومن شعره يتشوق إلى ولده: [من المتقارب]

ولي واحدٌ مثلُ فرخ القطا	صغيرٌ يُخلفُ قلبي لديه
نأتُ عنه داري فيا وَحشتي	لذاك الشَّخيص وذاك الوجيه
تَسْؤَقْنِي وَتَسْؤَقْتُهُ	فيبكي عليّ وأبكي عليه ^(١)

ومنهم:

[٤٨]

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف، الإمام العلامة
المتقن، جامع أشات الفضائل، ركن الدين، أبو عبد الله، ابن
القَوَيْع القرشي الهاشمي الجعفري المالكي التونسي^(١)

ليبي مبصر لا يخاف منه التخييط، وطبيب مكث لا يؤتى عليه من التخليط. أتقن العلم إتقاناً، ودرب العمل إذ كان لا يرغب له إتياناً، هذا إلى فضل متسع، وسبق وراءه كل متبع. جد في الطب، حتى كأن جُذيله المُحَكِّك، وعُذيقه المُرَجَّب لا يشكل وكان حين وخط المشيب عارضه، وأسكت معارضه، أشد مما كان عارضة وأشد معارضة، ١٤٦/ فلم يمتد معه لمجادل نفسه، ولا رفع رأسه نحو مناظر إلا نكس، لثاقب فكرة حط عنها قناعها، وكثر لكل قريع الحزم قراعها، فتقهقر كل متقدم عن مكانه، وعلم أن دونه ما في إمكانه، لم أر له نظيراً في مجموعته وإتقانه واستحضاره وإطلاعه.

كان مجيداً في الأصول، والحديث، والفقه، والأدب، واللغة، والنحو، والعروض، وأسماء الرجال، والتاريخ، والشعر، يحفظ للعرب، والمولدين، والمتأخرين. غاية في الطب والحكمة، ومعرفة الخطوط خصوصاً خطوط المغاربة، قد مهر في ذلك وبرع، وإذا تحدث في شيء من ذلك كله تكلم على دقائقه وغوامضه ونكته حتى يظن سامعه إنما أفنى عمره في ذلك الفن.

قال شيخنا العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي وهو ما هو: ما أعرف أحداً مثل

(١) ابن القَوَيْع، العلامة، الفيلسوف، الحكيم، ركن الدين، محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف القرشي، الجعفري، التونسي، المالكي.

ولد سنة (٦٦٤هـ) بتونس، وقرأ النحو على يحيى بن الفرج بن زيتون، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس. وقدم مصر عام تسعين. وسمع بدمشق من ابن الواسطي، وابن القواس، وبحماسة من المحدث ابن مزيز.

قال الذهبي: وكان صاحب فنون وبارع في الطب والفلسفة. وفيه رقة دين. وكان يجعل الرء غيناً. خلف ثروة، وله نظم يسير سمع منه ابن الدمياطي، وغيره.

توفي في ١٧ ذي الحجة سنة ٧٣٨هـ.

ترجمته في: تاريخ حوادث الزمان ٣/ ١٠٦٣ رقم ١٣٨٢، والوفيات لابن رافع ١/ ٢٣٤-٢٣٥ رقم ١٠٧، والوافي بالوفيات ١/ ٢٣٨-٢٤٧، وأعيان العصر ٥/ ١٤٨-١٦٣ رقم ١٧٤٥، والبداية

الشيخ ركن الدين أو كما قال. وقد رأى جماعة ما أتى الزمان لهم بنظير بعدهم مثل الشيخ. وحكى أبو الفتح بن سيد الناس: أنه لما قدم إلى الديار المصرية وهو شاب حضر سوق الكتب، وابن النحاس شيخ العربية حاضر وكان مع المنادي ديوان ابن هانيء المغربي، فأخذه الشيخ ركن الدين وأخذ يترنم بقول ابن هانيء: [من الكامل]
فَتَكَاتِ لِحَظِّكَ أَمْ سُيُوفَ أَبِيكَ وَكُؤُوسَ خَمْرِكَ أَمْ مَرَّاشِفَ فِيكَ
وكسر التاء وفتح الفاء والسين والفاء، فالتفت إليه ابن النحاس وقال له: ماذا إلا نصبٌ كثيرٌ. فقال له الشيخ ركن الدين بتلك الحدة المعروفة منه والمعرفة: أنا ما أعرف الذي يريد من رفع هذه الأشياء على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، أي: أهذه فتكات لحظك أم كذا أم كذا، وأنا الذي أقوله أغزل وتقديره أأقاسي فتكات لحظك، أم أقاسي سيوف أبيك، وأرشف كؤوس خمرك، أم مراشف فيك. فأحجل ابن النحاس، وقال: يا مولانا، فلم لا تتصدر وتشغل الناس؟ فقال استخفافاً /١٤٧/ بالنحو واحتقاراً: وايش هو النحو في الدنيا، أو كما قال.

وحكى أيضاً قال: كنت أنا وابن الأكفاني نأخذ عليه في المباحث المشرقية، فأبيت ليلتي أفكر في الدرس الذي نصبح نأخذه عنه، وأجهد قريحتي، وأعمل بعقلي وفهمي إلى أن يظهر لي فيه شيء أجزم بأن المراد به هذا، فإذا تكلم الشيخ ركن الدين كنت أنا في واد، وهو في واد، أو كما قال.

وحكى المراكشي قال: قال لي الشيخ ركن الدين: لما أوقفني ابن سيد الناس على السيرة التي عملتها علّمت فيها على مائة وأربعين موضعاً، أو ستة وعشرين، السهو مني، أو كما قال. ولقد رأيته مرات يواقف ابن سيد الناس في أسماء رجال ويكشف عليها فيظهر معه الصواب.

= والنهاية ١٨٣/١٤ وفيه: «قوبع» بمثناة، ومثله في: السلوك ج٢ ق ٢/٤٥٦، وطبقات النحاة واللغويين ورقة ٥٦ب، ١٥٧، ١٨١/٩٤-١٨٤ رقم ٤٩١، والنجوم الزاهرة ٣١٥/٩، وبغية الوعاة ٢٢٦/١، وحسن المحاضرة ١/٤٥٩، وطبقات المفسرين ٢/٢٣٧-٢٣٩، ونيل الابتهاج ٢٣٢-٢٣٣، ودرة الحجال ٢/٣٠٠، وإيضاح المكنون ٤/٥٢٧، وهدية العارفين ٢/١٤٩، وديوان الإسلام ٤/٥٠-٥١ رقم ١٧٢٨، وشجرة النور الزكية ١/٢٠٨-٢٠٩، والأعلام ٨/٢٦٤، ومعجم المؤلفين ١١/٢٣٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ) ص ٣٥٢ رقم ١٠٦١.

قال ابن حجر: القوبع: على الألسنة بضم القاف. ونقل ابن رافع عنه أنه قال إنه بفتح القاف، وذكر عن بعض المغاربة أن القوبع: طائر. «معجم الأطباء ٤٢٩-٤٣٩».

قال أبو الصفاء^(١): وكنت يوماً أنا وهو عند ابن سيد الناس فقال: قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: عمل ابن الخطيب أصولاً في الدين، الأصول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) إلى آخرها، فنفر الشيخ ركن الدين وقال: قل له: يا عُرَّة، عمل الناس وصنعوا، وما أفكروا فيك، ونهض قائماً، وولى مغضباً.

قال: وأخبرني الشيخ فتح الدين قال: جاء إليه إنسان يصحح عليه في أمالي القالي، فأخذ الشيخ ركن الدين يسابقه في ألفاظ الكتاب، فبهت ذلك الرجل فقال: لي نحو عشرين سنة ما كررت عليها، وكان إذا أنشده أحد شيئاً في أي معنى أنشد فيه جملة للمتقدمين والمتأخرين كأنه كان يكرر عليه تلك الليلة.

وتولى نيابة الحكم للقاضي المالكي بالقاهرة مدة، ثم تركها تديناً منه، وقال: يتعذر فيها براءة الذمة، وكان سيرته فيها حسنة مرضية، وكان يدرس في المدرسة المنكتمرية بالقاهرة، ويدرس الطب بالبيمارستان المنصوري، وينام أول الليل، ثم يستفيق قد أخذ راحة، وقد أخذ كتاب «الشفاء» لابن سينا ينظر فيه لا يكاد يخل بذلك.

قال الشيخ فتح الدين: قلت / ١٤٨ / له يوماً: يا شيخ ركن الدين إلى متى تنظر في هذا الكتاب؟ فقال: إنما أريد أهتدي. وكان فيه سامة وملل حتى في لعب الشطرنج، يكون في وسط الدست، وقد نفذه وقطع لذة صاحبه، ويقول: سئمت، سئمت، وكذلك في بعض الأوقات في بحث وقد حرّر لك المسألة، وكادت تنضج، فيترك الكلام ويمضي. وكان حسن التودد يتودد إلى الناس، ويهنتهم بالشهور والمواسم من غير حاجة إلى أحد؛ لأنه كان معه مال، له صورة ما يقارب الخمسين ألف درهم، وكان يتصدق سراً على أناس مخصوصين، ولثغته بالراء قبيحة يجعلها همزة، وكان إذا رأى أحداً يضرب كلباً أو يؤذيه يخاصمه وينهره، ويقول له: لم تفعل هذا؟ أما هو شريكك في الحيوانية. وكان خطه على وضع المغاربة وليس بحسن. وسمع بدمشق سنة إحدى وتسعين وستمائة على المسند تقي الدين بن الواسطي، واستجزته سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بالقاهرة باستدعاء فيه نثر ونظم فأجاب وأجاز وأجاد نظماً ونثراً.

أنشدني لنفسه إجازة: [من الطويل]

جَوَى يَتَلَطَّى فِي الْفُوَادِ اسْتِعَارُهُ وَدَمْعٌ هَثُونٌ لَا يُكْفُ انْهَمَارُهُ
يَحَاوُلُ هَذَا بَرْدَ ذَاكَ بِصَوْبِهِ وَلَيْسَ بِمَاءِ الْعَيْنِ تُطْفَأُ نَارُهُ

(١) الوافي بالوفيات ١/ ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) سورة الإخلاص: الآية ١.

فحَارَ الفؤَادَ المِسْتَهَامَ إِزَارُهُ
وَدَغِصِيَّيَ مَا يُثْنِي عَلَيْهِ إِزَارُهُ
وَمِنْ حَبِّ قَلْبِي شَيْخُهُ وَعَرَارُهُ
فَأَزْهَرَ فِيهِ وَرْدُهُ وَبَهَارُهُ
فِيَبْدُو بِأَنْفَاسِ الصُّعَادِ شَرَارُهُ
كَنُورِ الْأَقَاحِي حَقُّهُ جُلَّانَرُهُ
تَفَاوُحَ فِيهِ مِسْكُهُ وَوَعْقَارُهُ
يُحِيرُّ فِكْرِي غُنْجُهُ وَاحْوَرَارُهُ
وَخَضْرَاءَ نَجِيلًا غَالِ صَبْرِي احْتِضَارُهُ
فِيَا شَدَّ مَا يَلْقَى مِنَ الْجَارِ جَارُهُ
تَوَافَتْ بِهِ أَزْهَارُهُ وَثِمَارُهُ
وَعُضْنُ وَلَكِنْ أَيْنَ مَنِّي اهْتِصَارُهُ
وَعُودَرِ عِنْدِي سُكْرُهُ وَخُمَارُهُ
وَلَكِنْ بَعْدًا صَدُّهُ وَنِفَارُهُ
أَحْلَ بِي الْبَلَوَى وَسَاءَ اقْتِدَارُهُ

ولوعاً بمن حازَ الجمالَ بأسره
كَلِفْتُ بِهِ بَدْرِيَّ مَا فَوْقَ طَوْقِهِ
غَزَالُ لَهُ صَدْرِي كِنَاسٌ وَمَرْتَعٌ
جَرَى سَابِحاً مَاءَ الشَّبَابِ بِرَوْضِهِ
يَشِبُّ ضَرَاماً فِي حَشَايَ نَعِيمُهُ
وَيَنْظُمُ دَمْعِي مِنْهُ نَظْمَ مُؤَشِّرِ
يُعَلِّ بِعَذْبٍ مِنْ بَرُودِ رُضَابِهِ
/١٤٩/ وَيُسْهِرُ أَجْفَانِي بَوْسَنَانِ أَدْعَجَ
حَكَانِي ضَعْفَاءً أَوْ حَكَى مِنْهُ مُوثِقاً
مُعَنَّى بِرَدْفٍ لَا يَنْوُءُ بِثَقْلِهِ
تَأَلَّفَ فِي هَذَا وَذَا غُضْنَ بَانِي
زَلَالٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَنِّي وَرُودُهُ
وَسَلْسَالُ رَاحِ صَدِّ عَنِّي كَأْسُهُ
دَنَا وَنَأَى فَالِدَارُ غَيْرُ بَعِيدَةٍ
وَحِينَ دَرَى إِنْ شَدَّ أَسْرَى حُبُّهُ
منها :

كَمَا قَدْ حَكَى لَيْلِي ظَلَاماً نَهَارُهُ
وَسُقْمِي تَسَاوَى سِرُّهُ وَجِهَارُهُ
أَمَامَ غَرَامِ قَلِّ فَيْكَ اسْتِتَارُهُ
بِمَنْ إِنْ يَعِينِ الْقَرْطُ أَصْفَى سَوَارُهُ
وَلَمَّا يُقَارِبُ أَنْ يَدُبَّ عِذَارُهُ
وَجَنَّةَ قَلْبِي كَيْفَ مِنْكَ اسْتِعَارُهُ

حَكَّتْ لَيْلَتِي مِنْ فَقْدِي النُّومَ يَوْمَهَا
كَتَمْتُ الْهَوَى لَكِنْ بِدَمْعِي وَزَفَرْتِي
ثَلَاثُ سَجَلَاتٍ عَلَيَّ بِأَنَّنِي
أُورِي بِنَظْمِي فِي الْعِذَارِ وَتَارَةً
وَجَلَّ الَّذِي أَهْوَى عَنِ الْحَلِيِّ رُبَّةً
أَرَاخَةَ قَلْبِي كَيْفَ مِنْكَ عَذَابُهَا

وتوفي الشيخ ركن الدين المذكور بالقاهرة في تاسع ذي الحجة سنة ثمان وثلثين وسبعمئة، واعتل يومين، ومضى إلى رحمة ربه الرحيم، ومولده سنة أربع وستين بتونس، وله من التصانيف التي دونها «تفسير سورة ق» في مجلدة، ولما تولى الإعادة في المدرسة الناصرية عمل درساً في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١) وعلق ما أملاه في ذلك، وكان رحمه الله قد قرأ النحو على

يحيى بن الفرخ بن زيتون، والأصول على محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس، /
١٥٠ / وقدّم مصر عام تسعين، وسمع بدمشق من ابن الواسطي، وابن القواس، وبحمّة
من المحدث ابن مزير.
ومنهم:

[٤٩]

محمد بن إبراهيم المتطبب، صلاح الدين المعروف بابن البرهان
الجرائحي^(١)

عالمٌ لا يحصر بأمّد، ولا يجيء البحر عنده غير ثمّد، نظر في علوم الأوائل،
ووجهه ما تلثم بعذاره، ولا بعد عهده بزمان أعذاره، ففتح أطباق تلك النواويس حتى
استل علومها، وسأل عليمها، ونقل إلى حفظه خبايا أسرارها، وخفايا أسفارها، وحيي
به ما مات في لحدود رممها، وفات بخمود هممها، واستقلّ بتلك الأعباء، واستمل منه
طرائف تلك الأعباء، فحصل ما كان طالباً، وحسّن ما جاء جالباً.

قرأ الطب على ابن النفيس وغيره، وقرأ الحكمة. وآخر ما قرأ كتاب «الشفاء»
لابن سينا على شيخنا الأصفهاني، كان يتردد إليه من القاهرة إلى الخانقاة القوصونية
بالقرافة التي لا يعنيه إلاّ القراءة عليه، ولم يزل حتى أكمله قراءة وبحثاً واستشراحاً.
وكان طبيباً حكيماً، فاضلاً متفلسفاً، قائلاً بالروحانيات، له ميل إلى النجامة،
ومخاطبات الكواكب، وتطلع إلى الكيمياء، يتحدث فيه ويصحح قول المتقدمين في
صحتها.

وحكى لي أنه كان يصحب ابن أمير يعرف بابن سنقر الرومي، وأنه كان يعملها
وصحت معه طرف منها، وكان يحكى هذا عن ابن سنقر الرومي عجائب وغرائب منها
أنه عمل له فسقية معقودة في تربة له بالقرافة لها منافس للهواء، فلما نجرت اتخذ له
غذاءً مركباً مما يخف مقداره وتكثر تغذيته، ونزل إلى تلك الفسقية، وأمره بتعهده في
كل أسبوع ويجدد له الماء، وأنه بقي يتعهده كذلك، وكلما أتاه بعد أسبوع وجده قد
تزايد ضعفه عما فارقه عليه حتى كان رابع أسبوع، قال: أو خامسه - الشك مني - أتيته

(١) توفي سنة ٧٤٣هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٣، وأعيان العصر ٤/ ٢٢٢، الدرر الكامنة ٣/ ٢٨٨، ومعجم
الأطباء ٣٥٧.

فوجدته قد غارت عيناه وخفت حسّه حتى ظننت / ١٥١ / أنه قد مات، فحملته أنا وآخر كان قد أطلعه على حاله معي، وأخرجناه ونقطنا في فمه نُقطاً من الشراب، وأذكيانا عنده الأرابيخ لنغذوه بها ثم لم نزل نتعهده إلى أن نقطنا مرقة فروج في فمه، فأفاق ولم يكلمنا. ودمنا على هذا حتى كلمنا، وقال لي: لا جزاك الله خيراً، حُلّت بيني وبين ما حاولته من الانتقال إلى ما كنت أريد الانتقال إليه إلى خير من هذا العالم. ثم قال: أدركني بفاسد، فقلت: والله لا أفعل، فقال: يا أخي لا تفعل أدركني به، ولا تدع ينزل من دمي إلا ما قلّ لترى العجب، فأتيته بفاسد فقصده، ولم أدعه ينزل من دمه إلا ما قل ثم شددت يده، فقال: أحفظ هذا الدم في زجاجة وسدّ رأسها لا يفسد بالهواء، ففعلت ثم قال: ائمني بقرعة وانيق، فأتيته به، فأداره ثم سكب ذلك الماء عليه، فاستحال فضةً بيضاء، فتركه عندي إلى أن عاد إلى معهود صحته، وقويت قواه، ثم خرجنا إلى جهة الخارقانية، وكان له بها تعلق. ثم أمرني أن أذهب إلى بلبيس لأبيع تلك الفضة، وآتية من عرضها بمأكل، فذهبت بها إلى صايغ هناك فأريته إياها وأنا خائف وجل لا يظهر له منها عيب، فيظن أنني أردت التحويل عليه، فأخذها واعتبرها فلما صحت معه سارع إلى مُشترائها مني، فأخذت من الثمن شواء وحلوى وفاكهة وغير ذلك، وفضل معي ثمانمائة وثلاثون درهماً أو كما قال، فأتيته بذلك فأكلنا ثم قال: خذ الدراهم ولا جزاك الله خيراً لكونك تسببت في عودي إلى تعب هذا العالم.

قلت: وكان هذا الطبيب عارفاً بالطب علماً لا عملاً، لا يحسن العلاج، ولا يطول روحه على العليل، كثير النزاقة، عديم التلطف، كارهاً لأطباء زمانه، لا يذكر أحداً منهم، ولا يذكر له إلا ذمه وأطلق لسانه في معاييه، وكان يقول: هؤلاء اليهود قد ارتفع رأسهم، وامتلاؤا فوق وسعهم على جهلهم، وقلة حاصلهم يعني السديد الدميّاطي، وفرج الله / ١٥٢ / بن صغير، ولا يزال يتوقد غيظاً منهما وحسداً لهما لرغبة السلطان والأمراء والكبراء فيهما أكثر منه، وما كان يحصل لهما من الخلع والإطلاقات، ويصل إليهما من دور السلطان والأمراء لإفراط ميل النساء إلى طبهما وملاطفتهما، ثم كان إذا ذمهما يقول لمن يثق به، وهذا إبراهيم بن المغربي هو مادة عز هؤلاء اليهود، وكثر غناهم، وبه طاروا وحلقوا، وهذه ألفاظه بعينها. وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة مؤقّنة من الظهر إلى الظهر، وكان يحب لبن الضأن، ويكثر أكله صحبناه مرة في بلاد الصعيد، وكان هو قد تقدم مع طقز دمر إلى توتج الجارية في إقطاعه، وأخبرني أنه لم يأتدم في تلك السفرة على طول أيامها بشيء غير اللبن إلا مرات يسيرة. وقال: هو غذاء صالح للجسم به ألفٌ من أول زمان الرضاع، وكان ينشفه

ويلقى فيه طاقات من النعنع والملح ويأكله. وكان واسع النعمة، كثير المال، ومات أخوه وورث منه مالا كثيراً، فازداد ماله ضعفاً على ضعفه. وكانت له متاجر إلى إخميم وقوص وأسوان وسائر بلاد الصعيد، وكان يرى في نفسه الغضاضة لتقدم ابن المغربي عليه في رئاسة الأطباء، ويتشكى هذا إلى أصحابه، وسأل السلطان في الإعفاء من قطعه الخدمة، فقال: لا ما نفعيك أنت عندنا عزيز كريم، ونعرف أنك أفضل من إبراهيم يعني ابن المغربي وأحق، ولكن إبراهيم صاحبنا وله علينا حق خدمة وطيب قلب. فاستمر ورأى أنه لم يبق له إلا مصافاة ابن المغربي، فخطب إليه أخته، فتزوج بها لقصد الاستصلاح له لا للزواج.

وكان رجلاً مسيكاً، مفرط البخل، مقتراً على نفسه، مضيقاً عليه مع عظيم القدرة والإمكان، وكان لا يأكل إلا من الظهر إلى الظهر كما ذكرناه أسوأ أكل، ويلبس أردأ ملبوس، ويركب حمير الكراء، ومع هذا كان من المعدلين يجلس مع الشهود الموقعين / ١٥٣ / تحشماً لا تكسباً، وله وجهة عند الأمراء والوزراء والكبراء والحكام، معظماً في الصدور يشار إليه بالأنامل، ولم يصنف مُصنفاً، ولا طلع له تلميذ، ولا عرف بغرابة في طبه، وعرف الدولة بماله قبل موته، وخلف أموالاً جمة ورثها السلطان عنه.

قلت: وقد كان رحمه الله لنا صديقاً صدوقاً، وصاحباً ملاطفاً، وكان يحدثني بدقيق أمره وجليله، ويطلعني على ما عنده من تقديم الرئيس جمال الدين إبراهيم بن المغربي عليه، وينسبه إلى أنه يتقصد قتله واغتياله بالسّم، والأمر خلاف ما ظنه، وضد ما توهمه، ولم يكن جمال الدين ممن يخافه لمكانة جمال الدين المكيّة عند السلطان، ولكرم خلائقه، وبعده من تقلد دم حرام لا سيما دم مثله. وقد كنت أقول له ليرجع عن سوء رأيه فيه وأوهامه، فلا يرجع ولا يفيد القول. ثم تزوج في آخر عمره بأخت جمال الدين على عدم حاجته بالنساء كما يقال، وأظهر الصفاء، وباطنه على كدره، واعتقد أنه لم يزل على هذا إلى انتهاء عمره.

قلت: وحكى لي أنه جلس يوماً على حانوت العطار الذي كان يجلس عنده، وطلب منه شراباً يشربه فناوله شراباً مسموماً، وقال: فلما شربته أحسست بالسّم وبدت فيّ علاماته، فأسرعت القيام إلى داري وأخذت خرزة بادزهر حيواني كانت عندي وسحلتها ثم أدفنت السحالة بماء ورد على مسنّ، ثم لعقتها فزال تلك الأعراض لوقتها، ولم يمض بياض ذلك النهار حتى أكلت طعامي. ولم يعين من دسّ ذلك عليه، وما أراد والله أعلم إلا جمال الدين ابن المغربي، وقد تقدم القول في بُعد جمال الدين

من ذلك.

قلت: وقد كان ابن البرهان دخل اليمن واتصل بصاحبها الملك المؤيد داود رحمه الله وخدمه مدة وحصل من جهته مالاً طائلاً كان منه أصل نعمته ورأس ماليته، ثم فارقه وعاد إلى مصر، وكانت كتبه لا تنقطع عنه وصلاته تصل إليه، وكان /١٥٤/ يعرض الكتب التي ترد عليه على السلطان، فيأمره بقضاء حوائجه، وكانت الكتب تتضمن طلب كتب طبية وعقاقير مصرية ومغربية مما يجلب السلطان عن طلب ذلك منه، ويجهز إلى ابن البرهان ذهباً لمشتراه، فكان يتولى ذلك ويقوم في هذه الخدمة بنفسه.

قلت: ولقد قرأت كتباً منها كلها بالخط المؤيدي، ومضمونه بعد البسلة: كتابنا هذا إلى عند بابنا المعمور، وولينا العبد الشكور، الحكيم الجليل، الفاضل المعتمد، الثقة صلاح الدين معتمد الملوك والسلطين أدام الله توفيقه ومراشده، وأسعد مقاصده، نأمره عنا بتسليم عادة أنعامه من حامله وهو مائتا دينار مصرية مع ما معها برسم مشتري الحوائج المطلوبة من الديار المصرية وهو ثلاثمائة دينار، وقد اشتملت التذكرة المجهزة طيها على ذكره، فيقف عليها وينجز المطلوب ويتخير، ولا يقطع مطالعته عن أبوابنا المعمورة إن شاء الله. هذه صورة الكتاب، ولفظه بنصه وعليه اسمه داود بن يوسف، وقد ذكرت ذلك ليعلم، فقد لا يخلو من فائدة. ومنهم:

[٥٠]

ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، شمس الدين، أبو عبد الله السنجاري المولد والأصل المصري الدار^(١) حكيمٌ تكلم في الجواهر والعرض، وعرض أسباب الصحة والمرض، وبرهن على

(١) محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، ويعرف بابن الأكفاني، أبو عبد الله: طبيب، باحث، عالم بالحكمة والرياضيات. ولد ونشأ في «سنجار» وسكن القاهرة، فزاول صناعة الطب، وتوفي فيها سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. له تصانيف، منها «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد - ط» و«الدر النظيم في أحوال العلوم والتعليم - خ» و«نخب الذخائر في أحوال الجواهر - ط» و«كشف الرين في أحوال العين - خ» و«وغنية الطبيب في غيبة الطبيب - خ» و«نهاية القصد في صناعة الفصد - خ» و«النظر والتحقيق في تقليب الرقيق - خ» و«روضة الألبا في أخبار الأطباء» اختصر به عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة؛ و«اللباب في الحساب».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٧٩، والبدر الطالع ٢/٧٩، والوافي بالوفيات ٢/٢٥، وأعيان العصر ٤/٢٢٥، معجم الأطباء ٣٥٤-٣٥٧، والفهرس التمهيدي ٥٣٣، والكتبخانة ٦/٣٠ و٤٨ ثم ٧/١٨٤، الأعلام ٥/٢٩٩.

الطب وموضوعاته، والعلاج وتبعاته، دقق في العلم حتى أوضح معالمه الوضعية، وبين الفرق في القوى الطبيعية، وجال نظراً في التشريح، وقال فيه بالصريح، وذكر ترتيب الشريان على المنازل، ومكان الصاعد والنازل بكلام جلاه، وكمال مكن علاه، ولهذا ساد في أهل عصره، وعاذ بالظفر من قام بنصره، وأهل مصر يظنون أنه لو لامس الماء لالتهب، أو لمس التراب / ١٥٥ / لأحاله إلى الذهب، يدعي أن له علماً يقلب الأعيان أسرع من إدراك العيان لعلوم لم يضرب دونها سترًا، وبيان أتقنه وإن من البيان لسحرا.

ذكره الفاضل أبو الصفاء الصفدي وقال^(١): فاضل، جمع أشتات العلوم وبرع في علوم الحكمة خصوصاً الرياضي فإنه إمام في الهيئة والهندسة والحساب له في ذلك تصانيف وأوضاع مفيدة.

وقال: قرأت عليه قطعة جيدة من كتاب أوقليدس، وكان يحل لي فيه ما أقرأه عليه بلا كلفة كأنما هو مُمثلٌ بين عينيه، فإذا ابتدأت في الشكل شرع هو فيسرد باقي الكلام سرداً، وأخذ الميل ووضع الشكل في حروفه في الرمل على التخت وعبر عنه بعبارة جزلة، فصيحة، بينة، واضحة كأنه ما يعرف شيئاً غير ذلك الشكل. وقرأت عليه مقدمة في وضع الأوقاف فشرحها لي أحسن شرح، وقرأت عليه أول الإشكالات، وكان يحل شرح النصير الطوسي بأجل عبارة وأحلى إشارة، وما سألته عن شيء في وقت من الأوقات مما يتعلق بالحكمة من المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي إلا وأجاب بأحسن جواب كأن ما كان البارحة يطالع تلك المسألة طول الليل.

وأما الطب فإنه إمام عصره، وغالب طبه بخواص ومفردات يأتي بها وما يعرفها أحد؛ لأنه يغير كفيتهما أو صورتها حتى لا يعلم، وله إصابات غريبة في علاجه.

وأما الأدب، فإنه فريد فيه يفهم نكته، ويدوق غوامضه، ويستحضر من الأخبار والوقائع والوفيات للناس قاطبة جملة كبيرة، ويحفظ من الشعر شيئاً كثيراً إلى الغاية من شعر العرب والمولدين والمحدثين والمتأخرين. وله في الأدب تصانيف، ويعرف العروض والبديع جيداً. وما رأيت مثل ذهنه توقد ذكاء بسرعة ما لها روية، وما رأيت فيمن رأيت أصح ذهنًا منه، ولا أذكر.

وأما عبارته الفصيحة الموجزة / ١٥٦ / الخالية من الفضول فما رأيت مثلاً. كان ابن سيد الناس يقول: ما رأيت من يعبر عما في ضميره بعبارة موجزة مثله. انتهى.

(١) الوافي بالوفيات ٢/ ٢٥.

قال أبو الصفاء^(١): لم أرَ أمتع منه، ولا أفكه من محاضراته، ولا أكثر اطلاعاً منه على أحوال الناس وتراجهم ووقائعهم ممن تقدمه، وممن عاصره. وأما أحوال الشرق ومتجددات التتار في بلادهم في أوقاتها، فكأنما كانت القصاد تجيء إليه والملطفات تُتلى عليه بحيث إنني كنت أسمع منه ما لم أطلع عليه من الديوان، وأما الرقى والعزائم، فيحفظ منها جُملاً كثيرة، وله اليد الطولى في الروحانيات والطلاسم، وما يدخل في هذا الباب.

قال: وقرأت عليه من تصانيفه «إرشاد القاصد إلى أسخى المقاصد» و«اللباب في الحساب» و«نخب الذخائر في معرفة الجواهر» و«غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ومما لم أقرأه من تصانيفه «كشف الرّين في أمراض العين».

قال: وأنشدني لنفسه: [من الكامل]

ولقد عجبْتُ لعاكسٍ للكيميا في طبِّه قد جاء بالشنعاء
يُلقي على العينِ النُّحاسَ يحلُّها في لمحّة كالفضّة البيضاء
وله تجمل في بيته وملبسه ومركوبه من الخيل المُسوَّمة والبزّة الفاخرة، ثم إنه اقتصر وترك الخيل وآلى على نفسه أن لا يطب أحداً إلاً ببيته أو في المارستان أو في الطريق، وهو غاية في معرفة الأصناف من الجواهر والقماش والآلات وأنواع العقاقير والحيوانات، وما يحتاج إليه البيمارستان ولا يشتري بالبيمارستان المنصوري شيء ولا يدخل إليه إلاً بعد عرضه عليه، فإن أجازته اشتراه الناظر، وإن لم يجزه لم يشتري البتة، وهذا اطلاعٌ كثير وخبرة تامة؛ لأن البيمارستان يريد كل ما في الوجود مما يدخل في الطب والكحل والجراح وغير ذلك.

وأما معرفة الرقيق من المماليك / ١٥٧ / والجواري فإليه المآل في ذلك، ورأيت المولعين بالصنعة يحضرون إليه، ويذكرون له ما وقع لهم من خلل في أثناء أعمالهم، فيرشدهم إلى الصواب، ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد، ولم أر شيئاً يعوز من كمال الأدوات غير أن عربيته ضعيفة، وخطه أضعف من مرضى مارستانه، ومع ذلك فله كلام حسنٌ ومعرفة بأصول الخط المنسوب، والكلام على ذلك. انتهى ما ذكره أبو الصفاء.

قلت: هذا رجل اجتمع بي وتردد إليّ غير مرة، وجاريت الحديث كرةً على كرة، وهو كما ذكره من الحديث الممتع والكلام المطمع، وقرأت عليه. ولقد كنت ألتقط من أثناء كلامه ثمرات الحكم، وأستدل له بمجاراته على سعة اطلاع ووفور مدد، ورأيت له في هذا ما لم أره لأحد، وكان يستجمل الأطباء، ويستبعد طرق معالجاتهم، ويستبشع كربه وصفاتهم، ويقول: أنا أعالج المرضى بما لا يستكره كهذه الأدوية الكريهة التي

يصفها الأطباء، وأعطى القدر اليسير مما يستطاب، فيقوم مقام الكثير مما يعطونه مما لا يستطاب ويكون ما أعطيه من نوع الغذاء، وهو يقوم مقام الدواء.

وحكى لنا القاضي ضياء الدين يوسف بن الخطيب أنه احتاج إلى استفراغ فعرض ما به على الأطباء واستوصفهم، فقالوا: هذا يحتاج إلى خمسة أيام تتقدم قبل استعمال دواء، وشرعوا في وصف دواء يشتمل على عقاقير كثيرة كريهة، فلم أجد لي قابلية على ما قالوه، فقلت: لابن الأكفاني، فقال يحصل الفصد، ثم أتاني ببرنية فيها شراب حماض، وقال: كلما أردت قيام مجلس إلحق من هذا الشراب لعقة، قال: فعلقت منه تسع لعقات، فقامت تسعة مجالس، وزال ما كنت أشكوه ثم كنت في حين ألحق من ذلك الشراب، وكلما لعقت لعقة قمت مجلساً لا يخالف / ١٥٨ / عدد القيام عدد اللعقات، ولم يخرم معي هذا.

وحكى لي الصدر مجد الدين السلامي نحو ذلك، ومع هذا كله وما لا يجحد فضله لا يقول أطباء مصر إلا أنه طريقي لا طبيب، وأي حسن ماله من يعيب. [من الكامل]

كَضَرَّائِرِ الْحَسَنَاءِ قُلْنَ لَوَجْهِهَا حَسْداً وَبُغْضاً إِنَّهُ لَدَمِيمٌ

* * *

[أوائل الأطباء]

فأما أول من استخرج الطب:
فرجلان، لم يُعد بعد معهما كارع في لجام، ولا بعدهما إلّا خالع الألجام، جليّاً
كل مبهم، وتجليّاً كغرة الأدهم.
فالأول:

[١]

اسقلينيوس^(١) بن زيوس^(٢)

متطبب لا يقرب بأهل الجدل إلا إذا هزل، ولا يقرب من مطمح النجم إلا إذا نزل،
يجله من تعقله، ويجهله من ظن أنه مع البحار الزاخرة قد تملكه، عزت إليه الحكماء
طبها، وأعزت خطبها لما أخذ عنه من علم جليل كما أعاذ من مندم، وصان من دم،
وبصّر أعمى، وآثر نعمى، وأخمد من نار سوء المزاج العاث ما تضرّم حتى لم يبق جسم
نحيل يتوجع، ولا أم عليل تتفجع، طبّ طبّ غير عاجز، وعلاج ولّاج على العلل لا يرده
حاجز، ترفو به الأعلاء ملابس صحتها، وترفل بطبه الأصحاء في مجرور ذيل فُسحتها.

وقد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطبيين على أنه أول من ذكر من الأطباء،
وأول من تكلم في الطب عن طريق التجربة. وكان يونانياً، ولليونان جزيرة كانت
للحكماء من الروم ينزلونها فنسبوا إليها. وقال أبو معشر: بلدة من المغرب كانت تسمى
أرغس، وكان أهلها يسمى أرغيزا، ثم سميت أنينا وسمي أهلها اليونان، وكان ملكها
أحد ملوك الطوائف. وأول من اجتمع له ملك أنونيا من اليونانيين أنوليوس، وكان لقبه
دقاطر، ووضع لهم سنناً كثيرة مستعملة عندهم.

وقال/ ١٥٩ / أبو سليمان السجستاني: هو إمام الطب، وأبو أكثر الفلاسفة. قال:

(١) هكذا ورد اسمه في الأصل، وفي طبقات الحكماء وغيره «اسقلابيوس» و«اسقليبيوس».

(٢) ترجمته في: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٨، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٩-٣٠، مختصر
تاريخ الدول ١٢-١٣، دائرة المعارف الإسلامية/ مادة (اسقلابيوس)، طبقات الأطباء ١١-١٣.

وينسب إليه إقليدس، وأفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وأكثر اليونانية. قال: وكان أبقراط هو السادس عشر من أولاده، يعني البطن السادس عشر، قال: وسولن أخوه هو أبو واضع النواميس.

ويقال: إن اسقلينوس انكشف له أمورٌ عجيبة من أحوال العلاج بإلهام إلهي. ويحكى أنه وجد علم الطب في هيكل كان لهم برومية كان يعرف بهيكل أبلق ثم عرف به، وكان بيتاً يحجون إليه، وحج إليه جالينوس إذ عوفي من دويلة قتالة عرضت له، وقد حكى صاحب تاريخ الأطباء: أنه كانت فيه صورة تكلمهم عندما يسألونه. وقال جالينوس: إن طب اسقلينوس كان طباً إلهياً، وقال: إن قياس الطب الإلهي إلى طبنا قياس طبنا إلى طب الطرقات،

وقال أبقراط: إن اسقلينوس رفع في عمود من نور، وقيل: إنه كان يستسقى بقبوره، وكان يسرج عليه كل يوم وليلة ألف قنديل، وكان الملوك من نسله، تدعى له النبوة. وكان من أولاده عالمين بالطب.

وقال أبو الوفاء بن فاتك: إنَّ اسقلينوس كان تلميذ هرمس، ويزعم أن هرمس هو إدريس عليه السلام، وقيل: بل كان اسقلينوس تلميذ أغاثا ديمون المصري ومعنى اسمه السعيد الجد، ويزعم أنه أحد أنبياء اليونانيين.

ويقال: إن اسقلينوس هو البادي بصناعة الطب في اليونان، وعلمها بنيه وحظر عليهم أن يعلموها الغرباء. وقد خالف أبو معشر أهل هذا القول وقال: إنه لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب ولا البدي بها بل أنه من غيره أخذ ولمنهج من قبله سلك، وكان يعلم الطب مشافهة، فلما تضعض الأمر على أبقراط، وقلَّ أهل بيته لم يأمن أن تنقض / ١٦٠ / الصناعة، فابتدأ في تأليف الكتب على جهة الإيجاز.

ومن كلامه: من عرف الأيام لم يهمل الاستعداد.

وقوله: كم من أمر أبغضت أوله له، وتبكي عند أواخره عليه.

وقوله: المتعبد بغير معرفة كحمار الطاحون يدور ولا يبرح.

وقوله: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها.

وقوله: إني لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضرر، ولا يدع الذنوب مخافة الآخرة.

وقوله: أكثروا من الصمت؛ فإنه سلامة من المقت، واستعملوا الصدق فإنه زين النطق.

وقيل له: صف الدنيا، فقال: أمس أجل، واليوم عمل، وغداً أمل.
وأما الثاني فهو:

[٢]

أيلق ويقال أيلة^(١)

وهو تلو صاحبه، وصنو صوائبه، ومدرک وفاته، ومستدرک فواته، كم متعا
جسوماً، وقطعا الأدوية حسوماً، ولأيلق في المجامع بشرى تأتلق، وذكر بالمسامع
يعتلق، ولم يقصر به دون رجاء يأس، ولا ضاق به مدى فتر في قياس.
قال ابن جلعج^(٢): إنه أول حكيم تكلم في الطب ببلد الروم والفرس، واستنبط
كتاب الإغريقي لهيامس الملك، وتكلم في الطب وقاسه، وعمل به، وكان بعد موسى
عليه السلام في زمان بذاق الحاكم، وله آثار عظيمة شنيعة، وهو بعد في كثرة العجائب
مثل اسقلنينوس^(٣).

* * *

ومن هنا نذكر ما وقع عليه قسم كل قسم:

* * *

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٣٨، وطبقات الأطباء والحكماء ١٥ وفيه «أبله» ويقال أيضاً «أبله» وبهامش محققه أنه «أبكن» ويكتب أيضاً «أبلن» و«أبولو»، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ٧٢ وفيه: «أبلن الرومي».

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ١٥.

(٣) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٨.

[حكماء الجانب الشرقي]

فأما أهل الجانب الشرقي، فمنهم: حكماء العرب، والسريان، والعراق، وما معه، والعجم، والهند، والشام، ونبدأ بحكماء العرب.

[حكماء العرب]

أطباء العرب ممن كانوا في أول ظهور الإسلام وما بعدهم، فمنهم:

[٣]

الحارث بن كَلْدَة الثقفي^(١)

طبيب العرب، وكانت له معرفة بما يحتاج إليه من مداواتها، وخبرة في طب أمراضها وأدوائها، أئنع من نبعة/ ١٦١ / البادية غصنه الفينان، وجمع إلى فصاحة

(١) الحارث بن كَلْدَة الثقفي: طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين. من أهل الطائف. رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها. وتعلم الضرب على العود بفارس واليمن، مولده قبل الإسلام، وبقي أيام رسول الله ﷺ وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية. واختلفوا في إسلامه. وكان النبي ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فينطب عنه. له كلام في الحكمة، وكتاب «محاورة في الطب» بينه وبين كسرى أنوشروان. توفي نحو سنة ٥٠هـ/ نحو ٦٧٠م. ترجمته في: سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٢ و ٢/ ١٢٢ و ٣٠٦ و ٣٤٨ و ٣/ ٣١١ و ٤/ ١٣٢، والأخبار الطوال ٢١٩، ومروج الذهب (طبعة الجامعة اللبنانية) ١٥١٨ و ١٧٧٨ و ١٧٨١ و ٢٠٥٢ و ٢٠٥٣، والمعارف ٢٨٨، وفتوح البلدان ٣٤٣، وطبقات صاعد ٩٩، ومعجم الشعراء للمرزباني ١٧٢، وطبقات الأطباء لابن جلجل ٥٤، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١/ ١٦١-١٦٧، والمؤتلف والمختلف ١٧٢ وله فيه شعر، وأخبار الحكماء للقفطي ١١١، والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٧، والعقد الفريد ٤/ ٢٦٣ و ٥/ ٤ و ٦/ ١٨٤ و ٢٧٦ و ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٧٣، وتاريخ الطبري ٣/ ٤١٩، والمغازي للواقدي ٩٣١ و ٩٣٢ و ١١١٦، والاستيعاب (في ترجمة ابنه) ٢٨٩، والجرح والتعديل ٣/ ٨٧ رقم ٤٠١، وأنساب الأشراف ١/ ١٥٧ و ٣٦٧ و ٤٨٩ و ٤٩٠، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٨، وعيون الأخبار ٢/ ٦٥ و ٣/ ٢١٨ و ٢٧٢ و ٤/ ١٣٢، وأسد الغابة ١/ ٣٤٥، والمعارف ٩١ و ٢٥٦ و ٢٨٨، ووفيات الأعيان ٢/ ٢٩ و ٣٠ و ٦/ ٣٤٧ و ٣٥٦ و ٣٦٤-٣٦٢، والكمال في التاريخ ٢/ ٤١٩ و ٣/ ٤٤٣، وربييع الأبرار ٤/ ١٠٢ و ٢١١، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٤٥-٢٤٧، ومعجم البلدان ٢/ ٢٨٩، والإصابة ١/ ٢٨٨ رقم ١٤٧٥، الإعلام ٢/ ١٥٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٤١-٦٠هـ) ص ١٩٢.

العرب حكمة اليونان، ولخصت به العبارة التي لا تفهم، وخلصت خلاص ابن المهلب من الأدهم، وأخذ يعالج سكان البادية بما لا يبعد من أمزجتها، ولا يعد منه خروج عن محبتها مما تعهده في ديارها، وتتعهده به ملابس غيارها، وعُمر مدة في صدر الإسلام ووسط عدة تحفظ له من حُرّ الكلام، وهو الذي تعدّه أمة العرب سابق أطبائها وسابق أبنائها. وكفاه شكراً أن رسول الله ﷺ أجرى له ذكراً.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان من الطائف، وسافر البلاد، وتعلم الطب بناحية فارس، وتمرّن هناك، وعرف الداء والدواء. وكان يضرب بالعود، تعلمه بفارس واليمن. وبقي أيام رسول الله ﷺ وأدرك سلطان معاوية. وقال له معاوية: ما الطب؟ فقال: الأزم، يعني الجوع. وفي الحديث أن عمر سأله، ما الدواء؟ فقال: الأزم. يعني الحمية. وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله ﷺ، وقال: ادعوا له الحارث بن كلدة؛ فإنه رجل يطب. فلما نظر إليه الحارث، قال: ليس عليه بأس اتخذوا له فريقة بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان، فتحسّاها فبرىء.

وفد على كسرى أنوشروان، فلما وقف بين يديه قال له: من أنت؟ قال الحارث بن كلدة الثقفي. قال: ما صناعتك؟ قال: الطب. قال: أعرابي أنت؟ قال: نعم، قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟ قال: أيها الملك، إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها. فإن العاقل يعرف موضع دائه. ويحترز من الأدوية. قال كسرى: فكيف تعرف ما تورده عليها، ولو عرفت الحكم لم تنسب إلى الجهل، قال الحارث: الطفل يناغى فيداوى، والحية ترقى فتحاوى. ثم قال: أيها الملك، العقل من قسم الله تعالى قسّمه / ١٦٢ / ومعدم بين عباده، كقسمة الرزق بينهم. ومنهم مثر ومعدم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، ذلك تقدير العزيز العليم. فأعجب كسرى من كلامه، ثم قال: فما الذي تحمد من أخلاقها؟ ويعجبك من مذاهبها وسخائها؟ قال الحارث: أيها الملك، لها أنفُس سخية، وقلوب جرية، ولغة فصيحة، وألسن بليغة، وأنساب صحيحة، وأحساب شريفة، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام، أعذب من هواء الربيع، وألين من السلسيل المعين، مطعمو الطعام في الجذب، وضاربو الهام في الحرب. لا يرام عزهم، ولا يُضام جارهم، ولا تُستباح حريمهم، ولا يذل كريمهم، ولا يقرون بفضل للأنام، إلا للملك الهمام الذي لا يقاس به أحد، ولا يوازيه سوقة ولا ملك.

قال: فاستوى كسرى جالساً، وجرى ماء رياضة الحكم في وجهه، وقال لجلسائه: إني وجدته راجحاً، ولقومه مادحاً، وبفضلهم ناطقاً، وفي لفظه صادقاً. كذلك العاقل الذي أحكمته التجارب. ثم أمره بالجلوس، فجلس، ثم قال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك، قال: فما أصل الطب؟ قال: الأزم. قال: فما الأزم؟ قال: ضبط الشفتين، والرفق باليدين قال: أصبت قال: فما الداء الدوي؟ قال: إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في جوف البرية. قال: أصبت، قال: فما العلة التي لا تصطلم منها الأدوية؟ قال: هي التخمّة، إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت. قال: فما تقول في الحجمة؟ قال: في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة والعروق ساكنة، لسرور يفاجؤك، وهم يباعدك. قال: فما تقول في دخول الحمام؟ قال: لا تدخله شبعاً؛ ولا تغش أهلك سكراناً؛ ولا تقم بالليل عرياناً؛ ولا تقعد على الطعام غضباناً؛ وارفق بنفسك، يكن أرخى لبالك؛ وقلل من طعامك، يكن أهناً لنومك. قال: فما تقول / ١٦٣ / في الدواء؟ قال: ما لزمك الصحة فاجتنبه؛ فإن هاج داء، فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهناً، وأرقه أمراً، وأعذبه أشهاً. لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً، ويثير عليك من الأدوية أنواعاً. قال: فأَي اللحم أنفضل؟ قال: الجداء الرضع الفتى. والقديد المالح مهلك للأكل. واجتنب الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفواكه؟ قال: كلها في إقبالها وحين أوانها، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها. وأفضل الفاكهة: الرمان والأترج؛ وأفضل الرياحين: الورد والبنفسج، وأفضل البقول: الهندباء والخس. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر. أفضله أمراً، وأرقه أصفاً. ومن عظام انهار البارد الزلال لا يختلط بماء الآجام والآكام يدل على صراذع المشيطان، ويتسلل عن الرضراض وعظام الحصى في الأبقاع. قال: فما طعمه؟ قال: لا يوصف له طعم إلا أنه مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟ قال: اشتبه على الأبصار لونه؛ لأنه يجلو كل لون يكون فيه. قال: أخبرني عن أصل الإنسان ما هو؟ قال: أصله من حيث شرب الماء، يعني رأسه. قال: فما هذا النور في العينين؟ قال: مركب من ثلاثة أشياء: فالبياض شحم، والسواد ماء، والنظر ريح. قال: فعلى كم جُبل وطُبع هذا البدن؟ قال: على أربع طبائع: المرة السوداء، وهي باردة يابسة؛ والمرة الصفراء، وهي حارة يابسة، والدم، وهو حار رطب؛ والبلغم، وهو بارد رطب. قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال: لو خلق من

طبع واحد، لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك. قال: فمن طبيعتين، لو كان اقتصر عليهما؟ قال: لم يجز؛ لأنهما ضدان يقتتلان. قال: فمن ثلاث؟ قال: لم / ١٦٤ / يصلح، موافقان ومخالف. فالأربع هو الاعتدال والقيام. قال: فأجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعة؟ قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد. قال: فأفضل ما عولج به المرة الصفراء؟ قال: كل بارد لين؛ قال: فالمرة السوداء؟ قال: كل حار لين؛ قال: والبلغم؟ قال: كل حار يابس، قال: والدم؟ قال: إخراجُه إذا زاد، وتطفئه إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة؟ قال: فالرياح؟ قال: بالحقن اللينة، والأدهان الحارة اللينة. قال: أفتأمر بالحقنة؟ قال: نعم، قرأت في بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقي الجوف، وتكسح الأدواء عنه، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد. وإن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته، ويؤثر شهوته على نهك بدنه. قال: فما الحماية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها، ويسد مسامها. قال: فما تقول في النساء وإتيانهن؟ قال: كثرة غشيانهن رديء، وإياك وإتيان المرأة المسنة، فإنها كالشن البالي، تجذب قوتك، وتسقم بدنك. ماؤها سم قاتل، ونفْسُها موت عاجل. تأخذ منك الكل، ولا تعطيك البعض. والشابة ماؤها عذب زلال، وعناقها غنج ودلال، فوها بارد، ريحها طيب، وهنها ضيق. تزيدك قوة إلى قوتك، ونشاطاً إلى نشاطك. قال: فأيهن القلب إليها أميل، والعين برؤيتها أسر؟ قال: إذا أصبتها المديدة القامة العظيمة الهامة؛ واسعة الجبين، اقناة العينين؛ كحلاء نعساء؛ صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النحر، في خدها رقة، وفي شفيتها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الشدين، لطيفة الخضر والقدمين، بيضاء فرعاء جعدة، غضة بضة. تخالها في الظلمة بدراناً زاهراً، تبسم عن أقحوان، وعن مبسم كالأرجوان، كأنها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأذكى ريحاً / ١٦٥ / من الياسمين والورد. تفرح بقربها، وتسرك الخلوة معها. قال: فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه. قال: ففي أي الأوقات إتيانهن أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى، والنفس أهداً، والقلب أشهى، والرحم أدفا. فإن أردت الاستمتاع بها نهائراً تسرح عينك في جمال وجهها، ويجتني فوك من ثمرات حسننها، ويعي سمعك من حلاوة لفظها، وتسكن الجوارح كلها إليها. قال كسرى: لله درك من أعرابي. لقد أعطيت علماً، وخصصت فطنة وفهماً. وأحسن صلته، وأمر بتدوين ما نطق به.

وقال الواثق بالله في كتابه المسمى «البستان»: إن الحارث بن كعدة مر بقوم وهم

في الشمس، فقال: عليكم بالظل؛ فإن الشمس تنهج الثوب، وتنقل الريح، وتشحب اللون، وتهيج الداء الدفين.

ومن كلام الحارث: البطنة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعودوا كل جسد بما اعتاد. - وقيل هو من كلام عبد الملك بن أبجر. وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله ﷺ وأوله «المعدة بيت الداء» وهو أبلغ من لفظ البطنة..

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام: قال: «من أراد البقاء ولا بقاء، فليجود الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظماء، وليقل من شرب الماء؛ ويتمدد بعد الغذاء ويتمشى بعد العشاء. ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء. ودخول الحمام على البطنة من شر الداء، ودخلة إلى الحمام في الصيف خير من عشر في الشتاء. وأكل القديد اليابس في الليل معين على الفناء. ومجامعة العجوز تهدم أعمار الأحياء.

وروي حرب بن محمد قال: ثنا أبي، قال: قال لي الحارث بن كلدة: أربعة أشياء تهدم البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمام على امتلاء، وأكل القديد، ومجامعة العجوز.

وروي داود بن رشيد عن عمرو بن معروف قال: لما احتضر الحارث بن كلدة اجتمع إليه الناس فقالوا: مرنا / ١٦٦ / بأمر ننتهي إليه من بعدك. فقال: لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضجها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء. وعليكم بالنورة في كل شهر، فإنها مذيبة للبلغم، مهلكة للمرة، منبئة للحم. وإذا تغذى أحدكم، فليمن على إثر غذائه، وإذا تعشى، فليخط أربعين خطوة.

ومن كلام الحارث أيضاً، قال: دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً، ولا تشربه إلا من ضرورة؛ فإنها لا تصلح شيئاً إلا أفسد مثله.

وقال سليمان بن جلجل: أخبرنا الحسن بن الحسين الأزدي قال: أخبرنا محمد بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: كان أخوان من ثقيف من بني كنة يتحابان، لم يرقط أحسن ألفه منهما. فخرج الأكبر إلى سفر فأوصى الأصغر بامرأته؛ ف وقعت عينه عليها يوماً ولم يتعمد رؤيتها، فهويها وضني. وقدم أخوه فجاء بالأطباء، فلم يعرفوا ما به، إلى أن جاءه بالحارث بن كلدة، فقال: أرى عينين تحتجبين، وما أدري ما هذا الوجع، وسأجرب، فاسقوه نبيذاً فلما عمل النبيذ فيه قال: [من الهزج]

أَلَا رِفْقاً أَلَا رِفْقاً قَلِيلاً مَا أَكُونَنَّ
أَلِمَّا بِي إِلَى الْأَبِيَا تَبَالْخِيفِ أَرْزُهُنَّ
غَزَالاً مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ مَ فِي دُورِ بَنِي كَنَّةِ

أَسِيلُ الْخَدِّ مَرْبُوبٌ وَفِي مَنَاطِقِهِ غُنَّةٌ
فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ أَطَبُّ الْعَرَبِ. ثُمَّ قَالَ: رُدُّوا النَّبِيذَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا عَمِلَ فِيهِ قَالَ: [مَنْ

مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ]

أَيُّهَا الْجَيْرَةُ سَلِّمُوا وَقِفُوا كَيْ تَكَلَّمُوا
وَتُقَضُّوا لُبَانَةً وَتُحَبُّوا وَتَنْعَمُوا
خَرَجْتُ مُزْنَةً مِنَ الْبَحْرِ رِيًّا تُجْمَعُ
فِيهِمَا كُنْتِي وَتَزُرُ عَمُّ أُنِّي لَهَا حَمُّمٌ

/١٦٧/ قال: فطلقها أخوه، ثم قال له: تزوج بها يا أخي، فقال له: لا والله لا

تزوجتها، فمات وما تزوجها^(١).

ومنهم:

[٤]

النضر بن الحارث بن كلدة^(٢)

وهو ابن خالة النبي ﷺ.

طبيب أثرت به تلك البلاد المقفرة، وأثر بطبه في أمزجة تلك الحمر المستنفرة.

تبع طريق أبيه، وأضاف إلى تالد والده طريف تأثيه، ودرب العلاج حتى كاد يبريء

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ١٦٦-١٦٧.

(٢) النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَلْقَمَةَ بْنِ كُلْدَةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، مِنْ قُرَيْشٍ: صَاحِبُ لُؤَاءِ الْمَشْرُكِينَ بِبَدْرٍ. كَانَ مِنْ شُجْعَانِ قُرَيْشٍ وَوُجُوهُهَا؛ وَمِنْ شَيَاطِينِهَا (كَمَا يَقُولُ ابْنُ إِسْحَاقَ). لَهُ إِطْلَاعٌ عَلَى كُتُبِ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ، قَرَأَ تَارِيخَهُمْ فِي «الْحَيْرَةِ». وَقِيلَ: هُوَ أَوَّلُ مَنْ غَنَى عَلَى الْعُودِ بِالْحَانَ الْفَرَسِ. وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ اسْتَمَرَّ عَلَى عَقِيدَةِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَذَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَثِيرًا. وَكَانَ إِذَا جَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ مُجْلِسًا لِلتَّذْكِيرِ بِاللَّهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مِثْلِ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ، جَلَسَ النَّضْرُ بَعْدَهُ فَحَدَّثَ قُرَيْشًا بِأَخْبَارِ مَلُوكِ فَارَسَ وَرَسْتَمَ وَإِسْفَنْدِيَارَ، وَيَقُولُ: أَنَا أَحْسَنُ مِنْهُ حَدِيثًا! إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ مُحَمَّدٌ بِأَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ!. وَشَهِدَ وَقْعَةَ «بَدْرٍ» مَعَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، فَأَسْرَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقَتْلُوهُ بِالْأَثِيلِ (قَرَبِ الْمَدِينَةِ) بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنَ الْوَأَقْعَةِ، سَنَةَ ٢هـ/ ٦٢٤م وَهُوَ أَبُو «قَتِيلَةَ» صَاحِبَةِ الْأَبْيَاتِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي مِنْهَا:

«مَا كَانَ ضَرْكُ لَوْ مَنَنْتَ، وَرَبِمَا مَنَّ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْظُ الْمَحْنَقُ»

رَثْتَهُ بِهَا قَبْلَ إِسْلَامِهَا. وَفِي «الْإِصَابَةِ» وَ«الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ» مَا مَوْدَاهُ: عَرَضَتْ قَتِيلَةُ (وَسَمَاهَا الْجَاحِظُ: لَيْلَى) لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَاسْتَوْقَفَتْهُ، وَجَذَبَتْ رِدَاءَهُ حَتَّى انْكَشَفَ مِنْكَبِهِ، وَأَنْشَدَتْهُ أَبْيَاتَهَا هَذِهِ، فَرَقَّ لَهَا حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ: لَوْ بَلَغَنِي شَعْرُهَا قَبْلَ أَنْ أَقْتُلَهُ لَوَهَبْتَهُ لَهَا.

الأكمه، وكان يعرف بضياء الحسن، ودرس الحكمة، ولم ينفعه من جهة الأمومة الشريفة النبوية قربها، ولم يمنعه وقد قضى عليه بالبعد ربّه. قتل بسيف النبوة صبراً، وعجل له مثنى في جهنم يسمى قبراً.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان النضر قد سافر البلاد أيضاً كأبيه. واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها، وعاشر الأبحار والكهنة. واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، وأطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه، أيضاً، ما كان يعلمه من الطب وغيره. وكان النضر يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي ﷺ، لكونه كان ثقيفاً، كما قال رسول الله ﷺ: قريش والأنصار حليفان، وبنو أمية وثقيف حليفان.

فكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي ﷺ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة، كما يحط من قدره عند أهل مكة، ويطل ما أتى به. ولم يعلم، لشقاوته، أن النبوة أعظم؛ والسعادة أقدر؛ والعناية الإلهية أجل؛ والأمور المقدرة أثبت. وإنما النضر اعتقد أن بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة، وأين الثريا من الثرى والحضيض من الأوج، والشقي من السعيد؟ وما أحسن ما وجدت حكاية ذكرها أفلاطون في كتاب النواميس في أن النبي وما يأتي به لا يصل إليه الحكيم بحكمته، ولا العالم بعلمه. قال أفلاطون: وقد كان مارينوس، ملك اليونانيين الذي يذكر أوميرس الشاعر بأسه وجبروته، وما تهياً ليونانيين في سلطانه، رمي بشدائد في زمانه، وخوارج في سلطانه، ففرغ إلى فلاسفة عصره. فتأملوا مصادر أموره ومواردها، وقالوا له: قد تأملنا أمرك، فلم نجد فيه من جهتك شيئاً يدعو إلى ما لحقك، وإنما يتعلم الفيلسوف الإفراطات وسوء النظام الواقعين في الجزء. فأما ما خرج عنه، فليس تبحث عنه الفلسفة، وإنما يوقف عليه من جهة النبوة. وأشاروا عليه أن يطلب نبي عصره ليجتمع له مع علمهم ما ينبيء به، وقالوا: «إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في الأقاصي المقفرة بين فقراء ذلك العصر» فسألهم ما يجب

وفي المؤرخين من يقول إنها أخت النضر. وفي الرواة من يرى أن الشعر مصنوع وأن النضر لم يقتل «صبراً» وإنما أصابته جراحة، فامتنع عن الطعام والشراب ما دام في أيدي المسلمين. ترجمته في: عيون الأنباء ١٦٧-١٧١، الكامل لابن الأثير ٢/٢٦، وزهر الآداب، الطبعة الثالثة ١/٣٣، ٣٤، ومعجم البلدان ١/١١٢، ومطالع البدر ١/٢٣٢، وجمهرة الأنساب ١١٧ ونسب قريش ٢٥٥، والبيان والتبيين، تحقيق هارون ٤/٤٣-٤٤، ونهاية الأرب للنويري ١٦/٢١٩-٢٢٠، ٢٧١، والمحبر ١٦٠-١٦١، والجمعي ٢١٣-٢١٤، وانظر ترجمة «قتيلة» في الإصابة: كتاب النساء، رقم ٨٨٩، والأعلام ٨/٣٣.

(١) عيون الأنباء ١٦٧.

أن يكون عليه رسله إليه، وما يكون دليلاً عليه؟» فقالوا: اجعل رسلك إليه من لانت سجيته، وظهرت قناعته، وصدقت لهجته، وكان رجوعه إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن بين من استولى عليه هذا الوصف وبينه صلة تدلهم عليه [عند مسقط رأسه ومنشأه، وسيرته في هذه المواضع، فإنك تجده زاهداً في النعيم، راغباً في الصدق، مؤثراً للخلوة، بعيداً من الحيلة، غير حظي من الملوك. ينسبوه إلى تجاوز حده والخروج عما جري عليه أهل طبقته. تتأمل فيه الخوف، وتخال فيه الغفلة. إذا تكلم في الأمر توهمت أنه عالم بأصوله، وليس يعرف ما يترقى إليه به^(١)].

أقول: ولما كان يوم بدر والتقى المسلمون ومشركو قريش، وكانت عدتهم ما بين التسعمائة والألف، والمسلمون يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر. وأيد الله الإسلام ونصر نبيه ﷺ، ووقعت الكسرة على المشركين. وقتل في جملتهم صناديد قريش، وأسر جماعة من المشركين. فبعضهم استفكوا أنفسهم، وبعضهم أمر النبي ﷺ بقتلهم. وكان في جملة المأسورين النضر بن الحارث بن كلفة، فقتله عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر. ومنهم:

[٥]

عبد الملك بن أبجر^(٢)

وهو من أفاضل الأطباء، وأماثل الألباء، وأهل العلم النافع، والتميز بين المضار والمنافع، لقي حكماء المدن المُمَصِّرة، واستضاء بتلك الفطن المبصِّرة، وأقام بين أهل الكتاب الأول، ثم خالط النصارى، وخالل منهم أنصاراً، وقدم بينهم في شرائف الرتب، ووظائف الحكمة التي عنها يكتب، /١٦٩/ ولازم الطلب حتى مهر، وداوم الاكتنان ببيت التدريس حتى ظهر.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣) وقد ذكره: كان طبيباً عالماً ماهراً. وكان أول أمره مقيماً بالإسكندرية؛ لأنه كان المتولي في التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى. ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز،

(١) سقط في نسختنا وأتمناه من نسخة أحمد الثالث.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧١، طبقات الأطباء ٥٩، طبقات الأمم ٦٣.

(٣) عيون الأنباء ١٧١.

وكان حينئذ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران، وتفرق في البلاد، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه في صناعة الطب. وروى عن ابن أبجر قال: دع الدواء ما احتمل بدنك الداء. وهذا من قول النبي ﷺ «سر بدائك ما حملك».

ومنهم:

[٦]

ابن أثال^(١)

كتابي ضيع أمانته، وباع بدنياه ديانته، كان لا يهاب اغتيال النفوس، واختال مَهج الرؤوس، طريقةً خالف فيها شروط الأطباء، وخال أن يخفيها عن أذان الأبناء حتى قيلت فيه مُلح الأشعار، ووسمت صيته بشنيع العار، وبقيت عليه قبائحها وذهب المعار.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتقدمين في دمشق، نصراني الدين. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الانقياد له والاعتقاد فيه، والمحاذة معه ليلاً ونهاراً. وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وما منها سموم قاتل. وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً.

ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء بالسم. ومن ذلك ما حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي: أن معاوية لما أراد أن يظهر العقد ليزيد قال لأهل الشام: «إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه، ورق جلده، ودق عظمه، واقترب / ١٧٠ / أجله، ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون؟» فقالوا: عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فسكت وأضررها. ودس ابن أثال النصراني الطبيب إليه، فسقاه سمّاً، فمات. وبلغ ابن أخيه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد خبره وهو بمكة، وكان أسوأ الناس رأياً في عمه لأن أباه المهاجر كان مع علي عليه السلام بصفين، وكان عبد الرحمن بن خالد مع معاوية. وكان خالد بن المهاجر على رأي أبيه، هاشمي المذهب. فلما قتل عمه عبد الرحمن مر به عروة بن الزبير، فقال: يا خالد! أتدع ابن أثال نقى أوصال عمك بالشام، وأنت بمكة مسبل إزارك تجره وتخطر فيه

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٧١-١٧٥. (٢) عيون الأنباء ١٧١.

متخايلاً؟ فحمي خالد ودعا مولى له يقال له نافع، فأعلمه الخبر، وقال له: «لا بد من قتل ابن أثال». وكان نافع جلدأ شهماً، فخرجاً حتى قدماً دمشق، وكان ابن أثال يتمسى عند معاوية، فجلس له في مسجد دمشق إلى أسطوانة، وجلس غلامه إلى أخرى حتى خرج. فقال خالد لنافع: إياك أن تعرض له أنت، فإني أضربه. ولكن احفظ ظهري واكفني من ورائي. قال: فشأنك فلما حاذاه وثب إليه خالد فقتله. وثار إليه من كان معه فصاح بهم نافع فانفرجوا. ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه، فلما غشوهما حملاً عليهم فتفرقوا، حتى دخل خالد ونافع زقاقاً ضيقاً ففاتا الناس. وبلغ معاوية الخبر، فقال: هذا خالد بن المهاجر، انظروا الزقاق الذي دخل فيه». ففتش عليه فأتى به، فقال له: لا جزاك الله من زائر خيراً: قتلت طيبياً؟ «فقال: قتلت المأمور وبقي الأمر». فقال له: «عليك لعنة الله، أما والله لو كان [تشهد] مرة واحدة لقتلتك به. أمعك نافع؟ قال: لا! قال: بلى والله، وما اجتترأت إلا به». ثم أمر بطلبه فوجد، فأتى به فضرب مائة سوط، ولم يهجم خالدأ بشيء أكثر من أن حبسه، والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم؛ أدخل بيت المال منها ستة آلاف وأخذ ستة آلاف، فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذي يأخذه السلطان، وأثبت / ١٧١ / الذي يدخل بيت المال.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي في كتاب «الأمثال»: إن معاوية بن أبي سفيان. كان خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاشتكى عبد الرحمن فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سم فأحرقته. فعند ذلك قال معاوية: لا أجد إلا ما أفض عنك من تكره.

قال: وقال معاوية أيضاً حين بلغه أن الأشتر سقي شربة عسل فيها سم فمات: «إن لله جنوداً منها العسل».

ونقلت من تاريخ أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال: لما كان في سنة ثمان وثلاثين بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأشتر والياً على مصر، بعد قتل محمد بن أبي بكر، وبلغ معاوية مسيره فدس إلى دهقان بالعريش، فقال: إن قتلت الأشتر فلك خراجك عشرين سنة، فلفظ له الدهقان فقال: أي الشراب أحب إليك؟ فليل: العسل. فقال: عندي عسل من عسل برقة، فسمه وأتى به فشربه فمات. فبلغ ذلك معاوية، فقال: لليدين والقم.

وفي تاريخ الطبري: أن الحسن بن علي رضي الله عنهما مات مسموماً في أيام معاوية، وكان عند معاوية كما قيل دهاء؛ فدس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس،

وكانت زوجة الحسن، شربة وقال لها: إن قتلت الحسن زوجتك يزيد. فلما توفي الحسن، بعثت إلى معاوية تطلب قوله، فقال لها في الجواب: أنا أضن بيزيد.

وقال كثير^(١) يرثي الحسن رضي الله عنه: [من السريع]

يَا جَعْدَ بَكِّيهِ وَلَا تَسْأَمِي بُكَاءَ حَقٍّ لَيْسَ بِالْبَاطِلِ
لَنْ تَسْتَرِيَ الْبَيْتَ عَلَى مَثَلِهِ فِي النَّاسِ مِنْ حَافٍ وَمِنْ نَاعِلٍ^(٢)
ومنهم:

[٧]

أبو حكم^(٣)

وكان من حذاق الحكماء، وسُبَّاق أهل الطبِّ القدماء، وله في علمه حقائق، وفي فهمه ما ينفد مدد الأعمار، وما ينتهي منه إلى دقائق وله في دمشق بقية ورثوا ما خَلَفَ من علمه، وخَلَّى لبنيه لا يظلم أحدٌ منهم في قسمه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٤): كان طبيباً نصرانياً، عالماً بأنواع / ١٧٢ / العلاج والأدوية، وله أعمال كثيرة مذكورة وصفات مشهورة. كان يستطبه معاوية بن أبي سفيان، ويعتمد عليه في تركيبات أدويته لأغراض قصدها منه. وعمر أبو الحكم هذا عمراً طويلاً حتى تجاوز المائة سنة.

قال يوسف بن إبراهيم: وحدثني عيسى بن حكم عن أبيه، أن جده أعلمه أنه كان حُمَى عبد الملك بن مروان من شرب الماء في علته التي توفي فيها. وأعلمه أنه متى شرب الماء قبل نضج علته توفي. قال: فاحتّمى عن الماء يومين وبعض الثالث. قال: فإني عنده لجالس وعنده بناته، إذ دخل عليه الوليد ابنه فسأله عن حاله وهو يتبين في وجه الوليد السرور بموته فأجابه بأن قال: [من الطويل]

وَمُسْتَخْبِرٌ عَنَّا يُرِيدُ بِنَا الرَّدَى وَمُسْتَخْبِرَاتٍ وَالدُمُوعُ سَوَاجِمُ
وكان استفتاحه النصف الأول وهو مواجه الوليد، ثم واجه البنات عند قوله النصف الثاني، ثم دعا بالماء فشربه من ساعته^(٥).
ومنهم:

(١) ديوان كثير ٤٩٣ رقم ١٢٩.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧١-١٧٥.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٥-١٧٦، أخبار الحكماء ٤٠٤.

(٤) عيون الأنباء ١٧٥.

(٥) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٥-١٧٦.

[٨]

حكم الدمشقي^(١)

ممن نَمَى وراثته أبيه، ودُمَى بفضلِهِ قلوب حاسديه، وأمسى على من ناواه شديد الشكيم، وأضحى وهو لا يُدعى إلاَّ الحكم الحكيم.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان يلحق بأبيه في معرفته بالمداداة والأعمال الطبية والصفات البديعة. وكان مقيماً بدمشق. وعمر أيضاً عمراً طويلاً.

قال أبو يوسف بن إبراهيم: حدثني عيسى بن حكم أن والده توفي، وكان عبد الله بن طاهر بدمشق في سنة عشر ومائتين؛ وأن عبد الله سأله عن مبلغ عمر أبيه فأعلمه أنه عمره مائة وخمس سنين، لم يتغير عقله، ولم ينقص علمه. فقال عبد الله: عاش حكم نصف التاريخ.

قال يوسف: وحدثني عيسى أنه ركب مع أبيه حكم بمدينة دمشق، إذ اجتازوا بحانوت حجام وقد وقف عليه بشر كثير، فلما بصر بنا بعض الوقوف قال: أفرجوا هذا /١٧٣/ حكم المتطبب وعيسى ابنه. فأفرج القوم، فإذا رجل قد فصده الحجام في العرق الباسليق، وقد فصده فصداً واسعاً، وكان الباسليق على الشريان، فلم يحسن الحجام تعليق العرق فأصاب الشريان. ولم يكن عند الحجام حيلة في قطع الدم. واستعملنا الحيلة في قطعه بالفرائد، ونسج العنكبوت والوبر، فلم ينقطع بذلك. فسألني والدي عن حيلة، فأعلمته أنه لا حيلة عندي. فدعا بفسطة فشققها وطرح ما فيها، وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد، ثم أخذ حاشية من ثوب كتان غليظ فلف بها موضع الفصد على قشر الفسطة لفاً شديداً، حتى كان يستغيث المفتصد من شدته، ثم شد ذلك بعد اللف شداً شديداً، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردى، وأدخل يده في الماء ووطأ له على شاطئ النهر ونومه عليه، وأمر فحسى محات بيض نمرشت، ووكّل به تلميذاً من تلامذته، وأمر بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلا عند وقت الصلاة أو يتخوف عليه الموت من شدة البرد. فإن تخوف ذلك أذن له في إخراج يده هنيهة ثم أمره بردها، ففعل ذلك إلى الليل. ثم أمر بحمله إلى منزله ونهاه عن تغطية موضع الفصد، وعن حل الشد قبل استتمام خمسة أيام، ففعل ذلك. إلا أنه صار إليه في

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٦-١٧٧، أخبار الحكماء ١٧٨.

(٢) عيون الأنباء ١٧٦.

اليوم الثالث وقد ورم عضده وذراعه ورماً شديداً، فنفس من الشد شيئاً يسيراً، وقال للرجل: «الورم أسهل من الموت». فلما كان في اليوم الخامس حل الشداد فوجدنا قشر الفستقة ملتصقاً بلحم الرجل. فقال والذي للرجل: «بهذا القشر نجوت من الموت، فإن خلعت هذا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل منك تلفت نفسك». قال عيسى: فسقط القشر في اليوم السابع وبقي في مكانه بدم يابس في حلقة الفستقة. فنهاه والذي عن العبث به، أو حك ما حوله، أو حت شيء من ذلك الدم. فلم يزل الدم يتحات / ١٧٤ / حتى انكشف موضع الفصد في أكثر من أربعين ليلة وبرى الرجل^(١).
ومنهم:

[٩]

عيسى بن حكم الدمشقي، المعروف بالمسيح^(٢)

عُرف بهذا لما ظهرت من الآثار المسيحية على يديه العيسوية، ونقلت العجائب إلا أنها غير النبوية، وكان من فضلاء الأطباء، ونبلاء ذوي الأنباء.
قال ابن أبي أصيبعة^(٣): وهو صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به وينسب إليه.
قال يوسف بن إبراهيم: وحدثني عيسى بن حكم أنه عرض لغضيض أم ولد الرشيد قولنج فأحضرت وأحضرت الأبح والطبري الحاسبين، وسألت عيسى مما يرى معالجتها به. قال عيسى: فأعلمتها أن القولنج قد استحکم بها استحكاماً إن لم تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف. فقالت للأبح والطبري: اختاراً لي وقتاً أتعالج فيه. فقال لها الأبح: علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج إلى وقت يحمده المنجمون، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعلمي عملاً؛ وكذلك يرى عيسى بن حكم. فسألتني، فأعلمتها أن الأبح قد صدقها. فسألت الطبري عن رأيه فقال: القمر اليوم مع زحل، وهو في غد مع المشتري، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج إلى مقارنة القمر المشتري. فقال الأبح: أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري وقد عمل القولنج عملاً لا يحتاج معه إلى علاج. فتطيرت من ذلك غضيض وابنتها أم محمد وأمرتنا بإخراجه من الدار وقبلت قول الطبري. فماتت غضيض قبل موافاة القمر المشتري. فلما

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٦-١٧٧.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٧-١٧٨، أخبار الحكماء ٤٠٤.

(٣) عيون الأنباء ١٧٧.

وافى القمر المشتري قال الأبح لأم محمد: هذا وقت اختيار الطبري للعلاج فأين العليل حتى نعالجه؟ فزادتها رسالته غيظاً عليه ولم تزل سيئة الرأي فيه حتى توفيت.

قال يوسف: نزلت على عيسى بن حكم في منزله بدمشق سنة خمس وعشرين ومائتين؛ وبني نزلة صعبة، فكان يغذوني بأغذية طيبة ويسقيني الثلج فكنت أنكر ذلك، وأعلمه أن تلك الأغذية مضرّة / ١٧٥ / بالنزلة. فيعتل علي بالهواء ويقول: «أنا أعلم بهواء بلدي منك وهذه الأشياء مضرّة بالعراق نافعة بدمشق». فكنت أغتذى بما يغذوني به. فلما خرجت عن البلد خرج مشيعاً لي حتى صرنا إلى الموضع المعروف بالراهب، وهو الموضع الذي فارقني فيه، قال: قد أعددت لك طعاماً يُحمل معك يخالف الأطعمة التي كنت تأكلها. وأنا آمرك أن لا تشرب ماء بارداً، ولا تأكل من مثل الأغذية التي كنت تأكلها في منزلي شيئاً. فلمته على ما كان يغذوني به فقال: إنه لا يحسن بالعاقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله. قال يوسف: وتجاريت وعيسى يوماً بدمشق ذكر البصل، فأفرط في ذمه ووصف معايبه. وكان عيسى وسلمويه بن بيان يسلكان طريق الرهبان، ولا يحمدان شيئاً مما يزيد في الباه، ويذكران أن ذلك مما يتلف الأبدان ويذهب بالأنفس. فلم أستجز الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباه. فقلت له: قد رأيت له في سفري هذا، أعني فيما بين سر من رأى ودمشق، منفعة. فسأل عنها، فأعلمته أنني كنت أذوق الماء في بعض المناهل فأصيبه مالحاً فأكل البصل النيء ثم أعاود شرب الماء فأجد ملوحته قد نقصت. وكان عيسى قليل الضحك فاستضحك من قولي، ثم رجع إلى إظهار جزع منه، ثم قال: يعز علي أن يغلط مثلك هذا الغلط؛ لأنك صرت إلى أسمع نكتة في البصل وأعيب عيب فيه فجعلتها مدحاً. ثم قال: أليس متى حدث في الدماغ فساد فسدت الحواس، حتى ينقص حس الشم والذوق والسمع والبصر. فأعلمته أن الأمر كذلك. فقال لي: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، فإنما قلل حسك بملوحة الماء ما أحدث البصل في دماغك من الفساد.

قال يوسف: وقال لي عيسى وقد شيعني إلى الراهب، وهو آخر كلام دار بيني وبينه: إن والدي توفي وهو ابن مائة سنة وخمس سنين لم يتشج له وجه، ولم ينقص من ماء وجهه / ١٧٦ / لأشياء كان يفعلها وأنا الآن مزودكها فاعمل بها؛ وهي: أن لا تذوق القديد، ولا تغتسل يديك ورجليك عند خروجك من الحمام أبداً بماء بارد أبداً ما يمكنك، والزم ذلك، فإنه ينفعك. فلزمت ما أمرني به^(١).

ومنهم:

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٧٧-١٧٨.

[١٠]

بياذوق^(١)

حكيمٌ ماهرٌ، وعليه علمه ماهر، وحميم لا تبل به عين صديق، ولا يُعل تحلقه السلسل إلا صفو رحيق، ولم يزل يجمع سلطان المرض علاجه، ويمنع وجهه الندي مناظراً يثور عجاجة.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً فاضلاً، وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب. وعمر، وكان في أول دولة بني أمية ومشهوراً عندهم بالطب. وصحب أيضاً الحجاج بن يوسف الثقفي، المتولي من جهة عبد الملك بن مروان، وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد عليه، ويثق بمداواته، وكان له الجامكية الوافرة والافتقار الكثير.

ومن كلام بياذوق للحجاج قال: لا تنكح إلا شابة؛ ولا تأكل من اللحم إلا فتياً نضيجاً؛ ولا تشرب الدواء إلا من علة؛ ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها. وأجد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهائراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة. فقال له بعض من حضر: إذا كان الأمر كما تقول فلم هلك بقراط؟ ولم هلك جالينوس وغيرهما، ولم أر واحداً منهم فعل ذلك؟ قال: يا بني قد احتججت فاسمع! إن القوم دبّروا أنفسهم بما يملكون وغلبهم ما لا يملكون - يعني الموت - وما يرد من خارج كالحر والبرد والوقوع والغرق والجراح والغم وما أشبه ذلك.

وأوصى بياذوق أيضاً الحجاج فقال: لا تأكلن حتى تجوع. ولا تتكارهنّ على الجماع. ولا تحبس البول. وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك.

وقال أيضاً للحجاج: أربعة تهدم العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطن؛ والمجامعة على الامتلاء؛ وأكل القديد الجاف؛ وشرب الماء / ١٧٧ / البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن.

ووجد الحجاج في رأسه صداعاً فبعث إلى بياذوق وأحضره فقال: غسل رجلك بماء حار، وادهنهما، وخصي للحجاج قائم على رأسه، فقال: والله ما رأيت طبيباً أقل

(١) توفي نحو سنة ٩٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ١٧٩- ١٨١، أخبار الحكماء ١٠٥، وفيهما اسمه «تياذوق»، البداية والنهاية ٨١/٩ وفيه «تياذوق»، الوافي بالوفيات ١٠/٤٤٩- ٤٥٠ رقم ٤٩٣٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٨١ - ١٠٠هـ) ص ٤٧ رقم ١١.

(٢) عيون الأنباء ١٧٩.

معرفة بالطب منك! شكوا الأمير الصداق في رأسه، فتصف له دواء برجليه! فقال له: أما إن علامة ما قلت فيك بينة، قال الخصي: وما هي؟ قال: نُزعت خصيتاك، فذهب شعر لحيتك. فضحك الحجاج ومن حضر.

وشكا الحجاج ضعفاً في معدته وقصوراً في الهضم إلى بياذوق فقال: يكون الأمير يحضر بين يديه الفستق الأحمر القشر البراني ويكسر ويأكل من لبه، فإن ذلك يقوي المعدة. فلما أمسى الحجاج بعث إلى حظاياه وقال: إن بياذوق وصف لي الفستق. فبعثت إليه كل واحدة منهم صينية فيها قلوب فستق، فأكل من ذلك حتى امتلأ. وأصابته بعقبه هيضة كادت تأتي على نفسه. فشكا حاله إلى بياذوق، وقال: وصفت لي شيئاً أضر بي، وذكر له ما تناول، فقال له: إنما قلت لك أن تحضر عندك الفستق بقشره البراني، فتكسر الواحدة بعد الواحدة، وتلوك قشرها البراني وفيه العطرية والقبض، فيكون بذلك تقوية المعدة. وأنت فقد عملت غير ما قلت لك. وداواه مما عرض له.

وقيل: ومن أخباره مع الحجاج، أنه دخل عليه يوماً فقال له الحجاج: أي شيء دواء أكل الطين؟ فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير، فرمى الحجاج بالطين من يده ولم يعد إليه أبداً.

وقيل: إن بعض الملوك لما رأى بياذوق وقد شاخ وكبر سنه، وخشي أن يموت ولا يعتاض عنه؛ لأنه كان أعلم الناس، وأحذق الأمة في وقته بالطب. فقال له: صف لي ما أعتمد عليه فأسوس به نفسي، وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن أن يحدث عليك الموت، ولا أجد مثلك؛ فقال بياذوق: أيها الملك بالخيرات، أقول لك عشرة أبواب إن عملت بها، واجتنتها لم تعتل مدة /١٧٨/ حياتك، وهذه عشر كلمات:

لا تأكل طعاماً وفي معدتك طعام، ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه؛ ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين؛ فإن أصل الداء التخمة، وأصل التخمة الماء على الطعام؛ وعليك بدخول الحمام في كل يومين مرة واحدة؛ فإنه يخرج من جسدك ما لا يصل إليه الدواء؛ وأكثر الدم في بدنك تحرس به نفسك؛ وعليك في كل فصل قيئة ومسهلة؛ ولا تحبس البول وإن كنت راكباً؛ واعرض نفسك على الخلاء قبل نومك؛ ولا تكثر الجماع؛ فإنه يقتبس من نار الحياة فلتكثر أو تقل؛ ولا تجامع العجوز فإنه يورث الموت فجأة.

فلما سمع الملك ذلك أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر، ويضعه في صندوق من ذهب مرصع، وبقي ينظر إليه في كل يوم ويعمل به، فلم يعتل مدة حياته حتى جاءه الموت الذي لا بد منه ولا محيص عنه.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب قال: قال الحجاج لابنه: يا بني إن بياذوق الطبيب كان قد أوصاني في تدبير الصحة بوصية كنت أستعملها، فلم أر إلا خيراً. ولما حضرته الوفاة دخلت عليه أعوده، فقال: الزم ما كنت أوصيتك به وما نسيت منها فلا تنس: لا تشربن دواء حتى تحتاج إليه، ولا تأكلن طعاماً وفي جوفك طعام، وإذا أكلت فامش أربعين خطوة. وإذا امتلأت من الطعام فتم على جنبك الأيسر. ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية، ولا تأكلن من اللحم إلا فتياً، ولا تنكحن عجوزاً، وعليك بالسواك. ولا تتبعن اللحم اللحم. فإن إدخال اللحم على اللحم يقتل الأسود في الفلوات.

وقال أيضاً إبراهيم بن القاسم الكاتب من كتاب «أخبار الحجاج»: إن الحجاج لما قتل سعيد بن جبير رحمه الله، وكان من خيار التابعين، جرى بينهما كلام كثير، وأمر به فذبح بين يديه، وخرج منه دم كثير استكثره وهاله. فقال الحجاج لبياذوق طبيبه: ما هذا؟ / ١٧٩ / قال: لاجتماع نفسه، وأنه لم يجزع من الموت، ولا هاب ما فعلته به. وغيره تقتله وهو مفترق النفس، يقل دمه لذلك.

ومات بياذوق بعدما أسن وكبر، وكانت وفاته بواسط في نحو سنة تسعين للهجرة. ومنهم:

[١١]

زينب طيبة بني أود^(١)

وكانت طبة عارفة لا كما زعم ابن أبي أصيبعة، عالمة حليلة لا كما قال ابن سناء الملك في موشحته البديعة. متعت بالعلم فلم تحسّ فوتاً، ونفعت بطبها الأحياء، وكادت تنعش الموتى، ما عرفها إلا من شكر، ولا أنصفها من قاسها من الحكماء برجل، ولا الصارم الذكر.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات، مشهورة بين العرب بذلك.

قال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني الكبير» أخبرنا كناسة عن أبيه عن جده قال: أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان قد أصابني، فكحلتنني، ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يذوب الدواء في عينيك، فاضطجعت، ثم تمثلت قول الشاعر: [من الطويل]

(١) ترجمتها في: عيون الأنباء ١٨١. (٢) عيون الأنباء ١٨١.

أَمْخْتَرَمِي رَبُّ الْمَنُونِ وَلَمْ أَرْزُ طَبِيبَ بَنِي أَوْدٍ عَلَى النَّأْيِ زَيْنَبَا
فضحكت ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا! قالت: في والله. أنا
زينب التي عناها، وأنا طبيبة بني أود. أفندري من الشاعر؟ قلت: لا! قالت: عمك أبو
سماك الأسدي^(١).

* * *

أطباء السريان الكاثنيين في ابتداء الدولة العباسية

منهم:

[١٢]

(٢) جرجس بن جبريل

طبيب طالما أصلح بين الصحة والمزاج، وأصبح وعليه لا يحتاج إلى العلاج،
رزق من أبي جعفر المنصور إقبالاً على تجهّمه، وصادف علاجه منه قبولاً على توهّمه،
وحظي منه بحظوة على قلة من حظي لديه بطائل، وحُبي منه الجزيل على بخله بالنائل،
وحُمي من نزغات غضبه، وما/ ١٨٠ / قال هذا عنه سواء قائل.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كانت له خبرة بصناعة الطب، ومعرفة بالمدواة وأنواع
العلاج، وخدم المنصور، وكان حظياً عنده، ونال من جهته أموالاً جزيلة، ونقل له كثيراً
من كتب اليونان إلى العربي.

قال فينون الترجمان: كان المنصور قد فسدت معدته وانقطعت شهوته، وبقي
كلما عولج ازداد مرضاً، فتقدم إلى الربيع بأن يجمع الأطباء لمشاورتهم، فجمعهم،
فسألهم عن طبيب ماهر، فقالوا: ليس أحد مثل جرجس رئيس أطباء جنديسابور، فأنفذ
لإحضاره فاستمعله، فاعتقله، فأتاه المطران ورؤساء المدينة وأشاروا عليه بالخروج بعد
أن أوصى ابنه بختيشوع بأمر البيمارستان وسائر أموره، فلما أتى حضرة المنصور أجلسه
وسأله عن أشياء، أجابه عنها بسكون، فقال له: قد ظفرت منك بما كنت أحبه، وخلع
عليه وأمر له بمنزل ونفقة، وحدثه بعلته ثم نظر إلى قارورة الماء، وأشار عليه بتخفيف

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ١٨٣-١٨٦، أخبار الحكماء ١٥٩.

(٣) عيون الأنباء ١٨٣.

الغذاء، ولاطفه حتى عوفي ثم لما داني أجله مرض مرضاً ثقيلاً وأمر به المنصور، فحمل إليه حتى رآه، وعرض عليه الإسلام فأبى، وسأل أن يحمل إلى بلده ليدفن عند آبائه، فأعطاه عشرة آلاف دينار، وردّه بعد أن استخلف لديه تلميذه عيسى بن سهل، فأساء السيرة، وبسط يده في المطارنة والأساقفة يأخذ أموالهم لنفسه حتى أنه كتب إلى مطران نصيبين يلتمس منه من آلات البيعة أشياء جلييلة المقدار، وقال في كتابه إلى المطران: أأست تعلم أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته،

فتلطف المطران في الصلة بالربيع، وأقرأه كتاب عيسى بن سهل، فأعلم الربيع المنصور به، فسلبه ما كان حصله ثم أمر بنفيه، وكتب إن كان جرجس حياً يحضر، وإن كان قد مات يحضر ابنه، فصادف جرجس وقد وقع من السطح، وضعف ضعفاً عظيماً، فقليل له، فأبى أن يجهز إلا إبراهيم تلميذه، / ١٨١ / فلما أتى المنصور استخلصه، ولم يزل معه حتى مات المنصور^(١).

ومنهم:

[١٣]

بختيشوع بن جرجس^(٢)

كان لا يكفُّ له ألمعيّة، ولا تلوذ بعِيٍّ لَهُ لودعيّة، ولا تزال إليه نهاره مبصرة، وسحائب مدده معصرة، ودنا من الخلفاء بحيث لا ترفع الستور، ولا ترتع اللحظات في غابة الليث الهصور، ورأس على أقرانه، وانبجس نهراً لا يضرب الليل دونه بجرانه،

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٣-١٨٦.

(٢) بَخْتِشُوع بن جرجس: طبيب، سرياني الأصل مستعرب. اشتهر وتقدم عند الخلفاء العباسيين. وهو جد بختيشوع المتقدم ذكره. وهما من بيت علم وفلسفة. خدم هارون الرشيد وتميز في أيامه. له «كناش» مختصر صنّفه لابنه جبرئيل. توفي نحو سنة ١٨٤هـ/ نحو سنة ٨٠٠م.

ترجمته في: عيون الأنباء ١٨٦-١٨٧، طبقات الأمم ٣٦، طبقات الأطباء ٦٣، الفهرست لابن النديم ٢٩٦، وثمار القلوب للشعالبي ٤٠٦ رقم ٦٤٦ ص ٦٧٢ رقم ١١٥٤، وتاريخ الحكماء للقفطي ١٠٠ تحقيق جوليوس ليبيرت، ليسيك ١٩٠٣، والعقد الفريد ٨٥/١-٨٦، وتاريخ الزمان ١٧-١٨، وتاريخ مختصر الدول ١٣٠-١٣١، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٢٥/١، والوافي بالوفيات ٨٩/١٠ رقم ٤٥٣٣، وزهر الآداب للحصري ٢٣٢/١ طبعة الأزهرية، المحاسن والمساوي للبيهقي ٥٨٩، الأعلام ٤٤/٢، تاريخ الإسلام (السنوات ١٨١-١٩٠هـ) ص ٨٢ رقم ٢٧.

وناصر الكبراء ونافر حتى الأمراء، وسار إماماً في الأطباء، ولولاه لما ركبوا وراءه. قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان يلحق بأبيه في معرفته بالطب، وخدم الرشيد، وتميز في أيامه.

قال فينون الترجمان: لما مرض الرشيد أحضر بختيشوع من جنديسابور، وأحضر الأطباء لمناظرته، فقال أبو قريش، وكان رأس الأطباء ببغداد: يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا؛ لأنه هو وأبوه، وأهل جنسه فلاسفة، فقال الرشيد لبعض الخدم: أحضر له ماء دابة ليختبره، فأتاه به، فقال: ليس هذا بول إنسان، فقال له أبو قريش: كذبت هذا بول حظية الخليفة، فقال له بختيشوع: أيها الشيخ الكريم إنه لم يبيل هذا إنسان البتة، وإن كان على ما قلت، فلعلها قد صارت بهيمة، فقال له الرشيد: من أين علمت هذا، قال: لأنه ليس في قوام بول الإنسان ولا لونه ولا ريحه، فقال له: فما ترى أن يطعم صاحب هذا الماء، قال: الشعير، فضحك الرشيد ضحكاً شديداً، وخلع عليه ووهبه مالا وافراً، وقال: ليكن رئيس الأطباء، ومروهم فليسمعوا له ويطيعوا^(٢).

ومنها:

[١٤]

جبريل بن بختيشوع^(٣)

يُجَلَّ أن يقاس بالألفاء، وأن يقال اسمه إلّا مع الخلفاء. عظم ثراؤه، وعمّ جداه أن يماثل به أرسطو ونظراؤه، وخلف ما يتجاوز الحدّ، ويداني العدّ، مع نفقاته

^١ وبختيشوع ثلاثة أطباء نصارى هم: بختيشوع بن جرجس، وبختيشوع بن جبريل، وبختيشوع بن يوحنا. و«بختيشوع» لفظ سرياني معناه عبد المسيح.

(١) عيون الأنباء ١٨٦.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٦-١٨٧.

(٣) جبرئيل بن بختيشوع بن جرجس: طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله. يقال إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إليّ فليخاطب بها جبرئيل فإني أفعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم. ولما توفي الرشيد خدم الأمين، فلما ولي المأمون سجنه ثم أطلقه وأعادته إلى مكانته عند أبيه الرشيد، فلم يزل إلى أن توفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودفن في دير «مار جرجس» بالمدائن. من تصانيفه «المدخل إلى صناعة المنطق» و«كناش» جمع فيه خلاصات ومجربات في الطب. وله رسالة في «المطعم والمشرب» وكتاب في «صناعة البخور» ألفهما للمأمون.

الموسعة، وصدقاته التي رفلت الأيام في / ١٨٢ / حللها الموسعة حتى شرقت دونه النفوس بحسراتها، واختنقت القلوب بزفرتها حتى كانت الخلفاء تركب إلى منزله، وترغب في إكرام نزله، وهو بشمم لا يخضع عرينه، ولا يخشع أنينه، ولا يطلع زهر الروض الجنى إلا جنيته.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان مشهوراً بالفضل، جيد التصرف في المداواة، عالي الهمة، سعيد الجد، حظياً عند الخلفاء. وحصل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله أحد من الأطباء.

قال الترجمان: إن أباه أفرده لجعفر بن يحيى، وكان قد اعتل فعالجه فبرىء في ثلاثة أيام، فأحبه جعفر مثل حب نفسه، وكان لا يصبر عنه، ثم تمطت حظية الرشيد ثم لم تقدر ترد يدها، ولم يفد فيها طب الأطباء، فدل جعفر الرشيد على ابن بختيشوع، فأحضره وقال له: ما تعرف من الطب؟ فقال: أبرد الحار وأسخن البارد، وارطب اليابس، وأيبس الرطب، فضحك وقال: هذا، غاية ما يحتاج إليه فنبأه نبأ الجارية، فقال جبريل: لها عندي حيلة إن لم يسخط علي أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال: تأمر بالجارية إلى ههنا بحضرة الجمع؛ لأعمل ما تراه وتمهل علي؛ ولا تعجل بالسخط. فأمر بها فأخرجت. فحين رآها جبريل مشى إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها كأنه يريد حلها سراويلها، فانزعجت الجارية، فاسترسلت أعضاؤها، وبسطة يدها إلى أسفل، وأمسكت ذيلها. فقال جبريل: قد برئت يا أمير المؤمنين. فقال الرشيد للجارية: ابسطي يدك يمنة ويسرة ففعلت. فعجب الرشيد ومن حضروا. وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وعظمت منزلته عنده، وجعله رئيساً على سائر الأطباء. وسئل عن سبب العلة، فقال: هذه الجارية انصب إلى أعضائها وقت الحركة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة، ولأجل سكون حركة الجماع بغتة جمدت الفضلة في بطون الأعصاب، وما كان يحللها إلا حركة مثلها. فأحببت إلى أن انبسطت حرارتها وانحلت الفضلة.

/ ١٨٣ / ولم يزل يزداد مكانة من الرشيد إلى أن مرض الرشيد بطوس مرض موته حبسه واستطب أسقف فارس، فقال له: مرضك كان من خطأ طبيبك كذباً عليه، فأمر

⁼ ترجمته في: طبقات الأطباء ١/ ١٢٧-١٣٨، تاريخ الحكماء ١٣٢-١٤٦، عيون الأنباء ١٨٧-٢٠١، موسوعة علماء الطب لنعمة الله ص ١٢، علماء النصرانية في الإسلام لشيخو ١٢٧-١٢٨، معجم المؤلفين ٣/ ١١٣، الأعلام ٢/ ١١١.

(١) عيون الأنباء ١٨٧.

الرشيد بقتل جبريل، فلم يقبل منه الفضل بن الربيع، لأنه كان يئس من حياته، وأصاب تلك الأيام الفضل قولنج شديد فكان جبريل يعالجه فأفاق ثم لما صار الأمر إلى الأمين زاد تقربه وضاعف مواهبه وكان لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه، ثم لما ملك المأمون كتب إلى الحسن بن سهل بأن يقبض عليه لكونه بعد الرشيد أتى الأمين ببغداد، ولم يأت به بخراسان، فحبسه ابن سهل، ثم مرض ابن سهل فعالجه الأطباء، فلم ينتفع بذلك، فأخرج جبريل من الحبس، فعالجه في أيام يسيرة، فبرىء فوهب له مالاً وافراً، وتلطف له مع المأمون فصصح عنه، واتخذ ميخائيل صهر جبريل بدلاً منه، وأكرمه كباداً لجبريل، فمرض المأمون مرضاً صعباً أعيا الأطباء علاجه، فقال أبو عيسى بن الرشيد للمأمون: يا أمير المؤمنين أحضر جبريل فإنه يعرف أمزجتنا منذ الصبا، فتغافل عنه، واحضر يوحنا بن ماسويه، فلما ضعفت قوة المأمون ذكر جبريل فأمر بإحضاره، فلما حضر غير تدييره كله، فانصلح بعد يوم، واستقل بعد ثلاثة أيام، ثم بعد أيام يسيرة صلح صلاحاً تاماً، فسر به المأمون، وأمر له بألف ألف درهم، وألف كر حنطة، ورد عليه ما كان قبض له، وصار إذا خاطبه يكرمه، ثم انتهى إلى أن كان لا يخرج عامل إلى عمله إلا بعد أن يلقي جبريل ويكرمه، وعلا محله وانحط من سواه.

وقال إسحاق بن علي الرهاوي إن يوحنا بن ماسويه أخبر أن الرشيد قال لجبريل بن بختيشوع وهو حاج بمكة: يا جبريل أعلمت أني دعوت لك والله في الموقف دعاء كثيراً، ثم التفت إلى بني هاشم فقال: هل أنكرتم قولي؟ فقالوا: ذمي هو، فقال: نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بصلاحه، فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وقال: قال ابن بختيشوع: اشترت / ١٨٤ / ضيعة بسبعمئة ألف درهم، فنقدت بعض الثمن، وتعذر علي بعضه، فدخلت على يحيى بن خالد وعنده ولده، وأنا مفكر. فقال: أراك مفكراً؟ فأخبرته، فدعا بالدواة وكتب: يعطى جبريل سبعمئة ألف درهم. ثم دفع إلى كل واحد من ولده، فوق ستمئة ألف درهم قال: فقلت؛ جعلت فداك، قد أديت عامة الثمن، وإنما بقي أقله. قال: اصرف ذلك فيما ينوبك، ثم صرت إلى دار الرشيد. فلما رأي قال: ما أبطأ بك؟ فقلت: كنت يا أمير المؤمنين، عند أبيك وإخوتك، ففعلوا بي كذا وكذا، لخدمتي لك. قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يحيى، ثم قال: يا أبة أخبرني جبريل بما كان، فما كان حالي أنا من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مر بما شئت يحمل إليه. فأمر لي بخمسائة ألف.

وحكى سعيد بن إسحاق النصراني، قال: قال لي جبريل بن بختيشوع: كنت مع

الرشيد بالركة ومعه ولداه، المأمون ومحمد الأمين، وكان رجلاً كثير الأكل والشراب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، وأخرج فقوي عليه الغشي حتى لم يشك في موته. وأرسل إلي، فحضرت وجسست عرقه فوجدت نبضاً خفياً، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء وحركة الدم، فقلت: لهم: يموت، إن لم يحجم الساعة. فأجاب المأمون إليه وتقدم الحجام، وتقدمت بإقعاده، فلما وضع المحاجم عليه ومصها، رأيت الموضع قد احمر، فطابت نفسي، وعلمت أنه حي. فقلت للحجام: اشرط. فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله. وجعل كلما خرج الدم يحرك رأسه؛ ويسفر لونه، إلى أن تكلم. وقال: أين أنا؟ فطيننا نفسه وغدّيناه بصدر درّاج، وسقينا شراباً، وما زلنا نشمه الأرابيج الطيبة، ونجعل في أنفه الطيب، حتى تراجعت قوته، وأدخل الناس عليه، ثم وهب الله له عافيته، فلما كان بعد أيام دعا صاحب حرسه، فسأل عن غلته في السنة فقال ثلثمائة ألف درهم فسأل صاحب شرطته فقال خمسمائة ألف درهم. وسأل حاجبه فقال: ألف ألف درهم / ١٨٥/. فقال لي: ما أنصفناك حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني من الناس على ما ذكروا، وأنت تحرسني من الأمراض، وتكون غلتك دونهم، ثم أمر بإقطاعي غلة ألف ألف درهم. فقلت: يا سيدي، مالي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما اشتري لي به ضياعاً ففعل ذلك، فابتعت بهباته ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ضياعي أملاك لي لا أقطاع.

والذي صار إليه في أيام خدمته للخلفاء وهي نحو ثلاثين سنة جملٌ كثيرة. وجدته مدرجاً بخط كاتبه وفيه إصلاحات بخطه، فأما ما صرفه منه في مدة حياته في نفقاته تقريباً فهو سبعة وعشرون ألف ألف، درهم وستمائة ألف درهم، وفي ثمن دور وبساتين ومنتزهات ورقيق ودواب سبعون ألف ألف درهم، وفي عمائر ثمانية آلاف ألف درهم، وفي ثمن ضياع اثنا عشر ألف ألف درهم، وفي ثمن جواهر وما أعدّه للذخائر خمسمائة ألف دينار، وخمسون ألف ألف درهم، وفي وجوه القرب وما كفله عن المصادرين ثلاثة آلاف ألف درهم، وما جحده أرباب الودائع له ثلاثة آلاف ألف درهم، ثم الذي خلفه بعد هذا عند وفاته لابنه بختيشوع، وجعل المأمون الوصي فيه فسلمه إليه عن آخره، ولم يتعرض إلى شيء منه، فتسعمائة ألف دينار.

وهذا جبريل هو الذي عناه أبو نواس^(١) في قوله: [من مجزوء الرافر]

سألت أخِي أبا عيسى وجبريلَ لَهُ عَقْلُ

فقلتُ الراحُ تُعجبي فقال: كثيرها قُتِلُ
فقلتُ له: فَقَدَرُ لي فقال وقولُهُ فَضْلُ:
وجدتُ طبائعَ الإنسا ن أربعةً هي الأضلُ
فأربعةً لأربعةٍ لكلٍ طبيعةٍ رَظْلُ
وذكر أبو الفرج الأصفهاني للمأمون شعراً قاله في جبريل وهو: [من الهزج]
/١٨٦/ ألا قل للذي ليسَ على الإسلام والمِلَّةِ
لجبريلَ أبي عيسى أخي الأنذالِ والسَّفلِ
أفي طِبِّكَ يا جبري لُ ما يَشْفِي مِنَ الغُلِّ
غَزالُ قد سبَى عَقْلِي بلا جُرمٍ ولا زَلِّ
قال: والغناء فيه لقيم «خفيف الرمل».

ومن كلام جبريل: أربعة تهدم العمر: إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام.
والشرب على الريق. ونكاح العجوز. والتمتع في الحمام^(١).
ومنهم:

[١٥]

بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع^(٢)

عادي الكبار، وعادل البحار، وعاد النجوم في الأقطار، وأناف رُبَّةً على أبيه،
وكانت تُزاحم الأطواد، وتُزاح بها أعدار حساده ابن الزيات وابن أبي دؤاد، فلهذا قُصِدَ

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ١٨٧-٢٠١.

(٢) بَخْتِيشُوع بن جبرئيل بن بختيشوع ابن جرجس: طبيب سرياني الأصل مستعرب. قربه الخلفاء العباسيون ولا سيما المتوكل العباسي، فعلت مكانته وأثرى حتى كان يضاهي المتوكل في الفرش واللباس. خدم الواثق والمتوكل والمستعين والمهتدي والمعتز. وصنف كتاباً في «الحجامة» على طريقة السؤال والجواب. مات ببغداد سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م.

ترجمته في: تاريخ الطبري ٢٨٧/٨ و٢١١/٩ و٢١٨ و٤٣٩، ومروج الذهب ١٣٦٨، ٢٧٨١، ٢٨٥٧، ٣٣١٠، وثمار القلوب ٤٠٦، ٦٧٢، والعقد الفريد ٨٥/١ و٨٦ و٢٤٥/٦، وعيون الأخبار ٣٠٩/١ و١٠٣/٢ و٩٤/٤، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ٧٢-٧٣، وتاريخ الزمان ٣٩-٤٠، ٤٣، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٣١، ١٤٣-١٤٤، والفخري ٢٠٨، ٢١٠، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٠١-٢٠٩، والفهرست لابن النديم ٢٩٦/١، ومعجم المؤلفين ٣٩/٢، وديوان الإسلام للغزي ٢٠٧/١ رقم ١٤، وهدية العارفين ٢٣١/١، والأعلام ٤٤/٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١-٢٦٠هـ) ص ٩١ رقم ١٢٢.

مرات بالغوائل، وأرصد تارات لعلق الحبائل، فلو لم تتذكر له سوابق المساعي، ويتدارك بالدرياق به سَمُّ الأفاعي، لما امتدَّ به طلق نفسه ولا نفس عنه حلق حبسه، ثم صلح حاله، وقوي محالة، ونطق في مجالس الخلفاء لسانه، وصدق إحسانه، واستعاد أيامه الأول أتراباً، وأيامه الحسان وطالما هزته إطراباً.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(١)، وقال فيه: كان سريانياً نبيل القدر. وبلغ من عظم المنزلة والحال وكثرة المال، ما لم يبلغه أحد من سائر الناس الذين كانوا في عصره، وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش.

وقال الترجمان: وكان ابن أبي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات يعاديانه ويغريان به الوثائق. فسخط عليه، وقبض على أمواله وضياعه، ونفاه إلى جندي سابور، فلما اعتل الوثائق بالاستسقاء، بعث لإحضاره، ثم عاجل الوثائق الموت قبل وصوله. ثم صلحت أيام المتوكل حاله إلى أن بلغ مبلغاً حسده عليه المتوكل، وقبض عليه.

قال: إن بختيشوع / ١٨٧ / كان عظيم المنزلة عند المتوكل فأفرط في الإدلال عليه، فنكبه وقبض على أملاكه ونفاه إلى مدينة السلام. ثم عرض للمتوكل قولنج، فاستحضره واعتذر إليه، وعالجه فبرأ، فأنعم عليه ورضي عنه، وأعاد عليه ما كان له.

ثم جرت على بختيشوع مكيدة أخرى، فنكبه ووجه به إلى البصرة، ثم رده المستعين إلى وظيفة الخدمة، وأحسن إليه إحساناً كثيراً، فلما ولي المهدي جرى مجرى المتوكل في أنسه بالأطباء، وكان بختيشوع لطيف المحل منه، وشكا إليه بختيشوع ما أخذ منه أيام المتوكل، فأمر بأن يدخل الخزان، فكلما عرفه ردَّ إليه، فلم يبق له شيء إلاَّ أخذه وأطلق له كلما فاته وكتب برعاية أسبابه.

وقال بختيشوع للمهدي في آخر أمره: يا أمير المؤمنين لي أربعون سنة لم افتصد ولا شربت دواء، وقد حكم المنجمون بأني أموت في هذه السنة، ولست أعتَم لموتي، وإنما أعتَم لمفارقتكم، فكلمه المهدي بجميل وقال: قلَّ أن يصدق المنجم، فلما انصرف كان آخر العهد به.

قال الحصري: تنازع إبراهيم بن المهدي وبختيشوع بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في عقار بالسواد، فأغلظ عليه إبراهيم، فغضب أحمد بن أبي داؤد وقال: يا إبراهيم، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا أمراً، فليكن قصدك أمماً، وطريقك نهجاً،

وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، ووف مجالس الخلافة حقوقها. فإن هذا أليق بك، وأجمل بحسن مذهبك وشريف محتدك، ولا تعجلن، فرب عجلة تورث ريثاً، والله يعصمك من الزلل، وخطل القول، والعمل، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم حكيم. فقال إبراهيم: أمرت، أصلحك الله بسداد، وحضضت على الرشاد، ولست بعائد إلى ما يثلم قدري عندك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار؛ فما أنا معتذر إليك من هذه البادرة، اعتذار مقر بذنبه لأن الغضب لا يزال يستفزني بمراده، فيردني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله / ١٨٨ / عندك وعندنا فيك. وقد جعلت حظي من هذا العقار لبختيشوع، وليت ذلك يفي بأرش الجناية عليه، ولن يتلف مال أفاد موعظة.

قال أبو محمد بدر بن أبي الأصبغ الكاتب: حدثني جدي، قال: دخلت على بختيشوع في يوم شديد الحر، وهو جالس في مجلس مخيش بعدة طاقات من الخيش طاقان ريح بينهما طاق أسود وفي وسطها قبة عليها جلال من قصب مُظَهَّرٌ بدبيقي قد صبغ بماء الورد والكافور والصندل. وعليه جبة يمانى سعيدي مثقلة، ومطرف قد التحف به، فعجبت من زيه. فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد أمر عظيم، فضحك وأمر لي بجبة ومطرف وقال: يا غلام، اكشف جوانب القبة، فكشف فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج، فيخرج منه البرد الذي لحقني. ثم دعا بطعامه فأتي بمائدة في غاية الحسن عليها كل شيء حسن ظريف. ثم أتى بفراريج مشوية في غاية الحمرة، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت وقال: هذه فراريج تعلق اللوز والبزر قطونا، وتسقى ماء الرمان. ولما كان في صلب الشتاء دخلت إليه يوماً والبرد شديد، وعليه جبة محشوة وكساء، وهو جالس في طارمة في الدار على بستان في غاية الحسن، وعليها سمور قد ظهرت به، وفوقه جلال حرير مصبغ، ولبود مغربية وانطاع آدم يمانية. وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق، وخادم يوقد العود الهندي، وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطارمة وجدت من الحر أمراً عظيماً، فضحك وأمر لي بغلالة قصب، وتقدم بكشف جوانب الطارمة، فإذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد، وكونين فيها فحم الغضا، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما يكون للحدادين. ثم دعا بطعامه فاحضروا ما جرت به العادة في السرو والنظافة، واحضرت فراريج بيض شديدة البياض فبشعتها، وخفت أن تكون غير نضيجة ووافى الطباخ / ١٨٩ / فنفضها فانتفضت، فسألته عنها فقال: هذه تعلق الجوز وتسقى اللبن الحليب، وكان بختيشوع بن جبريل يهدى البخور في درج ومعه درج آخر

فيه فحم بتخذ من قضبان الأترج والصفصاف، وسقس الكرم المرشوش عليه عند إحراقه ماء الورد المخلوط بالمسك والكافور، وماء الخلاف والشراب العتيق. ويقول: أنا أكره أن أهدي بخوراً بغير فحم العامة، ويقال هذا عمل بختيشوع.

قال أبو محمد بدر بن أبي الأصيغ، عن أبيه عن أبي عبد الله محمد بن الجراح، عن أبيه: إن المتوكل قال يوماً لبختيشوع: ادعني، فقال: السمع والطاعة، فقال: أريد أن يكون ذلك غداً. قال: نعم وكرامة، وكان الوقت صائفاً، وحره شديداً، فقال لبختيشوع لأنسابه وأصحابه: أمرنا كله مستقيم إلا الخيش؛ فإنه ليس لنا منه ما يكفي. فأحضر وكلاءه، وأمرهم بابتياح كل ما يوجد من الخيش بسر من رأى، ففعلوا ذلك وأحضروا كل من وجدوه من النجادين والصناع، فقطع لداره كلها صحنونها وحجرها ومجالسها وبيوتها ومستراحاتها خيشاً حتى لا يجتاز الخليفة في موضع غير مخيش. وأنه أفكر في روائحه التي لا تزول إلا بعد استعماله مدة، فأمر بابتياح كل ما يقدر عليه بسر من رأى من البطيخ، وأحضر حشمه وغلماناه وأجلسهم يدلكون الخيش بذلك البطيخ ليلتهم كلها، وأصبح وقد انقطعت روائحه. فتقدم إلى فراشيه فعلقوا جميعه في المواضع المذكورة، وأمر طبائخه بأن يعملوا خمسة آلاف جونة في كل جونة باب خبز سميد، ودست رفاق وزن الجميع عشرون رطلاً؛ وحمل مشوي وجدي بارد، وفائقة ودجاجتان مصدرتان، وفرخان ومصوصتان، وثلاثة ألوان، وجام حلواء.

فلما وافاه المتوكل رأى كثرة الخيش وجدته، فقال: أي شيء ذهب برائحتي؟ فأعاد عليه حديث البطيخ، فعجب من ذلك، فأكل هو وبنو عمه والفتح بن خاقان على مائدة واحدة. وأجلس الأمراء والحجاب على سماطين عظيمين لم ير مثلهما لأمثاله. وفرق / ١٩٠ / الجون على الغلمان والخدم والنقباء والركابية والفراشين والملاحين وغيرهم من الحاشية، لكل واحد جونة، وقال: «قد أمنت ذمهم؛ لأنني ما كنت لو أطعموا على مائدة آمن أن يرضى هذا ويغضب الآخر، ويقول واحد شبت ويقول آخر لم أشبع، فإذا أعطى كل إنسان جونة من هذه الجون كفته. واستشرف المتوكل على الطعام فاستعظمه جداً، وأراد النوم، فقال لبختيشوع: أريد أن تنومني في موضع مضيء لا ذباب فيه، وظن أنه يتعنته بذلك، وقد كان لبختيشوع تقدم بأن يجعل أجاجين الدبس في سطوح الدار ليجتمع الذباب عليه، فلم يقرب أسافل الدور ذبابة واحدة. ثم أدخل المتوكل إلى مرتفع كبير سقفه كله بكوى فيها جامات يضيء البيت منها، وهو مخيش مظهر بعد الخيش بالدبقي المصبوغ بماء الورد والصندل والكافور.

فلما اضطجع للنوم أقبل يشم روائح في نهاية الطيب لا يدري ما هي؛ لأنه لم ير

في البيت شيئاً من الروائح والفواكهة والأنوار؛ ولا خلف الخيش لا طاقات ولا موضع يجعل فيه شيء من ذلك. فتعجب وأمر الفتح بن خاقان أن يتتبع حال تلك الروائح حتى يعرف صورتها. فخرج يطوف فوجد حول البيت من خارجه ومن سائر نواحيه وجوانبه أبواباً صغاراً لطافاً كالطاقات محشوة بصنوف الرياحين والفواكه واللخاخ، والمشام التي فيها التفاح، والبطيخ المستخرج ما فيها، المحشوة بالنمام والحماحم اليماني المعمول بماء الورد والخلاف والكافور والشراب العتيق والزعفران الشعير. ورأى الفتح غلماناً قد وكلوا بتلك الطاقات مع كل غلام مجمرة فيها ندى يسجره ويبخر به البيت من داخله إزار مع اسفيداج مخرج خروماً صغاراً لا تبين تخرج منها تلك الروائح الطيبة العجيبة إلى البيت.

فلما عاد الفتح وشرح للمتوكل صورة ما شاهده كثر تعجبه، وحسد بختيشوع على ما رآه من نعمته، وكمال مروءته، وانصرف من داره قبل أن يستتم يومه. وادعى شيئاً / ١٩١ / وجده من التياث بدنه، وحقد عليه ذلك، فنكبه بعد أيام سيرة، وأخذ له مالا كثيراً لا يقدر، ووجد له في جملة كسوته أربعة آلاف سراويل ديبقي وسفري في جميعها تكك إبريسم أرمني. وحضر الحسين بن مخلد فحتم على خزانته، وحمل إلى دار المتوكل ما صلح منها، وباع شيئاً كثيراً. وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبيد وتوابل، فاشترى الحسين بن مخلد بستة آلاف دينار. وذكر أنه باع من جملته بمبلغ ثمانية آلاف دينار، ثم حسده حمدون ووشى إلى المتوكل. وبذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار. فأجيب إلى ذلك، وسلم إليه، فباعه بأكثر من الضعف. وكان هذا في سنة أربع وأربعين ومائتين.

قال فينون الترجمان: كان المعتر بالله قد اعتل، في أيام المتوكل، علة من حرارة، وامتنع معها من أخذ شيء من الأغذية والأدوية. فشق ذلك على المتوكل كثيراً، واغتم به. وصار إليه بختيشوع، والأطباء عنده وهو على حاله في الامتناع، فمازحه وحادثه، فأدخل المعتر يده في كم جبة وشي يمان مثقلة كانت على بختيشوع وقال: ما أحسن هذا الثوب! فقال بختيشوع: يا سيدي ما له والله نظير في الحسن وثمنه علي ألف دينار، فكل لي تفاحتين وخذ الجبة. فدعا بتفاح فأكل اثنتين، ثم قال له: تحتاج الجبة إلى ثوب يكون معها، وعندني ثوب هو أخ لها، فاشرب لي شربة سكنجبين، وخذه فشرب شربة سكنجبين، ووافق ذلك اندفاع طبيعته فبرئ المعتر وأخذ الجبة والثوب، وصلاح من مرضه، فكان المتوكل يشكر هذا الفعل أبداً لبختيشوع.

قال ثابت بن قرة بن سنان بن ثابت: إن المتوكل اشتهى في بعض الأوقات

الحارة أن يأكل مع طعامه خردلاً، فمنعه الأطباء من ذلك لحدة مزاجه، وحرارة كبده وغائلة الخردل. فقال بختيشوع: أنا أطعمك إياه وإن ضرك علي! فقال: افعل. فأمر بإحضار قرعة وجعل عليها طيناً وتركها في تنور واستخرج ماءها وأمر بأن يقشر الخردل /١٩٢/ ويضرب بماء القرع. وقال: إن الخردل في الدرجة الرابعة من الحرارة، والقرع في الدرجة الرابعة من الرطوبة فيعتدلان، فكل شهوتك. وبات تلك الليلة ولم يحس بشيء من الأذى، وأصبح كذلك. فأمر بأن يحمل إليه ثلاثمائة ألف درهم وثلاثون تختاً من أصناف الثياب.

قال إسحاق بن علي الرهاوي، عن عيسى بن ماسة قال: رأيت بختيشوع بن جبريل وقد اعتل، فأمر أمير المؤمنين المتوكل المعتز أن يعوده وهو إذ ذاك ولي عهد. فعاوده ومعه محمد بن عبد الله بن طاهر ووصيف التركي قال: وأخبرني إبراهيم بن محمد المعروف بابن المدبر أن المتوكل أمر الوزير شفاهاً، وقال له: اكتب في ضياع بختيشوع؛ فإنها ضياعي وملكي، ومحلّه منا محلّ أرواحنا من أبداننا.

وقال عبيد الله بن جبريل بن عبد الله بن بختيشوع: هذا المذكور مما يدل على منزل بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه. قال: من ذلك، ما حدثنا به بعض شيوخنا، أنه دخل بختيشوع يوماً إلى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط دار الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي، وقد انفتق ذيلها قليلاً، فجعل المتوكل يحادث بختيشوع، ويعبث بذلك الفتق إلى أن بلغ إلى حد النيفق. ودار بينهما كلام اقتضى أن سأل المتوكل بختيشوع: بماذا تعلم أن المشووش يحتاج إلى الشد والثاقة؟ قال: إذا بلغ في فتق درّاعة طبيبه إلى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وأمر له في الحال بخلع سنية ومال جزيل.

وقال أبو الريحان البيروني في كتاب «الجماهر في الجواهر»^(١): «إن المتوكل جلس يوماً لهدايا النيروز، فقدم إليه كل علق نفيس؛ وكل طريف فاخر. وإن طبيبه بختيشوع بن جبريل دخل - وكان يأنس به - فقال له: ما ترى في هذا اليوم؟ فقال: لي مثل خرباشات^(٢) الشحاذين إذ ليس قدروا قبل على ما معي، ثم أخرج /١٩٣/ من كمه درج أبنوس مطلياً بالفضة وفتحه عن حرير أخضر انكشف عنه ملعقة كبيرة جوهر، لمع منها شهاب، ووضعها بين يديه، فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله، وقال: من أين

(١) الجماهر في الجواهر ١٢٨-١٢٩.

(٢) الخربشة: إفساد العمل والكتاب ونحوه.

[لك] هذا؟ قال: من الناس الكرام، ثم حَدَّثَ:

أنه صار إلى أبي من أم جعفر زبيدة في ثلاث مرات مائة ألف دينار بثلاث شكايات عالجها منه فيها: أحدها أنها شكت عارضاً في حلقتها منذرة بالخناق، فأشار إليها بالفصد والتطفئة والتغذي بحسو وصفه، فأحضر على نسخة في غضارة^(١) صينية عجيبة الصفة وفيها هذه الملعقة، فغمزني أبي على رفعها، ففعلت ولففتها في طيلساني وجاذبنيها الخادم. فقالت له: لاطفئه وأمره بردها، وعوضه منها عشرة آلاف دينار، فامتنعت، وقال أبي: يا سِتِّي إن ابني لم يسرق قط، فلا تفضحيه في أول كراته لئلا ينكسر قلبه. فضحكت ووهبتها له.

وسئل عن الآخرين، فقال: إنها اشتكت إليه تغير النكهة - بإخبار إحدى بطانتها إياها - وذكرت أن الموت أسهل عليها من ذلك، فجوَّعها إلى العصر، وأطعمها سمكاً ممقوراً، وسقاها دردي نبذ دقل^(٢) بإكراه، فغثت نفسها وقذفت. وكرر ذلك عليها ثلاثة أيام ثم قال لها: تنكهي في وجه من أخبرك بذلك واستخبريه هل زال؟

والثالثة أنها أشرفت على التلف من فوق شديد كان يسمع من خارج الحجرة، فأمر الخدم بإصعاد خوابي إلى سطح الصحن وتصنيفها حوله على الشفير وملأها ماء، وجلس خلف كل حُبِّ خادم حتى إذا صفق بيده على الأخرى دفعوها دفعة إلى وسط الدار، ففعلوا وارتفع لذلك صوت شديد أزعجها، «فوُثبت وزايلها الفواق».

قال أبو علي القباني: حدثني أبي قال: دخلت يوماً إلى بختيشوع، وكان من أيام الصيف، وجلست فإذا هو قد رفع طرفه إلى خادمه، وقال له: هات. فجاء بقدر فيه نحو نصف رطل شراب عتيق، وعلى طرف خلاله ذهب وشي أسود فمضغه، وشرب الشراب عليه، وصبر ساعة، فرأيت وجهه يتقد كالنار. ثم دعا بأطباق / ١٩٤ / فيها خوخ جبلي في نهاية الحسن، فأقبل يقطع ويأكل حتى انتهى وسكن تلهبه، وعاد وجهه إلى حاله. فقلت له: حدثني بخبرك؟ فقال: اشتهيت الخوخ شهوة وخفت ضرره فاستعملت الترياق والشراب حتى نقرت الحجر ليجيد الطحن.

ونقلت من بعض الكتب أن بختيشوع كان يأمر بالحقن، والقمر متصل بالذنب، فيحل القولنج من ساعته. ويأمر بشرب الدواء، والقمر على مناظرة الزهرة فيصلح العليل

(١) الغضارة: الطين الحُرّ، وقيل: الطين اللازب الأخضر، والغضار: الصَّحفة المتخذة منه. «لسان العرب: مادة (غضر)».

(٢) الدَّقْل: أراداً التمر.

من يومه.

ولما توفي بختيشوع خلف عبيد الله ولده، وخلف معه ثلاث بنات. وكان الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونهم بالأموال. فتفرقوا واختلفوا وكان موته يوم الأحد لثمان بقين من صفر سنة ست وخمسين ومائتين.

ومن كلام بختيشوع بن جبريل قال:

الشرب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ منه.

وقال: أكل القليل مما يضر، أصلح من أكل الكثير مما ينفع.

ولبختيشوع من الكتب: كتاب «الحجامة» على طريق المسألة والجواب^(١).

ومنهم:

[١٦]

جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع^(٢)

عالمٌ أتقن علم الطبيعة، وأيقن في براء السقام ربيعه، بخاطر يجري عذبه سلسالاً، وتجيء سحبه أرسالاً، لا تلبث العلل معه، ولا تتشبث منه ببارقة مطعمه، علماً وهبه، وعملاً أطفأ ضرم المزاج وفرّق لهبه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان فاضلاً عالماً متقناً لصناعة الطب، جيداً في أعمالها، حسن الدراية، وله تصانيف جليلة في صناعة الطب. وكانت أجداده في هذه الصناعة كل منهم أوجد زمانه وعلامة وقته.

وقال عبيد الله بن جبريل: كان جدي عبيد الله بن بختيشوع متصرفاً، ولما ولي المقتدر استكتبه بحضرته ثم مات، فقبض المقتدر على ماله ثم تقلبت بمخلفيه الأمور

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٠١-٢٠٩.

(٢) جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع: طبيب، عالم، من بيت الطب في العصر العباسي، ولد في بغداد سنة ٣١١هـ/٩٢٣م وتعلم فيها، ورحل إلى شيراز، فاتصل بعرض الدولة، ثم بالصاحب ابن عباد، فأعقد عليه الصاحب إحسانه. وسافر إلى القدس ودمشق، فاتصل خبره بالعزير (ملك مصر) فدعاه إليه، فاعتذر وعاد إلى بغداد، فتوفي فيها سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٦م. من كتبه «الكافي» في الطب، خمس مجلدات، و«الكناش الصغير» في الطب، متناً ورقة، و«المطابقة بين أقوال الأنبياء والفلاسفة».

ترجمته في: عيون الأنباء ١/٢٠٩-٢١٤، الأعلام ٢/١١١.

(٣) عيون الأنباء ٢٠٩.

إلى أن وصل جبريل بغداد، وما معه إلا النزر اليسير، فقصد طبيباً يعرف بتزمره، وقرأ عليه، وكان من أطباء المقتدر وخواصه، وقرأ على / ١٩٥ / يوسف الواسطي، ولازم المارستان ثم اتصل برسول صاحب فارس فطار ذكره إلى فارس وكرمان، وكان سبب خروجه إلى شيراز، واتصل بعضد الدولة وأهدى إليه رسالة في عصب العين، تكلم فيها بكلام حسن، فحسن موقعه عنده، فقرر له جارياً عليه، ثم تعرض لزوج خالة عضد الدولة مرض، فأنفذ إليه فشفي على يده، فأجزل عطاءه وردّه مكرماً ثم صحبه إلى بغداد وأجرى عليه رزقين في البيمارستان غير الجارية ثم عرض لابن عباد مرض صعب في معدته، فجهز له عضد الدولة بما يحتاج إليه، ثم بعث به إليه فلما أتى الري أحسن ابن عباد ملتقاه، وأكرم نزله، ثم امتحنه فظهر له فضله، فخلع عليه خلعاً سنّية ثم أمره بعمل كناش يذكر فيه الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم فعمل كناشه الصغير فحسن موقعه عنده، ثم وصله بما قيمته ألف دينار، ورفع أمره إلى عضد الدولة فزاد موضعه عنده فلما عاد من الري دخل بغداد بزي جميل وأمر مطاع وغلمان وحشم وخدم، وصادف من عضد الدولة ما يسره.

واستدعاه حسام الدولة إلى الموصل، وكانت له امرأة عليلّة بمرض حاد، فأخذ في علاجها وأشار بحفظ القارورة، فاتفق أن كان عنده وإذا بجارية قد جاءت بالقارورة فنظر إلى الماء وقال لحسام الدولة: هذه المرأة تموت، فانزعج لذلك وصرخت الجارية، فقال لها: جرى في أمر هذه الإمراة شيء لا أعلمه، فحلقت الجارية أنها لم تجاوز التدبير فقال: لعلكم خضبتموها بالحناء قالت: قد كان ذلك فحرد وقال لحسام الدولة: ابشر بعد ثلاثة أيام تبرأ فكان كما قال^(١).

ومنهم:

[١٧]

خصيب النصراني^(٢)

خصيب لا يرتعي بكنفه المهزول، وطبيب لا يتوقى طبه إلا من هو عن الحياة معزول، عرف باختيان النفوس، وبيع عوالي المهج برخاص الفلوس، كم اجتثت شجرة لو تركت لطالت سمراتها، وطابت ثمراتها، لا جرم أن جُرمه أوبقه، وجُرّه إلى محبسه،

(١) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٢٠٩-٢١٣.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٤-٢١٥.

ثم ما فتح إلى غير قرارة القبر/ ١٩٦ / مطبعة.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه^(١): من أهل البصرة ومقامه بها، وكان فاضلاً في صناعة الطب جيد المعالجة.

قال محمد بن سلام الجمحي: مرض الحكم بن محمد المازني، فأتوه بخصيب الطبيب يعالجه، فقال فيه: [من مجزوء الرمل]

وَلَقَدْ قُلْتُ لِأَهْلِي إِذْ أَتَوْنِي بِخَصِيبٍ
لَيْسَ وَاللَّهِ خَصِيبٌ لِلَّذِي بِي مِنْ طَبِيبٍ
إِنَّمَا يَعْرِفُ دَائِي مَنْ بِهِ مِثْلُ الَّذِي بِي
وقال ابن سلام: كان خصيب الطبيب نصرانياً نبيلاً، فسقى محمد بن السفاح شربة دواء، وهو على البصرة، فمرض منها، وحمل إلى بغداد فمات بها، فاتهم خصيب، فحبس حتى مات. فنظر في علته إلى مائه وكان عالماً، فقال قال جالينوس: إن صاحب هذه العلة إذا صار ماؤه هكذا لا يعيش، فقليل له إن جالينوس ربما أخطأ، فقال: ما كنت إلى خطئه قط أحوج إليه مني الآن، ومات من علته^(٢).
ومنهم:

[١٨]

عيسى المعروف بأبي قریش^(٣)

عارفٌ لا يعادل في طبه، ولا يعادى معه السقم لخطبه، ولا يؤخر في جدول، ولا يؤرخ زمان به عدل، وكان يرجع إليه فيما التبس، ويكاد يستطلق بتطبيبه السحاب إذا احتبس هذا بالدربة في معرفة قوى العقاقير، ولما سبق له به سعد المقادير.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال^(٤): قال إسحاق بن علي الرهاوي فيما نقله في أن أبا قریش كان صيدلانياً يجلس على موضع بباب قصر الخليفة، وكان ديناً صالحاً وأن الخيزران وجهت بمائها مع جارية لها إلى الطبيب، فلما خرجت رأت أبا قریش فأرته الماء، فقال لها: هذا ماء امرأة حبلى بغلام، فرجعت بالبشارة فقالت لها الخيزران:

(١) عيون الأنباء ٢١٤.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢١٤-٢١٥.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٥-٢١٩، أخبار الحكماء ٤٣٠.

(٤) عيون الأنباء ٢١٥.

ارجعي إليه واستقصي المسألة. فرجعت فقال لها: ما قلت إلا الحق. فلما كان بعد أربعين يوماً أحست الخيزران بالحمل، فوجهت إليه ببدره دراهم، وكتمت الخبر عن المهدي. /١٩٧/ فلما مضت الأيام ولدت موسى الهادي. فأعلمت المهدي وقاله له: إن طبيباً على الباب أخبر بهذا منذ تسعة أشهر. وبعثت إليه بتحف كثيرة، وبلغ هذا جرجس، فأكذبه ثم حبلت بأخيه هرون الرشيد. فقال جرجس للمهدي: جرب أنت هذا الطبيب! فوجه إليه بالماء فلما رآه قال: هذا ماء ابنتي أم موسى، وهي حبلت بغلام آخر. فأثبت المهدي ذلك عنده فلما مضت الأيام، ولدت هارون، فلم يزل يطرح عليه الخلع وبدر الدراهم والدنانير حتى علت رأسه، وصير موسى وهارون في حجره، وكناه أبا قريش لعينهما. وقال لجرجس: هذا شيء أنا بنفسي جربته. ثم صار نظير جرجس في الرتبة، وخلف اثنين وعشرين ألف دينار مع نعمة سنية.

وكثر تخم عيسى بن جعفر المنصور حتى كان يأتي على نفسه، فغم لذلك الرشيد، وقال لأبي قريش، فقال له: يا أمير المؤمنين إنه رزق معدة صحيحة، وبدناً قابلاً، ودهراً مسالماً، والأبدان ما لم تختلط على أصحابها في أحوالهم لا يؤمن عليهم منها التلف، وإن لم تنظر له في موجدتها عليها أو أحد عزيز عليه من حرمه، لم تأمن عليه، فقال: لا حيلة عندي في الموجدة عليه، ولكن احتل أنت، فذهب إليه، ثم جس عرقه وأعلمه أنه يضطر إلى محنته ثلاثة أيام قبل العلاج، فأمره بذلك، فلما فرغ منه في اليوم الثالث، قال له: إن الوصية مباركة، وهي غير مقدمة لأجل ولا مؤخرة له، فإن رأى الأمير أن يعهد، فإن لم يحدث حادث قبل أربعين يوماً عالجه في ذلك بعلاج لا يمضي عليه ثلاثة أيام حتى يبرأ، ونهض وقد امتلأ قلب الرجل فانحط كثير من لحمه، واستتر أبو قريش خوفاً من إفشاء الخبر، فلما كان يوم الأربعين صار إلى الرشيد، وقال: لا شك في نقصان بدن عيسى، فركب إليه الرشيد ودخل عليه ومعه أبو قريش، فوجدوا لحمه قد نقص نقصاً كثيراً، فقال له عيسى بن جعفر: أطلق لي يا أمير المؤمنين قتل هذا الكافر، فقد قتلني بما أدخل عليّ من الروح، فقال له: يا أخي تمتع بك بأبي قريش، /١٩٨/ ردت إليك الحياة بعد الموت فاشكر الله، فنعّم الحيلة احتال لك، وقد أمرت له بعشرة آلاف دينار، فأوصل أنت إليه مثلها، ففعل وانصرف أبو قريش إلى منزله بالمال، ولم يرجع إلى عيسى بن جعفر الشحم إلى أن فارق الدنيا^(١).

ومنهم:

[١٩]

ابن اللجلاج^(١)

عارفٌ بالأسباب والعلامات، عالم إذا نعى العلى مات كأنما حدس كهانة، وظنه البعيد تمثّل له عيانه، درب العلاج حتى عُرف بغلبة الظن إلى أن تتناهى الأعمار، وتتمادى مدد البقاء في هذه الدار، وزاد في التقريب، وكان كل شيء من عنده بمقدار.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): قال اسماعيل بن أبي سهل الطبيب عن أبيه قال: ترافقت أنا وابن اللجلاج أيام المنصور في حجة التي حج فيها، فكان إذا نام المنصور تنادى، فسألني ابن اللجلاج وقد عمل فيّ النبيذ عما بقي من عمر المنصور، فأعظم أبي ذلك، وقطع النبيذ وجعل على نفسه ألا ينادمه ثم اصطالحا، فلما جلسا على نبيذهما، قال ابن اللجلاج لأبي سهل: سألتك عن علمك ببعض الأمور فبخلت به وهجرتني، ولست أبخل عليك فاسمعه ثم قال: إن المنصور رجل محرور وتزداد يبوسة بدنه كلما أسن، وقد حلق رأسه، وجعل مكان الشعر غالية وهو في هذا الحجاز يداوم الغالية، وما يقبل قولِي في تركها، ولا أحسبه يبلغ إلى فيد حتى يحدث في دماغه اليبس ما لا يكون عندي، ولا عند أحد من المتطببين حيلة في ترطيبه. فليس يبلغ فيد، إن بلغها، إلا مريضاً؛ ولا يبلغ مكة، إن بلغها، وبه حياة. قال اسماعيل بن أبي سهل، قال لي أبي: فوالله ما بلغ المنصور فيد إلا وهو عليل؛ وما وافى مكة إلا وهو ميت، فدفن ببئر ميمون.

ومنهم:

[٢٠]

عبد الله الطيفوري^(٣)

هبت له رياح ثم سكنت، وتنهت له عيون رياح ثم وسنت، وانتعش جده الخامل، ثم غلب عليه الخمول، ورنح غصنه المائل، ثم عاجله الذبول، وظنّ أن بارقته ممطرة، وقد رأى ركامها، وأمل/١٩٩ زهامها فما سقته إلا رشاشا، ولا أقامته إلا وسقط يتغاشى.

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٢١٩، أخبار الحكماء ٤٣٩.

(٢) عيون الأنباء ٢١٩.

(٣) كان حياً سنة ١٥٨هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٠-٢٢٤، أخبار العلماء ٢١٨.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان حسن العقل، طيب الحديث على لكنة سوداء به، كانت في لسانه شديدة. وكان مولده في بعض قرى كسكر وكان من أحظى خلق الله عند الهادي.

قيل: كان مولى الخيزران، والأصح أنه كان مطبياً لأخيها طيفور فنسب إليه، لما وجه المنصور المهدي إلى الري لمحاربة من بها، حمل معه الخيزران وهي حامل بموسى، وخرج معها طيفور، والطيفوري معه، ولم تكن الخيزران شعرت بالحمل، فبعثت قارورة لها تريها الأطباء فأئتت الجارية بها أبا قريش الصيدلاني، فقال: هذه قارورة حامل بغلام فأدت قوله إلى الخيزران، فسرت وعتقت عدة رقاب، وأعلمت المهدي فأحضره وسأله، فقال ذلك، فسر أكثر من سرورها ووصله كل منهما بمال جزيل، وأمره بلزوم الخدمة وترك خيمته وما كان فيها من متاع الصيادلة.

قال: فأراد طيفور أن ينفعني فبعث بي إلى الخيزران، وقال: هذا طببي ماهر بالطب فابعثي إليه بالماء ليراه، ففعلت ذلك، فقال لي: قل لها كما قال أبو قريش، فقلت: ذلك ما لا أقوله لأنني لا أكتسب بالمخرقة، ولكن هذه قارورة حامل، فأمرت لي بألف درهم، فلما وافت الري ولدت الهادي، فضممت إليه ودعيت بطيبه وهو رضيع وفطيم، ثم ولدت أخاه الرشيد فكان مولده شؤماً على الهادي؛ لأنه فاز بالخطوة دونه فأضرنني ذلك في جاهي، فلما أدرك الهادي الخلافة رفع من شأني^(٢).

ومنها:

[٢١]

إسرائيل بن زكريا الطيفوري، طيب الفتح بن خاقان^(٣)

كان يدل بتقدمه في فنه، ويدل على هذا غضبه على ملكه، وقد احتجم بغير إذنه لاشتداد معرفته بقوى الأمزجة، وقدر فاقة الأبدان المليئة والمحوجة، وكان حسن الامتزاج يكاد يصلح بين نافر الاعتدال والمزاج.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(٤) وقال فيه: كان مقدماً في صناعة الطب، جليل القدر عند

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٢٠.

(١) عيون الأنباء ٢٢٠.

(٣) توفي سنة ٥٤٧ هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٥، أخبار العلماء ١٨٧.

(٤) عيون الأنباء ٢٢٥.

الخلفاء والملوك، / ٢٠٠ / وكان مختصاً بابن خاقان، وله منه الإنعام الوافر، وكان المتوكل يعتمد عليه، وصار عنده إلى منزلة بختيشوع، وكان متى ركب إلى دار المتوكل ركب في مثل مواكب الأمراء الأجلاء القواد، وأمر المتوكل صقلاب وابن الحيري بالركوب معه ثم أقطعه قطعة بسر من رأى، فاخترها لنفسه خمسين ألف ذراع، وأعطاه ثلاثمائة ألف درهم لينفقها عليه، فحازها وضرب المنار عليها.

وحكى الرهاوي: أن إسرائيل ابن الطيفوري وجد على المتوكل إذ احتجتم بغير إذنه، فاقتدى غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل في السنة خمسين ألف درهم وهبها له وسجل له عليها.

وحكى ابن ماسويه قال: رأيت المتوكل وقد عاد إسرائيل وهو مريض قد غشي عليه، فجعل يده تحت رأسه مخدة له، ثم قال للوزير: حياتي معلقة بحياته إن عدمته لا أعيش، ثم كان يبعث سعيد بن صالح صاحبه وموسى بن عبد الملك كاتبه يعودانه عنه. ومنهم:

[٢٢]

يزيد بن يوحنا بن أبي خالد^(١)

وكان لا يخطيء له صواب، ولا يبطن به جواب، وكان في طبه جد المأمون؛ خدم به المتصاوان ابن المهدي والمأمون، لأنه كان لا يتهم، ولا تسري وتدلج إليه التهم، لعلم يقين منه عقد عليه الأنامل، واقعد لديه كل أمل.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان جيد العلم، حسن المعالج، موصوفاً بالفضل. خدم المأمون، وابن المهدي، وكان له منه العناية الظاهرة، وله عليه الجامكية الوافرة.

قال ابن المهدي: إن أبا عثمان ثمامة العبسي صاحب الحيار اعتل علة تناولت به، وكان شيخاً كبيراً، قال ابن المهدي فسألني الرشيد عن علته وأين بلغت به، فأعلمته أنني لا أعلم له خبراً، فأظهر انكاراً لقولي، ثم قال: رجل غريب من أهل الشرق قد رغب في مصاهرة أهله عبد الملك بن مروان، وقد ولدت أخته خليفتين الوليد وسليمان

(١) كان حياً ١٩٨ هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٦-٢٢٨ وفيه اسمه: «يزيد بن زيد بن يوحنا...»، أخبار العلماء

٣٩٥، العلوم العملية - الطب، كحالة ١٦، أعلام الحضارة ٢/ ٥٣٣.

(٢) عيون الأنباء ٢٢٦.

ابني عبد الملك، / ٢٠١ / وقد رغب أبوك في مصاهرته. فتزوج أخته ورغبت أنا وأخوك في مثل ذلك منه فتزوجت ابنته، وهو مع ذلك صحابي لجدك وأبيك، ولأخيك وأخيك، فلا توجب على نفسك عيادته؟ ثم أمرني بالمصير إليه لعيادته، فنهضت وأخذت معي متطبيي يزيد وصرت إليه. فدخلت على رجل توهمت أنه في آخر حشاشة بقيت من نفسه، ولم أر فيه للمسألة موضعاً. فأمر يزيد متطبيي بإحضار متطبيه فحضر، فسأله عن حاله فأخبر أنه يقوم في اليوم واللييلة مائة مجلس. وأقبل يزيد يسأل المتطب عن باب باب من الأدوية التي تشرب والسفوفات والحقن، فلم يذكر لذلك المتطب شيئاً إلا أعلمه أنه قد عالجه به فلم ينجح فيه. فوجم عند ذلك يزيد مقدار ساعة، وقال: قد بقي شيء واحد أن أعمل به رجوت أن ينتفع به، وإن لم ينجح فلا علاج له.

قال أبو إسحاق: فرأيت ثمامة قد قويت نفسه عندما سمع من يزيد ما سمع ثم قال: وما ذلك الشيء الذي بقي، متعت بك؟ قال له: شربة اصطمخيفون. فقال ثمامة: أحب أرى هذه الشربة حتى أشم رائحتها. فأخرج يزيد من كفه منديلاً فيه أدوية، وفيه شربة اصطمخيفون. فأمر بها ثمامة فحلت، ثم أتى بها فرمى بها في فيه وابتلعها. فوالله ما وصلت إلى جوفه حتى سمعت منه أصواتاً لم أشك في أنني لم أبلغ باب داره إلا وقد مات. فنهضت ومتطبيي معي، وما أعقل غماً. وأمر خادماً لي يكون يحمل معي الاسطرلاب إذا ركبت بالمقام في داره، وتعرف خبر ما يكون منه. فتخلف، فوافاني كتاب الخادم بعد الزوال يعلمني أنه قام من بعد طلوع الشمس إلى زوالها خمسين مرة فقلت: تلفت والله نفس ثمامة. ثم وافى كتاب الخادم بعد غروب الشمس أنه قام منذ زوال الشمس إلى غروبها عشرين مجلساً. ثم صار إليّ الغلام مع طلوع الشمس، فذكر أنه لم يكن منه منذ غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلا ثلاثة مجالس، ولم يكن منه إلى / ٢٠٢ / وقت طلوع الفجر شيء. فركبت إليه بعد أن صليت الغداة فوجدته نائماً، وكان لا ينام، فانتبه إليّ وسألته عن خبره، فأخبرني أنه لم يزل في وجع من جوفه مانع له النوم والقرار منذ أكثر من أربعين ليلة حتى أخذ تلك الشربة. فلما انقطع فعل الشربة انقطع عنه ذلك الوجع، وأنه لم يشته طعاماً منذ ذلك الوقت وأنه ما يصبر في وقته من غلبة الجوع عليه. وسأل الإذن في الأكل، فأذن له يزيد في أكل اسفيذاج قد طبخ في فروج كسكري سمين، ثم اتباعها زيرباجة، ففعل ذلك. وصرت إلى الرشيد فأخبرته بما كان من أمر ثمامة. فأحضر المتطب وقال له: ويحك كيف أقدمت على إسقائه حب الأصطمخيفون؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل كان في جوفه دواء ولا غذاء إلا أفسده الكيموس. وكان كلما فسد من تلك الأدوية والأغذية صار مادة لذلك الفساد،

فكانت العلة لهذا السبب تزداد. فعلمت أنه لا علاج له إلا بدواء قوي يقوى على فعل ذلك الكيموس. وكان أقوى الأشياء التي يمكن أن يسقاه الأصبطمخيفون، فقلت له فيه الذي قلت. ولم أقدم أيضاً على القول أنه يبرئه لا محالة، وإنما قلت بقي شيء واحد فإن هو لم ينفعه، فلا علاج له. وإنما قلت ذلك؛ لأنني رأيت الرجل عليلًا قد أضعفته العلة، وأذهبت أكثر قواه. فلم آمن عليه التلف إن شربه، وكنت أرجو له العافية بشربه إياه، وكنت أعلم أنه إن لم يشربه أيضاً تلف. فاستحسن الرشيد ما كان من قوله ووصله بعشرة آلاف درهم. ثم عاد الرشيد ثمامة وقال: لقد أقدمت من شرب ذلك الدواء على أمر عظيم، وخاصة إذا كان المتطبب لم يصرح لك بأن في شربه العافية. فقال ثمامة: يا أمير المؤمنين، كنت قد يئست من نفسي وسمعت المتطبب يقول إن شرب هذا الدواء رجوت أن ينفعه، فاخترت المقام على الرجاء ولو لحظة، على اليأس من الحياة، فشربته وفي ٢٠٣/ ذلك خيرة من الله عزيمة^(١).

ومنهم:

[٢٣]

عبدوس بن زيد^(٢)

وكان طبيباً حاذقاً، ومصيباً لا يزال برأيه موافقاً، وله فضل من السحاب لو جر دلاله، ونبل يتمنى لو كان فيه نقص يشغل عواذله.

قال أبو علي القباني عن أبيه: إن القاسم بن عبيد الله مرض في حياة أبيه مرضاً حاداً في تموز وحصل به القولنج الصعب، فانفرد بعلاجه عبدوس بن زيد وسقاه ماء أصول قد طبخ، وطرح فيه أصول الكرفس، والرازيانج، ودهن الخروج وجعل فيه شيئاً من أيارج فيقرا، فحين شربه سكن وجعه وأجاب طبعه مجلسين، فأفاق، ثم أعطاه من غد ذلك اليوم ماء شعير فاستظرف هذا منه.

قال أبو علي القباني أيضاً: إن أخاه إسحاق بن علي مرض وغلبت الحرارة على مزاجه، والنحول على بدنه، حتى أداه إلى الضعف وردّ ما يأكله. فسقاه عبدوس بن زيد هذه الأصول ودهن الخروج في حزيران أربعة عشر يوماً، فعوفي وصلحت معدته.

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) توفي نحو سنة ٣٠٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٢٨، أخبار العلماء ٢٥١، العلوم العملية - الطب لكحالة ٢١، الأعلام ١٧٩/٤، أعلام الحضارة ٦٢/٢ رقم ٣٠٢.

وقال: في مثل هذه الأيام تحم حمى حادة، فإن كنت حياً خلصتك بإذن الله، وإن كنت ميتاً فعلامه عافيتك له دائرة سنة أن تنطلق طبيعتك في اليوم السابع؛ فإن انطلقت عوفيت ومع هذا فقد تقوّت معدتك بقوّى لو طرحت فيها الحجارة لطحتتها. فلما انقضت السنة مرض عبدوس، وحم أخى كما قال، وكان مرضهما في يوم واحد. فما زال عبدوس يراعي أخى ويسأل عن خبره إلى أن قيل له انطلقت طبيعته، فقال: قد تخلص.

ومات عبدوس في الغد من ذلك اليوم.

ولعبدوس بن زيد من الكتب: كتاب «التذكير في الطب».

ومنها:

[٢٤]

ماسرجويه^(١)

طبيب البصرة، هو أول من ترجم، وعرب ما أعجم، وكان صلب العود صعب الجلمود، لا ينقل إلا ما حرره، وفصل كلمه على قدر المعنى وقدره، لا يتجاوز في كلمة يعبر بها عن معنى ما لم تكن دالة عليها / ٢٠٤ / بالمطابقة، مقابلة في اللغة الأخرى لما نظرت به موافقة، وهو على هذا ظريف العبارة، لطيف الحديث إذا سمعت أخباره.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): هو الذي نقل كناش أهرن من السرياني إلى العربي. وكان سريانياً يهودي الدين، وهو الذي يعنيه الرازي بقوله: قال اليهودي.

قال ابن جليل: كان ماسرجويه أيام بني أمية. وعرب كناش أهرن لهم كان في خزائنهم فلما ولي عمر بن عبد العزيز، أخرجه فوضعه في مصلاه، واستخار الله فيه أربعين يوماً ثم أخرجه إلى المسلمين للانتفاع به.

قال الكسروي: كان أبو نواس يعشق جارية لامرأة من ثقيف تسكن موضعاً يعرف بحكمان من أرض البصرة يقال لها جنان، وكان أبو عثمان، وأبو أمية الثقفيان من أقارب مولاتها. فكان أبو نواس يخرج كل يوم من البصرة يتلقى من يرد من ناحية حكمان فيسألهم عن أخبار جنان. قال: فخرج يوماً وخرجت معه، فكان أول قادم عليه ماسرجويه، فقال له أبو نواس كيف خلفت أبا عثمان وأبا أمية.. فقال ماسرجويه: جنان

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٢٣٢-٢٣٤، أخبار العلماء ٣٢٤.

(٢) عيون الأنباء ٢٣٢.

صالحة الحال كما تحب. فقال: [من الخفيف]

أَسْأَلُ الْقَادِمِينَ مِنْ حَكَمَانِ كَيْفَ خَلَفْتُمْ أَبَا عُثْمَانَ
وَأَبَا أُمَيَّةَ الْمُهَذَّبَ وَالْمَأْمُولَ وَالْمُرْتَجَى لَرَيْبِ الزَّمَانِ
فَيَقُولُونَ لِي: جَنَانٌ كَمَا سِرَ رَكَ فِي حَالِهَا فَسَلْ عَنْ جَنَانِ
وَقَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ مَاسْرَجُوهِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي بَلَيْتُ بَدَاءَ عَظِيمٍ،
أَصْبَحَ وَبَصْرِي عَلَيَّ مَظْلَمٌ، وَأَنَا أَجِدُ مِثْلَ لِحْسِ الْكَلَابِ عَلَى مَعْدَتِي، فَلَا تَزَالُ هَذِهِ
حَالَتِي حَتَّى أَكُلَ، فَإِذَا أَكَلْتُ، سَكَنَ عَنِّي مَا أَجِدُ إِلَى وَقْتِ الظَّهْرِ، ثُمَّ يَعَاوِدُنِي مَا كُنْتُ
فِيهِ، فَإِذَا عَاوَدْتُ الْأَكْلَ، سَكَنَ مَا بِي إِلَى وَقْتِ الْعِشَاءِ، ثُمَّ يَعَاوِدُنِي مَا كُنْتُ فِيهِ حَتَّى
أَكُلَ فَقَالَ مَاسْرَجُوهِ: عَلَى هَذَا الْمَرَضِ غَضِبَ اللَّهُ، / ٢٠٥ / فَإِنَّهُ أَسَاءَ لِنَفْسِهِ الْاِخْتِيَارَ
إِذْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا لِسْفَلَةٍ مِثْلِكَ. فَقَالَ لَهُ: مَا أَفْهَمُ مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ مَاسْرَجُوهِ: هَذِهِ صِحَّةٌ لَا
تَسْتَحِقُّهَا، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى نَقْلَهَا عَنْكَ إِلَى أَحَقِّ بِهَا مِنْكَ.

وَقَالَ: شَكُوْتُ إِلَى مَاسْرَجُوهِ تَعْذِرُ الطَّبِيعَةَ، فَقَالَ لِي: أَيُّ الْأَنْبِذَةِ تَشْرَبُ، فَقُلْتُ
الدُّوْشَابَ الْبِسْتَانِي الْكَثِيرَ الدَّادِي. فَأَمَرَنِي أَنْ أَكُلَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ عَلَى الرِّيقِ
قِثَاءً صَغِيرَةً فَأَكُلَ مِنْهُ الْخَمْسَ وَالسَّتَ وَالسَّبْعَ، فَكَثُرَ عَلَيَّ الْإِسْهَالُ، فَشَكُوْتُ إِلَيْهِ فَلَمْ
يَكْلَمْنِي حَتَّى حَقَنَنِي بِحَقْنَةٍ كَثِيرَةٍ الشَّحُومِ وَالصَّمُوغِ وَالْخَطْمِيِّ وَالْأَرَزَ الْفَارْسِيَّ، ثُمَّ قَالَ
لِي: كَدْتُ تَقْتُلُ نَفْسَكَ بِإِكْثَارِكَ مِنَ الْقِثَاءِ عَلَى الرِّيقِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَحْدَرُ مِنَ الصَّفَرَاءِ مَا
يُزِيلُ عَنِ الْأَمْعَاءِ مِنَ الرُّطُوبَاتِ اللَّاصِقَةِ بِهَا مَا يَمْنَعُ الصَّفَرَاءَ مِنْ سَحْجِهَا وَإِحْدَاثِ
الدُّوسَنْطَارِيَا فِيهَا^(١).

ومنه:

[٢٥]

سلمويه بن بيان^(٢)

جَلَّ فِي الْعَيَانِ، وَحَلَّ فِي الْأَعْيَانِ، وَكَانَ لَهُ شَأْنٌ لَا تَغْصُ بِهِ الْمَآقِي، وَلَا يَغْضُ
الْأَيَّامَ عَلَى لِيَالِيهِ الْبَوَاقِي، وَسَعَدَ بِهِ أَخُوهُ وَصَعِدَ رَتَبُ النَّظَرَاءِ، وَلَمْ يُوَاخُوهُ.
ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي أَصْيَبَةَ^(٣) وَقَالَ فِيهِ: لَمَّا اسْتَخْلَفَ الْمَعْتَصِمَ، اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، وَقَرَّبَهُ

(١) إِلَى هُنَا يَنْتَهِي النُّقْلُ مِنْ عَيُونِ الْأَنْبَاءِ ٢٣٢-٢٣٤.

(٢) وَرَدَ اسْمُهُ فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ: «سَلْمُويَةُ بْنُ بَنَانٍ» تُوُفِيَ سَنَةَ ٢٢٥هـ.

تَرْجَمْتُهُ فِي: عَيُونِ الْأَنْبَاءِ ٢٣٤-٢٤٠، أَخْبَارِ الْعُلَمَاءِ ٢٠٧، الْفَهْرَسْتُ ٤٦٦، الْبَابُ فِي تَهْذِيبِ
الْأَنْسَابِ ١/٥٥٥، الْعُلُومُ الْعَمَلِيَّةُ - الطَّبُّ لِكَحَالَةِ ١٦، أَعْلَامُ الْحَضَارَةِ ١/٤٦١ رَقْمُ ٢٣٨.

(٣) عَيُونِ الْأَنْبَاءِ ٢٣٤.

حتى كانت التواقيع في السجلات وغيرها تصدر عن المعتصم بخطه، وولى أخاه بيوت الأموال وسلمه خاتمه، وكان سلمويه نصرانياً محمود السيرة وافر العقل. قال إسحاق بن حنين عن أبيه: أنه كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطب، ولما اعتل، عادة المعتصم، وبكى عنده واستشاره فيمن يكون بعده، وكان المعتصم قد أرصده لعرض حوائج إبراهيم بن المهدي أوقات خلوته. ومنهم:

[٢٦]

إبراهيم بن فزارون^(١)

كان موقراً لا تحل له حبة، ولا تحط له ربوة، ولا تبارى به الثريا إذا لاحت، ولا الحميا إذا فاحت، وكان مقدماً لتطبيب / ٢٠٦ / الأرواح، وتطبيب الأوقات بالأفراح. لا يزال ينشر ألوية المدام، ويؤثر أندية الندام، ويسيرها كؤوساً تجول أشعتها حول أوانيتها، وتجول أقاصي البلاد أدانيتها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان شيخ بني فزارون الكتاب. قال يوسف بن إبراهيم: كان إبراهيم بن فزارون قد خرج مع غسان بن عباد إلى السند. فحدثني أن غسان بن عباد مكث بأرض السند من يوم النيروز إلى يوم المهرجان يشتهي أن يأكل قطعة لحم باردة، فما قدر على ذلك. فسألته عن السبب فقال: نطبخه فلا يبرد حتى يروح فيرمي به.

قال يوسف: وأخبرني إبراهيم بن فزارون أنه ما أكل بأرض السند لحماً استطابه إلا لحوم الطواويس وأنه لم يأكل لحماً قط أطيب من لحم الطواويس ببلاد السند.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن فزارون أنه رفع إلي غسان بن عباد أن في النهر المعروف بمهران بأرض السند سمكة تشبه الجدي، وأنها تصاد ثم يطين رأسها وجميع بدننها إلى موضع مخرج الثفل منها، ثم يجعل ما لم يطين منها على الجمر، ويمسكها ممسك بيده حتى يستوي منها ما كان موضوعاً على الجمر، وينضج ثم يؤكل ما نضج أو يرمى به؛ وتلقى السمكة في الماء ما لم ينكسر العظم الذي لصلب السمكة فتعيش السمكة وينبت على عظمها اللحم. وأن غسان أمر بحفر بركة في داره وملأها ماء وأمر

(١) كان حياً بحدود سنة ٢١٣هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤٠-٢٤١، أخبار العلماء ٧٤، معجم الأطباء ٥٩، أعلام الحضارة

٣٨ / ٦٣ رقم ٣٨.

(٢) عيون الأنباء ٢٤٠.

بامتحان ما بلغه.

قال ابراهيم: فكنّا نؤتى كل يوم بعدة من هذا السمك فنشويه، على الحكاية التي ذكرت لنا، ونكسر من بعضه عظم الصلب ونترك بعضه لا نكسره، فكان ما يكسر عظمه يموت، وما لم يكسر عظمه يسلم وينبت عليه اللحم ويستوي الجلد. إلا أن جلدة تلك السمكة تشبه جلدة الجدي الأسود، وما قشرناه من لحوم السمك التي شويناها ورددناها إلى الماء / ٢٠٧ / يكون على غير لون الجلدة الأولى؛ لأنه يضرب إلى البياض.

قال يوسف: وسألت إبراهيم بن فرازون عن قول من يزعم أن مهران وهو يصب في النهر الملح إلا أن علماء الهند والسند أعلموني أن مخرج النيل مخرج نهر مهران من عين واحدة عظيمة، فنهر مهران يشق أرض السند حتى يصب في بحرها المالح، والنهر الآخر يشق أرض الهند وجميع أرض السودان حتى يخرج إلى أرض النوبة، ثم يصب باقيه في أرض مصر فيرويهها، ثم يصب باقيه في بحر الروم^(١). ومنهم:

[٢٧]

إبراهيم بن أيوب الأبرش^(٢)

كان يعرف كيف تصاد الدراهم، ويعالج جراح الفقر من ضمادات أكياسها المراهم، بصيراً بتعديل المزاج بشربها، خبيراً بهذا العلاج بطبها، وصادف وقتاً قابلاً، وملكاً يهب، وشفيعاً قائلاً، فجمع ما لم يجمع، وحصل من المال ما لا يرى مثله ولا يسمع.

قال عيسى بن ماسة: رأيت الأبرش وقد عالج اسماعيل أخا المعتز، فلما برىء كلمت قبيحة أمه المتوكل ليهبه، فقال لها: مهما أعطيتيه أعطيته مثله، فأمرت له قبيحة بيدرة، فأمر له المتوكل بمثلها، فأمرت بيدرة أخرى فأمر له المتوكل بمثلها فما زالا يحضران البدر حتى أحضر كل منهما ست عشرة بدرة، ثم أومأت إلى جاريتها أن تمسك، فقال الأبرش: لا تقطعي وأنا أرد عليك، فقالت له: خذ ما حضر فإنه لا يملأ عينك شيء، فقال المتوكل: والله لو أعطيته إلى الصباح، لأعطيته مثل ذلك، ثم لما

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٤٠-٢٤١.

(٢) توفي سنة ٢٥٥هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤١، معجم الأطباء ٥٦، أعلام الحضارة ١/ ٥١ رقم ٢٩.

أفضت الخلافة إلى المعتز، كان أخص الأطباء عنده لمكانه من أمه قبيحة، فلما خلع المعتز قبض عليه صالح بن وصيف.
ومنهم:

[٢٨]

ماسويه بن يوحنا^(١)

دخل على الملك من بابه، وتوصل إلى الفلك بأسبابه، وانتقل من خاصة الكحل إلى عامة تدبير الجسد، وتقرير إصلاح ما فسد، ثم لم يزل في مزيد في الصناعة، وتجديد ما ينمي مكاسب البضاعة إلى أن / ٢٠٨ / صار لا يمتري في نفاقه، ولا يمتار إلا من فواضل أسواقه، ولا يُطَبَّب عليل بالطف من شمائل أخلاقه.

ذكره الترجمان كيف تنقل وآخر أمره أنه عالج عين خادم الفضل بن الربيع، فشكا الفضل عينه، فأوصله إليه فلم يزل يكحله إلى ثلث الليل، ثم سقاه دواء مسهلاً فصلح به، فأجرى عليه رزقاً.

فما مضت إلا أيام حتى اشتكت عين الرشيد، فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين طيبي ماسويه من أحذق الناس بالكحل. فأمر بإحضاره، ثم قال له: هل تحسن شيئاً من الطب سوى الكحل؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وكيف لا أحسن وقد خدمت المرضى بالبيمارستان؟ فأدناه منه فنظر في عينيه، فحجمه في ساقه، وقطر في عينيه، فبرىء بعد يومين. فأمر بأن يجرى عليه في الشهر ألفا درهم، وعلوفة ومعونة في السنة عشرون ألف درهم.

ثم اعتلت أخت الرشيد، فعالجها جبريل بأنواع العلاج فلم تنتفع، فاغتم بها، فقال الرشيد ذات يوم: قد كان ماسويه ذكر أنه خدم المرضى بالمارستان، وعالج الطبائع فيدخل على عيلتنا لعل عنده فرجاً. فأحضر جبريل وماسويه، فقال له ماسويه: عرفني حالها وجميع ما دبرتها به إلى وقتنا هذا. فقص عليه، فقال ماسويه: التدبير صالح، والعلاج مستقيم، ولكن أحتاج إلى أن أراها. فأمر الرشيد بأن يدخل إليها فلما تأملها، وجس عرقها بحضرة الرشيد، وخرجوا من عندها. قال ماسويه للرشيد: يكون لك طول العمر والبقاء، هذه تقضي بعد غد ما بين ثلاث ساعات إلى نصف الليل. فقال جبريل: كذب يا أمير المؤمنين، إنها تبرأ وتعيش. فأمر الرشيد بحبس ماسويه ليسبر ما

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٢-٢٤٦ وفيه اسمه: «ماسويه أبو يوحنا».

قاله، وقال: ما رأينا بعلم الشيخ بأساً. فلما كان الوقت الذي وقته ماسويه، ماتت فأمر الرشيد بإخراجه وصيره نظير جبريل في رزقه ونزله وعلوفته ومعونته ومرتبته ومرتبته. ومنهم:

[٢٩]

يوحنا بن ماسويه^(١)

طبيب على يديه الشفاء، ولديه الوفاء، ما جال / ٢٠٩ / رأيه المصيب إلا فلأفلاطون، وجال فكر جالينوس لعله مثله يكون، وود ابن آثال لو نحت من أثلته، وتشوق الحارث للمقيل تحت نخلته، وسر السريان إذ كان منهم معدوداً، وآن لليونان أن يساءوا إذ لم يكن منهم له ولوداً، ولا منه لهم ودوداً. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً، ذكياً، فاضلاً، خبيراً بصناعة الطب، وله كلام حسن، وتصانيف مشهورة، وكان حظياً عند الخلفاء والملوك.

(١) يوحنا بن ماسويه البغدادي، المعروف بالأكبر، أبو زكريا: من علماء الأطباء. سرياني الأصل. عربي المنشأ، كان أبوه صيدلانياً في جنديسابور (بخوزستان) ثم من أطباء العين، في بغداد. وتقدم، وخدم الرشيد. وبغداد نشأ ابنه يوحنا (صاحب الترجمة) ونبغ حتى كان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة، في أنقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم؛ وجعله أميناً على الترجمة؛ ورتب له كتاباً حاذقين بين يديه. ولم يقتصر عمله على خدمة العلم بل خدم الرشيد والمأمون ومن بعدهما إلى أيام المتوكل، بمعالجتهم وتطبيب مرضاهم، حتى كانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات المقوية والهاضمة. وأصاب شهرة واسعة وثروة طائلة. وكان مجلسه ببغداد أعمر مجلس، يجمع الطبيب والمتفلسف والأديب والظريف. له نحو أربعين كتاباً معظمها رسائل، منها «البرهان» يقال: في ثلاثين جزءاً، و«الأزمنة - خ» و«النوادر الطبية - ط» و«ماء الشعير - ط» صفحتان، و«جواهر الطب المفردة - ط» و«المشجر - خ» و«خواص الأغذية والبقول - خ» و«الفوز الأصغر - خ» رسالة، في المجموع ١٩٣٣ بخزانة أسعد أفندي، باستنبول، وصفها الميمني في مذكراته بأنها جلية و«معرفة العين وطبقاتها - خ» و«دغل العين - خ»، و«الحميات - خ» وقد ترجم هذان إلى العبرية، ومنهما مخطوطتان بها. توفي بسمراء سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م، يسميه الفرنج: Mesue.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٤٦-٢٥٥، أخبار العلماء ٣٨٠، طبقات الأطباء ٦٥، اكتفاء القنوع ١٧٧، ٢١٥، أعلام الحضارة ٢/ ٥٧٦-٥٦٨ رقم ٥٨٦ وفيه قائمة بمصادر ترجمته، الأعلام ٨/ ٢١١، الفهرست لابن النديم ٢٩٥، آداب اللغة العربية ٢/ ٣٣، الفهرس التمهيدي ٥٣٦، دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٧١.

(٢) عيون الأنباء ٢٤٦.

قال إسحاق بن علي الرهاوي في كتاب «أدب الطبيب» عن عيسى بن ماسه الطبيب، قال: أخبرني أبو زكريا يوحنا بن ماسويه أنه اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم، وعاش بعد قوله هذا ثلاث سنين آخر. وكان الواصل مشغولاً ضيقاً به، فشرب يوماً عنده فسقاه الساقى شرباً غير صاف ولا لذيق، على ما جرت به العادة، وهذا من عادة السقاة إذا قصر في برهم. فلما شرب القدر الأول قال: يا أمير المؤمنين، أما المذاقات، فقد عرفتُها واعتدتها، ومذاقة هذا الشراب فخارجة عن طبع المذاقات كلها، فوجد أمير المؤمنين على السقاة، وقال: تسقون أطباءي، وفي مجلسي، مثل هذا الشراب! وأمر ليوحنا بهذا السبب، وفي ذلك الوقت، بمائة ألف درهم ودعا بسمانة الخادم، وقال له: احمل إليه المال الساعة، فلما كان وقت العصر سأل سمانة الخادم هل حمل مال الطبيب أم لا؟ فقال: لا، بعد، فقال: يحمل إليه مائتا ألف درهم الساعة. فلما وصلوا العشاء، سأل عن حمل المال فقيل له: لم يحمل بعد، فدعا بسمانة وقال: احمل له ثلاثمائة ألف درهم. فقال سمانة لخازن بيت المال: احملوا مال يوحنا وإلا لم يبق في بيت المال شيء. فحمل إليه من ساعته.

قال سليمان بن حسان: كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً. قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين سبأها المسلمون، ووضعها أميناً على الترجمة، وخدم هرون والأمين والمأمون، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل. قال: وكانت ملوك بني هاشم/ ٢١٠/ لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضرته، وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني بالجوارشات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف بالأشربة الباردة والجوارشات.

وقال ابن النديم البغدادي الكاتب: إن يوحنا بن ماسويه خدم بصناعة الطب المأمون والمعتصم والواصل والمتوكل.

قال يوسف بن إبراهيم: كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لمتطبيب أو متكلم أو متفلسف؛ لأنه كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب، وكان يوحنا ذو دعاية شديدة، يحضر بعض [من] يحضر لأجلها. وكان من ضيق الصدر، وشدة الحدة، على أكثر مما كان عليه جبريل بن يختشيع. وكانت الحدة تخرج منه ألفاظاً مضحكة، وكان أطيب مجلسه في وقت نظره في قوارير الماء، وكنت وابن حمدون بن عبد الصمد بن علي الملقب بأبي العيرطود، وإسحاق بن إبراهيم بن محمد بن اسماعيل الملقب ببيض البغل، وقد توكلنا به نحفظ نوادره وأظهرت له التلمذة

بقراءتهما كتب جالينوس عليه في الطب.

قال يوسف: مما حفظت من نوادره في وقت نظره: أن امرأة أخته فقالت له: إن فلانة وفلانة وفلانة يقرأون عليك السلام، فقال لها: أنا بأسماء أهل قسطنطينة وعمورية أعلم مني بأسماء اللواتي أسميتهم، فاظهري بولك حتى أنظر لك فيه.

قال يوسف: وحفظت عليه أن رجلاً شكاً إليه علة كان شفاؤه منها الفصد، فأشار به عليه، فقال له: لم أعتد الفصد، فقال له: ولا احسب أحداً اعتاده في بطن أمه. وكذلك لم تعتد العلة قبل أن تعتل، وقد حدثت بك فاختر ما شئت من الصبر على ما أحدثت لك الطبيعة من العلة، واعتياد الفصد؛ لتسلم منها.

قال يوسف: وشكاً إليه رجل بحضرتي جرباً قد أضرب به، فأمره بفصد الأكحل من يده اليسرى، فأخبره أنه قد فعل. فأمره بشرب المطبوخ، فقال: قد فعلت فأمره بشرب الاصطمخيفون، فأعلمه أنه / ٢١١ / قد فعل. فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعاً، وشرب مخيض البقر أسبوعين، فأعلمه أنه قد فعل. فقال: إنه لم يبق شيء مما أمر به المتطبيون إلا وقد ذكرت أنك قد عملته، وقد بقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس، وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً، فاستعمله فإني أرجو أن ينجح علاجك إن شاء الله. فسأله: ما هو؟ فقال: ابتع زوجي قراطيس، وقطعهما رقاعاً صغاراً، واكتب في كل رقعة: رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية، والحق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي، وفرقها في المجالس يوم الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء، إذ لم ينفعك العلاج.

قال يوسف: وصار إليه، وأنا حاضر، قسيس الكنيسة التي يتقرب فيها يوحنا وقال له: قد فسدت علي معدتي. فقال له: استعمل جوارشن الخوزي، فقال: قد فعلت. فقال: فاستعمل الكموني، قال: قد أكلت منه أرطالاً، فأمره باستعمال المقداذيفون، فقال: قد شربت منه جرة. قال له: فاستعمل المروسيا، فقال: قد فعلت وأكثر. فغضب وقال له: إن أردت أن تبرأ، فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة.

قال يوسف: واشتدت على يوحنا علة كان فيها حتى يئس منه أهله، ومن عادة النصراني إحضار من يئس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين والشمامسة يقرؤون حوله، ففعل مثل ذلك بيوحنا. فأفاق والرهبان حوله يقرؤون، فقال لهم: يا أولاد الفسق ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا له: كنا ندعو ربنا في التفضل عليك بالعافية. فقال لهم يوحنا: قرص ورد أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت إلى يوم القيامة، اخرجوا من منزلي فخرجوا.

قال يوسف: وشكا بحضرتي إلى يوحنا رجل من التجار جرباً به في أيام الشتاء فقال: ليست هذه من أيام علاج ما تجد، وإنما علاج دائك هذا في أيام الربيع؛ فتنكب أكل المعفونات كلها، وطري السمك ومالحه صغار ذلك وكباره، وكل حريف من الأبزار والبقول، وما يخرج من الضرع. فقال له الرجل: هذه أشياء ما أطيق / ٢١٢ / عنها صبراً. فقال له يوحنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت، فأدمن أكلها، وحك بدنك، فلو نزل المسيح لك خاصة، لما انتفعت بدعائه، لما تصف به نفسك من الشره.

قال يوسف: وعاتبه النصارى على اتخاذ الجواري، وقالوا له: خالفت ديننا وأنت شماس، فأما إن كنت على سنتنا واقتصرت على امرأة واحدة، وكنت شماساً لنا؛ وإما أخرجت نفسك من الشماسية، وأخذت ما بدا لك من الجواري فقال: إنما أمرنا في موضع واحد أن لا نتخذ امرأتين ولا ثوبين، فمن جعل الجائليق العاض بظر أمه أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من يوحنا الشقي في اتخاذ أربع جوار، فقولوا لجائليقكم أن يلزم قانون دينه، حتى نلزمه معه، وإن خالفه خالفناه.

قال يوسف: وكان بختيشوع بن جبريل يداعب يوحنا كثيراً، فقال له يوماً في مجلس أبي إسحاق، ونحن في عسكر المعتصم بالمدائن، في سنة عشرين ومائتين: أنت يا أبا زكريا يا أخي لأبي. فقال يوحنا لأبي إسحاق: أشهد أيها الأمير على إقراره فوالله لأقاسمته ميراثه من أبيه، فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنى لا يرثون، ولا يورثون وقد حكم دين الإسلام للعاهر بالحجر، فانقطع يوحنا، ولم يحر جواباً.

قال يوسف: وكانت دار الطيفوري في دار الروم من الجانب الشرقي من مدينة السلام لصيقة دار يوحنا بن ماسويه، وكان للطيفوري ابن قد علم الطب علماً يقال له دانييل، ثم ترهب بعد ذلك؛ فكان يدخل مدينة السلام عند تأدي الخبر إليه بعله والده أو ما أشبه ذلك. وكان ليوحنا طاووس كان يقف على الحائط الذي فيما بين داره ودار الطيفوري، فقدم دانييل مدينة السلام ليلاً في الشهر المعروف بآب، وهو شهر شديد الحر كثير الرمذ، فكان الطاووس كلما اشتد عليه الحر صاح فأنبه دانييل، وهو في ثياب صوف من ثياب الرهبان، فطرده مرات فلم ينفع ذلك، ثم رفع مرزبته فضرب بها رأس الطاووس فوق ميثاً. واستتر الخبر عن يوحنا إلى أن ركب ورجع، / ٢١٣ / فصادف عند منصرفه طاووسه ميثاً على باب داره، فأقبل يقذف بالجدود من قتله. فخرج إليه دانييل فقال: لا تشتم من قتله، فإني قتلته، ولك علي مكانه عدة طواويس. فقال له يوحنا بحضرتي: ليس يعجبني راهب له سنام وطول ذكر. إلا أنه قال ذلك بفحش. فقال له دانييل: وكذلك ليس يعجبني شماس له عدة نساء، واسم رئيسة نسائه القراطيس - وهو

اسم رومي لا عربي. ومعنى القراطيس عند الروم قرنانة، وليس تكون المرأة قرنانة حتى تنكح بغير بعلاها - فخجل يوحنا ودخل منزله مقلولاً.

قال يوسف: وحدثني بمصر أحمد بن هارون الشرابي: أن المتوكل على الله حدثه في خلافه الواثق أن يوحنا بن ماسويه كان مع الواثق على دكان كان للواثق في دجلة، وكان مع الواثق قصبة فيها شص وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك، فحرم الصيد، فالتفت إلى يوحنا وكان على يمينه، فقال: قم يا مشؤوم عن يميني. فقال له يوحنا: يا أمير المؤمنين، لا تتكلم بمحال، يوحنا بن ماسويه الخوزي وأمه رسال الصقلية المبتاعة بثمانمائة درهم أقبلت به السعادة إلى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم، وحتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله. فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشؤوماً. ولكن إن أحب أمير المؤمنين أن أخبره بالمشؤوم من هو، أخبرته. فقال: ومن هو؟ فقال: من ولدته أربع خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة، فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الرياح عليه فيغرقه ثم يتشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم، وهم صيادو السمك.

قال لي أحمد بن هارون قال لي المتوكل: فرأيت الكلام قد أنجع فيه إلا أنه أمسك لمكاني.

قال يوسف: وحدثني أحمد بن هارون أن الواثق قال في هذا اليوم ليوحنا وهو على هذه الدكان: يا يوحنا ألا أعجبك من حالة؟ قال: وما هي؟ قال: إن الصياد ليطلب السمك مقدار ساعة، فيصيد السمكة تساوي الدينار أو ما أشبه ذلك. / ٢١٤ / وأنا أقعد منذ غدوة إلى الليل فلا أصيد ما يساوي درهماً. فقال له يوحنا: وضع أمير المؤمنين التعجب في غير موضعه، إن رزق الصياد من صيد السمك، فزرقه يأتيه؛ لأنه قوته وقوت عياله؛ ورزق أمير المؤمنين بالخلافة فهو غني عن أن يرزق بشيء من السمك، ولو كان رزقه في الصيد لوافاه رزقه منه مثل ما يوافي الصياد.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن علي متطبب أحمد بن طولون، أنه كان في دهليز يوحنا بن ماسويه ينتظر رجوع يوحنا من دار السلطان، فانصرف وقد أسلم في ذلك الوقت عيسى بن إبراهيم بن نوح كاتب الفتح بن خاقان. قال إبراهيم: فقامت إليه وجماعة من الرهبان، فقال لنا: اخرجوا يا أولاد الزنى من داري واذهبوا أسلموا فقد أسلم المسيح الساعة على يد المتوكل.

قال يوسف: وقدم جرجة بن زكريان عظيم النوبة، في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين إلى سر من رأى، وأهدى إلى المعتصم هدايا فيها قردة. فإني عند

يوحنا في اليوم الثاني من شوال من هذه السنة، وأنا أعاتبه على تخلفه عن حضور الدار، في ذلك الوقت، لأنني رأيت سلمويه وبختيشوع والحريش المتطبيين، وقد وصلوا، إذ دخل علينا غلام من الأتراك الخاصة ومعه قرد من القردة التي أهداها ملك النوبة لا أذكر أنني رأيت أكبر منه جثة وقال له: يقول لك: أمير المؤمنين زوج هذا القرد من «حماحم» قردتك وكان ليوحنا قردة يسميها حماحم، كان لا يصبر عنها ساعة. فوجم لذلك ثم قال للرسول: قل لأمير المؤمنين اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين، وإنما دبرت تشريحها لأجل وضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح يكون وضعي إياه لأمير المؤمنين، وكان في جسمها ضعف فخفت أن تكون العروق فيها، والأوراد والعصب دقاقاً، فلم أطبق في إيضاح الأمر فيها مثل إيضاها فيما عظم جسمه، فتركها لتكبر ويغلظ جسمها، فأما إذ قد وافى هذا / ٢١٥ / القرد فسيعلم أمير المؤمنين أنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله. ثم فعل ذلك بالقرد فظهر له منه كتاب حسن استحسنة أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

قال يوسف: واعتل محمد بن سليمان بن الهادي المعروف بأبي مشغوف علة تطاولت به، وكان أبو العباس بن الرشيد يلزم يوحنا ويتعاهده، وكان محمد بن سليمان ربما يزيد في الحديث أشياء لا يخيل باطلها على سامعها. فدخل إليه يوماً وأنا عنده، فاستشاره فيما يأخذ. فقال يوحنا: قد كنت أشير عليك بما تأخذ في كل يوم وأنا أحسبك تحب الصحة والعافية، فأما إذا صح عندي أنك تكره العافية وتحب العلة فلست أستحل أن أشير عليك بشيء. فقال له أبو مشغوف: يا جاهل من يكره العافية ويحب العلة؟ فقال له يوحنا: أنت، والبرهان على ذلك أن العافية في العالم تشبه الحق والسقم يشبه الكذب، وأنت تتكلم أكثر دهرك بالكذب، فيكون كذبك مادة لسقمك فمتى تبرأ أنت من عدة متطاوله، وأنت تمدها أكثر دهرك بالكذب فيكون كذبك زائداً فيها، فالزم الصدق ثلاثة أيام ولا تكذب فيها، فيوحنا بريء من المسيح، إن لم تخرج من هذه العلة قبل انقضاء هذه الثلاثة الأيام.

ونقلت من كتاب «الهدايا والتحف» لأبي بكر وأبي عثمان الخالدين قالا: حدثنا أبو يحيى، قال: افتصد المتوكل، فقال لخاصته وندمائه: اهدوا إلي يوم فصدي، فاحتفل كل واحد منهم في هديته. وأهدى إليه الفتاح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالاً، فدخلت إليه ومعها جام ذهب في نهاية الحسن، ودنَّ بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الوصف، ورقة فيها مكتوب: [من الوافر]

إذا خَرَجَ الإمامُ مِنَ الدَّواءِ وَأَعْقَبَ بِالسَّلامَةِ وَالشِّفاءِ

فليس له دواء غير شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
وفض الخاتم المهدى إليه فهذا صالح بعد الدواء
٢١٦/ فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه، وكان بحضرته يوحنا بن ماسويه.

فقال: يا أمير المؤمنين، الفتح والله، أطب مني فلا تخالف ما أشار به.
قال: ومن نوادر يوحنا بن ماسويه أن المتوكل قال له يوماً: بعث بيتي بقصرين.
فقال له: آخر الغداء يا أمير المؤمنين - أراد المتوكل تعشيت فضرني؛ لأنه تصحيفها -
فأجابه ابن ماسويه بما يضمن العلاج.

وعيب ابن حمدون النديم ابن ماسويه بحضرة المتوكل، فقال له ابن ماسويه: لو
أن مكان ما فيك من الجهل عقلاً، ثم قسم على مائة خنفساء لكنت كل واحدة منها
أعقل من أرسطوطاليس.

ووجدت في كتاب جراب الدولة، قال: دخل ابن ماسويه الطبيب إلى المتوكل،
فقال المتوكل لخدام له: خذ بول فلان في قارورة وايت به إلى بين يدي ابن ماسويه.
فأتى به فلما نظر إليه، قال: هذا بول بغل لا محالة. فقال له المتوكل: كيف علمت أنه
بغل؟ قال ابن ماسويه: أحضرني صاحبه حتى أراه، ويتبين كذبي من صدقي. فقال
المتوكل: هاتوا الغلام. فلما مثل بين يديه قال له ابن ماسويه: إيش أكلت البارحة؟
قال: خبز شعير، وماء قراح فقال ابن ماسويه: هذا والله طعام حماري اليوم.

ونقلت من خط المختار بين الحسن بن بطلان أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن
ماسويه قال اجتماعاً، بغالب ظني، على مائدة اسماعيل بن بلبل الوزير. وكان من جملة
ما قدم مضيرة بعد سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما. قال له أبو عثمان: أيها الشيخ
لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر، فهو
دواء له، وإن كانا طبعاً واحداً، فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا. فقال
يوحنا: والله مالي خبرة بالكلام، ولكن كل يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد. فأكل
أبو عثمان نصرة لدعواه، ففلج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة المحال من القياس.
والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن. ولو سامحناه في أنهما من طبع
واحد، لكان لامتزاجهما / ٢١٧/ قوة ليست في أحدهما.

وحدث الصولي في «كتاب الأوراق» قال: كان المأمون نازلاً على البذندون -
نهر من أعمال طرسوس - فجلس يوماً وأخوه المعتصم عليه، وجعلا أرجلهما فيه
استبراداً له، وكان أبرد الماء وأرقه وألذه. فقال المأمون للمعتصم: أحببت الساعة من
أزاد العراق أكلة وأشرب عليه من هذا الماء البارد، وسمع صوت حلقة البريد

وأجراسه، فقيل: هذا يزيد بن مقبل يريد العراق، فأحضر طبقاً من فضة فيه رطب أزاذ فعجب من تمنيه وما تم له. فأكلا وشربا من الماء ونهضا وتودع المأمون وأقال، ثم نهض محموماً، وفصد فظهرت في رقبته نفخة كانت تعتاده ويراعئها الطبيب إلى أن تنضج وتفتح وتبرأ. فقال المعتصم للطبيب، وهو ابن ماسويه، ما أطرف ما نحن فيه تكون الطبيب المتفرد المتوحد في صناعتك، وهذه تعتاد أمير المؤمنين، ولا تزيلها عنه، وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع إليه! والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضربن عنقك. فاستطرق ابن ماسويه لقول المعتصم وانصرف، فحدث به بعض من يثق به ويأنس منه، فقال: تدري ما قصد المعتصم؟ قال: لا. قال: قد أمرك بقتله حتى لا تعود النفخة إليه، وإلا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفع الأمراض عن الأجسام، وإنما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليه. فتعالل ابن ماسويه وأمر تلميذاً له بمشاهدة النفخة والتردد إلى المأمون نيابة عنه، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المأمون، وما تجدد له، فأمره بفتح النفخة، فقال: أعيذك بالله، ما احمرت ولا بلغت إلى حد الجرح، فقال له: امض وافتحها كما أقول لك ولا تراجعني. فمضى وفتحها، ومات المأمون رحمه الله.

أقول: إنما فعل ابن ماسويه ذلك؛ لكونه كان عديم المروءة وعديم الدين والأمانة، وكان على غير ملة الإسلام، ولا له تمسك بدينه أيضاً كما حكى عنه يوسف بن إبراهيم في أخباره / ٢١٨ / المتقدمة. ومن ليس له دين يتمسك به ويعتقد فيه فالواجب أن لا يدانيه عاقل ولا يركن إليه حازم.

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه بسر من رأى يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين في خلافة المتوكل.

ومن كلام يوحنا بن ماسويه: سئل عن الخير الذي لا شر معه فقال: القليل من الشراب الصافي.

ثم سئل عن الشر الذي لا خير معه فقال: نكاح العجوز.

وقال: أكل التفاح يرد النفس.

وقال: عليك من الطعام بما حدث، ومن الشراب بما عتق^(١).

ومنهم:

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٤٦-٢٥٥.

[٣٠]

ميخائيل بن ماسويه^(١)

طبيب المأمون، وريب ذلك الفضل الممنون، نفق على ذلك الفاضل، ودفع كل مناضل، لا يكذب يقينه منية الصدوق، ولا يلز جواده السبوق، فطما مع ذلك البحر المحيط، وحج إليه الوفد وأول ما نزع المخيط.

قال يوسف بن إبراهيم مولى ابن المهدي: حضر ابن ماسويه دار ابن المهدي مع جماعة من وجوه الأطباء، وكانت أمه شكلة علية، فنظروا إلى مائها وجسوا عرقها ثم عادوا في اليوم الثاني، فقالوا كلهم: إنها أصبحت صالحة لا يشكون في إفراقها، فلما نهضوا أتبعتهم فسألت واحداً واحداً عما عنده فيها، فكلهم قال مثل مقالته إلا ابن سلمويه؛ فإنه قال: هي اليوم أصعب حالاً من أمس، وقال لي ميخائيل: إنه قد ظهر بالأمس بالقرب من قلبها مرض ورم ولم نره اليوم، افتراه ساخ في الأرض أو ارتفع إلى السماء. انصرف فأعد لهذه المرأة جهازها، فليست تبيت من الأحياء، فتوفيت وقت صلاة العشاء.

ومنهم:

[٣١]

حنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد^(٢)

والعباد بفتح العين قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة.

(١) كان حياً سنة ٢١٨هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٥٥-٢٥٧، أخبار العلماء ٣٢٨، أعلام الحضارة ٤٩٧/٢ رقم ٥٣٩.

(٢) حنين بن إسحاق العبادي: أبو زيد: طبيب، مؤرخ، مترجم: كان أبوه صيدلانياً، من أهل الحيرة (في العراق) ولد فيها سنة ١٩٤هـ/٨١٠م، وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وانتقل إلى بغداد فأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية، فانتهد إليه رئاسة العلم بها بين المترجمين؛ مع إحكامه العربية، وكان فصيحاً بها شاعراً. واتصل بالمأمون فجعله رئيساً لديوان الترجمة، وبذل له الأموال والعطايا. وجعل بين يديه كتاباً نحارير عالمين باللغات، كانوا يترجمون، ويتصفح حنين ما ترجموا فيصلح ما يرى فيه خطأ. ولخص كثيراً من كتب أبقراط وجالينوس وأوضح معانيها. وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله إلى العربية من الكتب، فكان يختار لكتبه أغلظ الورق، ويأمر كتابه أن يخطوها بالحروف الكبيرة ويفسحوا بين السطور. ورحل رحلات كثيرة إلى فارس وبلاد الروم.

كان من أبناء /٢١٩/ الصيارف، وأبى إلا أبناء المعارف. تعلق بالعلم يطلب تحصيله، وتيقن تأصيله. يغادي إليه أيامه ويكر، ويهاجر منامه ولا يهجر، وكان لا يرفع له علم قدر، ولا يوسع له أكرم صدر، لمهنة آبائه الوضيعة، واهنة أماناتهم المضیعة، ونفسه تأنف له أن يرى بعين هزيمة، أو يراقب بمعاملة مضیمة، فنهض نهضة ثائر، وقام قومة سائر، ودخل بلاد الروم فتخلق بأخلاقهم، وجاء على وفاقهم، حتى كان كأحد علمائهم وأوحد حكمائهم، ثم خرج متنكراً لا يعرف من الأعياص عيضه، ولا من أي المصايد قنيضه، حتى أجله من كان لا يجله، وقل لديه من كان يستقله.

ذكره يوسف بن إبراهيم في سبب ظهوره ما مختصره: أن حنين العبادي كان يقرأ

= وعاصر تسعة من الخلفاء. وكان يحفظ إلياذة هوميروس. له كتب ومترجمات كثيرة تزيد على مئة، منها «تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم» إلى زمنه، و«الفصول الأبقراطية - ط» في الطب، و«سلامان وأبسال - ط» قصة مترجمة عن اليونانية، و«القول في حفظ الأسنان واستصلاحها - خ» في الظاهرية بدمشق، و«الضوء وحقيقته - ط» رسالة كتبها بالسريانية وترجمها إلى العربية قيم بن هلال الصابئ، وله كتاب «حيلة البرء - خ» مما ترجمه عن جالينوس، نسخة منه ناقصة الآخر، في مكتبة لورنزيانا، بفلورانس (الرقم ٢٧٤ شرقي) ومنه نسخة أخرى في خزانة القرويين (الرقم ٢٦٤٨) تحوي جُل المقالة الرابعة والخامسة وأول السادسة. وله «التشريح الكبير - خ» عن جالينوس أيضاً، فيه نقص، في القرويين (الرقم ٢٥٠٦) و«المسائل في العين - ط» و«المدخل إلى علم الروحانيات - خ» صغير، و«المسائل في الطب للمتعلّمين - خ» في مغنيسا و«قوى الأغذية - خ» ترجمه عن جالينوس أيضاً، و«تدبير الأصحاء - خ» عن جالينوس أيضاً. ومات في بغداد سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣ م.

ترجمته في: عبون الأخبار لابن قتيبة ٣/١٤١، ٢٨٧، ومروج الذهب ٤٩١، ١٣٤٥، ١٣٦٨، ٢٨٥٧، ٢٨٦٢-٢٨٦٦، والفهرست لابن النديم ٢٩٤، وطبقات الأطباء لابن جليجل ٦٨-٧٢، والهفوات النادرة ٢٦٨، والمنتظم ٥/٢٤ رقم ٥٠، والكمال في التاريخ ٧/٤، ٢ وفيه «حسين» بدل «حنين» وهو غلط، وتاريخ الزمان لابن العبري ٤٣، وتاريخ مختصر الدول، له ٨٢، ١٠٣، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ٢٣٨، وأخبار العلماء للقفطي ١١٧-١٢٢، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٥٧-٢٧٤، وطبقات الأمم لابن صاعد ٣٦-٣٧، ووفيات الأعيان ٢/٢١٧-٢١٨، والمختصر في أخبار البشر ٢/٤٩-٥٠، ودول الإسلام ١/١٥٨، والعبر ٢/٢٠، وسير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٢ رقم ١٧٩، البداية والنهاية ١١/٣٢، والوافي بالوفيات ١٣/٢١٥-٢١٧ رقم ٢٥٥، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ١٦، ومرآة الجنان ٢/١٧٢، والوفيات لابن قنفذ ١٨٢ رقم ٢٦٠، وكشف الظنون ٢١٧، ١٤٦٨، ١٥١٣، ١٧٨٢، ١٩٧٩، وروضات الجنان ٢٦٤، وتاريخ الأدب العربي ١/٢٠٥، ومعجم المؤلفين ٤/٨٧-٨٨، وديوان الإسلام للغزي ٢/١٣٥-١٣٦ رقم ٧٤٧، وهدية العارفين ١/٣٣٩، الأعلام ٢/٢٨٧-٢٨٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٥١-٢٦٠هـ) ص ١٢٨ رقم ١٨٨، أعلام الحضارة ١/٤٠٦-٤٣١ رقم ١٩٨. وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

على ابن ماسويه ورهط ابن ماسويه من أهل جنديسابور ويكرهون أهل الحيرة فكره ذات يوم من العبادي كثرة سؤاله فطرده، وقال له: شأنك أن تكون صيرفياً، فخرج من عنده وآلى أن يتعلم لغة يونان كأحسن ما يكون، فجمعني به مجلس فإذا بإنسان له شعرة قد جلّته، وقد ستر وجهه عني ببعضها، وطفق ينشد شعراً بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم، فعرفته بنغمته، وكان عهدي به بعيداً، فاستكتمني حاله وسألني الستر عليه، فبقيت أكثر من ثلاث سنين أو أربع لم أره، ثم أني دخلت على ابن بختيشوع وقد انحدر من معسكر المأمون، فوجدته عنده وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس، وهو يخاطبه بالإنجيل ويقول له: يا زين حنين يعني أيها المعلم، فأعظمت ما رأيت وتبين ذلك جبريل في وجهي، فقال: لا تستنكرون ما ترى من تبجيلي هذا الفتى، فوالله إن مدّ له في العمر ليفضحن الأول ثم خرج حنين وتبعته، فوجدته ينتظرني فسلم عليّ وقال: كنت سألتك ستر خبري والآن أسألك إظهاره وإظهار ما / ٢٢٠ / سمعت جبريل يقوله فيّ، فقلت: إني أسود وجه ابن ماسويه بما سمعته، فقال: تمام سواد وجهه أن تدفع إليه هذه النسخة ولا تعلمه من نقلها فإذا استدعى بها، أعلمه أنها إخراجي، ففعلت ذلك من يومي. فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول وهي التي يسميها اليونان «الفاعلان» قال: أترى المسيح أوحى في دهرنا هذا إلى أحد، فقلت له: ما أوحى المسيح في هذا الدهر ولا في غيره إلى أحد، ولا كان إلى أحد من يوحى إليه، فقال له: دعني فليس هذا إلا إخراج مؤيد بروح القدس، فقلت له: هذا إخراج حنين بن إسحاق الذي طرده وأمرته أن يعمل صناعة الصيارف، فقال: هذا محال ثم صدق القول، وسألني التلطف في إصلاح ما بينهما ففعلت، وأفضل عليه، ثم لم يزل له مُبجلاً، ثم لازم ابن ماسويه وأخذ عنه صناعة الطب، ونقل له كتباً كثيرة، ثم لما رأى المأمون في منامه كأن شيخاً بهياً جالساً على منبر وهو يخطب ويقول: أنا أرسطاطاليس، احضر حنين بن إسحاق وسأله عنه فأخبره فأمره بنقل كتب الحكماء إلى اللغة العربية، وبذل له أموالاً جمّة، وقيل للخليفة إن ملك الروم ربما دسّه عليك، فكان لا يأخذ بقوله بمفرده، ثم أراد اختباره فخلع عليه وأعطاه خمسين ألف درهم، ثم قال له: إني أريدك تصف لي دواءً أقتل به عدواً لي سراً، فقال: إني لم أتعلم إلا الأدوية النافعة، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أن أمضي وأتعلم، فعلت ذلك، فقال: هذا شيء يطول ورغبه ورهبه، وهو لا يزيد على قوله فحبسه في بعض القلاع، وוכל من يأتيه بأخباره، فمكث سنةً غير مكترث بما هو فيه دأبه النقل والتفسير والتصنيف، ثم أحضره وأحضر له أموالاً وغيرها وسيفاً ونطعاً يرهبه

به، وهو على قوله، فقال له: إني أقتلك، فقال: إن لي رباً يأخذ بحقي فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه، فليفعل فتبسم له وقال: طب نفساً فإنما أردت أن أمتحنك لنتفع / ٢٢١/ بعلمك فقبل حنين الأرض وشكر له، فقال له الخليفة: ما منعك يا حنين من الإجابة عما رأيت منا في الحالين؟ فقال: شيئان، قال: ما هما؟ قال: الدين والصناعة فخلع عليه، وحمل المال بين يديه، وخرج وهو أحسن عنده حالاً.

قال الصقلي: كان حنين من رفقة سيويه في الاشتغال في النحو على الخليل بن أحمد وخدم حنين المتوكل، وحظي في أيامه وكان يلبس زناراً.

قال القباني: كان حنين في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام يصب عليه الماء ويخرج فيلف بقطيفة، وقد أعد له هناد من فضة فيه رطل شراب وكعكة مشرودة فيه فيأكلها ويشرب الشراب، وي طرح نفسه حتى يستوفي عرقه وربما نام، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مُسمّن قد طبخ بزيرباج ورغيف فيه مائتا درهم، فيحسو من المرق، ثم يأكل الفروج والخبز، وينام فإذا انتبه شرب أربعة أرتال شراباً عتيقاً ولم يذق غير هذا طول عمره، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والرمان والسفرجل.

وعمل عليه أعداؤه حتى مات غمّاً في ليلة واحدة^(١).

ومنهم:

[٣٢]

إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي، أبو يعقوب^(٢)

رجلٌ ما نهنه في طلب، ولا نبه له جفنًا من طرب، ولم يُضع نصيبه من كل

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٥٧-٢٦٣.

(٢) إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي: طبيب مترجم أفاد العربية بما نقله إليها من كتب الحكمة وشروحها. ولد في بغداد سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، خدم بعض الخلفاء من بني العباس، وألف كتباً كثيرة، منها «الأدوية المفردة» و«اختصار كتاب اقليدس» و«آداب الفلاسفة ونوادرهم» و«تاريخ الأطباء» ومما ترجمته «كليات أرسطاطاليس - ط» وقد تُرجم إلى اللاتينية و«شرح مقالات أرسطو في علم النفس - خ» من تأليف تامسطينوس، في خزانة القرويين بفاس الرقم ٣١٥٤ و«عنصر الموسيقى - خ» رسالة ذكرت في مجلة معهد المخطوطات (٤١/٤). وكان عارفاً باليونانية والسريانية، فصيحاً بالعربية. وبلغ في آخر عمره، ومات فيها سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٧٤-٢٧٥، أخبار العلماء ٨٠، تاريخ حكماء الإسلام ١٨، طبقات الأمم ٥٠، الفهرست ٤٥٢، وفيات الأعيان ١٥٨/١ رقم ٨٥، مروج الذهب ١٣٨٩، الوافي =

صالحة، وتصويبه إلى صوت كل صائحة، حتى لا يخل تقييده لشارده، ولا تعد يده لوارده، إلا أنه كان أميل إلى الحكمة المطلقة من مفرد الطب، وهي لديه أثر ما يحب، ولم يخلُ من أدب راح يسوقه وأرض يسوقه.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان يلحق بأبيه في النقل ومعرفة اللغات إلا أن نقله لكتب الطب قليل جداً بالنسبة إلى نقله لكتب أرسطو. وخدم إسحاق من خدمه أبوه من الخلفاء والرؤساء، وكان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد وخصيصاً به ومتقدماً عنده يُفْضِي إليه بأسراره / ٢٢٢ / وله حكايات مستظرفة ونوادر، وتوفي في أيام المقتدر. ومن كلامه: قليل الراح صديق الروح، وكثيرها عدو الجسم.

وشرب دواءً سهلاً فكتب إليه القاسم بن عبيد الله الوزير مداعباً: [من الهزج]
أَبْنُ لِي كَيْفَ أَمْسَيْتَ وَكَمْ كَانَ مِنَ الْحَالِ
وَكَمْ سَارَتْ بِكَ النَّاقَةُ نَحْوَ الْمَنْزِلِ الْخَالِي
فكتب إليه حنين بن إسحاق: [من الهزج]

بَخِيرِ كُنْتُ مُسْرُوراً رَخِيَّ الْحَالِ وَالْبَالِ
فَأَمَّا السَّيْرُ وَالنَّاقَةُ نَحْوَ الْمَنْزِلِ الْخَالِي
فَإِجْلَالُكَ أَنْسَانِيهِ يَا غَايَةَ آمَالِي
ومنهم:

[٣٣]

يوحنا بن بختيشوع^(٢)

كان له جاهه شافعياً، وعلمه يحله محلاً رفيعاً، حتى كان بدرأ في منازل الخلافة

⁼ بالوفيات ٨/ ٤١٠-٤١١ رقم ٣٨٦٤، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٦٦، البداية والنهاية ١١/ ١١٦، تاريخ الإسلام (السنوات ٢٩١-٣٠٠ هـ) سنة ص ١٠٧ رقم ١١٨، أعلام الحضارة ١/ ١٦٦-١٦٦ رقم ٩٣، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ١/ ٢٩٤.

(١) عيون الأنباء ٢٧٤.

(٢) يوحنا بن يَحْتِشُوع: طبيب. ترجم كثيراً من الكتب، عن اليونانية إلى السريانية، تسهلاً لنقلها إلى العربية. وكان مختصاً بخدمة الموفق العباسي (طلحة بن جعفر) ويسميه هذا: مفرج كربى! له من الكتب بالعربية «تقويم الأدوية - خ» فيما اختاره من الأعشاب والأغذية، و«كتاب فيما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم». توفي نحو سنة ٢٩٠ هـ/ نحو ٩٠٣ م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٢٧٦-٢٧٧، معجم المؤلفين ١٣/ ٢٥٨، الأعلام ٨/ ٢٠٩، أعلام الحضارة ٢/ ٥٦٦-٥٦٧ رقم ٥٨٤ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

طالعاً ونديماً دواعي السلافة طائعاً.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان طبيباً متميزاً خبيراً باليونانية والسريانية ونقل كتباً كثيرة، وخدم الموفق والناصر بن المتوكل، وكان يعتمد عليه ويسميه مفرج كربى. قال ابن طومار: كان الموفق إذا جلس للشرب، تقدم بين يديه صينية من ذهب، ومغسل من ذهب، وخرداذي بلور، وكوز بلور، ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه ويقدم إليه مثل ذلك، وكذلك بين يدي أبي غالب الطبيب، ويقدم إلى جمع الجلساء صواني مدهون وقناني زجاج وغير ذلك، وكان ابنه بختيشوع بمكانة من المقتدر وإقطاعات ثم كان عند الراضي كذلك. ومنهم:

[٣٤]

ثابت بن قرة الحراني، أبو الحسن^(٢)

سما لا تصدأ مرآتها، وورقاء لا تزال تطرب ملهاتها، وكوكب أفق دري كيف

(١) عيون الأنباء ٢٧٦.

(٢) ثابت بن قرة بن زهرون الحراني الصابىء، أبو الحسن: طبيب حاسب فيلسوف. ولد بحرّان (بين دجلة والفرات) سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م وحدث له مع أهل مذهبه (الصائبة) أشياء أنكروها عليه في المذهب، فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل، فخرج من حران، وقصد بغداد، فاشتغل بالفلسفة والطب فبرع، واتصل بالمعتضد (الخليفة العباسي) فكانت له عنده منزلة رفيعة. وصفه نحو ١٥٠ كتاباً، منها «الذخيرة في علم الطب - ط» و«المباني الهندسية - خ» رسالة، و«الشكل القطاع - خ» رسالة، و«مساحة المخروط الذي يسمى المكافىء - خ» رسالة، و«آلات الساعات - خ» في المزاويل، و«تركيب الأفلاك» و«مسائل في الموسيقى - خ» في مغنيسا (الرقم ١٧٠٥/٧) و«طبائع الكواكب» و«الهيئة» و«علة الكسوف والخسوف» و«الرصد» و«تصحیح مسائل الجبر» بالبراهين الهندسية، و«مراتب العلوم» و«أصول الأخلاق» و«العمل في الكرة» و«تولد النار بين الحجرين» و«المسائل الطبية» و«كتاب الهندسة» نحو ألف صفحة. وأكثر كتبه في الهندسة والموسيقى. وكان يحسن السريانية وأكثر اللغات الشائعة في عصره، فترجم عنها كثيراً إلى العربية. وتوفي في بغداد سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م.

ترجمته في: مروج الذهب للمسعودي ٨٣٥، ١٣٢٨، ١٣٨٢، والفهرست لابن النديم ٢٧٢، والكمال في التاريخ ٥١٠/٧، وتاريخ حلب للعظيمي ٢٧٣، ٢٨٦، والمتنظم لابن الجوزي ٦/٢٩، رقم ٣٧، و«عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٩٥-٣٠٠»، وتاريخ الزمان لابن العبري ٤٨، ووفيات الأعيان ١/٣١٣-٣١٥، وسير أعلام النبلاء ١٣/٤٨٥-٤٨٦ رقم ٢٣٢، والبداية والنهاية ٨٥/١١، وشذرات الذهب ٢/١٩٦-١٩٨، والوفيات لابن قنفذ ١٩٣ رقم ٢٨٨، وتاريخ =

تسير الثواقب، وتصير المناقب، وتسور خود الثريا بالهلال ويخسأ رقيب العواء المراقب، ظهر له / ٢٢٣ / من قوة الحدس ما كاد يعد كرامه، ويرد به البقاء، وقد كان الهلك رامه.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان من الصابئة المقيمين بحران، وتعلم على محمد بن موسى بن شاكر، فوصله بالمعتضد، فأدخله في جملة المنجمين، وهو أصل من كان ببغداد من الصابئة، ولم يكن في زمانه من يماثله في الطب ولا في غيره من أجزاء الفلسفة، وله تصانيف مشهورة بالجودة، وكذلك جاء جماعة من ذريته، وله أرصاد حسان للشمس تولاهها ببغداد.

وكان يدخل إلى المعتضد إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرات يحدثه، ويؤنسه ويسليه، فشغف به فلما خرج من معتقله قال لغلامه بدر: يا بدر أي رجل أفدنا بعدك، فقال: من هو يا سيدي؟ قال: ثابت بن قرّة. ثم أقطعه إقطاعاً جليلاً، وكان يجلسه بين يديه والوزير وبدر فوق.

وحكى أبو إسحاق الصابي: أن ثابت بن قرّة بينما هو ماشٍ مع المعتضد في الفردوس، وقد اتكأ المعتضد على يده إذ نتر يده من يده بشدة، ففزع ثابت لأن المعتضد كان مهيباً ثم لما نترها قال له: يا أبا الحسن - وكان يكنى في الخلوة - سهوتُ ووضعتُ يدي على يدك، وما هكذا يجب؛ لأن العلماء يعلون ولا يُعلون.

وحكي أنه اجتاز يوماً إلى دار الخلافة، فسمع صياحاً وعويلاً، فقال: ما هذا؟ قالوا: مات القصاب الذي كان هنا فجأة، فأتى إليه وأمر النساء بالسكون، وأن يعملوا مزوّرة، وأمر بعض غلمانه أن يضرب القصاب على كعبه بالعصا، وجعل يده في مجسه، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال: حسبك، ثم استدعى بقدر وأخرج من كفه دواء فدافه في القدر بقليل ماء، وفتح فم القصاب وسقاه إياه، فأساغه ووقعت الصيحة في الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت، فتقدم ثابت بغلق الباب، وفتح القصاب عينه وأطعمه المزوّرة وأجلسه وقعد عنده ساعة، وإذا برسل الخليفة يدعونه،

= الحكماء للقفطي ١١٥، ١٢٢، وطبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ٧٥، وطبقات الأمم ٣٧، والممّل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٠٢-٢٥١، ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ١٨٩-١٩١، أعلام الحضارة ١/ ١٨٩-٢١٤ رقم ١٢٤ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، ونهاية الأرب ٢٢/ ٣٥٩، ومراة الجنان ٢/ ٢١٥-٢١٦، والوافي بالوفيات ١٠/ ٤٦٦-٤٦٧ رقم ٤٩٧٣، ومعجم المؤلفين ٣/ ١٠١، ١٠٢، والأعلام ٢/ ٩٨، وتاريخ الإسلام (السنوات ٢٨١-٢٩٠هـ) ص ١٣٧ رقم ١٦٧.

(١) عيون الأنباء ٢٩٥.

فلما مثل بين يديه، قال له: يا ثابت ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك، فقال: يا مولاي /٢٢٤/ كنت أجتاز بهذا القصاب، وأراه يشرح الكبد، وي طرح عليها الملح ويأكلها، وكنت أعلم أنه سيلحقه سكتة، فأعددت له هذا الدواء، فلما قيل لي اليوم أنه مات فجأة البارحة، علمت أن السكتة قد لحقته، فدخلت إليه فلم أجد له نبضاً فضربته إلى أن حركت نبضه، وسقيته الدواء ففتح عينيه، وأطعمته مزوّرة، والليلة يأكل رغيفاً بدراج، وفي غد يخرج من بيته.

ومن كلامه قوله: ليس على الشيخ أضرّ من أن يكون له طباخ حاذق، وجارية حسنة، فيستكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم.

ولما مات ابن قرة رثاه ابن المنجم النديم بقصيدة منها: [من الطويل]

نَعَيْنَا الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّاتِ كُلَّهَا	خَبَا نُورُهَا إِذْ قِيلَ قَدْ مَاتَ ثَابِتٌ
وَلَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ لَمْ يُغْنِ طِبُّهُ	وَلَا نَاطِقٌ مِمَّا حَوَاهُ وَصَامَتُ
فَلَوْ أَنَّهُ يُسْطَاعُ لِلْمَوْتِ مَدْفَعٌ	لِدَافَعِهِ عَنْهُ حُمَاةٌ مَصَالِتُ
أَوْ مَلُ أَنْ تُجْلَى عَنِ الْحَقِّ شُبْهَةٌ	وَشَخْصُكَ مَقْبُورٌ وَصَوْتُكَ خَافِتُ
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو حُسْنُ تَبْيِينِكَ الْعَمَى	وَكُلُّ قَوْوَلٍ حِينَ تَنْطِقُ سَاكِتُ
كَأَنَّكَ مَسْؤُولٌ مِنَ الْبَحْرِ غَارِفُ	وَمُسْتَبَدْنًا نَطْقًا مِنَ الصَّخْرِ نَاجِفُ
فَلَمْ يَتَفَقَّدْنِي مِنَ الْعِلْمِ وَاحِدُ	هَرَّاقٍ إِنَاءُ الْعِلْمِ بَعْدَكَ كَابِتُ
عَجِبْتُ لِأَرْضٍ غَيَّبَتْكَ وَلَمْ يَكُنْ	لِيُثَبَّتَ فِيهَا مِثْلُكَ الدَّهْرُ ثَابِتُ
وَأَحْسَنْتَ حَتَّى لَمْ يَكُنْ لَكَ مُبْغِضُ	وَلَا يَكُ لَمَّا اغْتَالَكَ الْمَوْتُ شَامِتُ
مَضَى عِلْمُ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ مُقْنِعَا	فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مُخْطِئٌ مُتَهَافِتُ ^(١)

ومنهم:

[٣٥]

سنان بن ثابت بن قرة، أبو سعيد^(٢)

مقرب كل بعيد، ومقرّص سبب كل وعيد، ما صحب صعباً إلا دَمَّتْ شيمته، ولين شكيمته، ودلّه على كرم الأخلاق، ودل عليه وثوبٌ عرضه لا يمزقه الإخراق.

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٢٩٥-٢٩٨.

(٢) سنان بن ثابت بن قرة الحراني، أبو سعيد: طبيب عالم. أصله من حران، ومنشأه ببغداد. كان رفيع المنزلة عند المقتدر العباسي وجعله رأساً للأطباء - وكان منهم ببغداد ثمانمائة وستون طبيباً، لم يؤذن لأحد منهم باحتراف الطب إلا بعد أن امتحنه سنان - وخدم القاهرة بالله والراضي =

قال ابن أبي أصيبعة: كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم، وله قوة بالغة في علم الهيئة، / ٢٢٥ / وخدم المقتدر، والراضي، وأراد القاهر على الإسلام، فهرب إلى خراسان ثم عاد وتوفي ببغداد مسلماً.

وكان على البيمارستان، وكانت تواقع الوزير عيسى بن علي تأتيه بقرب فينفذها، منها تفقد المحاييس وأهل السواد بالأطباء والأدوية والأغذية حتى كتب يستأذنه في أهل الذمة، فكتب إليه الوزير: أكرمك الله ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهايم صواب، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل عليه معالجة الناس قبل البهايم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فاعمل على ذلك واكتب إلى أصحابك به، ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية.

واستجد في زمانه مارستان السيدة بسوق يحيى، والمارستان المقتدري، ثم خدم بعد الراضي بحكم فريض أخلاقه، وسكن سورة غضبه وكان قد شكأ إليه ما يجده من ذلك، فقال له كلاماً زبدته: أنت قادر متى شئت على الانتقام، فإذا أردت إيقاع نقمة بأحد آخرها إلى الغد؛ لوثوقك بقدرتك، فالغضب كالسكر إذا بات زال^(١).
ومنهم:

[٣٦]

ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني^(٢)

كان يتكلم بالحدس الصحيح، على كل مُغَيَّب، ويتقدم عند ملوك قريش على كل أخلافي ومطَّب، لم يبالغ في وصفه من تعدى، ولا ذكر معجز عجائبه إلا من ظن أنه بها يتحدى.

⁼ (العباسيين) مدة، وتوفي في بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م، من تصانيفه رسالة في «النجوم» ورسالة في «شرح مذهب الصابئين» ورسالة في «أخبار آبائه وأجداده» واصلح كتاب أفلاطون في «الأصول الهندسية» وزاد فيه كثيراً. وله رسالة في «تاريخ ملوك السريانيين» وكتاب «التاجي» عدة أجزاء، في مفاخر الديلم وأنسابهم، قيل: صنفه لعضد الدولة، وترجم إلى العربية «نواميس هرمس» و«السور والصلوات» التي يصلي بها الصابئون.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٠٠-٣٠٤، وأخبار العلماء ١٩٠، وطبقات الأمم ٥١، والفهرست للنديم ٤٣٦، وأعلام الحضارة ١/ ٤٦٥-٤٦٨ رقم ٢٤٢ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ٣/ ١٤١.

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٠٠-٣٠٢.

(٢) توفي سنة ٣٦٥هـ.

ذكره ابن أبي أصيبعة فقال^(١): كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية، وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعاً على أسرار الطب. وكان مع ذلك ضئيلاً بما يحسن.

نقلت من خط ابن بطلان، قال: كان قد اسكت أبو طاهر بن بقية في داره الشاطئة على الجسر ببغداد، وقد حضر الأمير عز الدولة بختيار، والأطباء مجتمعون على أنه قد مات. فتقدم أبو الحسن الحراني، وكنت أصحابه يومئذ، فقال: أيها الأمير إذا كان قد مات، فلن يضره الفصاد، فهل تأذن لي في فصده؟ قال له: افعل يا أبا الحسن. ففصده، فرشح منه دم يسير. ثم لم يزل يقوى الرشح إلى أن صار الدم / ٢٢٦ / يجري، فأفاق الوزير. فلما خلوت به سألته عن الحال، وكان ضئيلاً بما يقول، فقال: إن من عادة الوزير أن يستفرغ في كل فصل ربيع دماً كثيراً من عروق المقعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابت القوة من خناقها.

قال عبيد الله بن جبريل: لما دخل عضد الدولة، رحمه الله، إلى بغداد كان أول من لقيه من الأطباء أبو الحسن الحراني، وكان شيخاً مسناً، وساناً وكان أصغر من أبي الحسن؛ وكانا عالمين فاضلين، وكانا جميعاً يسعدان المرضى، ويمضيان إلى دار السلطان، فحسن ثناءه عليهما. ولما دخلا إلى عضد الدولة قال: من هؤلاء؟ قالوا: الأطباء. قال: نحن في عافية، وما بنا حاجة إليهم. فانصرفا خجلين. فلما خرجا إلى الدهليز، قال سنان لأبي الحسن: يجمل أن ندخل إلى هذا الأسد؛ ونحن شيخان فيفترسنا؟ قال له أبو الحسن: فما الحيلة؟ قال: نرجع إليه، وأنا أقول ما عندي، وننظر أيش الجواب قال: افعل. فاستأذنا ودخلا. فقال سنان: أطال الله بقاء مولانا، موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض. والملك أحوج الناس إليه. فقال له عضد الدولة: صدقت. وقرر لهما الجاري السني وصارا ينوبان مع أطبائه.

قال عبيد الله بن جبريل: ولهم أحاديث كثيرة حسنة، فيها حديث قلاء الكبود. وذلك أنه كان بباب الأزج إنسان يقلبي الكبود، فكانا إذا اجتازا عليه دعا لهما وشكرهما، وقام لهما حتى ينصرفا عنه. فلما كان في بعض الأيام اجتازا فلم يرياه،

⁼ ترجمته في: عيون الأنباء ٣٠٧-٣١١، أخبار العلماء ١١١، والفهرست ٣٠٣، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ١٧٣-١٧٤ وفيه وفاته سنة ٣٦٩، والوافي بالوفيات ١٠/٤٦٥ رقم ٤٩٧٠، وتاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١-٣٨٠هـ) ص ٣٥٦، الأعلام ٩٧/٢، وأعلام الحضارة ١٨٦-١٨٧ رقم ١٢٢، ومعجم المؤلفين ٩٩/٣، وتاريخ تراث العلوم الطبية ١٨٥-١٨٦.

(١) عيون الأنباء ٣٠٧.

فظنا أنه قد شغل عنهما. ومن غد سألّا عنه، فقليل لهما: إنه الآن قد مات. فعجبا من ذلك، وقال أحدهما للآخر: له علينا حق يوجب علينا قصده ومشاهدته. فمضيا جميعاً وشاهداه، فلما نظراه تشاورا في فصده، وسألّا لأهله أن يؤخروه ساعة واحدة؛ ليفكروا في أمره، ففعلوا ذلك، وأحضروا فاصداً ففصده فصدة واسعة، فخرج منها دم غليظ. وكان كلما خرج الدم خف عنه، حتى تكلم. وسقياه ما يصلح، وانصرفا عنه. ولما كان في اليوم الثالث خرج إلى دكانه. فكان هذا من المعجز لهما. فستلا عن / ٢٢٧ / ذلك، فقالا: سببه أنه كان إذا قلى الكبود يأكل منها، وبدنه يمتلىء دماً غليظاً وهو لا يحس، حتى فاض من العروق إلى الأوعية، وغمر الحرارة الغريزية وخنقها، كما يخنق الزيت الكثير الفتيلة التي تكون في السراج. فلما بدروه بالفصد، نقص الدم، وخف عن القوة الحمل الثقيل، وانتشرت الحرارة، وعاد الجسم إلى الصحة.

وهذا الامتلاء قد يكون من البلغم أيضاً، وقد ذكر أسبابه الفاضل جالينوس في كتابه في تحريم الدفن قبل أربع وعشرين ساعة.

قال عبيد الله بن جبريل: ومن أحسن ما سمعت عن أبي الحسن الحراني أنه دخل إلى قرابة الشريف الجليل محمد بن عمر، رحمه الله، وكان إنساناً نبيل القدر قد عارضه ضيق نفس شديد صعب. فأخذ نبضه وأشار بما يستعمله، فشاوره في الفصد، فقال له: لا أراه وإن كان يخفف المرض تخفيفاً بيناً. وانصرف. وجاءه أبو موسى المعروف ببقعة الطبيب، وأبصر نبضه وقارورته وأشار بالفصد. فقال له الشريف: قد كان عندي أبو الحسن الحراني الساعة وشاورته في الفصد، فذكر أنه لا يراه صواباً. فقال بقة: أبو الحسن أعرف. وانصرف، فجاءه بعض الأطباء الذين هم دون هذه الطبقة، فقال: يفصد سيدنا الساعة فإنه في الحال يسكن. وقوي عزمه على الفصد ولم يبرح حتى فصده، فعندما فصده خف عنه ما كان يجده خفاً بيناً، ونام وسكن عنه واغتدى وهو في عافية. فعاد إليه أبو الحسن الحراني آخر النهار، فوجده ساكناً قاراً، فلما رآه على تلك الحال، قال له: قد فصدت؟ فقال: كيف كنت أفعل ما لم تأمرني به؟ قال: ما هو هذا السكون إلا للفصد. فقال له الشريف: لما علمت بهذا لم لا فصدتني؟! قال أبو الحسن الحراني: إذ قد فصد سيدنا، فليشر بحمي ربع سبعين دور، ولو أن بقراط وجالينوس عنده ما تخلص إلا بعد انقضائها. واستدعى دواة ودرجاً، ورتب تدبيره لسبعين نوبة ودفعه إليه. وقال: هذا تدبيرك، فإذا انقضى ذلك جئت إليك. وانصرف. فما مضى / ٢٢٨ / أيام حتى جاءت الحمى، وبقيت كما قال، فما خالف تدبيره حتى برىء.

قال عبيد الله بن جبريل: ومن أخباره أنه كان للحاجب الكبير غلام، وكان

مشغولاً به، واتفق أن الحاجب صنع دعوة كبيرة كان فيها أجلاء الدولة. ولما اشتغل بأمر الدعوة، حُمَّ الغلام حمى حادة، فورد على قلب الحاجب من ذلك مورداً عظيماً، وقلق قلقاً كثيراً. واستدعى أبا الحسن الحراني فقال له: يا أبا الحسن أريد الغلام يخدمني في غداة غد، اعمل كل ما تقدر عليه، وأنا أكافئك بما يضاهاى فعلك. فقال له: يا حاجب إن تركت الغلام يستوفي أيام مرضه عاش، وإلا فتمكّني من ملازمته أن يقوم في غد لخمّتك. ولكن إذا كان في العام المقبل في مثل هذا اليوم يحم حمى حادة، ولو كان من كان عنده من الأطباء لم ينجع فيه مداواته، ويموت أما في البُحْران الأول أو الثاني، فانظر أيهما أحب إليك. فقال له الحاجب: أريد أن يخدمني في غد، وإلى العام المقبل فرج. ظناً من هذا أنه من الأحاديث المدفوعة. فلامزه أبو الحسن، ولما كان في غد أفاق وقام في الخدمة وأعطى الحاجب لأبي الحسن خلبة سنّية ومالاً كثيراً، وصار يكرمه غاية الإكرام. فلما كان في العام المقبل في مثل اليوم الذي حم فيه الغلام، عاودته الحمى، فأقام محموراً سبعة أيام ومات. فعظم في نفس الحاجب وجماعة من الناس قوله، وكبر لديهم محله، وكان هذا منه كالمعجز^(١).

ومنهم:

[٣٧]

ابن وصيف الصابى^(٢)

كان يصبو إليه كل حكيم، ويصيب لديه غرضه كل عليم، لا يرض له صخره، ولا يرضى لغيره فخره، ولا يزال يعدّه كل عليل لصعب الأدواء ذخره.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٣): كان طبيباً عالماً بعلاج أمراض العين، ولم يكن في زمانه أعلم منه في ذلك، ولا أكثر مزاولة.

قال سليمان: حدثني أحمد بن يونس الحراني، قال: حضرت بين يدي أحمد بن وصيف الحراني وقد أحضر سبعة أنفس لقدح أعينهم، وفي جملتهم رجل من أهل خراسان أقعده بين / ٢٢٩ / يديه ونظر إلى عينيه، فرأى ماء متهاً للقدح، فسامه على ذلك، فطلب

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٠٧-٣٠٩.

(٢) أحمد بن وصيف الحراني الصابى.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣١١، أخبار العلماء ٤٣٤، طبقات الأطباء ٨١، أعلام الحضارة ١/

١٥٠ رقم ٨٥.

(٣) عيون الأنباء ٣١١.

إليه فيه، واتفق معه على ثمانين درهماً، وحلف أنه ما يملك غيرها. فلما حلف الرجل اطمأن فضمه إلى نفسه، ورفع يده على عضده فوجد بها نطاقاً صغيراً فيه دنانير، فقال له ابن وصيف: حلفت بالله حائثاً وأنت ترجو رجوع بصرك إليك؟ والله لا عالجتك إذ خدعتك بك. فطلب إليه فيه، فأبى أن يقدحه وصرف إليه الثمانين درهماً ولم يقدحه. ومنهم:

[٣٨]

غالب، طيب المعتضد^(١)

ما عاد مريضاً فعاد مهيضاً، ولا زار عليلاً فشكا غليلاً، ولا أتى لقى بقلبه الضنى إلا نهض من مضجعه، ونهى عن الضراء به توجهه. نفق في مثل سوق المعتضد، ووافق منه ظن المعتقد، وكان منه حيث لا يقر قرار المعتمد. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان يخدم الموفق أيام أبيه المتوكل، وخوّله ونوّله، وكان يغلفه بيده، ويناديه ثم خدم المعتضد بعد أبيه الموفق، وعالج الموفق من سهم أصابه، فبرىء فأعطاه مالاً كثيراً، وقال للغلمانه: من أراد إكرامي، فليكرمه، فبعث إليه مسرور بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب، وبعث إليه سائر الغلمان مالاً لا يحصى، وأقطعه مرة زيادة على رزقه ضياعاً تغل سبعة آلاف دينار، وأتى المعتضد وهو بآمد خبر موته، فكان هو المبتدئ لابنه سعيد بالعزاء فيه ثم بعث إليه الوزير وسائر أرباب الدولة لتعزيته، وبعث إليه بخون الطعام، ثم خلع عليه وأجرى عليه كل ما كان لأبيه. ومنهم:

[٣٩]

صاعد بن بشر بن عبدوس، أبو منصور^(٣)

فطن لكثير من الغلط، وبين في أمور منها ما اختلط، حتى تلافى تلف الأبدان، ووافى بما لم يكن للحكماء القدماء به يدان، ونقل الأمزجة إلى ما يلائمها، وأجمع

(١) كان حياً سنة ٢٧٩هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣١١-٣١٢، أعلام الحضارة ٢/ ١٩٠ رقم ٣٩٥.

(٢) عيون الأنباء ٣١١.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٣١٣-٣١٥، معجم المؤلفين ٤/ ٣١٧، تاريخ العلوم ٢٨٢-٢٨٣، عبقريّة العرب ٨٦، أعلام الحضارة ١/ ٤٧٩ رقم ٢٥٢، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

على هذا آراءه وقد كثر لائمها، ثم قفَى من بعده على آثاره الحكماء، وحفظ تدبيره، ونسيت القدماء.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(١) وقال: كان فاصداً بالبيمارستان ثم اشتغل بصناعة الطب /٢٣٠/ حتى صار من أكابر أهلها. قال: وهو أول من فطن لنقل أكثر الأمراض التي كانت تداوى بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج والاسترخاء واللقوة، وخالف مسطور القدماء، أخذ المرضى بالفصد والتبريد، ومنع المرضى من الغذاء، فأنجح تدبيره وتقدم، وانتهت الرياسة إليه، وعوّل الملوك عليه، فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة، ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البزور، فأظهر من المداواة عجائب.

من ذلك ما حكاه لي بميفارقين الرئيس أبو يحيى ولد الوزير أبي القاسم المغربي قال: عرض للوزير بالأنبار قولنج صعب أقام لأجله في الحمام؛ واحتقن عدة حقن، وشرب عدة شربات فلم ير صلاحاً، فأنفذنا رسولاً إلى صاعد، فلما جاء ورآه على تلك الحال ولسانه قد قصر من العطش وشرب الماء الحار والسكر، وجسمه يتوقد من ملازمة الحمام، ومداومة المعاجين الحارة والحقن الحارة، استدعى كوز ماء مثلوج، فأعطاه الوزير، فتوقف عن شربه. ثم إنه جمع بين الشهوة وترك المخالفة وشربه فقويت في الحال نفسه ثم استدعى فاصداً فقصده وأخرج له دماً كثير المقدار. وسقاه ماء البزور ولعاباً وسكنجيبناً، ونقله من حجرة الحمام إلى الخيش، وقال له: إن الوزير أدام الله عافيته سينام بعد الفصد؛ ويعرق وينتبه؛ فيقوم عدة مجالس، وقد تفضل الله بعافيته. ثم تقدم بصرف الخدم لينام. فقام الوزير إلى مرقده، وقد وجد خفة من بعد الفصد، فنام مقدار خمس ساعات، وانتبه يصيح بالفراشين. فقال صاعد للفراش: إذا قام من الصبيحة فقل له يعاود النوم، حتى لا ينقطع العرق. فلما خرج الفراش من عنده قال: وجدت ثيابه كأنه قد صبغت بماء الزعفران، وقد قام مجلساً ونام. ثم لا زال الوزير يتردد دفعات إلى آخر النهار مجالس عدة، ومن بعد هذا غداه بمزورة، وسقاه ثلاثة أيام ماء الشعير، فبرىء برأ تاماً. فكان الوزير أبداً يقول: طوبى /٢٣١/ لمن سكن بغداد داراً شاطئة. وكان طبيبه أبو منصور، وكاتبه أبو علي بن موصلايا. فبلغه الله أمانيه فيما طلب.

ونقلت أيضاً من خط ابن بطلان: أن صاعد الطبيب عالج الأجل المرتضى رضي الله عنه من لسع عقرب، بأن ضمد بكافور فسكن عنه الألم في الحال.

ونقلت من خط أبي سعيد الحسن بن أحمد بن علي في كتاب «ورطة الأجلاء من هفوة الأطباء». قال: كان الوزير علي بن بلبل ببغداد، وكان له ابن أخت فلهفته سكتة دموية، وخفي حاله على جميع الأطباء، وكان بينهم صاعد بن بشر حاضراً، فسكت حتى أقر جميع الأطباء بموته، ووقع اليأس من حياته، وتقدم الوزير في تجهيزه، واجتمع الخلق في العزاء، والنساء في اللطم والنياح، ولم يبرح صاعد بن بشر من مجلس الوزير. فعند ذلك قال الوزير لصاعد بن بشر الطبيب: هل لك حاجة؟ فقال له: نعم يا مولانا، إن رسمت وأذنت لي، ذكرت ذلك. فقال له: تقدم وقل ما يلج في صدرك؟ فقال صاعد: هذه سكتة دموية، ولا مضرة في إرسال مبضع واحد وننظر، فإن نجح كان المراد، وإن تكن الأخرى فلا مضرة فيه ففرح الوزير، وتقدم بإبعاد النساء، وأحضر ما وجب من التمريخ والنطول والبخور والنشوق، واستعمل ما يجب من شد عضد المريض، وأقعده في حضن بعض الحاضرين، وأرسل المبضع بعد التعليق على الواجب من حاله، فخرج الدم ووقعت البشائر في الدار. ولم يزل يخرج الدم حتى استتم ثلثمائة درهم من الدم، فانفتحت العين ولم ينطق، فشد اليد الأخرى ونشقه ما وجب تنشيقه. ثم فصده ثانياً وأخرج مثلها من الدم وأكثر. فتكلم، ثم أسقي وأطعم ما وجب، فبرىء من ذلك، وصح جسمه وركب في الرابع إلى الجامع، ومنه إلى ديوان الخليفة، فدعا له ونشر عليه من الدراهم والدنانير الكثيرة. وحصل لصاعد بن بشر الطبيب مال عظيم، وحشمه الخليفة والوزير / ٢٣٢ / وقدمه وزكاه؛ وتقدم على جميع من كان في زمانه.

ووجدت صاعد بن بشر قد ذكر في مقالته في مرض المراقيا ما عاينه في ذلك الزمان من إهن وجدها، ومخاوف شاهدها، ما هذا نصه. «وانه عرض لنا من تضاييق الزمان علينا، والتشاغل بالتماس الأمر الضروري، ولما قد شملنا من الخوف والحذر والفرع، واختلاف السلاطين؛ وما قد بلينا به، مع ذلك، من التنقل في المواضع غربيتها وشرقيها؛ ولما قد أظلنا من الأمور المخوفة التي لا نرجو في كشفها إلا الله تقديس اسمه».

هذا ما ذكر. وما كان في أيامه إلا اختلاف ملوك الإسلام بعضهم مع بعض، وكان الناس سالمين في أنفسهم، آمنين من القتل والسبي، فكيف لو شاهد ما شاهدنا ونظر ما نظرنا في زماننا من التتر الذين أهلكوا العباد، وخربوا البلاد، وكونهم إذا أتوا إلى مدينة فما لهم إلا قتل جميع من فيها من الرجال، وسبي الأولاد والنساء، ونهب الأموال، وتخريب القلاع والمدن. لكان استصغر ما ذكره، واستقل ما عاينه وحقره. ولكن ما طامة إلا فوقها طامة أعظم منها؛ ولا حادثة إلا وغيرها تكبر عنها؛ ولله الحمد على الإسلام والعافية^(١).

ومنههم:

[٤٠]

ديلم^(١)

وكان من الأطباء المهرة، والألباء أهل المخبرة، تقدم في جيله، وقدم لتبجيله، وخبّي بحب لم يمح من الضمائر، ولم يلح عليه أمر، ليد لم يقصر به باعها، ولم تمد لجس نبض إلا وأيدي الأطباء أتباعها.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(٢) وقال: كان من الأطباء المذكورين ببغداد، المتقدمين في صناعة الطب، وكان يتردد إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد ويخدمه.

ووجدت في بعض التواريخ أن المعتمد على الله وهو أحمد بن المتوكل أراد أن يفتصد، فقال للحسن بن مخلد: اكتب لي جميع من في خدمتنا من الأطباء حتى نتقدم بأن نفصل لكل واحد منهم على قدره. فكتب الأسماء وأدخل فيها اسم ديلم المتطبب. وكان ديلم يخدم الحسن / ٢٣٣ / بن مخلد، فوقع تحت الأسماء بالصلات. فقال ديلم: إني جالس في منزلي وقد وافى رسول بيت المال ومعه كيس فيه ألف دينار، فسلمه إلي وانصرف، فلم أدر ما السبب فيه، فبادرت بالركوب إلى الحسن بن مخلد، وهو حينئذ الوزير، فعرفته ذلك. فقال لي: افتصد أمير المؤمنين، وأمر أن أكتب أسماء الأطباء ليتقدم بصلاتهم، فأدخلت اسمك معهم، فخرج لك ألف دينار. ومنهم:

[٤١]

فنون، طبيب بختيار^(٣)

لبيب عرف بحسن الاختيار، أتقن الحكمة علماً وعملاً، وعزماً وأملاً، وحاز الفضائل معرفة ما ونث، ومعالجة ما دعت صحةً إلا دنث.

قال ابن جبريل: ومن أخباره مع بختيار أنه رمدت عين بختيار في بعض الأوقات، فقال له: يا أبا نصر، ليس والله تبرح من عندي أو تبرئ عيني. وأريدها تبرأ

(١) كان حياً سنة ٢٥٦هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣١٥، أعلام الحضارة ٤٤١/١ رقم ٢١٥.

(٢) عيون الأنباء ٣١٥.

(٣) كان حياً سنة ٣٨١هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢١، أعلام الحضارة ١٩٨/٢ رقم ٤٠٦.

إلى يوم واحد وأبرمه. قال: فسمعت أبا نصر يتحدث أنه قال له: إن أنت أردت أن تبرأ، فتقدم إلى الغلمان والفراشين أن يأتروني دونك في هذا اليوم، وما منهم من يخالفني في أمري إلا قتلته، ففعل بختيار ذلك. فأمر أبو نصر أن يحضر أجانة مملوءة عسل طبرزد. فلما حضر غمس يدي بختيار فيه، ثم بدأ يداوي عينيه بالاشياف الأبيض، وما يصلح الرمد. وجعل بختيار يصيح بالغلمان، فلا يجيبه أحد. ولم يزل كذلك يحمله إلى آخر النهار فبرىء. وكان هو السفير بين بختيار والخليفة. وإذا خرجت الخلع فعلى يديه تخرج، وله منها النصيب الأوفر. ومنهم:

[٤٢]

نظيف القس الرومي^(١)

كان كريم العلاج إلا أن يتلاءم، مبارك اليد إلا من رآه يتشاءم، لو رأى إبليس طلعة وجهه قال فديت من لا يفلح، أو أرسطاطليس لأفسد كلما كان يصلح، طار عليه طائر هذه السمعة القبيحة، والشنعة التي لبس منها ثوب الفضيحة، وكان فاضلاً لا يعوز، / ٢٣٤ / ويتضاءل لديه البحر الذي يعجز.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان خبيراً باللغات والنقل، فاضلاً في الطب، وكان عضد الدولة يتطير منه، وكان يولعون به إذا دخل إلى مريض حتى حكي في بعض الأوقات أن عضد الدولة أنفذه إلى بعض القواد في مرض كان عرض له، فلما خرج من عند القائد استدعى ثقته، وأنفذه إلى حاجب عضد الدولة يستعلم منه نية الملك فيه؛ ويقول: إن كان ثم تغير نية، فليأخذ له الإذن في الانصراف والبعد، فقد قلق لما جرى، فسأل الحاجب عن ذلك وسببه. فقال الغلام: ما أعرف أكثر من أنه جاءه نظيف الطبيب وقال له: يا مولانا، الملك أنفذني لعيادتك. فمضى الحاجب؛ وأعاد بحضرة الملك عضد الدولة هذا الحديث فضحك، وأمره أن يمضي إليه ويعلمه بحسن نيته فيه؛ وأن ذلك لشغل قلبه به فأنفذه إليه ليعوده. وحملت إليه خلع سنية فسكنت بها نفسه، وزال

(١) نظيف بن يمن البغدادي الرومي الملكي القس، طبيب، رياضي، ناقل من اليونانية إلى العربية، تولى تدبير البيمارستان العضدي في بغداد. عاصر البيروني المتوفى في ٤٤٠هـ. كان حياً سنة ٣٥٩هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢٢، أخبار العلماء ٣٣٧، أعلام الحضارة ٢/ ٥٠٢-٥٠٣ رقم ٥٤٧.

(٢) عيون الأنباء ٣٢٢.

عنه ما كان أضمره من شغل القلب، وكان دائماً يولع به بسببها.
ومنها:

[٤٣]

ابن بطلان، وهو أبو الحسن، المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن
بطلان النصراني^(١)

طبيب مكمل، وأريب مؤمل، وأديب يدل عليه شعره من يتأمل، رشح الكلام
شرق الضياء في الظلام، شرق عدوه بمائه، وصفق وما أفاق إلا بأسمائه، وكان على
إصراره على نصرانيته التي انتصر بخذلانها، وهصر غصون الإخاء لخلانها، معروفاً
بمروءة طال به جلبابها، واتسع لكل طالب علم وندى بابها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢) فيه: كان قد اشتغل على ابن الطبيب وقرأ عليه كثيراً من
كتب الحكمة وغيرها، ولازم ابن زهرون واشتغل عليه، وكان معاصراً لابن رضوان
الطبيب، وكانت بينهما مراسلات عجيبة وكتب غريبة، ولم يؤلف واحد منهما كتاباً ولا
ابتدع رأياً إلا رد الآخر عليه وسفه رأيه فيه.

وسافر ابن بطلان يريد مصر ليرى ابن رضوان / ٢٣٥ / فمر في طريقه بحلب
فأكرمه صاحبها معز الدولة ثمال بن صالح ثم أتى دولة مصر في دولة المستنصر وجرت
بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة ونوادير ظريفة، قال: وألف كل منهما كتاباً في

(١) المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان، أبو الحسن: طبيب، باحث، من أهل بغداد. سافر يريد
مصر سنة ٤٣٩هـ، ومر بحلب فأكرمه معز الدولة ثمال بن صالح. ودخل مصر سنة ٤٤١هـ فأقام
ثلاث سنوات. ورحل إلى القسطنطينية، ثم إلى أنطاكية فترهب - وكان مسيحياً - وسمي «بوانيس»
ومات فيها سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م. وكان مشوه الخلقة. من كتبه «دعوة الأطباء - ط» و«تقويم الصحة
- خ» ترجم إلى اللاتينية والألمانية وطبع بهما، و«الأمراض العارضة - خ» و«كناش الأديرة
والرهبان - خ» و«المدخل إلى الطب» و«عمدة الطبيب في معرفة النبات - خ» و«مقالة إلى علي بن
رضوان - ط» و«مقالة في الاعتراض على من قال إن الفرخ أحر من الفروج - ط» و«شراء الرقيق
وتقليب العبيد - ط» رسالة، و«مقالة في علة نقل الأطباء تدبير أكثر الأمراض... الخ» كتبها
بأنطاكية سنة ٤٥٥هـ و«مقالة في مداواة صبي عرضت له حصة».

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٢٥-٣٢٨، وآداب اللغة ٣/ ١٠٥، وإعلام النبلاء ٤/ ١٩١، والحلل
السندسية ١/ ٣٥٤، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٩٨، وأخبار الحكماء ١٩٢-٢٠٧ وفيه: «توفي
سنة ٤٤٤»، ومثله في مختصر الدول لابن العبري ٣٣١، نوادر المخطوطات ١/ ٣٤٢-٣٤٧،
والأعلام ٧/ ١٩١، ومعجم الأدباء ٧/ ٥٢-٦٨، وأعلام الحضارة ٢/ ٤٧٨-٤٧٩.

(٢) عيون الأنباء ٣٢٥.

الرد على الآخر وكلام ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز بالأدب ومما يدل على ذلك تسميته له بتمساح الجن، وكان ابن رضوان أسود قبيح الصورة، وفيه يقول: [من الطويل]

ولمّا تبدّى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهنّ من النّدَمِ
وقلن وأخفين الكلام تستثراً ألا ليتنا كنا تركناه في الرّجَمِ
ثم سافر ابن بطلان من مصر إلى القسطنطينية، وعرضت في زمانه أبواب كثيرة، وله في هذا رسالة معروفة، وله أشعار كثيرة جداً.
ومنهم:

[٤٤]

أحمد بن أبي الأشعث^(١)

طبيب يلم الشعث، ويضم السقام من تفاريق الأعضاء إذا انبعث، لا يغالب طبه النافع، ولا يغالط دواؤه بمدافع، تخال هيأة اسقلينوس صفته، وتخطيء معالجة جالينوس ولا تخطيء وصفته.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(٢)، وقال: كان وافر العقل، كثير السكينة والوقار، متفهماً في الدين، وعُمر عمراً طويلاً، وكان لا يفعل إلاً جميلاً، وكان فاضلاً في الأمور الحكمية، وله تصانيف كثيرة مفضلة تدل على العلم وعلو المنزلة، ومصنفاً في الطب لا نظير له في

(١) أحمد بن محمد بن محمد بن أبي الأشعث، أبو جعفر: طبيب مصنف بحاث، شرح كثيراً من كتب جالينوس، أصله من فارس وانتقل إلى الموصل فأقام إلى أن توفي فيها نحو سنة ٣٦٥هـ/ نحو ٩٧٥م. من تصانيفه «الغادي والمغتدي - خ» في الطب، أوله الباب الأول في الفم... الخ، في الأزهرية، و«الأدوية المفردة - خ» الجزء الثاني منه. في مخطوطات الرباط (٢٩١ أوقاف) قديم، عليه تملك بخط محيي الدين بن العربي و«الحيوان» و«العلم الإلهي» و«الجدري والحصبة والحميقاء» و«السرسام والبرسام ومداواتهما» و«القولنج وأصنافه ومداواته» و«البرص والبهق» و«الصرع» و«الاستسقاء» و«ظهور الدم» و«الماليخوليا» و«تركيب الأدوية» و«أمراض المعدة ومداواتها».

ورد اسمه في بعض المصادر: «أحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الأشعث...» كما ورد في بعض المصادر أنه توفي سنة ٣٦٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٣١-٣٣٢، كشف الظنون ٥١، ٤٠٠، ١٣٨٩، ١٤٠٢، وتاريخ النبات ٥١-٥٠، العلوم البحتة لكحالة ٣٤١، العلوم العملية - طب ٢٧، معجم المؤلفين ٢/ ١٤٨، الأعلام ١/ ٢٠٩، وأعلام الحضارة ١/ ١٣٦-١٤٠ رقم ٨٠.

(٢) عيون الأنباء ٣٣١.

الجودة، وكان أصله من فارس، وكان متصرفاً، ثم صودر فخرج من بلده هارباً، ودخل الموصل بحال سيئة ووافق أن كان لصاحبها ناصر الدولة ولدٌ عليل بقيام الدم لا يزداد بمعالجة الأطباء إلا مرضاً، فقال لأمه: أنا أعالجه، وأراها غلط الأطباء في التدبير، فسكنت إليه، فعالجه فبرىء، فأجزل عطاؤه وأحسن إليه وأقام بالموصل إلى آخر عمره. ومنهم:

[٤٥]

أبو سهل النيلي، وهو سعيد بن عبد العزيز^(١)

طبيب حاذق / ٢٣٦ / في العلاج، صادق الحُدس في معرفة المزاج، لم يزر مريضاً إلا أخذ بيده من الفراش، واستوقف السقم وقد جرى في المشاش، وطرد عنه وسواس حمى تهافت به في النهار تهافت الفراش.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٢): مشهور بالفضل، عالم بالطب، جيد التصنيف، مفنن في الأدب، بارع في الشعر، ومنه قوله: [من الخفيف]

سَقَّنِي الرَّاحَ تَشْفِي لَوْعَةَ قَلْبٍ بَاتَ مُذْبِتٌ لِلْهُمُومِ سَمِيرَا
هِيَ فِي الْكَأْسِ خَمْرَةٌ فَإِذَا مَا أَفْرَغْتُ فِي الْحَشَا اسْتَحَالَتْ سُورَا
ومنهم:

[٤٦]

ابن الواسطي^(٣)

طبيب المستظهر، كان مقبول الكلمة، مأمول الشفاعة عند الظلمة، مع نفس متسعة، وفضل ينفق منه من سعة، وكرم يكر على امواله ليشتتها، وعلى آماله ليثبتها،

(١) سعيد بن عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد المؤمن بن طيفور النيلي النيسابوري. توفي سنة ٤٢٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤١-٣٤٢، معجم الأدباء ١١/٢١٨، المنتخب من السياق ٢٣٣ رقم ٧٣٠، حكماء الإسلام ١٠٨، بغية الوعاة ٢٥٥-٢٥٦، يتيمة الدهر ٤/٣٠٨، معجم المؤلفين ٤/٢٢٥، معجم الأطباء ٢٠٤، العلوم العملية - الطب ٣٠، الأعلام ٣/٩٧، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٠١-٤٢٠هـ) ص ٤٧٩ رقم ٣٩٨.

(٢) عيون الأنباء ٣٤١.

(٣) توفي سنة ٥١٢هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٤-٣٤٥، العلوم العملية - الطب ٥٦، أعلام الحضارة ٢/٥٠٧ رقم ٥٥٥.

وكانت له من المستظهر كرامة لا يهان قدرها، ولا يهاب إلا إذا ضاق في مرماها الفسيح قفرها.

وقال ابن أبي أصيبعة^(١): كان رفيع المنزلة، وكان ابن المعوج صاحب الديوان قد استقرت عليه قرية بثلاث آلاف دينار قام منها بالفين، وسأل إنظاره بالآلف المتأخرة إلى أوان الغلة، فلم يتحصل، فأشار عليه حاجبه ابن الدواتي أن يأتي ابن الواسطي ليستمهل له المستظهر، فأتاه فأكبر مجيئه، وأخلى له المجلس فعرفه الصورة، وأنه قد رهن كتب داره على خمسمائة دينار، فلما كان من الغد بعث حاجبه يتقاضاه فأعطاه خط الخليفة بالخمسمائة دينار، وكتب ملكه، واستقبل له من ماله، وألبس الحاجب خلعة، وبعث معه إلى ابن المعوج دست ثياب فاخر وخمسين ديناراً للنفقة، فقبل ذلك منه وشكره. ومنهم:

[٤٧]

أبو طاهر البرخشي، وهو أحمد بن محمد بن العباس^(٢)

من / ٢٣٧ / أهل واسط، وطبيب فيما أهل له من العلم قاسط، قاس على ما صح من قديم التجريب، وعميم النظر الذي يحقق رأي الأديب، بملاطفة كأنما يعاني بها مقبولة ما برحت، أو يعاين مفتولة بين المجانس سنحت.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(٣) وقال: فاضل في الطب، كامل في الأدب، كان في أيام المسترشد. قال: وكان يعالج بواسط مريضاً به أحد أنواع الاستسقاء، ولم ينجع فيه علاج، وتجاوز حد الحمية، فسهل له في أكل ما أراد، فاجتاز به رجل يبيع الجراد مصلوقاً فاشترى منه وأكل، فعرض له منه إسهال مفرط، ثم انقطع الإسهال، وأخذ مزاجه في الصلاح إلى أن عوفي، فلما علم أبو طاهر بعافيته وكان قد يئس منه، أتاه وسأله بم وجد الراحة، فقص عليه خبر الجراد فأفكر وقال: ليس هذا من فعل الجراد ولا خاصيته، فتقصى عن بئعه حتى عرفه، فقال له: أتعرف الموضع الذي صدت منه الجراد الذي أكله هذا، قال: نعم، قال: فامض بنا إليه، فلما أتاه رأى حشيشة هناك يرهاها الجراد، فكان يداوي بها من الاستسقاء وأبرأ بها جماعة من هذا المرض.

(١) عيون الأنباء ٣٤٤.

(٢) ورد لقبه في الأصل «الرجسي» وما صوبناه من عيون الأنباء.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٥-٣٤٧.

(٣) عيون الأنباء ٣٤٥.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): وهذه حكاية قديمة، وقد جرى ذكرها، وإن تلك الحشيشة هي المازريون، وقد ذكرها التنوخي في كتاب «الفرج بعد الشدة».

وأشدد له قوله في غلام ناول خلالاً: [من الطويل]

وناولني مِنْ كَفِّهِ مِثْلَ خَضْرِهِ ومِثْلَ مُحِبِّ ذَابَ مِنْ طُولِ هَجْرِهِ
وقال خِلالي؟ قَلْتُ كُلُّ حَمِيدَةٍ سِوَى قَتْلِ صَبٍّ حَارِ فَيْكٍ بِأَسْرِهِ^(٢)
ومنهم:

[٤٨]

أبو غالب ابن صفية النصراني^(٣)

أسقطته ديانتته، وأرهقته خيانتته، وأترع بيده كأس الموت لنفسه، وهياً لمصرعه وحفرة رمسه، وأتى عليه من حيث ظن أنه ينتفع، وسقط من يديه من حيث توهم أنه يرتفع. ومن حاول قتل الأسد الضرغامه، وختل الصل الهامة، ودرأ بكفه من /٢٣٨/ الهندواني، وفل بإصبعه باب اليماني، لا يعجب له من إسراع التلف، ولا من إسراف ما ينفق من عمره الذاهب بلا خلف.

حكى أنه كان يشي بأسرار المستنجد إلى قايماز مقدم الأمراء إذ ذاك، وكان المستنجد يريد قبض قايماز، فاعتل المستنجد فدسوه عليه حتى وصف له الحمام، وكان لا يصلح له، وعرف المستنجد أن قوته لا تقوى على الحمام، فدخل عليه قايماز والأمراء حوله وألزموه بدخوله، وكانوا قد سجروه ثلاثة أيام بلياليهن فلما دخل إليه ردوا عليه بابه ساعة فمات وباعوا ابنه المستضيء بعد أيما حلفوه عليها، فأقام مدة وفي نفسه من فعلتهم بأبيه، فشرع في العمل عليهم، وابن صفية على ما هو عليه من نقل خبره، فطلبة المستضيء ليلاً وطلب منه ترتيب دواء قتال ليقتل به عدواً فعمله واجتهد فيه فلما أحضره قال له: استف منه حتى نجرب فعله فتلوى من ذلك، وقال: الله، الله، في، فقال له: الطبيب متى تجاوز حده، فليس له إلا هذا أو السيف، فاستف ذلك الدواء، ففر من الهلاك إلى الهلاك ثم خرج من الدار وكتب إلى قايماز بما كان وقال له: والانتقال مني إليكم، ثم هلك وعزم قايماز على الإيقاع بالخليفة، فرده الله وهرب

(١) عيون الأنباء ٣٤٥-٣٤٦.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٤٥-٣٤٦.

(٣) كان حياً سنة ٥٦٦هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٤٧-٣٤٩، أعلام الحضارة ١٩١/٢ رقم ٣٩٦.

من بغداد فاراً إلى الملك الناصر صلاح الدين، فلم يقبله فعاد على البرية إلى الموصل، فمرض في الطريق، ثم دخل الموصل فمات بها^(١).
ومنها:

[٤٩]

أمين الدولة ابن التلميذ^(٢)

كان فرد قرانه، ونداً أقرانه، وبلغ بعلمه مبالغ الأشراف، ووصل في فهمه إلى حد الأشراف، وكان يتكلم في مجالس الخلفاء متبسطاً، ويتقدم في مجال السؤال للضعفاء متوسطاً، لسابقة خدمه، وباسقة صنعه، في بيت الإمامة دون باقي خدمه، ولما تحلت

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) هبة الله بن صاعد بن (هبة الله بن) إبراهيم، أبو الحسن، أمين الدولة، موفق الملك، المعروف بابن التلميذ: حكيم، عالم بالطب والأدب. له شعر، كله ملح ولطائف وابتكارات، في بيتين أو ثلاثة، وترسل جيد. مولده ببغداد سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م ووفاته فيها سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م. عمر طويلاً. وخدم الخلفاء من بني العباس. وانتهت إليه رئاسة الأطباء في العراق. وكان عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية، وتولى البيمارستان العضدي إلى أن توفي. وكان رئيس النصارى ببغداد وقسيسهم. وهو صاحب الأبيات المشهورة، التي أولها:

«بزجاجتين قطعت عمري وعليهما عولت دهرى»

من كتبه: «حاشية على القانون لابن سينا» و«حاشية على المنهاج لابن جزلة» و«شرح مسائل حنين» و«شرح أحاديث نبوية تشتمل على مسائل طبية» و«الكناش في الطب» و«الموجز البيمارستاني» ثلاثة عشر باباً، و«المقالة الأمنية في الأدوية البيمارستانية - خ» و«مقالة في الفصد - خ» و«مقالة في أصول التشريع عند المسيحيين - خ» و«اختيار كتاب الحاوي لحنين» و«اختصار شرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط» و«ديوان رسائل» في مجلد ضخيم، اطلع عليه ابن أبي أصيبعة، و«ديوان شعر» صغير. وأشهر كتبه «الأقرباذين - خ». قال ابن العبري: «سأله ابنه قبل أن يموت بساعة: ما تشتهي؟ فقال: أن اشتهي!».

ترجمته في: معجم الأدباء ٢٧٦/١٩-٢٨٢، وخريدة القصر (قسم العراق) ١/١٥٥ و٢/٢٨١، وتاريخ الحكماء ١٤٤، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٩-٢١٠، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٢٢-٢٢٤، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٣٤٩-٣٧١، ووفيات الأعيان ٦/٦٩-٧٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/٤٥، والعبر ٤/١٧٢، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٣٥٤ رقم ٢٤٣، وصفحة ٤٢٣ في آخر الترجمة رقم ٢٨٠، والإعلام بوفيات الأعلام ٢٣١، ونزهة الأرواح (مخطوط) بالمجمع العلمي العراقي، ورقة ٢٣٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٠٦، ١٠٧، و«مرآة الجنان» ٣/٣٤٤، والوافي بالوفيات ٢٧/٢٧٨-٢٨٤ رقم ٢٣٠، العارفين ٢/٥٠٥، وديوان الإسلام لابن الغزي ٢/٤٥-٤٦ رقم ٦٢٦، ومعجم المؤلفين ١٣/١٣٨، والأعلام ٨/٧٢، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١-٥٦٠هـ) ص ٣٢١ رقم ٣٦٧، فهرست المخطوطات المصورة (الطب) ٢٣.

به شيمه من مآثر، وحلت بادييه مما لا يقدر عليه مكائر، حتى كان يناظر جُلَّة / ٢٣٩/
الفقهاء وجملة أهل العلم سوى السفهاء، ويفترس الأدباء، ويفترش لمواطيه الأطباء،
ويضرب بقلمه عصا ابن البواب، ويطرف طرف طرسه مقلة ابن مقلة بفاضل الجلباب،
وهو على دينه المخالف، وقعود ملته في الخوائف تكره الصدور وتحبره حبرة البدور.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة
الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أوحده زمانه في صناعة الطب، ومباشرة
أعمالها. وكان في أول أمره قد سافر إلى بلاد العجم، وبقي بها سنين كثيرة في الخدم
وكان جيد الخط يكتب المنسوب في نهاية الحسن والصحة. وكان عارفاً بالسرياني
والفارسي متبحراً في العربية. وله شعر مستظرف، وهو من بيت كتابة، وكان هو وأوحد
الزمان يخدمان المستضيء، وكان أوحده الزمان أبصر بالحكمة وابن التلميذ أبصر
بالطب، وكان بينهما شأن إلا أن ابن التلميذ كان أعقلهما وخيرهما فعلاً، وسعى أوحده
الزمان عليه حتى كاد يرديه ثم ردَّ عليه كيده فوهب ماله ودمه لابن التلميذ فعفا عنه،
وإنما قال فيه [الطويل].

لنا صديقٌ يهوديٌّ حَمَاقَتُهُ إذا تكلَّمَ تبدو فيه مِنْ فيه
يتيهُ والكلبُ أعلى منه منزلةً كأنه بَعْدُ لَمْ يخرجْ مِنَ التَّيِّهِ
وقد قيل فيهما: [الوافر]

أبو الحسن الطبيب ومُقتفيه أبو البركات في طرفٍ نقيض
فهذا بالتواضع في الثَّريا وهذا بالتكبر في الحَضِيضِ
قال عبد اللطيف البغدادي: كان أمين الدولة حسن العشرة، كريم الأخلاق،
وعنده سخاء ومروءة، وأعمال في الطب مشهورة، وحدوس صائبة. منها أنه أحضرت
إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة / ٢٤٠/ هي أم في الممات، وكان الزمان
شتاء، فأمر بتجريدها وصب الماء المبرد عليها صباً متتابعاً كثيراً، ثم بنقلها إلى مجلس
دفي قد بُخر بالعود والند، ودرثت بأصناف الفراء ساعة، فعطست وتحركت وقعدت
وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها.

قال: ودخل إليه رجل مترف يعرق دماً في زمن الصيف، فسأل تلاميذه وكانوا
خمسين نفساً، فلم يعرفوا المرض، فأمره أن يأكل خبر شعير مع باذنجان مشوي، ففعل
ذلك ثلاثة أيام فبرىء. فسأله أصحابه عن العلة، فقال: إن دمه قد رق ومسامه قد

تفتحت، وهذا الدواء من شأنه تغليظ الدم، وتكثيف المسام.

قال: ومن مروءته أن ظهر داره كان يلي النظامية، فإذا مرض فقيه نقله إليه، وقام في مرضه عليه، فإذا برىء وهب له دينارين وصرفه.

ومما حكاه أيضاً عن أمين الدولة وكأنه قد تجاوز في هذه الحكاية قال: وكان أمين الدولة لا يقبل عطية إلا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك النائية داره مرض مزمن فقيل له: ليس لك إلا ابن التلميذ، وهو لا يقصد أحداً فقال: أنا أتوجه إليه. فلما وصل أفرد له ولعلمانه دوراً وأفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدة فبرىء الملك وتوجه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تخوت عتابي، وأربعة ممالك، وأربعة أفراس، فامتنع من قبولها وقال: إن علي يميناً، لا أقبل من أحد شيئاً، فقال التاجر: هذا مقدار كثير، قال: لما حلفت ما استثنيت. وأقام شهراً يراوده ولا يزداد إلا إباء. فقال له عند الوداع: ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأتمتع بالمال فتقلد منته، وتفوتك منفعتي، ولا يعلم أحد بأنك رددته. فقال: ألسنت أعلم في نفسي إنني لم أقبله، فنفسى تشرف بذلك، علم الناس أو جهلوا.

وحدثنا الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، قال: ٢٤١ / حدثني الشيخ موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران، قال: حدثني توما وأبو الفرج المسيحي، قال: كان الأجل أمين الدولة ابن التلميذ جالساً ونحن بين يديه اسأذنت عليه امرأة ومعها صبي صغير، فأدخلت عليه، فحين رآها بدرها، فقال: إن صبيك هذا به حرقة البول، وهو يبول الرمل، فقالت: نعم. قال: فيستعمل كذا وكذا وانصرفت. قال: فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقاً. فقال: حين دخل رأيته يولع بإحليله ويحكه، ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة، فعلمت أن الحكمة من الرمل، وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحرقة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتشقق، فحكمت بذلك وكان موافقاً.

ومن نوادر أمين الدولة وحسن إشارته: أنه كان يوماً عند المستضيء بالله، وقد أسن أمين الدولة. فلما نهض للقيام توكأ على ركبتيه، فقال له الخليفة: كبرت يا أمين الدولة. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وتكسرت قواريري، ففكر الخليفة في قول أمين الدولة وعلم أنه لم يقله إلا لمعنى قد قصده، وسأل عن ذلك، فقيل له: إن الإمام المستنجد بالله كان وقد وهبه ضيعة تسمى قوارير، وبقيت في يده زماناً، ثم من مدة ثلاث سنين حط الوزير يده عليها. فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة، وأنه لم ينه أمرها إليه، ولا عرض بطلبها. ثم أمر الخليفة بإعادة الضيعة إلى أمين الدولة، وأن لا

يعارض في شيء من ملكه.

ومن شعره قوله في ولده وكان غايةً في الدين: [من المنسرح]

أشكو إلى الله صاحباً شَكِساً تسعفه النفس وهو يعسفها
فنحن كالشمس والهِلالِ معاً تكسبه النور وهو يكسفها

وقوله: [من المتقارب]

٢٤٢/ إذا وجدَ الشيخُ في نفسه ألسَتَ تَرَى [أَنَّ] ضَوْءَ السُّرَاجِ
لَهُ لَهَبٌ قَبْلَ أَنْ يَنْطَفِي نشَاطاً فَذَلِكَ مَوْتُ خَفِي

وقوله: [المتقارب]

قَالَ الْأَنَامُ وَقَدْ رَأَوْهُ مَعِ الْحَدَاثَةِ قَدْ تَصَدَّرَ
مَنْ ذَا الْمُجَاوِزُ قَدْرُهُ؟ قُلْتُ: الْمُقَدَّمُ بِالْمُؤَخَّرِ

وقوله: [المتقارب]

قَدْ قُلْتُ لِلشَّيْخِ الْجَلِيلِ لِ الْأَرِيحِيِّ أَبِي الْمُظَفَّرِ
ذَكَرْتُ فَلَانَ الْدِينَ بِي قَالَ: الْمُؤَنَّثُ لَا يُدْكَرُ

وقوله: [الوافر]

الْعِلْمُ لِلرَّجُلِ اللَّبِيبِ زِيَادَةٌ وَنَقِیْضُهُ لِأَحْمَقِ الطِّيَّاشِ
مِثْلُ النَّهَارِ يَزِيدُ أَبْصَارَ الْوَرَى نُوراً، وَيُعْشِي أَعْيْنَ الْخَفَّاشِ

وقوله: [من الوافر]

أَجَدَّكَ إِنَّ مِنْ شِيمِ اللَّيَالِي الْعَنِيفَةِ أَنْ تَجُورَ عَلَى اللَّهَيْفِ
كَمِثْلِ اللَّحِظِ أَغْلَبَ مَا تَرَاهُ يَصُبُّ أَذَاهُ فِي الْعُضْوِ الضَّعِيفِ

وقوله: [من البسيط]

لَا تَحْسَبَنَّ سَوَادَ الْخَالِ عَنْ خَلَلٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَوْ أَحْدَاثِهِ غُلَطَا
وَأِنَّمَا قَلَمُ التَّصْوِيرِ حِينَ جَرَى بَنُونِ حَاجِبِهِ فِي خَدِّهِ نَقَطَا

وقوله: [من الطويل]

بِرَانِي الْهَوَى بَرِي الْمُدَى فَأَذَابَنِي صُدُودُكَ، حَتَّى صِرْتُ أَنْحَلَ مِنْ أَمْسِ
وَلَسْتُ أَرَى حَتَّى أَرَاكَ، وَإِنَّمَا يَبِينُ هَبَاءُ الذَّرِّ فِي أَلْقِ الشَّمْسِ

وقوله مما يكتب على حصير: [من الكامل]

٢٤٣/ أَفْرَشْتُ خَدِّي لِلضُّيُوفِ وَلَمْ يَزَلْ خُلُقِي التَّوَاضُعَ لِلْبَيْبِ الْأَكْبَسِ
فَتَوَاضَعِي أَعْلَى مَكَانِي عِنْدَهُمْ طَوْرًا فَصِرْتُ أَحِلُّ صَدْرِ الْمَجْلِسِ

وقوله: [من مجزوء الكامل]

أَكْثَرَتْ حَسَوَ الْبَيْضِ كَيْمَا يَسْتَقِيمُ قِيَامُ أَيْرِكْ
مَا لَا يَقُومُ بِبَيْضَتَيْكَ فَلَا يَقُومُ بِبَيْضِ غَيْرِكْ

وقوله: [من المتقارب]

وَحَقُّكَ إِنِّي مُذْ بِنْتُ عَنْكَ قَلْبِي حَزِينٌ وَدَمْعِي هَتُونٌ
فَلِلَّهِ أَيَّامُنَا الْخَالِيَاتُ لَوَرَدَّ سَالَفَ دَهْرٍ حَنِينٌ
وَإِنِّي لِأَرْعَى عُهْدَ الصَّفَاءِ وَيَكْلُؤُهَا لَكَ وَدَّ دَفِينٌ
وَلَمْ لَا يَكُونُ وَنَحْنُ الْيَدَا نِ وَأَنْتَ بِفَضْلِكَ مِنْهَا الْيَمِينُ^(١)

ومنهم:

[٥٠]

معتمد الملك بن صاعد، وهو أبو الفرج، يحيى بن صاعد بن
يحيى بن التلميذ^(٢)

بحر حكمة تطفو لآليه، وتغفو مقل النجوم في كرى ليلاليه، مع ملاطفة في العلاج
ملاً طيفها الجفون، وشأي في المزاج ما عدا السكون، إلى دأب بلل الطلُّ طررها،
وأثل الفضل سررها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان متعينا في العلوم الحكيمة، متفننا في صناعة الطب،
متحليا بالأدب، بالغاً فيه أعلى الرتب، وله شعر منه ملغزاً في الإبرة قوله: [من الوافر]
وفاغرة فمأ بالرجل منها ولكن لا تسيغ به طعاما
ومخطفة الحشا في الرأس منها لسان لا تطيق به الكلاما
تصول بشوكة تبدو وسم وما من ذاقه يرد الحماما
تجر وراءها رسناً طويلاً كما قادت يد الحادي الزماما
منيعاً ذا قوى لكن تراه بقبضتها ذليلاً مستضاماً

(١) إلى هنا ينتهي النقل ملخصاً من عيون الأنباء ٣٤٩-٣٧٠.

(٢) توفي سنة ٥٦٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٣٧١-٣٧٤، معجم الأدباء ٢٠/٢٠ رقم ٧، وأخبار العلماء ٢٢٨-

٢٢٩، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١-٥٦٠هـ) ص ٣٢٧ رقم ٣٦٨.

(٣) عيون الأنباء ٣٧١.

٢٤٤/ فَتُلْقِيهِ بِمَحَبَّسِهَا مُقِيمًا طَوَالَ الدَّهْرِ لَا يَأْبَى الْمُقَامَا
أَيَا عَجَباً لَهَا سَوْدَاءَ خَلْقٍ تُرِيكَ خِلَافاً بَيْضاً وَسَامَا
عَدَتْ غُرْيَانَةً مِنْ كُلِّ لُبْسٍ وَفَاضِلُ ذَيْلِهَا يَكْسُوا الْأَنَامَا
وقوله في دار جديدة وقعت فيها نارٌ يوم فراغها: [من الكامل]

يَا بَانِيَا دَارَ الْعُلَا مَلَيْنَهَا لَتَزِيدَهَا شَرْفاً عَلَى كَيَوَانِ
عَلِمْتُ بِأَنَّكَ إِنَّمَا شَيَّدْتَهَا لِلْمَجْدِ وَالْإِفْضَالِ وَالْإِحْسَانِ
فَقَفْتُ عَوَائِدَكَ الْكَرَامُ وَسَابَقْتُ تَسْتَقْبِلُ الْأَضْيَافَ بِالنِيرَانِ
وقوله: [من الكامل]

عَلِقَ الْفُؤَادُ عَلَى خَلْوٍ حَبِهَا عَلِقَ الذُّبَالَةُ فِي حَشَى الْمِصْبَاحِ
لَا يُسْتَطَاعُ الدَّهْرَ فُرْقَةً بَيْنَهُمْ إِلَّا لَحِينَ تَفَرِّقُ الْأَشْبَاحِ
وقوله: [من المتقارب]

فِرَاقُكَ عِنْدِي فِرَاقُ الْحَيَاةِ فَلَا تَجْهَزَنَّ عَلَى مُذْنَفٍ
عَلِقْتُكَ كَالنَّارِ فِي شَمْعِهَا فَمَا إِنْ تُفَارِقُ أَوْ تَنْطَفِئُ
وقوله: [من السريع]

بَدَا إِلَيْنَا أَرْجُ الْقَادِمِ فَأَبْرَأَ الْغُلَّةَ لِلْحَائِمِ
رُوحٌ مِنْ قَلْبِي عَلَى نَأْيِهِ وَقَدْ يَلْذُ الطَّيْفُ لِلْحَالِمِ^(١)
ومنهم:

[٥١]

أوحد الزمان، وهو أبو البركات، هبة الله بن علي بن ملكا

البلدي ثم البغدادي^(٢)

طبيب لو رام إطلاق الصخر الجلمد لتفجر، أو إمساك الماء السائل لتحجر،
بمدادومة نظر لو صابرت الزمان لتضجر، أو فرعت حصى الدهناء لتشجر، بعلم أوسع

(١) إلى هنا ينتهي من عيون الأنباء ٣٧١-٣٧٣.

(٢) هبة الله بن علي بن ملكا البلدي، أبو البركات، المعروف بأوحد الزمان: طبيب، من سكان بغداد، عرفه الظهير البيهقي بفيلسوف العراقيين، وقال: ادعى أنه نال رتبة أرسطو، ولد نحو ٥٦٠هـ/نحو ١٠٨٧م، كان يهودياً وأسلم في آخر عمره. وكان في خدمة المستنجد بالله العباسي، وحظي عنده، واتهمه السلطان محمد بن ملكشاه بأنه أساء علاجه فحبسه مدة. قال ابن خلكان: وأصابه الجذام، فعالج نفسه بتسليط الأفاعي على جسده بعد أن جوعها، فبالغت في نهشه، =

امتداداً من المشرقين، وأجمع مدى مما بين الخافقين، كان يصون وديعة العلم ويحفظها، ويغيط بكتمانها صدور رجال ويحفظها، / ٢٤٥ / ونسيمه تهب خافقته، وشميمه تفتت عنبر الغمام بارقته.

قال ابن أصيبعة^(١): كان يهودياً وأسلم، وخدم المستنجد وتصانيفه في النهاية، وكان له اهتمام بالغ في العلوم، ونظره فائق، بدأ بالطب على أبي الحسين سعيد بن هبة الله، وكان لا يقرئ يهودياً، ولا نصرانياً، فثقل عليه أبو البركات بالناس ليقريه في الدهليز، فيسمع جميع ما يقرأ عليه، وما يجري معه من البحث، وهو كلما فهم شيئاً وتعلقه علقه، فلما مضت سنة أو نحوها، جرت مسألة عند الشيخ بحثوا فيها فلم يتجه لهم عنها جواب، فدخل أبو البركات وخدم، وقال للشيخ: عن أمر مولانا أتكلم في هذه المسألة، فقال: قل، فأجاب عنها بشيء من كلام جالينوس ثم قال: وهذا كان بحثكم في اليوم الفلاني في ميعاد فلان، فعجب الشيخ منه ومن حرصه، فقال: من

فبريء من الجذام وعمي. ويظهر أنه عاد إليه بصره بعد زمن. وتوفي نحو سنة ٥٦٠هـ/ نحو سنة ١١٦٥م، بهمدان عن نحو ثمانين سنة، وحمل تابوته إلى بغداد. من كتبه «المعتبر - ط» في الهند، ثلاثة مجلدات، في الحكمة، منه قطعة مخطوطة، و«اختصار التشريح من كلام جالينوس» ومقالة في سبب ظهور الكواكب ليلاً واختفائها نهاراً و«الأقرباذين» ثلاث مقالات، ورسالة «في العقل وماهيته - خ» ورسالة في «صفة برشتنا - خ» وهو دواء هندي، وأخرى في «صفة دواء ترياقى يقال أمين الأرواح - خ» ورد ذكرهما في مجلة معهد المخطوطات (٤/ ٥٣). يقول الزركلي: وثقات المؤرخين مختلفون في اسم جده «ملكا» أو «ملكان» فهو عند ابن أبي أصيبعة والصفدي، بغير نون؛ وعند ابن خلكان وابن قاضي شهبة، بنون. ووجدت خطأ (سنة ٦١٧) لطبيب آخر اسمه «هبة الله بن ملكا» من أهل تكريت، لا أعلم صلته بصاحب الترجمة، و«ملكا» فيه بغير نون، فترجح عندي حذفها. أما وفاة المترجم له، فجعلها ابن قاضي شهبة بين سنتي ٥٥٠ و٥٦٠ وقال الصفدي: في حدود ٥٦٩ عن ثمانين عاماً، وانفرد الظهير البهقي بالخبر الآتي: في سنة ٥٤٧ أصاب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه قولنج بعدما افترسه أسد، فحمل أبو البركات (هبة الله) من بغداد إلى همدان، فلما يئس الناس من حياة السلطان خاف أبو البركات على نفسه، ومات ضحوة، ومات السلطان بعد العصر، وحمل تابوت أبي البركات إلى بغداد.

ترجمته في: تاريخ حكماء الإسلام ٣٤٣-٣٤٦، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢٢٤، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٧٤-٣٧٦، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢١٠، والمختصر في أخبار البشر ٤٣/ ٣، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٠ رقم ٢٧٥، وتاريخ ابن الوردي ١٠٧/ ٢، ونكت الهميان ٣٠٤، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٤، ومطالع البدور ٢/ ١٠٥، وكشف الظنون ١٧٣١، وشذرات الذهب ٤/ ١٨٥، وهدية العارفين ٢/ ٥٠٥-٥٠٦، ومعجم المؤلفين ١٣/ ١٤٢، ١٤٣، والأعلام ٨/ ٧٤-٧٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١-٥٦٠هـ) ص ٣٤١ رقم ٣٨٠.

يكون هكذا ما يستحل أن نمنعه فصار من أجل تلامذته.

ومن نوادره أن مريضاً عرض له المالنخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دنأ وأنه لا يفارقه أبداً، وكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق، ولا يترك أحداً يدنو منه حتى لا يميل الدن أو يقع على رأسه وبقي هذا المرض مدة طويلة وهو في شدة منه، وعالجته جماعة من الأطباء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثيرٌ ينتفع به، وأنهى أمره إلى أوحد الزمان ففكر أنه ما بقي شيء يمكنه أن يبرأ منه إلا بالأمور الوهمية، فقال لأهله: إذا كنت في الدار فأتوني به، ثم إن أوحد الزمان أمر أحد غلمان به بأن ذلك المريض إذا دخل عليه وشرع في الكلام، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنه يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر وكان قد أعد معه دنأ في أعلى السطح أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس /٢٤٦/ صاحب المالنخوليا أن يرمي الدن الذي معه بسرعة إلى الأرض. ولما كان أوحد الزمان في داره، وأتاه من غير علم المريض فأقبل عليه وقال: لا بد أن أكسر هذا الدن وأريحك منه، ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام الدن من أعلى السطح، فكانت له وجبة عظيمة وكسر قطعاً كبيرة، فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المتكسر تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه هو الذي كان على رأسه بزعمه وأثر فيه الوهم أثراً برئ به من علته تلك. وهذا باب عظيم في المداواة وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من المتقدمين مثل جالينوس وغيرهم في مداواتهم بالأمور الوهمية.

وحكى أبو الفضل تلميذ أبي البركات المعروف بأوحد الزمان قال: كنّا في خدمة أوحد الزمان في عسكر السلطان ففي بعض الأيام جاءه رجل ذا داحس إلا أن الورم كان ناقصاً وكان يسيل منه صديد قال: فحين رأى ذلك أوحد الزمان بادر إلى سلامية إصبعه فقطعها، قال: فقلنا له: يا سيدي لقد أجحفت في المداواة، وكان يغنيك أن تدأويه بما يداوى به غيرك، وتبقي عليه أصبعه ولمناه، وهو لا ينطق بحرف، قال: ومضى ذلك اليوم وجاءه في اليوم الثاني رجلٌ آخر مثل ذلك سواء، فأومأ إلينا بمداواته وقال: افعلوا في هذا ما ترونه صواباً، قال: فداويناه بما يداوى به الداحس فاتسع المكان وذهب الظفر، وتعدى الأمر إلى ذهاب السلامة الأولى من سلاميات الأصابع وما تركنا دواء إلا داويناه به ولا علاجاً إلا عالجناه ولا لطوخاً إلا لطخناه به ولا مسهلاً إلا وسقيناه، وهو مع ذلك يزيد ويأكل الأصبع أسرع أكل، وآل أمره إلى القطع فعملنا أن فوق كل ذي علم عليم.

قال: فشاع هذا المرض في تلك السنة، وغفل جماعة منهم عن القطع فتأدى أمر بعضهم إلى هلاك اليد وبعضهم إلى هلاك / ٢٤٧ / أنفسهم.

ونقلت من خط الشيخ موفق الدين بن عبد اللطيف البغدادي فيما ذكره عن ابن الدهان المنجم قال: كان الشيخ أبو البركات قد عمي في آخر عمره وكان يُملي على جمال الدين بن فضلان وعلى ابن الدهان المنجم وعلى يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف وعلى المهذب ابن النقاش كتاب المعبري.

وقيل: إن أوحده الزمان كان سبب إسلامه أنه دخل يوماً إلى الخليفة فقام جميع من حضره إلا القاضي؛ فإنه كان حاضراً ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لذمي فقال أوحده الزمان: يا أمير المؤمنين كأن قاضي القضاة لم يقم مع الجماعة لكونه يرى أنني على غير ملته، فأنا أسلم بين يدي مولانا، ولا أتركه يتقصني بهذا، وأسلم.

قال: وكان لأوحده الزمان ثلاث بنات ولم يخلف ولداً ذكراً، وعاش نحو ثمانين سنة.

قال: وكان بين أوحده الزمان وأمين الدولة بن التلميذ معادة، وكان أوحده الزمان لما أسلم يتنصل كثيراً من اليهود، ويلعنهم ويسبهم، فلما كان في بعض الأيام في مجلس بعض الأعيان وعنده جماعة وفيهم أمين الدولة ابن التلميذ وجرى ذكر اليهود فقال أوحده الزمان: لعن الله اليهود، فقال أمين الدولة: نعم وأبناء اليهود. فوجم لها أوحده الزمان وعرف أنه إشارة إليه، وعبارة عنه، ولم يتكلم^(١). ومنهم:

[٥٢]

أبو القاسم، هبة الله بن الفضل البغدادي^(٢)

عَلِمَ طَبَّ وَبَيَانَ، وَإِمَامَ فَضْلٍ مَلَأَ سَمَاعَ وَعِيَانَ، فَأَتَى بِمَا غَلَا، وَفَاتَ مَدِيحاً وَغَزَلاً، وَجَاءَ بِضَرْبِ الضَّرْبِ، وَغَرِيبِ الْحِكْمَةِ الَّتِي لِأَدْمَغَةِ الْيُونَانِ وَالسَّنَةِ الْعَرَبِ،

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٣٧٤-٣٧٦.

(٢) هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز، أبو القاسم بن القَطَّان: شاعر هجاء خليع ماجن. من أهل بغداد ولد سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م، كان مغرّياً بهجاء المتعجرفين. له «ديوان شعر» قال العماد الأصبهاني: لم يسلم منه أحد، لا الخليفة ولا غيره، وكان مجمعاً على ظرفه ولطفه. وأورد ابن خلكان طائفة حسنة من أخباره. وقال طاش كبري زاده: له مختصر في «العروض» وقال ابن قاضي شعبة: كان

وكان الطب عليه أغلب، والسبب إليه أجب، فكان به ارتفاقه، ومنه إنفاقه، وكان له هجو يُجرع المهجو سم الأسود، وسقماً كلما برأ منه يعاود، هذا إلى ملح أظرف من غرائب البحار والطف من النسيم إذا عبث بأعطاف / ٢٤٨ / الأشجار.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان يعاني صناعة الطب ويباشر أعمالها، ويعد من الموصوفين فيها إلا أن الشعر غلب عليه، وكان كثير النوادر، وبينه وبين الحيص بيص شتآن وتهاتر، وكانا قد يصطلحان وقتاً، ثم يعودان إلى ما كانا عليه وهو الذي ألصق بالحيص بيص هذا اللقب، وذلك لأن السلطان السلجوقي لما قصد بغداد في أيام المقتفي وهمّ عسكرها بالخروج إليه، وكان الناس من ذلك في حديث كثير وحركة زائدة، فقال: مالي أرى الناس في حيص وبيص، فكلفت كلمة أبا القسم هذا، فألصق به هذا اللقب.

قلت: كان الحيص بيص على ما هو منه معروف، فخرج يتمشى ليلاً حيث لا يقدم إلا الأبطال، ولا يمشي إلا من قصر عنده باع الخوف وطال، فمر بكلبة مجرية رآها فما خافها، وهي تسطو بأنياب وأظفار، وتهول مثل الليل بلا إسفار، فنبتت عليه نباحاً ظنّ به أن الجبال عليه قد أطبقت، أو الجيوش به قد أحذقت، فامتشق سيفه وخطا إليها، وقدم قدمه، وأقدم عليها ثم دهش للخوف من بأسها، فأضلّها وإنما أصاب بالسيف جرواً لها، فقال أبو القاسم: [البسيط]

يا معشر الناس، إن الحيص بيص أتى بفعللة أورثته الخزي في البلد
هو الجبان الذي أبدى شجاعته على جري ضعيف البطش والجلد
فأنشدت أمه، من بعدما احتسبت دم الأبيلى عند الواحد الصمد
أقول للنفس: تأساء وتعزية إحدى يدي أصابتنى ولم تُرد

⁼ يعرف الطب والحكاية، وديوانه مشهور، وقد هجا «الحيص بيص» وهو الذي شهره بهذا اللقب . توفي سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م.

ترجمته في: خريدة القصر (قسم العراق) ٢/ ٢٧٠، والمنتظم ١٠/ ٢٠٧ رقم ٣٠٠ (١٨/ ١٥٧- ١٥٨ رقم ٤٢٥١)، وأخبار الدولة السلجوقية ١٢٠، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٨٠- ٣٨٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٥٣- ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٣٩- ٣٤٠ رقم ٢٣١، وصفحة ٣٧٧، ومرآة الجنان ٣/ ٣١٥، ولسان الميزان ٦/ ١٨٩، وفوات الوفيات ٢/ ٣١٤، ومفتاح السعادة ١/ ٧١٤، ومرآة الزمان ٨/ ١٨٧، والأعلام ٨/ ٧٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٥١- ٥٦٠هـ) ص ٢٧٥ رقم ٢٩٦.

(١) عيون الأنباء ٣٨٠.

كلاهما خَلَفَ من فَقَدِ صاحبهِ هذا أخِي حينَ أدعوهُ وذا وَلَدِي
وكان المقتفي حين بُويعَ شيخاً قد علت سَنَهُ واحِدودب غُصْبُهُ ووزيره ابن هبيرة
مَنْ عِلِمَ زهادَةً، ومداومة درس وعبادة، وكان أبو القاسم يستطيل مدتهما ويكره بأسهما
الذي لا يلين وشدتهمَا، فجلس يوماً المقتفي، وابن هبيرة / ٢٤٩ / واقف أمامه،
ومصرف زمانه هذا، وقد استقل أبو القاسم طول أيامهما، وامتداد دوامهما، فقال:
[من السريع]

يا معشرَ الناسِ النفيرَ النفيرِ قد جلسَ الهودبُ فوقَ الثويرِ
وصارَ فينا أمراً ناهياً وكنْتُ أرجو أَنَّهُ لا يَصِيرُ
فتحْتُ عيني فإذا الدولة الـ دولةُ والشيخُ الوزيرُ الوزيرُ
وقال يهجو البديع الأسطرابي، وكان قد حجَّ: [من مجزوء الكامل]

لا غرو أنْ دُهيَ الحَجيـ حج وَأَنْ رُمُوا مِنْهُ بَنَكْبِهِ
حَجَّ البديعُ وعِرْشُهُ وفتاهُ فانظر أَيُّ عُضْبِهِ
فثلاثَةٌ مِنْ مَنْزِلِ عِلْقٌ وَقَوَادٌ وَقَحْبِهِ
وقال: [من السريع]

يا خائفَ الهَجْوِ على نَفْسِهِ كُنْ في أمانِ اللهِ مِنْ مَسِّهِ
أنتَ بهذا العَرَضِ بينَ الوَرَى مِثْلُ الخِرا يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ
وقال: [من السريع]

أمدحُهُ طوراً وأهْجُو ولا أطمعُ طُولَ العُمَرِ في رِفْدِهِ
مِثْلَ إمامٍ بينَ أَهْلِ القُرَى صَلَّى بِهِمُ والزيتُ مِنْ عِنْدِهِ^(١)
وأورد له ابن سعيد، ومن ذا الذي يسمع الحسن ولا يستعيد، وذلك قوله: [من
الكامل]

خَطَرْتُ فكادَ الورقُ يسجَعُ فوقَها إِنَّ الحَمَامَ لَمُغْرَمٌ بالبَانِ
مِنْ معشرٍ نَشَرُوا على هامِ الرُّبَى للطارقينَ ذوائبَ النيرانِ
ومنهم:

[٥٣]

فخر الدين المارديني، الإمام أبو عبد الله، محمد بن

عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري^(١)

رجلٌ من أسرة الأنصار، ومن سرّة أهل المدينة إذا عدت بيوت الأمصار، في مزايا ذوي الهبات في المنن، / ٢٥٠ / وبقايا ذوي الهيئات من يمن، وكان من علماء الحكماء، ونبلاء الفضلاء وأحبار الأيام وأخيار من لا يرى مثله إلا في المنام.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان علامة وقته في الحكمة، قوي الذكاء، فاضل النفس، محباً للخير، متقناً للغة والنحو، وأجداده من أهل القدس، قرأ الطب على ابن التلميذ، وقرأ ابن التلميذ عليه المنطق، وقدم دمشق، وأقرأ بها الطب. وكان له مجلس عام للتدريس، وممن قرأ عليه المهذب عبد الرحيم بن علي، وطلب منه الملك الظاهر أن يقيم عنده بحلب، وأنعم عليه بمال طائل، فأقام عنده سنتين، ثم عاد إلى ماردين، ووقف كتبه في المدرسة بها، وآخر ما قاله عند موته: اللهم إني آمنت بك وبرسولك الصادق محمد ﷺ، [القائل:] إن الله يستحي من عذاب الشيخ.

ومنها:

[٥٤]

أبو نصر المسيحي، وهو سعيد بن أبي الحسن بن عيسى^(٣)

طبيب عرّف به علمه، وفرّع كل علاج لم يحظ فيه حكمه، طالما أبرأت العلل هذه المسيحية بمسحها، وأبدلت بياض ثوب العافية سواد مسحها، واحتاج إليه كل

(١) محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر، فخر الدين الأنصاري المارديني: عالم بالحكمة والطب. أصل أجداده من القدس. ولد في ماردين سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م ونشأ بها، وانتقل إلى دمشق وأقرأ بها الطب، وسافر إلى حلب فحظي عند الظاهر، واستقر في ماردين ووقف بها كتبه. وتوفي بآمد سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م.

له «شرح قصيدة ابن سينا» التي أولها: «هبطت إليك من المحل الأرفع». ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٢-٤٠٣، أخبار العلماء ١٨٩، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٥٦-٢٥٥، رقم ١٢٨٠، والأعلام ٦/ ٢٠٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٥٩١-٦٠٠هـ) ص ١٦٧ رقم ٢٠٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٠٢-٤٠٣.

(٣) ورد اسمه في بعض المصادر: «سعيد بن الحسن بن عيسى...». ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٣-٤٠٥، الوافي بالوفيات ١٥/ ٢١٠-٢١١ رقم ٢٩٢.

متطبب، وكان طبه الباعث للصحة أو المسبب.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): من المتميزين في صناعة الطب، والأفاضل من أهلها، والأعيان من أربابها. ومرض الناصر لدين الله بالرممل، وعرضت له في المئانة حصاة كبيرة مفرطة في الكبر واشتد به الألم وطال المرض وضجر من العلاج. فأشير عليه بأن يشق المئانة لإخراج الحصاة، فسأل عن جرائحي حاذق، فقيل له ابن عكاشة، فأحضر وشاهد العضو العليل وأمر ببطه. فقال: أحتاج أن أشاور مشايخ الأطباء في هذا. فقال له: فمن تعرف من صالحهم؟ فقال: أبو نصر المسيحي فإنه ليس في البلاد بأسرها من يماثله. فطلبه فلما حضر قال له: اجلس، فجلس ساعة ولم يكلم ثم قال له الناصر: يا أبا نصر، مثل نفسك أنك قد دخلت إلى البيمارستان / ٢٥١ / وأنت تباشر به مريضاً قد ورد من بعض الضياع، وأريد أن تباشر مداواتي وتعالجني من هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته. فقال: السمع والطاعة ولكنني أريد أن أعرف من هذا الطبيب المتقدم مبادئ المرض وأحواله وتغيراته، وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن.

فأحضر الشيخ أبو الخير وأخذ يذكر له ابتداءات المرض وتغير أحواله وما عالج به من أول المرض وإلى آخر وقت. فقال: التدبير صالح، والعلاج مستقيم. فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ ولا بد لي من صلبه. فقام أبو نصر المسيحي وقبل الأرض، وقال: يا مولانا، بحق الله عليك وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسن على الأطباء هذه السنة؛ وأما الرجل فلم يخطيء في التدبير، ولكن لسوء حظه لم ينته المرض. فقال: قد عفوت عنه، ولكن لا يعود يدخل علي. فانصرف، ثم أخذ أبو نصر في مداواته، فسقاه ودهن العضو بالأدهان المليينات، وقال له: إن أمكن أنا نلاطف الأمر بحيث نخرج هذه الحصاة من غير بط فهو المراد، وإن لم تخرج فذلك لا يفوتنا. فلم يزل كذلك يومين، وفي ليلة اليوم الثالث رمى الحصاة، فقيل: إنه كان وزنها سبعة مثاقيل، وقيل خمسة، وقيل إنها كانت على مقدار أكبر نواة من نوى الزيتون. وتتابع الشفاء، ودخل الحمام، فأمر أن يدخل أبو نصر إلى دار الضرب، ويحمل من الذهب ما يقدر عليه، ففعل به ذلك. ثم أته الخلع والدنانير من أم الخليفة ومن ولديه الأميرين محمد وعلي، والوزير نصير الدين بن مهدي العلوي الرازي، ومن سائر كبار الأمراء بالدولة. فأما أم الخليفة وأولاده والوزير والشرابي نجاح، وكان واحد من الدنانير ألف دينار، وكذلك من أكابر الأمراء، والباقيين على قدر أحوالهم. فأخبرت أنه حصل من

العين عشرين ألف دينار، ومن الثياب والخلع جملة وافرة، وألزم الخدمة، وأفرطوا له الجامكية السنية، والراتب والإقامة. ولم يزل مستمراً في الخدمة إلى أن مات الناصر لدين الله.

قال: /٢٥٢/ وحدثني بعض الأطباء أن ابن عكاشة الجرائحي كان قد نذر عليه أنه يتصدق في بيعة سوق الثلاثاء بالربع مما يحصل له، وأنه حمل إلى البيعة مائتين وخمسين ديناراً، وأصرف أبو الخير المسيحي من الخدمة، وقد كانت منزلته قبل هذا جليلة عنده، ومحلّه مرتفعاً، ووصله هبات وصلات عظيمة. فمن جملتها أنه أعطاه خزانة كتب الأجل أمين الدولة بن التلميذ. وكان مرض الناصر مراراً وبريء على يديه، فحصل له فيها جملة وافرة. ثم توفي الشيخ أبو الخير في أيام الناصر، فقيل له: إنه قد توفي، وترك ولداً متخلفاً وعنده جملة عظيمة من المال. فقال: لا يعترض ولده فيما ورثه من أبيه، فما خرج عنا لا يعود إلينا^(١).
ومنهم:

[٥٥]

أبو الفرج ابن توما، وهو صاعد بن هبة الله بن توما

النصراني البغدادي^(٢)

توصل بنجاح فنجح، ومثَّ بصلاح عمله فبجح، وعُدل بالاباء فرجح، وملك رئاسة الأطباء فتبجح، وورث ببلاد العراق بختيشوعها، وحاز ما جرَّ جرجس إليه من مدد ينبوعها، وأبقى له يعقوب بن إسحاق أخو كنده ما كان أبقاه ليوسفه، وخلَّى له أحمد بن الطيب ما خصَّ نصيبه من طيب مخلفه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان من أكابر الأطباء، وخدم نجاح الشرابي، ثم صار وزيره وكاتبه، ثم دخل إلى الناصر، وكان يشارك أطباءه في معالجته، ثم حظي عنده

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٠٣-٤٠٥.

(٢) صاعد بن هبة الله بن توما، أبو الفرج: طبيب مسيحي، من أهل بغداد، تقدّم في أيام الناصر إلى أن كان بمنزلة الوزراء، واستوثقه على حفظ أموال خواصه، فكان يودعها عنده، ويرسله في الأمور الخفية إلى وزراءه، قتله جنديان غيلة ببغداد سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٠٥-٤٠٦، أخبار العلماء ٢١٢، طبقات الأطباء ٣٠٢/١، فوات الوفيات ١/١٩١، الأعلام ٣/١٨٧ وفيه: «صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما...» وفي خبر مقتله خلاف.

(٣) عيون الأنباء ٤٠٥-٤٠٦.

الخطوة التامة، وسلم إليه عدة جهات يخدم بها، وكان فيها عدة دواوين وكتاب، وقتله بعض الجند المرتزقين تحت يده، وقيل الخليفة، فنكبه وأبقى أملاكه وعروضه لولده، وحمل ما خلقه من المال العين إلى الخزانة، وكان ثمانمائة ألف وثلاثة عشر ألف دينار. قال ابن القفطي، وقد ذكره وأثنى عليه: إنه كان قد تقدم أيام الناصر إلى أن كان بمنزلة الوزراء والأمراء، واستوثقه على حفظ أمواله وأموال خواصه، وكان /٢٥٣/ يودعها عنده، وكان يظهر له في كل وقت، ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه، وكان جميل المحضر، حسن التوسط، قضيت على يده حوائج، وكفيت شرور، ولم ير له غير شاكرٍ ناشِر.

* * *

مشاهير الأطباء ببلاد العجم

ومنهم:

[٥٦]

قياذوس^(١)

إمام الحكماء في دولة الفرس، والماضي فيهم زمانه الماضيء كانه ليلة العرس. وكان على كونه ذمة فيهم، وموالياً أمة تنافهم. تكرمه ملوك آل ساسان، وتطعمه من جني جنايتهم ثمر الإحسان، وكان يتقرب إليهم بما يلاءم، ويقرب لديهم كل مئى كان لا يطمع بها منهم نائم.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان نصرانياً، وله معرفة جيدة بصناعة الطب، وبنى له سابور ذو الأكتاف البيع في [بلده، ويقال إن الذي بنى له البيع بهرام]^(٣) جور. وكان عالماً بالصناعة موسوماً بها، متميزاً في زمانه، فاضلاً في علوم الفرس والهند وهو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة من الهند إلى أنوشروان وترجمه له. ومنهم:

[٥٧]

ربن الطبري^(٤)

لائم الفرس طبه، وقاوم حب أنفسهم حبه، وكانوا يرونه زين مجالسهم، وعين مجانسهم، هذا وما هو من أهل معتقدهم، ولا ممن يحل مثله في معاهدهم، ولم يحاول عملاً إلا كان به بصيراً، ولا علماً إلا وانقلب الطرف إليه لا خاسئاً ولا حسيراً.

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤١٣ وفيه اسمه: «تيادورس».

(٢) عيون الأنباء ٤١٣.

(٣) ما بين المعقوفتين من عيون الأنباء وقد سقط هذا السطر كما يبدو عند المؤلف أثناء النقل منه.

(٤) ومعنى كلمة ربن: المعلم العظيم. «حكماء الإسلام».

ترجمته في: عيون الأنباء ٤١٤، أخبار العلماء ١٨٧، تاريخ العلوم ١٢٨، أعلام الحضارة ١/

٤٤٢-٤٤٣ رقم ٢١٨.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان يهودياً طبيباً منجماً من أهل طبرستان، وكان متميزاً في الطب، عالماً بالهندسة وأنواع الرياضة؛ وحل كتباً حكيمية من لغة إلى لغة أخرى. وكان له تقدم في علم اليهود - واربن والراب أسماء لمقدمي اليهود. ومنهم:

[٥٨]

علي بن سهل بن ربن الطبري، أبو الحسين^(٢)

قوي المشاركة، قوي الجدد في الطرق السالكة، يجلي نوره الظلم، ويظفيء تدبيره الضرم، ويقوم / ٢٥٤ / الأبدان، ويقوم طبه مقام الشمس في بُرء البلدان، ولم يعدم ومضة أدب بدت له تضيء لمعانها، ويجيء بمسود اللمم ريعانها، ويدنو مداها، ويبعد مكانها. قال ابن النديم: علي بن ربل باللام، كان يكتب للمازيار بن قارن، فلما أسلم على يد المعتصم قربه، وظهر فضله، وأدخله المتوكل في ندمائه، وكان بموضع من الأدب، وهو الذي علم العين زربي صناعة الطب، وكان مولده ومنشؤه بطبرستان. ومن كلامه: الطبيب الجاهل مستحث الموت. ومنهم:

[٥٨]

أحمد بن محمد الطبري، أبو الحسن^(٣)

تقدّم بتقدم المعرفة، وتقدّم إلى الداء فصرفه مع إتقان لتشريح الأعضاء، وإتقان

(١) عيون الأنباء ٤١٤.

(٢) ورد اسمه في بعض المصادر «علي بن ربن» و«علي بن سهل بن ربان...».

علي بن ربن الطبري، أبو الحسن: طبيب حكيم. مولده ومنشأه بطبرستان، كان يخدم ولاتها ويقرأ علم الحكمة، وانفرد بالطبيعيات، وقامت فتنة فيها فأخرجه أهلها، فنزل بالري، ثم رحل إلى سامراء، وصنف فيها كتابه «فردوس الحكمة - ط» وفي فهرست ابن النديم أنه أسلم على يد المعتصم، وظهر في الحضرة فضله وفادخله المتوكل في جملة ندمائه. ومن كتبه «الدين والدولة - ط» و«تحفة الملوك» و«كناش الحضرة» و«منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير». توفي سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤١٤، وأخبار العلماء ٢٣١، والفهرست ٤٦٦، وتاريخ حكماء الإسلام ٢٢، وطبقات الأمم ٩٦، وهديّة العارفين ١/٦٦٩، ومعجم المؤلفين ١٠٦/٧، وكنوز الأجداد ٧١-٧٢، موسوعة المستشرقين لبدوي ٢٧٦-٣٩٨، والأعلام ٤/٢٨٨، وأعلام الحضارة ٢/١١٤-١١٧ رقم ٣٤٢ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) أحمد بن محمد أبو الحسن الطبري: طبيب، من العلماء. من أهل طبرستان، كان طبيب الأمير

لغير صريح الارتضاء، بفهم يحسن الاستنباط، وعلم يحسب في معرفة ما بين القصب والرباط، هذا إلى استقصاء الأعراض والدلائل والأمراض بسبب من خارج أو داخل لم يعد الصواب حدسه، ولا عُذَّ في ذوي الخطأ حسُّه حتى قيل: إنه لو أراد لأطال شعر الأجفان، وأقام الأموات من الأكفان بتلطفٍ بكاد يمسك به رفق النهار، ويرم في الصباح صبغة الليل الشائب.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): فاضل، عالم بصناعة الطب، وكان طبيب الأمير ركن الدولة وله الكناش المعروف بالمعالجات البقرائية، وهو من أجل الكتب وأنفعها، يحتوي على مقالات كثيرة، وقد استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون.

ومنهم:

[٥٩]

أبو منصور، الحسن بن نوح القُمري^(٢)

قمر سماء، ورقم عذار ظل في وجنة ماء، ونوء حكمة ما تقشع سحابها، ولا توشع بغير مطرف الفضائل سحابها. أتى مجلس الرئيس ابن سينا وحضره، وشاهد سيمًا سمته ونظره، وكان يعده فيمن أدركه، ويعد من العلم له ما تركه، ويطوي في حفظه من / ٢٥٥ / علمه البارع ما نشره، ويأخذ منه إلا أنه أخذ شره، ولم يكن مثله في تعديل قوى ممتزجة، وملاطفة بعلاج موافق لا تنفر منه الأمزجة.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان سيد وقته وأوحد زمانه، مشهوراً بالجودة في صناعة

ركن الدولة، له كناش سماه «المعالجة البقرائية - خ» في شسترتي (٣٩٩٤)، قال ابن أبي أصيبعة: من أجل الكتب وأنفعها.

توفي نحو سنة ٣٦٠هـ / نحو سنة ٩٧٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٢٧، وأعلام الحضارة / ١١٠-١١٣ رقم ٦٩، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته، الأعلام ١/ ٢٠٩.

(١) عيون الأنباء ٤٢٧.

(٢) توفي سنة ٣٩٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٣٥-٤٣٦، الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٨٣، الكامل في التاريخ ٨/ ٥٣٥، ٦٧٣، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٠٣، كشف الظنون ٢/ ١٢١٠، ١٧٥٠، إيضاح المكنون ٢/ ٥٦-٥٧، أعلام الحضارة ١/ ٣١٩-٣٢٣ رقم ١٨٠ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) عيون الأنباء ٤٣٥.

الطب، محمود الطريقة في أعمالها، فاضلاً فيها حسن المعالجة، جيد المداواة؛ متميزاً عند الملوك.

وحكى عن الخسروشاهي: أن ابن سينا لحق أبا منصور وهو شيخ كبير، وكان يحضر مجلسه، ويلتزم دروسه، وانتفع به في علم الطب. ومنهم:

[٦٠]

أبو سهل، عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني^(١)

مسيحي له في الطب يد بيضاء كليمية، وفي إطفاء نار الحمى آية غراء إبراهيمية، مسحت بطنه الأدواء، وصلحت اللأواء، وصحت الأجسام وصحت الأسقام، وسحّت السحب بمطر الإنعاش، وتهللت وجوه البرق الوسام. وحسبه أن ابن سينا من حملة علمه إذا زخر، ومن حمدة عزمه إذا فخر، وكان بعض فضلاء المتأخرين المتبحرين يفضل على ابن سينا، ويجعل له عليه السناء ويشني عليهما، وإنما يوفر له الثناء.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): هو طبيب فاضل بارع في صناعة الطب علمها وعملها، فصيح العبارة جيد التصنيف. وكان صحيح الكتابة متقناً للعربية. قال: وقد رأيت بخطه كتابه في إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان وهو في نهاية الصحة والإتقان، والإعراب والضبط. وهو يدل على فضل باهر، وعلم غزير.

(١) عيسى بن يحيى بن إبراهيم المسيحي الجرجاني، أبو سهل: حكيم، غلب عليه الطب علماً وعملاً، فصيح العبارة، جيد التصنيف، حسن الخط، متقن للعربية. ولد في جرجان، ونشأ وتعلم ببغداد، وسكن خراسان فتقدم عند سلطانها، ومات سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م عن أربعين عاماً. وعنه أخذ ابن سينا صناعة الطب، وتفوق ابن سينا بعد ذلك فصنف له كتاباً وجعلها باسمه. اطلع ابن أبي أصيبعة على نسخة من كتاب للمسيحي بخطه، في «إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان - خ» وقال: إنه في نهاية الصحة والإتقان. ومن كتبه «الطب الكلي - خ» و«كتاب المنة في الصناعة الطبية - خ» وهو من أجود كتبه وأشهرها، ولأمين الدولة ابن التلميد حاشية عليه، و«العلم الطبيعي» ومقالة في الجذري و«أصول الطب - خ» و«المسائل - خ» و«اختصار المجسطي» و«كتاب في الوباء» وآخر في «تعبير الرؤيا» ألفهما للملك العادل خوارزمشاه أبي العباس مأمون بن محمد.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٣٦-٤٣٧، أخبار العلماء ٤٠٨-٤٠٩، تاريخ حكماء الإسلام ٩٥-٩٧، تاريخ ابن العبري ١٧٩-١٨٠، كشف الظنون ١٤١٦، ١٤٩٨، ١٥٧٦، معجم المؤلفين ٨/ ٣٥، الأعلام ٥/ ١١٠، أعلام الحضارة ٢/ ١٨٥-١٨٨ رقم ٣٩٣ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٣٦.

قال: وقيل: إن المسيحي هو معلم ابن سينا صناعة الطب.
وقال عبيد الله بن جبريل: إن المسيحي كان بخراسان، وكان متقدماً عند
سلطانها، وإنه مات عن أربعين سنة.
ومن كلامه:
نومة بالنهار بعد أكلة خير من شربة دواء نافع.
ومنهم:

[٦١]

السيد أبو عبد الله، محمد بن الإيلاقي^(١)

رجع بنسبه إلى والد / ٢٥٦ / شريف، وبحسبه إلى تالد وطريف، فقليل في ظل
علم متكاثف الشجر، متراكم السحب، هطال المطر؛ سرت النوافح بأعطافه، وسُرت
بألطافه، وصيرت ثمره في أوان قطافه.
قال ابن أبي أصيبعة^(٢): هو شريف النسب، فاضل في نفسه، خبير بصناعة الطب
والعلوم الحكمية. وهو ممن أخذ عن الرئيس ابن سينا، واختصر القانون، وأجاد في
تأليفه، وله كتاب الأسباب والعلامات.
ومنهم:

[٦٢]

أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني^(٣)

ذكي يفوح عقب ريحانه، ويكرم أرج عنبره بامتحانه، تكلم على الكواكب

(١) محمد بن يوسف، أبو عبد الله الإيلاقي: شرف الزمان، طبيب من تلاميذ ابن سينا. نسبته إلى
إيلاق، في جهات فرغانة. له كتب منها «شرح كليات القانون لابن سينا - خ» في طوبقبو،
و«الأسباب والعلامات» في الطب. توفي سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩، تاريخ الحكماء ٣٢٨، كشف الظنون ١٢٦٦، معجم المؤلفين
١٢٣/١٢، ومعجم الأطباء ٣٧٠، والأعلام ١٤٨/٧، أعلام الحضارة ٤٦٨/٢-٤٧١ رقم ٥١٥
وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٣) محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي: فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم،
ولد سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م. أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونانيين
والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. وصنف كتباً كثيرة جداً، متقنة، رأى

ورسومها وحدودها، والنجوم ونحوسها وسعودها، وناظر الفحول، وناضل النصول، وله حكمة تلمع مشارق أنوارها، وتصدع حصباء الفجر سابق نوارها.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو منسوب إلى بيرون، من مدن السند، وكان مشغلاً بالعلوم الحكمية فاضلاً في الهيئة والنجوم. وكان معاصراً للرئيس ابن سينا وبينهما بحوث ومراسلات. وقد ذكر الرئيس أجوبة مسائل سأله البيروني عنها مفيدة في الحكمة. ومنهم:

[٦٣]

أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصبهاني، أبو علي^(٢)

من دار ملك لا يقعد به بلده، وابن أب لا يستحي به ولده، تحليل بالمناقب التي

ياقوت فهرسها بمرور، في ستين ورقة بخط مكتنف؛ وياقوت أكثر من النقل عن كتبه. منها «الآثار الباقية عن القرون الخالية - ط» ترجم إلى الإنجليزية، و«الاستيعاب في صناعة الأسطرلاب - خ» و«الجماهر في معرفة الجواهر - ط» و«تاريخ الأمم الشرقية - ط» و«القانون المسعودي - ط» في الهيئة والنجوم والجغرافية، و«تاريخ الهند - ط» ترجم إلى الإنجليزية في مجلدين، و«الإرشاد - ط» في أحكام النجوم، و«تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن - ط» في مجلة معهد المخطوطات العربية: الجزأين الأول والثاني من المجلد الثامن، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة - ط» و«التفهيم لصناعة التنجيم - ط» في الفلك، رسالة كتبها بالعربية والفارسية، و«استخراج الأوتار في الدائرة - ط» هندسة. توفي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م. وفي سنة وفاته خلاف كبير.

للدكتور محمد جمال أفندي «البيروني» سلسلة أعلام العرب، وللدكتور جلال شوقي «أبو الريحان البيروني دراسة حول نسبه وشخصية، ومثله لعلي أحمد الشحات. وغيرهم. ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩، ومعجم الأدباء ٢٣٣/٥، وتاريخ الحكماء ٣٤٨، الذريعة ١٦/ ٤٠٩، تاريخ حكماء الإسلام ٤٤-٤٥، ٧٢-٧٤، بغية الوعاة ٢٠-٢١، روضات الجنات ١٧٩- ١٨٠، أعيان الشيعة ٤٣/٢٣٢-٢٤٤، اللباب ١/١٦٠-١٦١، معجم الأدباء ١٧/١٨٠-١٩٠، مختصر تاريخ الدول ٣٢٤-٣٢٥، كنوز الأجداد ٢٣٨-٢٤٠، العلوم عند العرب ١٧٣-١٧٩، وأعلام الحضارة ٢/٢٣٦-٢٥٧ رقم ٤٣٣ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(١) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٢) توفي سنة ٤١٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٥٩-٤٦١، أخبار العلماء ٤٣٨، وكشف الظنون ٥٧٣، ٨٤٩، ٨٥٣، ٨٦١، وغيرها، إيضاح المكنون ٢/٢٥٩، ومعجم المؤلفين ١/٢٦٩، والأعلام ٥/٣١٤، أعلام الحضارة ١/٨٠-٨٣ رقم ٥٤، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

ما ضاقت به ملابسها، ولا دنت لغيره ملامسها، وفاضت به يتابع الحكم، وسهلت له صعابها التي كم رامها غيره وكم.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): هو من الأطباء المذكورين في بلاد العجم، وخدم جماعة من ملوكها ورؤسائها. وكانت له أعمال مشهورة في صناعة الطب، وكان من ذوي البيوتات الأجلاء بأصفهان. وكان أبوه فاضلاً في علم الأدب، وافر الدين. وله أشعار منها: [من الوافر]

/٢٥٧/ وَيُمْسِي الْمَرْءُ ذَا أَجَلٍ قَرِيبٍ فِي الدُّنْيَا لَهُ أَمَلٌ طَوِيلُ
وَيَعَجَلُ بِالرَّحِيلِ وَلَيْسَ يَذَرِي إِلَى مَاذَا يَقْرُبُهُ الرَّحِيلُ
ولأبي علي ولده هذا كتب كثيرة ذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه «بغية الألباء في تاريخ الأطباء».

ومنهم:

[٦٤]

ابن أبي صادق، وهو أبو القاسم، عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن أبي صادق النيسابوري^(٢)

وكان صادق الطَّلَب، صادق الليل، سرى بحسن المتطلب، منقياً عن الحكمة يستثيرها من أماكنها، ويستديرها سُرجاً من مساكنها، ويستميرها أقواتاً، ويستميلها قصياً تميل إليه انعطافاً، وطلباء تحسن إليه التفاتاً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): هو طبيب فاضل بارع في العلوم الحكمية، كثير الدراية في الصناعة الطبية، له حرص بالغ في التطلع إلى كتب جالينوس، وما أودعه فيه من غوامض الطب وأسرار العلم، شديد الفحص عنها، وكان فصيحاً بليغ الكلام. وما فسرهُ من كتب جالينوس في نهاية الجودة والإتقان، كما فعل في كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، فإنه أجهد نفسه فيه، وأجاد في تلخيص معانيه، وقد قال في أوله: وأما نحن فقد حررنا معاني هذا الكتاب شرحاً للعويص، وحذفاً للزائد، ونظماً للشيت

(١) عيون الأنباء ٤٥٩.

(٢) توفي سنة ٤٦٠ هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٦١، حكماء الإسلام ١١٤-١١٦، كشف الظنون ٨٨٣٤، إيضاح المكنون ٢/٢٧٩، والأعلام ٣/٣١٦، وفيه وفاته نحو ٤٧٠ هـ، معجم المؤلفين ٥/١٥٤، ومعجم الأطباء ٢٤٧-٢٤٨، وأعلام الحضارة ٢/١١-١٤ رقم ٢٦٧ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٣) عيون الأنباء ٤٦١.

وإضافة إليه.

قال صاحب بغية الألباء^(١): وحدثني بعض الأطباء أن ابن أبي صادق اجتمع بابن سينا، وقرأ عليه وكان ممن يتلمذ له قال: وهذا لا أستبعده بل هو أقرب إلى الصحة؛ لأن [ابن] أبي صادق لحق زمانه وكان ببلاد العجم. ولا شك أنه سمع بسمعة ابن سينا وكانت عظيمة، وكان أكبر من ابن أبي صادق قدراً. ثم ذكر تأليفاته. ومنهم:

[٦٥]

السّمّوال بن يحيى بن عباس، المغربي الأصل، البغدادي الدار^(٢)

العادي حيث السحاب الهطال دار، المادي البدار، المادي الاقتدار، / ٢٥٨ / ذو الذكاء الذي يضئ للمقتدح، ويضع في مهامه مهام الطلب منه المقترح. طلاع كل نية، وطلاب كل حنية. خرق العادة في ذكائه الفرط، ووفائه بالعلم الذي لا يقبل الغلط، على أنه لم يحل بإبداع فن، ولا أبدعه حفظه علم يعرف بحقيقة أو ظن. قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان فاضلاً في العلوم الرياضية، عالماً بصناعة الطب، وأصله من بلاد المغرب، وسكن بغداد مدة، ثم انتقل إلى بلاد العجم، ولم يزل بها إلى آخر عمره. قال عبد اللطيف البغدادي: هذا السّمّوال شاب بغدادي كان يهودياً وأسلم، ومات شاباً بمراغة، وبلغ في العدديات مبلغاً لم يصله أحد في زمانه. وكان حاد الذهن جداً بلغ في الصناعة الجبرية الغاية القصوى. وأقام بديار بكر وأذربيجان، وله رسائل في الجبر والمقابلة رد فيها على ابن الخشاب النحوي، وكان معاصره، وكانت له في هذا العلم يد.

(١) يقصد به عيون الأنباء ٤٦١.

(٢) السّمّوال بن يحيى بن عباس المغربي: مهندس رياضي، عالم بالطب والحكمة. أصله من المغرب. سكن بغداد مدة، وانتقل إلى فارس، وكان يهودياً، فأسلم ومات في المراغة (بأذربيجان) نحو سنة ٥٧٠هـ / نحو سنة ١١٧٥م.

له «المفيد الأوسط» في الطب، و«رسالة إلى ابن خلدون» في مسائل حسابية، و«إعجاز المهندسين» فرغ من تصنيفه في صفر سنة ٥٧٠هـ، و«القوامي» في الحساب الهندي و«المثلث القائم الزاوية» و«المنبر» في مساحة أجسام الجواهر المختلطة لاستخراج مقدار مجهولها، و«نزهة الأحاب في معاينة الأصحاب - خ» في شسترتي (٤١٥١) و«بذل المجهود في إفحام اليهود - ط» و«الباهر - خ» في الرياضيات، بمكتبة أيا صوفيا.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧١-٤٧٢، أخبار العلماء ٣٠٩، والأعلام ٣/ ١٤٠، المخطوطات المصورة في الرياضيات ١٩..

(٣) عيون الأنباء ٤٧١.

ومنهم:

[٦٦]

الشریف شرف الدین اسماعیل^(١)

كامل شرف قديمه بحديثه، ووصل وأبى سراه بخبيثه، وعرف بأكمل أدوات العلوم، ومداواة العموم، وتحلى بمفاخر الطلب لعلم يقيقه، وجسم بصالح الطب يقيه، وصل من الدولة الخوارزمية العظيمة الشأن ما عُدَّ مثله لها من عظمتها، وامتدَّ ثري ماله من نعمتها، وجرى في طلق آماله إلى غاية همتها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً عالي القدر، وافر العلم، وجيهاً في الدولة. وكان في خدمة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه. وله منه الإنعام الوافر والمرتبة المكيّنة. وكان له مقرر على السلطان مبلغه ألف دينار في كل شهر، وكانت له معالجات بديعة وآثار حسنة في صناعة الطب.

وتوفي في أيام خوارزمشاه بعد أن عمّر. وله عدة مصنفات كلها بالفارسي.

* * *

/٢٥٩/ أطباء الهند

منهم:

[٦٧]

شاناق الهندي^(٣)

هو ذو الحكم اللوامع، والكلم الجوامع، والتنبيهات الموقظة، والتمويهات المخفضة، والتشبيهات التي أخذت بأطراف الموعظة، نطق بها عن خاطر صفا فلم يكدر، ووفى فلم يغدر، فجاءت سوانح، وجادت موانح، وحلّت من القلوب محلاً منذ دخلته سكنت به وأخلته.

قال ابن أبي أصيبعة^(٤): كانت له معالجات وتجارب كثيرة في الطب، وتفنن في العلوم الحكمية. ومما قاله في كتابه الذي سماه «متحل الجواهر»:

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٢.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٢.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٤.

(٤) عيون الأنباء ٤٧٤.

أيها الوالي اتق عثرات الزمان، واخش تسلط الأيام ولوعة الدهر. واعلم أن للأعمال جزاءً، فاتق العواقب؛ فإن لها غدرات، فكن منها على حذر؛ والأقدار مغيبات فاستعد لها، والزمان منقلب فاحذر دولته، لثيم الكرّة فخف سطوته، سريع الغرة فلا تأمن دولته. واعلم أن من لم يداو نفسه من سقام الآثام في أيام حياته فما أبعد من الشفاء في دار لا دوام لها، ومن أذلّ حواسه واستعبد لها فيما تقدم من خير، بان فضله وظهر نبلة، ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة، لم يضبط حواسه وهي خمس. فإذا لم يضبط حواسه مع قتلها ونفسه مع ذلتها، صعب عليه ضبط الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم، وكان عامة الرعية في أقاصي البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط. ومنهم:

[٦٨]

منكة الهندي^(١)

طبيب توفى به الأجسام، وتوفى بسببه خير الأقسام، لو عاد الهرم، لأعاد عليه ثوب شبابه، وبَدَّل كفن المشيب بجلبابه، فأفقر الأرواح في أجسادها، وعاد بالصلاح على فسادها، فقرت استقراراً، وأزالت ضراراً، وصالحت الأبدان فلم تعد إلى منافرتها، ولم تبعد من مُضافرتها فأماطت عقابيل السَّقم، وجذبت بأعقاب الداء / ٢٦٠ / العياء وقد التقم، فوجدت به الصحة وقد عزَّز لقيها، وطالت المدة وقد يئس من بقيها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان عالماً بصناعة الطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوفاً، من المشار إليهم في العلم، متقناً للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذي نقل كتاب «شاناق» في السموم إلى الفارسية، وكان في زمان الرشيد، وأتى العراق في أيامه، ثم عرف العربية، فكان ينقل إليها.

ومن أخبار الخلفاء:

ان الرشيد قد اعتل علة صعبة، فلم يُجد فيها طب الأطباء. فقال له أبو عمر الأعجمي: يا أمير المؤمنين بالهند طبيب يقال له منكة، وهو أوحدهم وبلادهم وفلاسفتهم، فلو بعثت إليه لعل الله يهبك الشفاء على يده. فجهز من وصله بصلة تعينه على سفره وحمله، فعالجه فبرىء. فأجرى عليه رزقاً واسعاً وأموالاً كافية. ثم بينما منكه هو مار في الخلد إذا هو برجل قد بسط كسائه وألقى عليه عقاير كثيرة، وقام يصف دواءً معجوناً،

(٢) عيون الأنباء ٤٧٥.

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٥.

فقال: هذا دواء لكذا وكذا، وعدّد أسقاماً كثيرة، وأدواء مختلفة حتى لم يدع عارضاً إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاؤها. فتبسم منكه وقال: على كل حال ملك العرب جاهل؛ لأنه إن كان الأمر على ما يقول هذا، فما الذي حمّله على أن حملني من بلادي إليه وأبعدني عن أهلي وتكلف الكثير من مؤونتي، وهو يجد هذا نصب عينه وإزاء ناظره؟ وإن كان على غير ما يقول هذا فلم لا يقتله؟ لأن الشريعة قد أباحت دم هذا ومن أشبهه؛ لأنه إن قتل إنما هي نفس يحيا بموتها أنفس، وإن ترك - وهذا الجهل - قتل كل يوم أنفساً. وهذا فساد في الدين، ووهن في الملك.

ومنها:

[٦٩]

صالح بن بهلة الهندي^(١)

طبيب بين الانحراف والاعتدال، والصحة والاعتلال. حدس ما حدث، وبرّ وما حنث. اطلع على كل سبب من الأسباب، وجمع بين طرفي الإيجاز والإسهاب، ورتب لكل ذي سنٍ ما يليق به من المداواة، / ٢٦١ / وما لا يطيق معرفته سواه، وشفع هذا بفضائل أخرى اجتال بها فخراً، فحوى محاسن لا تعد كثرة، ولا يزول لها أثره، وطالما حكيت عن طبه العجائب ومحاسن ما فيها قول لعائب.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان من علماء الهند، خبيراً بالمعالجات التي لهم، وله قوة وإنذارات في تقدم المعرفة. وكان بالعراق على عهد الرشيد. قال يوسف الحاسب المعروف بابن الداية: عن مولى سلام الأبرش، إن مولاه حدثه، أن الموائد قدمت بين يدي الرشيد في بعض الأيام وابن بختيشوع غائب، فطلبه في كل مكان فلم يجده، فطفق يلعنه، وإذا به قد دخل والرشيد يلعنه، فقال: لو اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه إبراهيم بن صالح كان أشبه به من تناولي، فقال له: وما خبره؟ فأعلمه أنه خلفه ومعه رmq ينقضي آخره وقت صلاة العتمة، فاشتد جزع الرشيد عليه، وأمر برفع الموائد فقال جعفر بن يحيى: إن طب ابن بختيشوع رومي وطب ابن بهلة هندي فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ليعرف ما عنده. فأمر بمصيره إليه، فجلس عرقه ثم قال: لا

(١) كان حياً سنة ١٧٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٥-٤٧٧، أخبار العلماء ٢١٥، أعلام الحضارة ١/ ٤٨٢-٤٨٣ رقم ٢٥٥ وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٥.

أخبر الخبر إلا أمير المؤمنين فأخبر الرشيد، فأدخل عليه ابن بهلة، فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين أنت الإمام وعاقده ألوية القضاء للحكام، ومهما حكمت به لم يجز لحاكم فسخه، ولا لمعقب بعدك نسخه، وأنا أشهدك علي وأشهد من حضر أن إبراهيم بن صالح إن مات في هذه الليلة بل في هذه العلة يكون كل مملوك لصالح بن بهلة حراً لوجه الله، وكل دابة له تكون حبساً في سبيل الله، ويكون كل مال يملكه صدقة على الفقراء، وتكون كل امرأة له طالقاً ثلاثاً بتاتاً، فقال له الرشيد: حلفت ويلي يا صالح على غيب، فقال صالح: كلا يا أمير المؤمنين إنما الغيب ما لا علم لأحد به ولا دليل عليه، ولم أقل ما قلت إلا بدليل واضح وعلامات بينة. قال: فسر الرشيد بقوله وأحضر الطعام فأكل وشرب، فلما كان وقت صلاة العتمة، / ٢٦٢ / أتى الخبر بوفاة إبراهيم بن صالح، فاستقبل الرشيد ورجع بلعن ابن بهلة وطب الهند، ثم بكر إلى دار إبراهيم فأتى ابن بهلة فوقف بين يديه فلم يناطقه إلى أن سطعت روائح المجامر وقد غسل إبراهيم وكفن، فصاح ابن بهلة عند ذلك: يا أمير المؤمنين، الله الله أن تحكم علي بطلاق زوجتي، وخروجي من نعمتي، وتدفن ابن عمك حياً، فوالله ما مات. فأطلق له الدخول عليه والنظر إليه ثم خرج وهو يكبر، ثم قال: قم يا أمير المؤمنين حتى أريك عجباً، فقام معه، ثم أخرج ابن بهلة إبرة كانت معه، فأدخلها بين ظفر إبهام يده إبراهيم اليسرى ولحمه، فجذب إبراهيم يده، فقال ابن بهلة: يا أمير المؤمنين هل يحس الميت بالوجع؟ فقال له: لا، فقال ابن بهلة: لو شئت أن أدعه يكلم أمير المؤمنين الساعة، لفعلت ولكن أخاف إن عالجته وأفاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط أن ينصدع قلبه، فيموت موتاً حقيقياً، ولكن يأمر أمير المؤمنين بتجريده من الكفن ورده إلى المغتسل وإعادة الغسل عليه حتى تزول رائحة الحنوط عنه، ثم يلبس مثل ثيابه التي كانت عليه، ويحول إلى فراش من فرشه التي كان يجلس عليها حتى أعالجه، فيكلمه من ساعته. ففعل فأمر بذلك، ثم دعا صالح بن بهلة بكندس ومنفخة، ونفخ الكندس في أنفه فمكث مقدار سدس ساعة، ثم اضطرب جسده وعطس وجلس قدام الرشيد، وقبل يده فسأله الرشيد عن حاله، فذكر أنه كان نائماً نوماً لا يذكر أنه نام مثله قط طيباً إلا أنه رأى في منامه كلباً عض إبهام يده اليسرى عضه وجد وجعها، وأراه إبهامه الذي أدخل فيه الإبرة. وعاش بعد ذلك دهرأ طويلاً، ثم تزوج بالعباسة بنت المهدي، وولي مصر وفلسطين. وتوفي بمصر وقبره بها^(١).

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٤٧٥-٤٧٧.

أطباء الشام

منهم:

[٧٠]

البيرودي، وهو أبو الفرج، جرجس بن توما بن سهل بن إبراهيم
٢٦٣/ من النصارى اليعاقبة^(١).

رجل اهتم لسعادته، وتكلم فأصاب، وما خرج عن عادته، شكر بين الأطباء،
وذكر ذكر الألباء. انتقل إلى الحاضرة، واشتغل بالمعالجة الحاضرة، وكان إذا دعي
لتطبيب العلل طيبها بما يقل لبثها، ويقل لبثها، ويعجل للأجسام بإعادتها صحتها،
ويرخص لها ما يسام من عادة منحتها، فينهض من جدّها العاثر، ويؤثر فيها ما يشاء
الآثر، ولم يتعود طول العبادة، ولا غرابة الدواء خلاف العادة.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان فاضلاً في صناعة الطب عالماً بأصولها وفروعها
معدوداً من جملة الأكابر من أهلها والمتميزين في أربابها، دائم الاشتغال، محباً
للعلم، مؤثراً للفضيلة.

حدثني شرف الدين بن عنين رحمه الله. أن البيرودي كان لا يمل من الاشتغال
ولا يسأم منه. قال: وكان أبدأ في سائر أوقاته لا يوجد إلا معه كتاب ينظر فيه.

وحدثني بعض النصارى بدمشق، وهو السني البعلبكي الطبيب قال: كان مولد
البيرودي ومنشؤه ببيروت، وهي ضيعة كبيرة قريبة من صيدنايا وبها نصارى كثيرون وكان
البيرودي بها كسائر أهلها النصارى من معاناتهم الفلاحة وما يصنعه الفلاحون. وكان
أيضاً يجمع الشيخ من نواحي دمشق القريبة من جهته، ويحمله على دابة ويأتي به إلى
داخل دمشق يبيعه للذين يقدونه بالأفران وغيرها. وأنه لما كان في بعض المرات، وقد
عبر من باب توما ومعه حمل شيخ، رأى شيخاً من المتطبيين، وهو يفصد إنساناً وقد
حصل له رعاف شديد من الناحية المسامطة للموضع الذي ينبعث منه الدم فوقف ينظر
إليه، وقال له: لم تفصد هذا ودمه يجري بأكثر مما يحتاج إليه فعرفه أنه إنما يفعله لينقطع
عنه الدم الذي ينبعث من أنفه، لكونه يجذبه إلى مسامطة الجهة التي ينبعث منها. فقال له:

(١) ورد في بعض المصادر: «جرجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم...» توفي سنة ٤٢٦هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٠-٦١٣، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى ٥، معجم
المؤلفين ١٢٣/٣، أعلام الحضارة ١/ ٢٧٤-٢٧٥ رقم ١٣٤.

(٢) عيون الأنباء ٦١٣.

إذا كان الأمر هكذا فإننا، في مواضعنا قد اعتدنا أنه متى كان / ٢٦٤ / نهر جارٍ وأردنا أن نقطع الماء عنه فأنا نجعل له مسيلاً إلى ناحية أخرى غير مسامتة، فينقطع من ذلك الموضع ويعود إلى الموضع الآخر، فأنت لم لا تفعل هكذا أيضاً وتفصده من الناحية الأخرى؟ ففعل ذلك وانقطع الرعاف عن الرجل. وقال ذلك الطبيب للبيرودي: لو أنك تشغل بصناعة الطب جاء منك طبيب حاذق. فما البيرودي إلى قوله، وتاقت نفسه إلى العلم، وبقي متردداً إلى الشيخ في أوقات، وهو يعرفه ويريه أشياء من المداواة. ثم إنه ترك بيروود وما كان يعانيه، وأقام بدمشق يتعلم أشياء من المداواة وصناعة الطب. فلما تبصر من أشياء منها، وصارت له معرفة بالقوانين العلمية، وحاول مداواة المرضى، ورأى اختلاف الأمراض وأسبابها وعلاجاتها، وتيقن علاجاتها، سأل عمن هو إمام في وقته بمعرفة صناعة الطب جيداً. فذكروا له أن ببغداد أبا الفرج بن الطبيب كاتب الجائليق، وأنه فيلسوف متفنن، وله خبرة وفضل في صناعة الطب وفي غيرها من الصنائع الحكيمة، فتأهب للسفر وأخذ سواراً كان لأمه لينفقه، وتوجه إلى بغداد، وصار ينفق عليه ما يقوم بأوده، ويشغل على ابن الطبيب إلى أن مهر في صناعته وصارت له مباحثات جيدة، ودربة فاضلة في هذه الصناعة. واشتغل أيضاً بشيء من المنطق والعلوم الحكيمة. ثم عاد إلى دمشق وأقام بها.

ونقلت هذه الحكاية المتقدمة أو قريباً منها، وإن كانت الرواية بينهما مختلفة، عن شيخنا الحكيم مهذب الدين [حدثني] أسعد بن إلياس بن المطران قال: حدثني أبي قال: حدثني أبو الفرج بن الحديد قال: كان بدمشق فاصد يقال له أبو الخير، ولم يكن من المهرة، وكان من أمره أن فصد شاباً، فوقعت الفصدة في الشريان فتحير وتبلد، وطلب قطع الدم، فلم يقدر على ذلك، فاجتمع الناس عليه. ففي أثناء ذلك اطلع صبي عليه وقال: يا عماء افصده / ٢٦٥ / في اليد الأخرى، فقال: شد الفصد الأول. فشده ووضع عليه لازوقاً كان عنده وشده فوقف جري الدم. ثم مسك الفصدة الأخرى فوقف الدم وانقطع الجميع. ووجد الصبي بالسوق معه دابة عليها حمل شيخ فتشبث به وقال: من أين لك ما أعلمتني به؟ قال: إن أبي في وقت سقي الكرم، إذا انفتح شق من النهر، وخرج الماء منه بحدّة لا يقدر على إمساكه دون أن يفتح فتحاً آخر، ينقص منه الماء الأول الواصل إلى ذلك الشق، ثم يسده بعد ذلك. قال: فمنعه الجرائحي من بيع الشيخ واقتطاعه، وعلمه الطب، وكان منه البيرودي وهو من مشاهير الأطباء الفضلاء.

وكان للبيرودي مراسلات إلى ابن رضوان بمصر وإلى غيره من الأطباء المصريين، وله إليهم مسائل عدة طبية ومباحث دقيقة. وكتب بخطه شيئاً كثيراً من الطب، ولا سيما من كتب جالينوس، وشروحها وجوامعها.

وحدثني السني البعلبكي : أن البيرودي عبر يوماً في سوق جيرون بدمشق ، فرأى إنساناً وقد بايع على أن يأكل أرطالاً من لحم الفرس مصلوقة مما يباع في الأسواق ، فلما رآه وقد أمعن في أكله بأكثر مما تحمله قوته ، ثم شرب بعده فقاعاً كثيراً أو ماء بثلج ، واضطربت أحواله فتفرس فيه أنه لا بد أن يغمى عليه ، وأن يكون في حالة أقرب إلى الموت إن لم يتلاحق ، فتبعه إلى المنزل الذي له ، واستشرف إلى ماذا يؤول أمره . فلم يكن إلا أيسر وقت ، وأهله يصيحون ويضجون بالبكاء ويزعمون أنه قد مات فأتى إليهم وقال : أنا أبرئه وما عليه بأس . ثم إنه أخذه إلى حمام قريب من ذلك الموضع وفتح فكيه كرهاً ، ثم سكب في حلقه ماءً حاراً وقد أضاف إليه أدوية مقوية للقيء وقيأه برفق . ثم عالجه وتلطف في مداواته حتى أفاق / ٢٦٦ / وعاد إلى صحته . فتعجب الناس منه في ذلك الفعل وحسن تأتية إلى مداواة ذلك الرجل ، واشتهرت عنه هذه القضية ، وتميز بعدها .

وهذه الحكاية التي قصد البيرودي على تتبع أحوال الرجل فيها ويشاهد ما يكون من أمره أن يكون عنده معرفة بالأعراض التي تحدث له ، وأن ينقذه أيضاً مما وقع فيه إن أمكنه معالجته .

ومثل ذلك أيضاً ما حكاه أبو جعفر أحمد بن محمد بن الأشعث في كتاب «الغاذي والمغتذي» ، وذلك أنه قال : إن إنساناً رأيته يوماً وقد بايع أن يأكل جزراً قدره بحد ما ، فحضرت أكله لأرى ما يكون من حاله ، لا رغبة مني لمجالسة من هذه حالته ، ولا لي بذلك عادة ولله الحمد ؛ بل لأرى إيراد الغذاء على المعدة قسراً إلى ماذا يكون هذا الفعل ، فرأيت يأكل من حائط ليرى من حوله ويضاحكهم ، حتى إذا مر على الكثير مما كان بين يديه فرأيت الجزر ممضوغاً قد خرج من حلقه ملتفاً مستحيلأً متعجباً بريقه ؛ وقد جحظت عيناه ، وانقطع نفسه ، واحمر لونه ، ودرت أوداجه ، وعروق رأسه ، وأزبد وكمد وجهه ، وعرض له من التهوع أكثر مما عرض له من القذف حتى رمى من ذلك الذي أكله شيئاً كثيراً . فزكنت أن انقطاع نفسه لدفع المعدة حجابها إلى نحو الفم ، ومنعها إياه من الرجوع إلى الانبساط إلى النفس . وأما ما عرض إلى لونه من الاحمرار ودرور وداجيه وعروقه فزكنت أنه لإقبال الطبيعة نحو رأسه ، كما يعرض لمن شددت يده للفصد أن تقبل الطبيعة نحو الجهة التي استنهضت نحوها . فأما ما عرض لوجهه من الاربداد والكهوبة فرأيت أيضاً أنه لسوء مزاج قلبه ، وأنه لو لم يخرج ما خرج ، ودافعت المعدة حجابها هذه المدافعة التي قد عاقته آلتة عن التنفس ، عرض له الموت بالاختناق ، كما قدرأينا ذلك في عدد كثير ماتوا بعقب القذف . فزكنت من ذلك أن التهوع / ٢٦٧ / لشدة اضطراب في ذلك الفصل وحسن تأتية ونقي المعدة .

قال ابن أبي الأشعث بعد ذلك : إن الغذاء إذا حصل في المعدة وهو كثير الكمية ، تمددت تمدهداً ينبسط سائر غصونها ، كما رأيت ذلك في سَبْع شرحته حياً بحضرة الأمير

الغضنفر، وقد استصغر بعض الحاضرين معدته، فتقدمت بصب الماء في فيه، فما زلنا نصب في حلقه دوزقاً بعد أخرى حتى عددنا من الدوايق عدداً كان مقدار ما حوت معدته نحو أربعين رطلاً ماء، فنظرت إذ ذاك إلى الطبقة الداخلية، وقد امتدت حتى صار له سطحاً مستوياً ليس بدون استواء الخارج، ثم شققتها فعندما اجتمعت عند خروج الماء منها عاد غضون الداخلة وألتوت يشهد الله في جميع ذلك الا ترسل نفسه.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي قال: حدثني موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران قال: حدثني أبي، عن خالي أبي الفرج بن حيان قال: حدثني أبو الكرم الطبيب قال: كنت يوماً أساير الشيخ أبا الفرج البيرودي إذ اعترضه رجل، فقال: يا سيدي كنت في صناعتني هذه في الحمام، وحلقت رأسي وأوجد الآن في وجهي كله انتفاخاً وحرارة عظيمة. قال: فنظرنا إلى وجهه يربو ويتنفخ وتزيد حمرة بغير توقف ولا تدريج. قال: فأمره أن يكشف رأسه ويتلقى من الجارية من قناة كانت بين يديه، وكان الزمان إذ ذاك صميم الشتاء وغاية البرد، ثم لم يزل واقفاً حتى بلغ ما أراد مما أمر به. ثم أمر الرجل بالانصراف وأشار إليه بالأوفق له، وهو تلطيف التدبير واستعمال النقوع الحامض مبرداً، وقطع الزفر. قال: فامتنع أن يحدث.

وقال الطرطوشي في كتاب «سراج الملوك»: حدثني بعض الشاميين أن رجلاً خبازاً بينما هو يخبز في تنوره بمدينة دمشق إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش فاشترى منه، وجعل يأكله بالخبز الحار فلما فرغ سقط مغشياً عليه. فنظروا / ٢٦٨ / فإذا هو ميت، فجعلوا يتربصون به ويحملون له الأطباء فيلتمسون دلائله، ومواضع الحياة منه. فلم يجدوا، فقصوا بموته. فغسل وكفن وصلي عليه، وخرجوا به إلى الجبانة. فبينما هم في الطريق على باب البلد إذ استقبلهم رجل طبيب يقال له البيرودي، وكان طبيباً ماهراً حاذقاً فاضلاً عارفاً بالطب، فسمع الناس يلهجون بقضيته، فقال: خطوه حتى أراه. فوضعه، فجعل يقلبه، وينظر في إمارات الحياة التي يعرفها. ثم فتح فمه وسقاه شيئاً، أو قال حقنه فاندفع هناك، فإذا الرجل قد فتح عينيه وتكلم وعاد إلى حانوته كما كان.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي عن موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران قال: حدثني أبي، قال: حدثني عبد الله بن رجاء بن يعقوب. قال: بلغني أن أبا الفرج جرجس بن يوحنا البيرودي لما توفي ظهر في تركته ثلثمائة مقطع رومي وخمسمائة قطعة فضة ألطفها ثلثمائة درهم. قال موفق الدين بن المطران: وليس ذلك يكثر لأن الشخص متى تحققت أعماله وصفت نيته، وطلب الحق، وعامل الصحيح واجتهد في معرفة صناعته، كان حقاً على الله أن يرزقه. ومتى كان بالضد، عاش فقيراً، ومات يائساً^(١).

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن عيون الأنباء ٦١٠-٦١٣.

ومنهم:

[٧١]

ظافر بن جابر السكري، أبو حكيم^(١)

حظيَّ كان معانده يتلظى، وحاسده يتشظى، نهض للطلب أول ما قام على ساق، وتمَّ لهلاله اتساق، ولم يمل سعيًا، ولا أخلَّ وعيًا، ولا خلى زمانه سقيًا له ورعيًا، حتى شدا من كل علم يتعلمه منه طرفا، وخلف من كان يتقدمه وراء القفا، فصفت مناهله، وصمَّتْ مُباهله، ولم يستتم غصنه الورق، ولا اشتد مجلسه بالطلبة، وانتطق حتى عدَّ من العلامات، وتأكدت الأسباب له بالعلامات.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان مسلماً فاضلاً في الصناعة الطبية، متقناً للعلوم الحكيمة، متحلياً / ٢٦٩ / بالفضائل وعلم الأدب، محباً في الاشتغال والتضلع في العلوم. وكان قد لقي أبا الفرج ابن الطيب ببغداد، واجتمع به، واشتغل عليه ومعه. وكان ظافر بن جابر موجوداً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وهو موصل، وإنما انتقل من الموصل إلى مدينة حلب، وأقام بها إلى آخر عمره.

ومن شعره: [من الكامل]

ما زلتُ أعْلِمُ أولاً في أولٍ حتى علمتُ بأنني لا علم لي
ومن العجائب أن كوني جاهلاً من حيث كوني أنني لم أجهل
ومنهم:

[٧٢]

أبو الحكم، عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي^(٣)

أبو الحكم وأخو الحكم، علم الفضلاء، وعصم أهل الولاء، إلا أنه كان للأعداء سمماً، وللإعداء همماً، وكان كثيراً ما يهيج للمباهلة، ويهاجي ولا يخاف، ونسبه من باهله. أتى دمشق فرتع في جنانها، وغاص في غياض أفنانها، وبات قري

(١) كان حياً سنة ٤٨٢هـ، ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٤، معجم المؤلفين ٤٧/٥، والعلوم العملية

- الطب ٥٠، والعلوم البحتة - الحيوان ٣٥٧، أعلام الحضارة ١/٤٨٤ رقم ٢٥٨.

(٢) عيون الأنباء ٦١٤.

(٣) ورد في الأصل: «عبيد الله بن المظفر بن عبد الله...» وما أثبتنا من عيون الأنباء.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦١٤-٦٢٧، أخبار العلماء ٤٠٤.

جفونها المراض وجفانها، دأب إلى أندية آبق وسيادتها، فأناخ في ذلك الذرى، واستطاب المناخ والقرى.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان فاضلاً في الحكمة والطب، معتنياً بالأدب، كثير المجون، محباً للشراب، فإذا طرب خرج في بابهِ الخيال. وكان يضرب بالعود، وله مدائح في آبق وبني الصوفي، وكان يهاجي الشعراء.

وفي هجائه يقول عرقلة^(٢): [من السريع]

لنا طبيبٌ شاعرٌ أشتر أراحنا مِنْ شَخْصِهِ اللهُ
ما عادَ في صُبْحَةِ يومٍ فتى إلا وفي باقيه رثاهُ
ومن شعره قوله: [من الوافر]

ألا يا مَنْ لَصِبِ مُسْتَهَامٍ معنًى لا يُفِيقُ مِنَ الْعَرَامِ
وكيف يُفِيقُ مَحْزُونٌ كئيبٌ أَضَرَّ بِجَسَمِهِ طُولُ السَّقَامِ
وقوله: [من المنسرح]

/ ٢٧٠ / ويحُّ الْمُحِبِّينَ لَيْتَ لَا خُلُقُوا ما بَرَحُوا في الْعَذَابِ مُذْ عَشِقُوا
ولا رَجَوْا راحةً ولا فَرَحاً إلا وَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الطَّرُقُ
ومنهم:

[٧٣]

ابنه أبو المجد بن أبي الحكم، أفضل الدولة^(٣)

متقن لكل رياضي، وممعن في كل سماء وأرضي، رمى كل أفق بنظره، وغلب كل شارق بنيّره، وخلف وراءه الأقران، وألقى في ذروة السؤدد الجران، والتفت إليه السلطان بوجه الإقبال، وحباه حتى أمن الإقلال، فتأخر نظراؤه وتقدم إماماً، وردّ نوءهم وسح غماماً، وجدّل ذوي الجدل إذ جدّ اهتماماً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٤): من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين، والأفاضل في الطب والهندسة والنجوم والموسيقى، ويجيد الغناء والإيقاع والزمير وسائر الآلات، وعمل الأرغل وبالغ في إتقانه. وكان العادل نور الدين محمود بن زنكي يرى له ويحترمه، وجعل له الأمر في مارستانه بدمشق، وكان يقرأ عليه الطب في إيوان المارستان، وتقدم في زمانه.

(٢) ديوان عرقلة الكلبي ١٠٦.

(١) عيون الأنباء ٦١٤.

(٤) عيون الأنباء ٦٢٨.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٢٨.

ومنهم:

[٧٤]

ابن البذوخ، وهو أبو جعفر بن موسى بن علي القلعي^(١)

كان من أعلام أهل الفضائل، وأواخر من لحقه السلف من الأوائل، جنى بيده الأدوية ورُكَّبها، وعرف مقادير رُتبها ورُتبَّها، إلى سوى هذا مما قضى فيه أيام عمره، وذهب وقد أبقى للناس من ثمره، وكان كأنه ما مات، ولا أكلت أنواره الظلمات، ومضى وهذا أثره، وبقي ذباب السيف وهو أكثره.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان عارفاً بالأدوية المفردة والمركبة، وله حواش على كتاب القانون، وله اعتناء بعلم الحديث والشعر، وعمر طويلاً، وضعف عن الحركة، ثم عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه.

ومنهم:

[٧٥]

حكيم الزمان، أبو الفضل، عبد المنعم بن عمر بن عبد الله / ٢٧١ / بن حسان الغساني الجلياني^(٣)

حسنة من إحسان، وبقية آل غسان، طلع من المغرب، وسمع منه المطرب، ولا

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٢٨-٦٢٩، وسير أعلام النبلاء ٤٧٦-٤٧٧/٢١ رقم ٢٤٠، والمختار من تاريخ ابن الجوزي ٨٩، فوات الوفيات ٣٥-٣٧، نفح الطيب ٢/٦٥٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٠١-٦١٠هـ) ص ١٢٠ رقم ١٣٥.

(٢) عيون الأنباء ٦٢٨.

(٣) عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الجلياني الغساني الأندلسي، أبو الفضل: طبيب، شاعر، أديب، متصوف، كان يقال له «حكيم الزمان». من أهل «جليانة» وهي حصن من أعمال وادي آش (Guadix) بالأندلس، ولد سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكانت معيشته من الطب، يجلس على دكان بعض العطارين. وهناك لقيه ياقوت الحموي. وزار بغداد سنة ٦٠١هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م كان السلطان صلاح الدين يحترمه ويجله، ولعبد المنعم فيه مدائح كثيرة، أشهرها قصائده «المديجات-خ» العجبية في أسلوبها وجداولها وترتيبها، أتمها سنة ٥٦٨هـ، وتسمى «منادح الممداح» و«روضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر» و«مشارع الأشواق-خ» عند الزركلي نسخة نفيسة كتبت سنة ٧٣١. وله عشرة «دواوين» نظماً ونثراً، منها «ديوان أدب السلوك-خ» وهو الثالث، نثر، و«ديوان الغزل والتثبيث والموشحات» وهو الثامن، نظم، و«ديوان الترسل والمخاطبات» وهو العاشر، نثر. وقد أتى ابن أبي أصيبعة على بيان موضوعات الدواوين =

عجب أن سمي حكيم الزمان، ولقط منه نظم، وتلقته الملوك واصطفته، وناصفته في مجالسها وأنصفته، ومذ أنس بفطنه لم يستوحش لوطنه، ولا ظهر عليه قشف البين، ولا عرف له في بشرٍ إلا حسن أثر وعين.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان علامة زمانه في الطب والكحل بارعاً في الأدب والشعر أتى من الأندلس إلى الشام. وأقام بدمشق، وعمر عمراً طويلاً. وله في السلطان صلاح الدين مدائح كثيرة، وصنف له كتباً وكان له من الإحسان الجزيل، والأنعام الكثير.

ثم خدّم بالكحل الأشرف شاه أرمن، وتوفي بالرها سنة نيف وعشرين وستمائة. ومن شعره قوله: [من الطويل]

على قَرِطٍ شَوْقي تَسْتَقِلُّ الرِّكائبُ وَعَنْ صَوْنٍ دَمَعِي تَسْتَهْلُ السَّحَابُ
وما البرقُ إِلَّا مِنْ حَنِينِي نابضٍ وما الرعدُ إِلَّا مِنْ أُنِينِي نَادٍ
نَأَيْتُمْ فَلَا صَبْرٌ مِنَ الْقَلْبِ حَاضِرٌ لَدَيَّ وَلَا قَلْبٌ عَنِ الذِّكْرِ غَائِبٌ
فيا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَنَا مَنْ صَحِبْتُمْ فما بَعْدَكُمْ غَيْرُ الْهَوَى لِي صَاحِبٌ
وقوله: [من البسيط]

قالوا نَرَى نَفْراً عِنْدَ الْمُلوِكِ سَمَوْا وما لَهُمْ هِمَّةٌ تَسْمُو ولا وَرَعٌ
قَدْ يُكْرَمُ الْقِرْدُ إِعْجَاباً لِحَسَنِهِ وَقَدْ يُهَانُ لَفَرَطِ التَّخْوَةِ السَّبْعُ
ومنهم:

[٧٦]

المهذب بن النقاش، أبو الحسن، علي بن عيسى بن هبة الله^(٢)

طبيب لو أخذ عن جالينوس، لأتاه العلم بمنصوصه، أو لزم ابن سينا لأقبل عليه

⁼ العشرة، وذكر له «تعاليق في الطب» و«صفات أدوية مركبة» وشعره حسن السبك، فيه جودة. ترجمته في: عيون الأنباء ٦٣٠-٦٣٥، فوات الوفيات ١٦/٢، وهو فيه «الجاني» ولعل سقوط اللام من خطأ النسخ أو الطبع، ونفح الطيب ٦٥٤/٢ وهو فيه «محمد بن عبد المنعم بن عمر، أو عبد المنعم بن عمر» ومعجم البلدان مادة جليانة، وفيه: وفاته سنة ٦٠٣، فوات الوفيات ١٦/٢، تكملة الصلة لابن بشكوال ٦٥٢/٢-٦٥٣، نفح الطيب ٥/٢، ١٥-١٦، ومجلة المجمع العلمي ٢٣٦/٩ و١٠/٣١٧ ثم ٢٠/٥٢٩، وتحفة القادم لابن الأبار، والفهرس التمهيدي ١٢٠، الذيل والتكملة -خ- وفيه أنه نزل القاهرة، وتجول في بلاد المشرق، وتوفي سنة ٦٠٣، والأعلام ١٦٧/٤.

(١) عيون الأنباء ٦٣٠.

(٢) المهذب ابن النقاش: علي بن عيسى بن هبة الله، أبو الحسن، مهذب الدين ابن النقاش: عالم بالطب، أديب، له مشاركة في الحديث. مولده ومنشأه ببغداد. أقام في دمشق، ثم في القاهرة، وعاد إلى دمشق فتوفي بها سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، كان له مجلس عام للمشتغلين عليه بالطب، =

على خصوصه، أو سبق ابن عربي لاستبقى بقیةً من نقشه لفصوصه، وكان لا يُقصر في طلب، ولا يقص النسر له جناحاً إذا طلع وإذا غرب، فلم يَلَمْ به ملل، ولا كان له في غير العلم أمل.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): / ٢٧٢ / كان مولده ومنشؤه ببغداد، وكان عالماً بالعربية والأدب، وقرأ الطب على أمين الدولة بن التلميذ، ولازمه مدة واشتغل بعلم الحديث على ابن الحصين، وحدث معه، وسمع منه القاضي عمر بن القرشي.

قال الأصفهاني في الخريدة^(٢): أنشدني مهذب الدين بن النقاش لوالده: [من المتقارب]

إذا وجدَ الشيخُ في نفسه نَشَاطاً فذلكَ مَوْتُ خَفِي
أَلَسْتُ تَرَى أَنَّ ضَوْءَ السُّرَاجِ لَهُ لَهَبٌ عِنْدَمَا يَنْطَفِئُ
قال ابن أبي أصيبعة^(٣): لما وصل المهذب بن النقاش إلى دمشق طَبَّ بها، وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى مصر، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق، وخدم نور الدين بالطب، وكان له منه إحسان، وتوفي يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة أربع وسبعين وخمسمائة، ودفن بجبل قاسيون. ومنهم:

[٧٧]

سكرة اليهودي الحلبي^(٤)

حكيمٌ فضائله غير منكورة، وطبيب حلا وصفه فقيل سكرة، وكانت له هممٌ تواتيه، وله شممٌ ما خرج به من التيه، انقاد له الحظ، وأتاه بأدنى فكرٍ ولفظ، وأنجبت له ذُرِّيَّةً أسلموا بعده، وسَلَّمُوا ولايات عدة، وذلك بعد أن رُفِعَ عليهم علم الإسلام، ودان لهم قلم الكتابة بسلام.

قال ابن أبي أصيبعة^(٥): كان له دربة بالعلاج، وتصرف في المداواة. حكى أنه كان

= وخدم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وبقي سنين في بيمارستانه الكبير، وكتب له كثيراً من الرسائل إلى النواحي. وبعد وفاة نور الدين خدم السلطان صلاح الدين. وله أخبار. ترجمته في: عيون الأنباء ٦٣٥-٦٣٧، منامات الوهراني ١٤٢، الوافي بالوفيات ٣٧٧/٢١-٣٧٨ رقم ٢٤٨، خريدة القصر (قسم العراق) مج ٣/ج ١/٤٩-٥٠ ضمن ترجمة والده. الأعلام ٤/٣١٨، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٧١-٥٨٠هـ) ص ١٥١ رقم ١٢٢.

(١) عيون الأنباء ٦٣٥. (٢) خريدة القصر (قسم العراق) مج ٣/ج ١/٥٠.

(٣) عيون الأنباء ٦٣٦. (٤) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٣٧-٦٣٨.

(٥) عيون الأنباء ٦٣٧.

لنور الدين بقلعة حلب حظية يميل إليها فمرضت مرضةً أعيت على الأطباء، فأحضر إليها سكرة الحكيم، فوجدها قليلة الأكل، متغيرة المزاج، فسألها عن جنسها فأخبرته بأنها علائية، ثم سألها عما كانت تأكل في بلادهم، فقالت: لحم البقر، فسألها عما كانت تشرب، فقالت: الخمر، فقال لها: ابشري بالعافية، ثم ذهب فاشترى عاجلاً وصلق من لحمه، ثم عمل معه شيئاً من لبن وثوم، وأخذ معه خمراً، وأتى به فأطعمها، وأكلت منه بنهمة كبيرة، ثم سقاها، فطلبت / ٢٧٣ / النوم، فنامت وغطيت بدثار، فعرقت عرقاً كثيراً، وأصبحت في عافية، ولازمها بمثل ما عالجها به حتى برئت، فبعثت إليه بصينية مملوءة من الحلبي، ثم كتبت إلى نور الدين تعلمه بعجز الأطباء عنها، وأن عافيتها كانت على يده، فلما قرأ الكتاب طلبه وعرفه بما قالت ثم منّا فسأله عشرة أفدنة في قريتي صمع وعيدان، فكتبها له ملكاً ثم عاد إلى حلب وكثرت أمواله، ولم يزل في نعمة طائلة هو وبنوه. ومنهم:

[٧٨]

أسعد بن المطران، الموفق^(١)

طبيبٌ على نصرانيته وتدينه بدنيته، قد تحلّى بمحاسن الشيم، وحلّ الغاية لولا الشمم، ودنا من الملوك مجلساً، وترك حاسده المضمونك مُبلساً، وأطالت النعمة ريشه، ونفضت على فائض النوء رشاشه، وأثرى بالحضرة الصلاحية حتى ابتل عوده في الثرى، وشمخ هرم ماله إلى الذرى، وكان على هذا الوفر والحظ الذي ما دُهبَ بمثله سفر، يتجنى على السلطان والذنب ذنبه، ويتناوم عليه ولا يهدأ جنبه. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان للسلطان صلاح الدين فيه اعتقاد وأسلم في أيامه، وكان يغلب على ابن المطران الكبرياء حتى على الملوك وكان يعلم صلاح الدين ذلك منه.

وحكى عنه من كان معه في بعض غزواته أن صلاح الدين كان ينصب له في أوقات حروبه خيمة حمراء بدهلز أحمر وميضاة حمراء، فبينما هو راكب وإذا به قد نظر إلى خيمة حمراء ظنها خيمته، فسأل لمن هي؟ فقليل له: لابن المطران الطبيب فضحك، وقال: والله قد عرفت هذا من حماقته، ثم قال: ما بنا إلا أن يعبر أحدٌ من الرسل فيعتقد أنها خيمة أحد الملوك، وإذا كان لا بد فيغير ميضاتها، فيصعب هذا على ابن المطران، وبقي يومين لا يأتي الخدمة حتى ترضاه صلاح الدين وأعطاه مالاً.

وشكا أبو الفرج البطروي الطبيب إلى صلاح الدين ضرره ببينات له يريد تجهيزهن، فأمر أن يكتب ورقة بما يحتاج إليه، فكتب شيئاً بنحو ثلاثين ألف درهم،

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٥١-٦٥٩. (٢) عيون الأنباء ٦٥٢.

فأمر له بما تضمنه ورقته، فبلغ / ٢٧٤ / ذلك ابن المطران، فقصر في الخدمة، وتبين لصالح الدين هذا من تغير وجهه، فأمر بأن يحسب جملة ثمن ما اشترى به جهاز بنات أبي الفرج ويعطي ابن المطران نظيره.

وحكى المذهب عبد الرحيم بن علي: أن أسد الدين شيركوه صاحب حمص طلب ابن المطران فتوجه وأنا معه. فبينما نحن في بعض الطريق، وإذا رجل مجذوم قد استقبله، وكان الممرض قد قوي به، حتى تغيرت خلقته، وتشوهت صورته. فاستوصف منه ما يتناوله، وما يتداوى به، فبقي كالمتمبرم به من رؤيته، ثم قال له: كل لحوم الأفاعي. فعاوده في المسألة فقال: كل لحوم الأفاعي؛ فإنك تبرأ. يكررها عليه، ثم مضينا إلى حمص، وأقمنا بها نعالج المريض الذي طلب لأجله إلى أن صلح ثم رجعنا فلما كنا في الطريق، وإذا بشاب حسن الصورة، كامل الصحة قد سلم عليه وقبل يده. فقال له: من أنت؟ فقال له: أنا صاحب ذلك الممرض الذي كنت شكوت إليك، وإنني استعملت ما وصفته لي فصلحت من غير أن أحتاج معه إلى دواء آخر.

وتوفي ابن المطران في ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة بدمشق^(١).

ومنهم:

[٧٩]

ابن اللُّبُودي، يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد،

الصاحب نجم الدين، أبو زكرياء^(٢)

مُشَيَّد بيت، ومحبي فضل غير مَيِّت، وإلى الآن بقيته، وكان وما هانت بليَّته، وترقَّى

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٥١-٦٥٦.

(٢) يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد، أبو زكريا، نجم الدين، الصاحب ابن اللُّبُودي: حكيم أديب، من علماء الأطباء. ولد في حلب سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، ونشأ بدمشق، واتصل بالملك المنصور (صاحب حمص) فاستوزره وفوض إليه أمور دولته. ثم انتقل إلى مصر (سنة ٦٤٣هـ) بعد وفاة المنصور، فجعله الملك الصالح أيوب ناظراً على الديوان بالإسكندرية، فأقام حيناً. وعاد إلى دمشق، فكان ناظراً على الديوان في جميع الأعمال الشامية. وصنف كتاباً جليلاً، منها: «اللمعات» في الحكمة، و«غاية الغايات في المحتاج إليه من أقليدس والمتوسطات» و«تحقيق المباحث الطبية - خ» و«الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة» و«كافية الحساب» في علم الحساب، و«آفاق الإشراق» في الحكمة، و«المناهج القدسية» حكمة. واختصر كثيراً من كتب ابن سينا وحنين بن إسحاق. وشرح بعضها. وله نظم، منه قصيدة في رثاء «الخسروشاهي» وأبيات يتشوق بها إلى بلد الخليل، نظمها سنة ٦٦٠ وفي تاريخ ابن كثير أنه هو واقف «اللبودية» المدرسة =

إلى أن وزر، واتشح برداء الكبرياء واتزر، إلا أنه لدى ملك لم يفخر لديه خديم، ولا أثرى بندي يديه عديم، فضيق نطاقه، وعدم رواج الفضل عنده ونفاقه، لصغر بلده، وقلة ذات يده. قال ابن أبي أصيبعة^(١): أوحده في الطب، قدوة في الحكم، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم، متفنن في الآداب. فما يدانيه في شعره لبيد، ولا في ترسله عبد الحميد [من الطويل].

ولمّا رأيتُ الناسَ دونَ محلِّهِ تيقنْتُ أنَّ الدهرَ للناسِ ناقِذٌ مولده بحلب سنة سبع وستمائة. وأتى دمشق. وقرأ على المهذب عبد الرحيم. وخدم / ٢٧٥ / المنصور إبراهيم صاحب حمص. وكان يعتمد عليه وأحواله تزداد لديه حتى استوزره، واعتمد عليه بكلّيته. فلما توفي الملك المنصور بعد كسرة الخوارزمية، توجه إلى الخدمة الصالحية النجمية بمصر، فأكرمه وجعل له كل شهر ثلاثة آلاف درهم، وبقي على ذلك مدة. ثم وجه إلى الشام ناظرًا على الديوان بجمع الممالك الشامية.

وله نشر منه قوله: «وقف الخادم على المشرفة الكريمة أدام الله نعمة المنعم بما أودعها من النعم الجسام، واقتضبه من الأريحية التي أربى فيها على كل من تقدمه من الكرام، وأبان فيها عما يقضي على الخادم بالاسترقاق، وللدولة خلدها الله بمزايا الاستحقاق. وكلما أشار المولى إليه فهو كما نص عليه، لكنه يعلم بسعادته أن الفرص تمر مر السحاب، وقد ضاق الوقت بحيث لا يحتمل التأخير والمولى يعلم أن المصلحة تقديم النظر في هذا المهم على جميع أنواع التدبير، وما الخادم مع المولى في هذا إلا كسهم، والمولى مدده والسيف والمولى مجرده، فالله الله في العجلة والبدار. فقد ظهرت مخايل السعادة والانتصار. والحذر الحذر من التأخير والإهمال فيفوت والعياذ بالله الأوقات التي نرجو فيها بلوغ الآمال، والمسؤول من كرم الله أن ينهض المملوك في خدمة السلطان بما يبيض وجه أمله، ويكون ذلك على يد المولى بقوله وعمله.

ومن شعره قوله يمدح سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام: [من الكامل]

هذي المهابة والجلالُ الهائلُ بهراً فماذا أن يقولَ القائلُ

⁼ التي عند حمام الفلك (بدمشق) ولما مات سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م دفن عندها. وفي هامش على كتاب «الدارس» للنعمي، أن اللبودية اندرست وبقي هناك بستان يعرف ببستان اللبودي.

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٦٣-٦٦٨، وتالي كتاب وفيات الأعيان ١٧٠ رقم ٢٨١، تاريخ الملك الظاهر ٥٠-٤٩، عيون التواريخ ٤٢٩/٢، البداية والنهاية ٩٣/٢٦٢، عقد الجمان (٢) ٩٨، الدارس ١٣٥/٢، والأعلام ١٦٥/٨، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١-٦٧٠هـ) ص ٣٢١ رقم ٣٦٨.

(١) عيون الأنباء ٦٦٣.

وبك اقتدى جُلُّ النبيين الألى ولديك أضحت حُجَّةٌ ودلائلُ
أظهرت إبراهيمُ أعلامَ الهدى والخير والمعروف جُودُكَ عاملُ
شيئت أركانَ الشريعة مُعلناً ومقررراً أنَّ الإلهَ الفاعلُ
ما زلت تنقلُ للنبوَّة سِرَّها حتى غدا لمحمدٍ هو واصلُ
وقد التجأتُ إلى جنابك خاضعاً مُتوسِّلاً وأنا الفقيرُ السائلُ^(١)

/ ٢٧٦ / ومنهم:

[٨٠]

الرضي الرَّحبي، يوسف بن حيدرة بن الحسن، أبو الحجاج^(٢)

حكيم لو استجارت به الأرواح لكلاًها، أو أملى المسامع لملاًها، كم سُكيت إليه الأسقام فأبرأها، وتوالت الأيام فرد أجرأها، مذ وكلت به رعاية الأبدان خُرس، ومُذ أترست به الأعضاء رأست، شد البناء، وشدَّد الأبناء، فقامت به الأجسام، وكانت تئنُّ سقماً، وتدافع ضعفاً. فتح لها فمه مُلتقماً، فتمت به محاسن الوجوه الوسام، وترضى الأرواح للأجسام، فخصَّ بالحباء، وزيادة الاحتباء، فأقبل المال يتدفق عليه تدفق السيل، ويفيض عنده على الميزان والكيل.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣) فيه: من الأكابر في صناعة الطب، والمتقدمين من أهلها، وله الذكر الشائع، ولم يزل مبجلاً عند الملوك. وكان عالي الهمة، كبير النفس، كثير التحقيق، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، ما عرف منه أنه آذى أحداً، ولا تكلم فيه بسوء. وكان لابنه نظر في الطب، إلا أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه وبها عرف.

وولد ابنه الرضي بالجزيرة في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ونشأ بها وأقام بنصيبين، ثم الرحبة، ثم سافر إلى بغداد وغيرها، واشتغل في علم الطب وتميز فيه، ثم أتى مصر واجتمع بالموفق بن جميع المصري وانتفع به، وكان قدومه دمشق في الأيام النورية، فرأى ابن النقاش وأخذ عنه ولزمه، فنوه بذكره، وقدر له بالمشول بالحضرة الصلاحية، فحسن موقعه إليها، ورتب في المارستان النوري، وأطلق له إدارار سلطاني، ودام إلى أيام المعظم، وأشغل خلقاً كثيراً صاروا شيوخ إقراء حتى كان لو اعتبر أطباء

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٦٣-٦٦٤.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٧٢-٦٧٥، وسير أعلام النبلاء ٢٢/٣٧١-٣٧٢ رقم ٢٣٧، شذرات الذهب ١٤٧/٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص ٧٩ رقم ٧٥.

(٣) عيون الأنباء ٦٧٢.

الشام، لم يوجد منهم إلا من قرأ عليه، أو على من قرأ عليه. وممن قرأ عليه المهذب عبد الرحيم بن علي، وكان لا يقرىء ذمياً ولا عادم أهلية، وكان يلزم في طبه قوانين حفظ الصحة الموجودة، وكان يتوقى صعود السلالم، ويقول: السلم منشار العمر.

ومن نوادره في طبه: أن ابن مرزوق / ٢٧٧ / ذكر أن الصاحب ابن شكر كان يلزم أكل الدجاج، فلحقه شحوب، فشكاه إلى الأطباء، فوضعوا له أنواعاً من الأشربة وغيرها، فلما شكى إلى الرحبي، قال: يحضر الجواب، ثم نهض، فأحضر له قطعة من صدر دجاجة، وقطعة حمراء من لحم ضأن، ثم قال له: أنت تلازم أكل لحم الدجاج فلا يأتي الدم المتولد منه إلا شبيهه، ولو أكلت من لحم الضأن، لأتى الدم المتولد منه يشبهه، فاترك لحم الدجاج، ولازم لحم الضأن، وما تحتاج إلى علاج. ففعل ذلك، فزال شحوبه، وصلى لونه. وتوفي يوم عاشوراء سنة إحدى وثلاثين ستمائة، ودفن بقاسيون^(١). ومنهم ابنه:

[٨١]

الشرف علي، شرف الدين، أبو الحسن^(٢)

حكيم أነع في جرثومة الطبّ عذقه، وصحّ في نظر المستطب حذقه، لم تُخط تجاربه، ولم تخف مآربه، أحسن طبه علاج الأمراض، وقوّم مزاج الأعراض، وعُرف منه ما لم يخف على أحد، ولا عرف أن أحداً له جحد، وكان طبه شافياً للأسقام، وكافياً في الداء العقام، ولم تمس يده مريضاً إلا مسح بيده سقمه، وسلّهُ من فم دائه الذي التقمه، فكان لهذا يُرغب في تطبيبه، ويرى من استطبّ غيره سقامه من طبيبه. قال ابن أبي أصيبعة^(٣) فيه: سلك حذو أبيه، واتبع ما كان يقتفيه، وأشبهه خلقاً

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٦٧٢-٦٧٥.

(٢) علي بن يوسف بن حيدرة الرحبي، شرف الدين، طبيب، من العلماء الشعراء، ولد في دمشق سنة ٥٨٣هـ وتوفي فيها سنة ٦٦٧هـ، خدم في البيمارستان الكبير، وتولى تدريس الطب مدة، وصنف كتاباً منها: «خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها».

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٧٥-٦٨٢، والوافي بالوفيات ٢٢/٣٥١ رقم ٢٤٥، والبداية والنهاية ١٣/٢٥٥، والسلوك ج ١ ق ٢/٥٨٣، وطبقات الأطباء ٢/١٩٥-٢٠١، والدارس ١/١٣٠، وشذرات الذهب ٥/٣٢٧ وفيه وفاته ٦٦٨، عقد الجمان ٢/٥٢-٥٣، عيون التواريخ ٢٠/٣٨٩-٣٩١، كشف الظنون ٧٢٣، إيضاح المكنون ١/٤٣٩، هدية العارفين ١/٧١١، ومعجم المؤلفين ٧/٢٦٥، الأعلام ٥/٣٤، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١-٦٧٠هـ) ص ٢٤٤ رقم ٢٤٢.

(٣) عيون الأنباء ٦٧٥.

وخلقاً، وطريقة وحذاقاً، ولم يزل منذ نشأ موفراً على قراءة الكتب وتحصيلها، ونفسه تشرب إلى طلب جمل الفضائل وتفصيلها. قرأ على أبيه، وعلى الموفق عبد اللطيف البغدادي، وأخذ عن السخاوي وغيره، وأجاد إتقان الأدب، وكان يحب التخلي للقراءة والدرس والاطلاع على آثار القدماء، والانتفاع بتصانيف الحكماء.

ولد بدمشق سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وحكي أنه قبل مرض موته بمدة كان يخبر أنه بعد قليل يموت ويقول: وذلك عند قران الكوكبين، ثم يقول: قولوا هذا للناس حتى يعرفوا مقدار علمي في حياتي وفي / ٢٧٨ وقت موتي فكان كما قال.

وتوفي بذات الجنب حادي عشر المحرم سنة سبع وستين وستمائة، ودفن بقاسيون.

ومن شعره قوله: [من الطويل]

سهام المنايا في الورى ليس تُمنع فكلُّ له يوماً وإن عاش مضرع
فقل للذي قد عاش بعد قرينه إلى مثلها عما قليل ستُدفع
أفق وانظر الدنيا بعين بصيرة تجد كل ما فيها ودائع رُجع
وقوله: [من الطويل]

تساق بنو الدنيا إلى الحثف سرعة ولا يشعر الباقي بحالة من يمضي
كأنهم الأنعام في جهل بعضها بما تم من سفك الدماء على بعض^(١)
ومنهم:

[٨٢]

عمران الإسرائيلي، واسم أبيه صدقة، ويلقب بالأوحد^(٢)

حكيم حُكِمَ على نظرائه، وحُتِمَ بصواب آرائه، لنظر كان له أثقب من نظر الغراب، وأحد من السيف عند الضراب حتى ظهر ظهور الشمس، واشتهر اشتهاً ما كان في أمس، فاستدعته الملوك إلى مجالسها، وأدنته إثناء مجالسها، فأخذ منها بحظ أزلف له الغرف، وأشرف به على أبعد مُشترَف، وقَدَّمه لديهم لفضل طار به محلَقاً، وأطال باعه محققاً، وعرف بحسن التدريب وصحة التجريب، فأجزلت له الجوائز حتى كان يأخذها آلفاً، ويعجل لها إتلافاً وإخلافاً، وهلك بعد السرف، وكثرة ما صرف، وأمواله قد زادت على القياس، وأفنت الحبال شداً على الأكياس.

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٧٥-٦٧٨.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٦٩٦-٦٩٧.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان أبوه أيضاً طبيباً مشهوراً. واشتغل هو على الشيخ رضي الدين الرحبي، وتميز في الطب، وحظي عند الملوك، واعتمدوا عليه في المداواة والمعالجة، ونال من جهتهم الأموال الجسيمة والنعم ما يفوق الوصف. وحصل من الكتب الطبية/ ٢٧٩/ وغيرها ما لا يكاد يوجد عند غيره، ولم يخدم أحداً من الملوك في الصحبة، ولا تقيد معهم في سفر، وإنما كل منهم إذا عرض له مرض أو لمن يعز عليه طلبه، ولم يزل يعالجه ويطلبه بالطف علاج وأحسن تدبير، إلى أن يفرغ من مداواته. ولقد حرص به الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأن يستخدمه في الصحبة فأبى، وكذلك غيره من الملوك.

وحدثني الأمير صارم الدين التبنيني رحمه الله أنه لما كان بالكرك، وصاحبه الملك الناصر داود بن الملك المعظم. وكان الملك الناصر قد توعك مزاجه، واستدعى الحكيم عمران إليه من دمشق فأقام عنده مديدة وعالجه حتى صلح فخلع عليه، وهب له مالاً كثيراً، ورتب له جامكية في كل شهر ألف وخمسمائة درهم ناصرية، ويكون في خدمته، وأن يسلف منها عن سنة ونصف سبعة وعشرين ألف درهم.

أقول: وكان السلطان الملك العادل لا يزل يصله بالأنعام الكثير، وله منه الجامكية الوافرة والجارية، وهو مقيم بدمشق، ويتردد إلى خدمة الدور السلطانية بالقلعة. وكذلك في أيام الملك المعظم، وكان قد أطلق له أيضاً جامكية وجارية تصل إليه، ويتردد إلى البيمارستان الكبير، ويعالج المرضى به، وكان به أيضاً في ذلك الوقت شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي رحمه الله، وكان يظهر في اجتماعهما كل فضيلة، وينتهي للمرضى من المداواة كل خير، وكنت في الوقت أتدرب معهما في أعمال الطب. ولقد رأيت من حسن تأتي الحكيم عمران في المعالجة، وتحقيقه للأمراض ما يتعجب منه. ومن ذلك أنه كان يوماً قد أتى إلى البيمارستان وبه مفلوج والأطباء قد ألحوا عليه باستعمال المغالي وغيرها من صفاتهم، فلما رآه وصف له في ذلك اليوم تدبيراً يستعمله، ثم بعد ذلك أمر بفصده، ولما فصد وعالجه، صلح وبرى براً تاماً، وكذلك رأيت له أشياء كثيرة من صفات مزاوريه وألوان كان يصفها للمرضى على / ٢٨٠/ سبيل شهواتهم، ولا يخرج عن مقتضى المداواة فينتفعون بها. وهذا باب عظيم في العلاج. ورأيت أيضاً وقد عالج أمراضاً كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئما الحياة، ويشس الأطباء من برئهم، فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها، ومعالجات بديعة قد عرفها. وقد ذكرت من ذلك جملاً في كتاب التجارب والفوائد.

وتوفي الحكيم المذكور في مدينة حمص في جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وستمائة، وقد استدعاه صاحبها لمداواته.

ومنها:

[٨٣]

يعقوب بن صقلاب النصراني^(١)

حكيمٌ أطاح طبهُ رداء السقم، وأطار عن الأعضاء لوثة السَّام، فقامت به الأجسام كأنما نُشِطت من عقال، أو حدثت بعد صداً الأسقام بصقال، فحظي عند الملوك حظوةً زادت في أنسه، وقضى بها يعقوبه حاجة كانت في نفسه، هذا إلى علم بصناعة الطب حفظت له في دروس، ونشأت له به غروس، وكان كأنما خلق من طينة أفلاطون، وجالس جالينوس حتى اخترمته المنون.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها، دائم الاستحضار لها كأنها مصورة بين عينيه لا ينقل إلّا عنه، وكان يشرح كتب أبقرط، ويورد نص ما قاله جالينوس في شرحه، وكان يجتمع هو والمهذب عبد الرحيم بدمشق بدار السلطان، ويجري بينهما مباحث، وكان المهذب أفصح عبارة وأقوى براعة، وأحسن بحثاً، وابن صقلاب أكثر سكينه وأبين قولاً، وأوسع نقلاً، وكان في معالجاته غاية في الجودة والنجاح؛ لأنه كان لا يداوي حتى يجيد تحقيق المرض، وكان المعظم يشكر هذا من فعله ويصفه به ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلّا استقصاء الأمراض ليعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه شيء من أمرها لكفاه، وكان متقناً للسان الرومي، ونقل كتاب «حيلة البرء» وغير ذلك من ٢٨١ / كتب جالينوس منها إلى العربية.

قال: كان مولده بالقدس، وأخذ الطبيعى والهندسة والحساب والنجوم عن فيلسوف كان قد ترهب بها في دير السيق.

قال: وكانت له في النجامة أحكام صحيحة وإنذارات عجيبة، وعلت مكانته عند المعظم حتى أراد أن يوليه بعض تدبير دولته فامتنع، وكان قد عرض له نقرس في رجليه، فكان المعظم إذا سافر أخذه معه في محفة. وقال له يوماً: يا حكيم لم لا تداوي هذا المرض الذي في رجليك، فقال له: الخشب إذا سوس ما يبقى في إصلاحه حيلة. وأدرك الناصر داود بعد أبيه، وولد بدمشق سنة إحدى وستين وخمسائة، وتوفي بها يوم فصح النصارى سنة خمس وعشرين وستمائة.

ومنها:

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٩٧-٦٩٩ وفيه: «يعقوب بن صقلاب..»، أخبار العلماء ٣٧٨.

(٢) عيون الأنباء ٦٩٧.

[٨٤]

الرشيـد الصُّوري، أبو منصور بن أبي الفضل بن علي^(١)

رجلٌ تهادته الملوك، وهادنته الأيام لحسن السلوك، وكان الحظُّ معه حيثما خيم، والسَّعد قرينه أينما يمم، وهو من بيت تعدُّ معه رجال، وتمتع الدهر بهم إلى آجال، وطالما زهت بهم الأيام الخوالي، وحسنت بهم الليالي الحوالي، وكان هو آخرهم الذي كان لمسكهم ختاماً، وضرب لهم حول قباب الجوزاء خياماً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): اشتمل على جملة من الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجليلة والخفية، وكان فريداً في الأدوية المفردة وماهيتها، واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها. اشتغل على عبد اللطيف البغدادي بالقدس ستين، وصحب الجياني، وكان عارفاً بالأدوية المفردة فانتفع به واشتغل بها، مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصبية التي لم يسبق إليها، والمعرفة المذكورة، والشجاعة المشهورة، وخدم بالطب العادل، ثم صار إلى المعظم، وحضر معه دمياط، ثم صار إلى الناصر داود، فلما توجه إلى الكرك أقام الرشيد بدمشق، وكان يشغل بها.

ولأبي نصر المذهب الحلبي فيه مديح منه: [من الطويل]

٢٨٢ / سرى طيفها والكاشحون هُجُودُ فبات قريباً والمزارُ بعيدُ
وتالله ما عاد الخيالُ وإنما تُخيِّلُهُ الأفكارُ لي فيعودُ

(١) رشيد الدين بن أبي الفضل بن علي الصوري: عالم بالنبات والطب. مولده في صور (بساحل لبنان) سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م وإليها نسبته. وانتقل إلى القدس فأقام ستين، فمر بها الملك العادل فاستصحبه معه (سنة ٦١٢هـ) إلى مصر، فبقي في خدمته. ثم خدم ابنه الملك المعظم، فالناصر ابن المعظم. وجعله هذا رئيساً للأطباء، فبقي معه إلى أن توجه الناصر إلى الكرك، فأقام رشيد الدين بدمشق فتوفي فيها سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م. كان مولعاً بالتنقيب عن غريب النباتات والحشائش، يستصحب مصوراً، معه الأصباغ والليق على اختلافها ويتوجه إلى المواضع التي فيها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها، وكان يُرى المصور النبات في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريره إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك، ثم يريره إياه في وقت ذواه ويبسه فيصوره. وقد أتى على ذكر كثير من هذه الأعشاب في كتابيه «الأدوية المفردة» و«التاج».

ترجمته في: عيون الأنباء ٦٩٩-٧٠٣، الوافي بالوفيات ١٤/١٢٥ رقم ١٦٠، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص ٣٩٩ رقم ٥٨٧، هدية العارفين ١/٣٦٨.

(٢) عيون الأنباء ٦٩٩-٧٠٠.

فيا لائمي كُفَّ الملامَ ولا تَزِدْ
 ألا في سبيل الحُبِّ مَنْ ماتَ صَبَوَةً
 ولمْ تَرَ عيني مثلَ أسماءَ خُلَّةً
 وبِتْ وجنحُ الليلِ مُرخِ سُدُولَهُ
 إلى أنْ تَبَدِّي الصبحُ غيرَ مُدَمَّم
 وكيفَ أذمَّ الصبحُ أو لا أودَّهُ
 وكلَّ صباحٍ فيهٍ للعينِ حظوةً
 فقلْ لبني الصوريِّ قدْ سُدْتُمُ الوَرَى
 وما حُزْتُمُ إرثَ العُلا عَن كَلالَةٍ
 وَمَنْ بأبى المنصورِ أصبحَ لائذاً
 فيا كعبةَ الآمالِ يا ديمةَ الندى
 وَمَنْ عندهُ يومَ السماحةِ حاتمٌ
 أياديكَ عندي لا أقومُ بشكرِها
 ولد سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بصور ونشأ بها.

وتوفي بدمشق يوم الأحد غرة رجب ستة تسع وثلاثين وخمسمائة.
 ومنهم:

[٨٥]

السديد ابن رُقَيْقَةَ، أبو الشَّاء، محمود بن عمر بن محمد بن
 إبراهيم بن شجاع الحانوتي^(٢)

طبيب كان كالنسيم في لطف العلاج، والصبح الوسيم عند الانبلاج، وكان لا
 يبارى في خفة يد، ولعب أنامل في جد، مع ما تقدم له مما تقدم به في ذوي الحظوظ،
 وعرف أنه بعين الحظ ملحوظ، فما قاوى جدولاً تياره، / ٢٨٣ / ولا طاولت الجباب
 ناره، وكان يستحق هذا من أيامه الذاهبة، وفي زمانه وعطايا أنعامه الواهبة.
 ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه^(٣): النفس الفاضلة والمروءة الكاملة. جمع من

(١) إلى هنا ينتهي النقل مختصراً من عيون الأنباء ٦٩٩-٧٠٣.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٠٣-٧١٧ وفيه: «الحانوي»، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ)

ص ٢٦٤ رقم ٣٧٣، وفيه: «ابن رُقَيْقَةَ، الحانوي...».

(٣) عيون الأنباء ٧٠٣.

الطب ما فاق به أقوال المتقدمين، وتميز على جميع نظرائه من الحكماء والمتطبيين. هذا مع الفطرة الفائقة، والألفاظ الرائقة، والنظم البليغ، والترسل البديع ولازم ابن عبد السلام المارديني وأخذ عنه الطب والحكمة. وكانت لابن رقيقة يد طولى في الكحل. والجراح وعمل الحديد، وداوى أمراض العين، وقده الماء النازل، وأنجب عمله، وكان المقده الذي له مجوفاً وله عطفة ليتمكن وقت القده من امتصاص الماء، ويكون العلاج به أبلغ. واشتغل بعلم النجوم. ونظر في حيل بني موسى، وعمل منها أشياء مستظرفة.

قال: ولد الحانوتي^(١) سنة أربع وستين وخمسائة، وعالج صاحبها الأرتقي من مرض في عينيه فرأى سريعاً، وكان إذ ذاك دون العشرين، فاستخدمه عنده ثم خدم المنصور صاحب حماة مدة، ثم سافر إلى أخلاط وكان صاحبها الأوحى أيوب بن العادل فخدمه وخدم صهره صلاح الدين ابنا غيسان، وكان زوج ابنة الأوحى. وكانت بنت الأوحى محسنة إليه ثم خدم بعده الأشرف شاه أرمن، ثم أتى إليه إلى دمشق فأكرمه، واستخدمه للحرم وفي البيمارستان، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وله شعر منه: [من الكامل]

يا مُلبّسي بالنُّطق ثوبَ كَرَامَةٍ عُمْري على خَطِّ إِلَيْكَ مُقَوِّمِ
خُذْنِي إِذَا أَجَلِي تَنَاهَى وَانْقَضَى دَارُ الْغُرُورِ لَهُ مَحَلًّا يَسَامِ
وَقَدْ اجْتَوَيْتُ ثَوَايَ فِيهِ وَمَنْ تَكُنْ مَنْ حَلَّهَا وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنْعَمِ
دَارٌ يُغَادِرُ بِؤْسَهَا وَشَقَاءَهَا تُعَلَى عَلَى رُتَبِ السَّوَارِي الْأَنْجَمِ
/ ٢٨٤ / لَا تَرْضِي الدُّنْيَا الدُّنْيَةَ مَوْطِنًا بِالْفِكْرِ أَوْ بِتَوَهُمِ الْمُتَوَهُمِ
فَتَشَاهِدِي مَا لَيْسَ يُدْرِكُ كُنْهَهُ لَا دَائِرَ الْبُقْيَا وَلَا مُتَهَدِّمِ
وَتُجَاوِرِي الْأَبْرَارَ فِي مُسْتَوَظِنِ عَمَّا لَهَجَتْ بِهِ وَلَمْ تَتَنَدَّمِ
يَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ شَبَبْتُ وَلَمْ تُعُدِّ عَرَضْتُ وَلَا لَتَلْزُجَ فِي الْبَلْعَمِ
لَا تَحْسَبَنَّ الشَّيْبَ فِيكَ لَعَلَّةً يَكُ مَارِدًا بِالشُّهْبِ حَقًّا يُرْجَمِ
لَكِنْ شَبَابُكَ كَانَ شَيْطَانًا وَمَنْ فَأَهِنْ هَوَاكَ أَوْ أَنْ شَيْبَكَ تُكْرَمِ
وَالشَّيْبُ إِشْرَاقُ الْحِجَا وَضِيَائُهُ جُزْمُ الْكَبِيرِ لِكُلِّ عَبْدٍ مُجْرَمِ
يَا جَابِرَ الْعَظَمِ الْكَسِيرِ وَغَافِرَ الدِّ

(١) في الأصل: «الحباني» وصوّبناه مما ذكره المؤلف في عنوان الترجمة.

مالي إليك وسيلة وذريعة أنجوبها إلا اعتقاد المسلم
وقوله: [من الخفيف]

لا تكن ناظراً إلى قائل القَوْل
وخذ القول حين تلقيه معقو
فنبأ الكلاب مع حسنة فيـ
وكذاك النصار مَعْدِنُهُ الأَر
ومنهم:

[٨٦]

صدقة السامري، وهو صدقة بن منجا بن صدقة^(٢)

رأس حكمة وأدب، وحلف همة لم يقصر في دأب لم يُلف مثله سامرياً، ولا مضطجعاً سام رياً، ورد على الغمائم حياضها، وراد في جنبات المجرة رياضها، طالما سهر الليالي الطوال، وأكثر في طلب العلم السؤال إلى أن جمع على الفضائل رده، واتخذ كرم الفعائل خدنه، إلا أنه لم ينزع حب دينه، ولا جفا ما جف في طينه.
قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٣): من الأكابر في صناعة الطب، والمتميزين من أهلها، والأماثل من أربابها. وافر العلم، جيد الفهم، قوياً في الفلسفة، / ٢٨٥ / وكان يدرس في الطب، وله فيه وفي الحكمة تصانيف. وخدم الملك الأشرف شاه أرمن. وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه كل الإكرام، ويعتمد عليه. وتوفي بحران فيما ينيف على سنة عشرين وستمئة، وخلف مالا جزيلاً، ولم يخلف ولداً.
ومن كلامه قوله:

«الصوم منع البدن، أو كف الحواس عن الخطأ، والجوارح عن الآثام، وللصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وهو كف البطن والفرج؛ وصوم الخصوص، وهو كف

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٠٣-٧٠٩.

(٢) صدقة بن منجى بن صدقة السامري: طبيب، كان يُعرف بابن الشاعر. خدم الملك الأشرف موسى الأيوبي، وتوفي في الخدمة. وكان الأشرف يحترمه ويكرمه ويعتمد عليه. له تصانيف، منها «النفس» و«شرح التوراة». وله نظم أكثره دوبيت. توفي في حران نحو سنة ٦٢٥هـ/ نحو ١٢٢٨م.
ترجمته في: عيون الأنباء ٧١٧-٧٢١، ومطالع البدور ١٠٧/٢، التاج ٣٥٩/١٠، تكتب القاموس / مادة: (نجا)، الأعلام ٢٠٣/٣.

(٣) عيون الأنباء ٧١٧-٧١٨.

السمع والبصر واللسان؛ وصوم خصوص الخصوص فصوم القلب والأفكار». وقوله:

«ما كان من الرطوبات الخارجة من الباطن ليس مستحيلاً، ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعب والمخاط. وأما ما له مقر وهو مستحيل فهو نجس، كالبول والروث».

ومن شعره قوله: [من مخلع البسيط]

وَضَامَنَ رَدَّ كُلِّ رُوحٍ هَمَّتْ عَنِ الْجِسْمِ بِالْبِعَادِ
أَقْسَمُ لَوْ كَانَ طَبَّ دَهْرًا لَعَادَ كَوْنًا بَلَا فُسَادِ
وقوله: [من السريع]

مُهَنْدِسٌ فِي طُولِ أَيَّامِهِ مَعَ قَصْرِهِ يَبْتَلِعُ السَّارِيَه
مُثَلَّثٌ يَدْعُمُهُ قَائِمٌ لِأَنَّهُ مُنْفَرَجُ الزَّاوِيَه
ومنهم:

[٨٧]

المهذب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري^(١)

سامري لم يخفر ذمته، ولم تُقصر في طلب العلياء همته، حتى داني الغاية على قلة ناصريه، وكثرة حُسَّاده في معاصريه، ولم تزل العداوة تشب اللهب، وتجلل الرماد الذهب، فألصقت به العيوب، وخرمت إليه أستار الغيوب، ولم تزل ترعزعه العواصف إلى أن زحزح وتكشف غماره حتى ضُحِصَح.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): أتقن الطب والحكمة، واشتغل بعلم الأدب، وبلغ في الفضائل أعلى الرتب، وكان كثير الإحسان، غزير الامتنان، فاضل / ٢٨٦ / النفس، صائب الحدس قرأ في الخدمة الصلاحية على شمس الحكماء إبراهيم السامري، وعلى اسماعيل بن أبي الوقار الطبيب، وعلى أبي اليمن الكندي، والمهذب بن النقاش، وتميز في الطب، واشتهر بحسن العلاج، وعالج بست الشام بنت أيوب من دوسنطاريا كبدية بالكافور القنصوري بحليب بزر بقلة محمصة، وشراب رمان وصندل، فسارعها الدم، ثم لطفها حتى برئت، وخدم فرخشاه بن أيوب، ثم خدم ابنه الملك الأمجد، وأقام عنده ببعلبك، وحظي عنده، وكان يستثيره ويعتمد عليه، ثم استوزره وحصل بسببه

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٢١-٧٢٣.

(٢) عيون الأنباء ٧٢١.

الأموال وتَوَرَّ النعم.

وقال فيه فتیان: [من المنسرح]

الملكُ الأمجدُ الذي شهدَتْ لَهُ جميعُ الملوكِ بالفَضْلِ
أصبحَ في السامريِّ مُعتقداً ما اعتقدَ السامريُّ في العجلِ
قال ابن أبي أصيبعة^(١): ولم يزل المهذب على علو منزلته حتى كثرت الشكاوى
من أقاربه السامرة، وما كثر منهم من العسف والظلم، وأكل الأموال، وإفساد الحریم،
ولامت الملوك الملك الأمجد عليه، فقبضه وقبض على أقاربه، واستصفى منهم أموالاً
كثيرة، واعتقله، ثم أطلقه، فأتى دمشق، وأقام بها في داره.

ومن شعره قوله: [من المجتث]

إِنْ سَاءَ نِي الدَّهْرُ يَوْمًا فَإِنَّهُ سَرَّ دَهْرًا
وإِنْ دَهَانِي بِمَالٍ فَقَدْ تَعَوَّضْتُ أَجْرًا
اللَّهُ أَغْنَى وَأَقْنَى وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا
ومنهم:

[٨٨]

أمين الدولة، أبو الحسن ابن غزال بن أبي سعيد السامري، وزير
الصالح اسماعيل^(٢)

كان سامرياً وأسلم، ولقب كمال الدين، وكان المهذب السامري عمه.
وكان لا يُطمع في معاضلته، ولا يقدر على مناضلته إلا أنه قتل نفسه بحمقه،
وابترد بالنار من حرقه، ولم يزل منذ أخذ في الطلب يترقى / ٢٨٧ / ويبرز بين المعامل
ولا يتوقى حتى تسنم ذرى الوزارة، وغلط طيفها في غفلة الحلم وزاره، فتصدى
للأموال حتى صادها، وأقام على الأعيان أرسادها، إلا أنها فرت من شبابه، وانفت
أن تستقر في أملاكه ثم كان آخر ما حمله عليه الهوج، وطلب به استقامة حاله من العوج
أنه أقيم من الدست الذي لم يقدمه أحد إلى صدره، ولا جُزي به بعد طول الحبس على
عاقبة صبره، ثم أخذ وشنق، وكان قد أبرم بيده حبل سعادته فخنق.
قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان له الذكاء الذي لا مزيد عليه، والعلم الذي لا يصل

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٢٣-٧٢٨.

(١) عيون الأنباء ٧٢٢.

(٣) عيون الأنباء ٧٢٣.

سواه إليه، والإنعام العام، والإحسان التام، والهمم العالية، والآلاء المتواليه، قد بلغ من صناعة الطب إلى غاياتها، وانتهى إلى نهايتها، وفاز بمحصلها، وأتقن علم فروعها وأصولها. حتى قلل له المماثل، وقصر عن معانيه كل فاضل. كان أولاً عند الأمجد صاحب بعلبك طبيباً فلما توفي بدمشق، استقل أمين الدولة بالوزارة العمادية، فساس أحسن سياسة، وبلغ في التدبير نهاية الرياسة، وثبت قواعد الملك وأيدها، ورفع مباني الفضل وأيدها، وجدد معالم العلم والعلماء، وأوجد من الفضائل ما لم يكن لأحد من القدماء. ولم يزل عالي القدر نافذ الأمر، مطاع الكلمة، كثير العظمة إلى أن ملك دمشق الملك الصالح أيوب، وجعل نائبه بها ابن شيخ الشيوخ، وأعطى الصالح اسماعيل بعلبك، فانتقل إليها وبقي وزيره بدمشق، وقد جمع له ولصاحبه أموالاً عظيمة جداً أخذها من أهل دمشق بموافقة القاضي الرفيع الجيلي، فاتفق ابن شيخ الشيوخ والصاحب ابن مطروح على مكيدة عملت، وهي أنهما طلبا أمين الدولة فلما أتى قاما له وقالوا: إن أردت الإقامة بدمشق فابق على حالك، وإن أردت أن تلحق صباحك فتقيم عنده فافعل. فقال: لا والله بل ألحق مخدومي وأكون عنده. ثم أنه خرج بجميع أمواله وذخائره وخواصه وجميع ما يملكه / ٢٨٨ / حتى أثاث بيته وحُصر دوره.

فلما صار ظاهر دمشق بما معه قبض عليه، وأخذ جميع ما كان معه قد جمعه واحتيط على أملاكه واعتقل. ثم حمل إلى القاهرة فأودع السجن بقلعة الجبل مع جماعة آخر من الحاشية العمادية، فلما أتى الملك الناصر يوسف بن العزيز من حلب إلى دمشق وملكها، صار معه الصالح اسماعيل وسائر ملوك مولاة الصالح أيوب فلما التقوه كانت الكسرة أولاً على العسكر المصري ثم دارت الدائرة على العسكر الشامي، وقبض الصالح اسماعيل وجماعة من الملوك والأمراء وحبسوا بمصر، ثم أطلق بعضهم، وأما الصالح اسماعيل فكان آخر العهد به.

وحكي أن أمين الدولة لما سمع بما كان من ظهور العسكر الشامي على المصريين على ما كان أولاً، وعد المتحدث في القلعة عند طلوع الملوك بمواعيد أطمعته، فأخرج من كان عنده، وكانوا ثلاثة: أمين الدولة، وناصر الدين بن يغمور، وأمير كردي، فقال الكردي: يا قوم لا تستعجلوا واقعدوا مكانكم، فإن كان الأمر صحيحاً فاستاذنا يخرجنا ويحسن إلينا، وإن كان غير صحيح، ففعودنا أصلح لنا، فلم يلتفت أمين الدولة وابن يغمور إليه، وخرجوا وتأخر هو وقعد الوزير أمين الدولة وابن يغمور في القلعة، وأمروا ونهوا فلما جاءت الأخبار المؤكدة بعكس ما طار إليهم به أول الخبر أمر العز بقتل ابن يغمور، وشنق أمين الدولة، وإطلاق الكردي، فاطلق

الكردي، وقتل ابن يغمور وشنق أمين الدولة.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): وحكى لي من رآه لما شنق وعليه قندورة عتابي خضراء وفي رجله سرموزة. قال: ومن العجائب أن أمين الدولة لما حبس أرسل إلى منجم بمصر كانت له إصابات لا تخرم، وسأله عما كان وما يكون من حاله، فأخذ طالع الوقت ورسمه ثم قال: يخلص هذا من الحبس، ويخرج منه فرحاً مسروراً، ويبقى له أمر مطاع يمثل فيه أمره ونهيه، ففرح./ ٢٨٩/ فلما جاءه ذلك الخبر ظن أن يبقى وزيراً بمصر، فتم له ما ذكره المنجم في يوم خروجه، ثم لم يعلم ما يجري له بعده. وكان ذلك في الكتاب مسطوراً^(٢).

ومنهم:

[٨٩]

المُهَذَّبُ الدَّخْوَارُ، أَبُو مُحَمَّدٍ، عَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَامِدٍ^(٣)

طبيب نهض به طيب العناصر، ونهى عمله أن تعقد على غيره الخناصر، كان في

(١) عيون الأنباء ٧٢٤-٧٢٨.

(٢) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٢٣-٧٢٥.

(٣) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد، المعروف بالدَّخْوَار: طبيب، انتهت إليه رئاسة صنعة في عصره، ولد سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م في دمشق ونشأ بها، واتصل بالملك العادل (أبي بكر ابن أيوب) سنة ٦٠٤هـ، فارتفعت منزلته عنده حتى جعله في جلسائه وأصحاب مشورته، وأغدق عليه إنعامه. ولما توفي العادل (سنة ٦١٥هـ) وولي الملك المعظم بالشام، ولاه النظر في البيمارستان (المستشفى) الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي، فأقام يصنف كتبه ويعلم الناس الطب إلى أن ملك دمشق الملك الأشرف (سنة ٦٢٦هـ) فولاه رئاسة الطب، فظل على ذلك إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ووقف داره «مدرسة الأطباء» وهي بنواحي الصاغة العتيقة، من كتبه «الجينية» في الطب، و«شرح مقدمة المعرفة - خ» في الطب، و«مختصر الأغاني، للأصفهاني» في الأدب، و«مختصر الحاوي، للرازي» في الطب. وله رسائل وتعليقات كثيرة.

ترجمته في: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٦٧٢، وذيل الروضتين ١٥٩-١٦٠، و«عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة» ٧٢٨-٧٣٦، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٦٨، والعبر ٥/ ١١١-١١٢، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣١٦-٣١٧ رقم ١٩٣، وفوات الوفيات ٢/ ٣١٥، ٣١٨، والوفاء بالوفيات ١٨/ ٣٨٣-٣٨٦ رقم ٣٩٦، والبداية والنهاية ١٣/ ١٣٠، و«مرآة الجنان» ٤/ ٦٥-٦٦، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٣٠، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٧، وكشف الظنون ١٤١٠، وشذرات الذهب ٥/ ١٢٧-١٢٨، وهدية العارفين ١/ ٥٦٠، والقلائد الجوهريّة لابن طولون ٢٣١، وديوان الإسلام ٢/ ٢٦٤-٢٦٥ رقم ٩١٤، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٠٩، والأعلام ٣/ ٣٤٧، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٢١-٦٣٠هـ) ص ٣١٧ رقم ٤٦٦.

الحكماء علماء، وفي إثبات الحكم قلماً عزَّ وجوده، وقلماً فاض إناءه، وآض اجتناؤه، وكان لفروع الطب شجرةً يكاد زيتها يُضيء، ويقال في ظلِّها وفيء، كأنما جالس رسطاطليس، وجال مع تلك الجماعة في تقرير تلك النواميس، ولهذا اشتهر، وملاً العيون وبهر، وكان ممن يستصح برأيه، ويستصبح بذكائه، هذا إلى خطِّ أوتيه، وحظِّ كان يواتيه.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): إليه انتهت رياسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي، ولم يكن في اجتهاده من يجاريه، ولا في علمه من يماثله، أتعب نفسه في الاشتغال، وكدَّ خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه وحظي عند الملوك، ونال من جتهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء. وكان في مبدأ أمره كحالاً وكذلك كان أخوه حامد بن علي، وكان الدخوار يكتب خطأ منسوباً ونسخ الكثير، وقرأ النحو على الكندي، والطب على الرضي الرحبي ثم لازم الموفق بن المطران، ثم أخذ عن الفخر المارديني لما قدم دمشق، وخدم الملك العادل بن أيوب، ثم لم تزل تسمو منزلته عنده حتى صار جليسه وصاحب مشورته، وظهرت له منه نواذر في تقدم المعرفة منها: أن العادل عرض له مرض وأشار الدخوار عليه بالفصد، فلم يوافق بقية الأطباء على ذلك، فقال لهم: والله إن لم يخرج دماً، وإلا خرج الدم من غير اختياره. فما مضى أيسر وقته حتى طفر الدم من أنفه ورعف رعاً كثيراً وصلح، فعلم أنه ليس في الكل مثله.

ومنه أنه كان يوماً على باب دار السلطان ومعه جماعة من الأطباء إذ خرج خادم ومعه قارورة جارية يستوصف لها لشيء شكت منه، فلما رأوها وصفوا لها ما حضرهم، / ٢٩٠ / فقال الدخوار: إن هذا الذي شكت منه ما يوجب صبغ الماء هكذا. يوشك أنه من حناء اختضبت به، فقال له الخادم: نعم تخضبت بحناء، فأخبر العادل بذلك، فتزايد حسن اعتقاده فيه.

ومن أحسن ما يؤثر عنه أن الملك العادل كان قد غضب على قاضي القضاة محيي الدين ابن الزكي لأمر نقمه عليه، وأمر باعتقاله بقلعة دمشق إلى أن يزن عشرة آلاف دينار مصرية وشدد عليه، فأقام في السجن والمطالبة، ووزن البعض وعجز عن البقية. وقال السلطان: إن لم يزن بقية المال وإلا عذبت. فتحير القاضي وباع جميع موجوده وأثاث بيته حتى الكتب التي له، وتوسل إلى السلطان بكثير من الأمراء والخواص في المسامحة، أو التقيط عليه فلم يقبل، فأتى الدخوار إليه ليتفقده لمودة

قديمة بينهما فشكا إليه حاله وما قد تم عليه، فوعده بالمساعدة بحسب الطاقة، ثم قام فدخل على أم الصالح اسماعيل بن العادل، وكانت ممرضة، فلما دخل عليها عرفها بحديث القاضي، وأنه مظلوم وسألها في أمره، فقالت: كيف أحدث السلطان في أمر من لا أعرفه، ولو كان طبيباً يدخل علينا أو تاجراً نعامله، لأمكن الكلام فيه، فقال لها: فثم طريق آخر يحصل به القصد، قالت: وما هو، قال: في وقت يكون السلطان نائماً عندك تظهرين أنك رأيت مناماً يقتضي أن القاضي مظلوم، وعرفها ما تقول، فقالت: هذا يمكن، فلما عوفيت أتاها الملك العادل، فنام عندها وهي إلى جانبه، فلما كان آخر الليل انتبهت، وأظهرت أنها مرعوبة، وأمسكت فؤادها، وبقيت ترتعد وتبكي فانتبه السلطان وقال لها: ما لك، وكان يحبها حباً كثيراً، ثم جعل يرش عليها من ماء الورد وقال لها: ما الذي بك؟ فقالت: رأيت مناماً عظيماً هالني وكدت أموت منه وهو أنني رأيت كأن القيامة قد قامت في بهو عظيم وبه خلق عظيم ونيران كثيرة تشعل وناس يقولون هذه للملك العادل؛ لكونه ظلم القاضي، ثم قالت قد فعلت بقاض شيئاً فما شك في قولها وانزعج / ٢٩١ / ثم قام لوقته وطلب الخدام، وقال: امضوا إلى القاضي وطيبوا قلبه وسلموا عليه عني وقولوا له يجعلني في حل مما تم له، وأن جميع ما وزنه يعود إليه، وما أطلبه بشيء، ثم لما أصبح أمر له بخلعة كاملة وبغلة، وإعادته إلى رتبته، وأعاد إليه جميع ما وزنه، واسترد له ما باعه.

وقال: مرض العادل بالشرق مرضاً صعباً، وولي علاجه الدخوار إلى أن برىء فلما عوفي حصل له نحو سبعة آلاف دينار، وبعث له أولاد العادل وسائر ملوك الشرق وأكابر الأمراء الخلع والبغال بأطواق الذهب وغير ذلك.

ومرض الكامل، فعالجه فلما برىء حصل له نحو اثني عشر ألف دينار وأربع عشرة بغلة بأطواق الذهب، وخلع كثيرة من الأطلس وغيره، وولي ذلك الوقت رئاسة الأطباء. وخدم مرة الأشرف، وأعطاه إقطاعاً جليلاً، ووقف داره بدمشق بالمناخليين مدرسة على الطب، ووقف عليها عقارات له^(١).

ومنهم:

[٩٠]

الرشيدي، علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة

الأنصاري الخزرجي، من ولد سعد بن عبادة رضي الله عنه^(٢)

طبيب لو شكأ إليه البرق اختلاف نبضه لأبراه، أو حاول منه الرعد ما في صحف

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٧٢٨-٧٣١.

(٢) علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري أبو الحسن، رشيد الدين، من آل أبي أصيبعة: =

النهر لأقراه، من أسرة سارت بهم الأمثال، وسُراة أسفاً على عقدهم كيف انثال، أراق الكرى عن كؤوس أجفانه، وجعل طوارق الشهاد من ضيفانه. همّه يقط، وعزمه محتفظ. حَلَّ بها أجلّ الرتب، وجلا بها عن الجسوم الرّيب، وكان لا يفقد السبات، ولا يخرج إلى حدّ الأعنات لعلاج به بالملائم، واحتجاجة بما يكفي الملاوم. هذا إلى تفنن في علومٍ آخر، وفضائل كأنها البحر إذا زخر، ومحاسن لو أراد بها لفخر.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): إنه عمه، وإنه ولد بحلب سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

وقال: إن جده المعروف بابن أبي أصيبعة كان قد توجه إلى مصر إذا استقلت بها الدولة الصلاحية وإن الشهاب يوسف الكحال، وابن أبي الحوافر كانا / ٢٩٢ / أصدقائه فلما أتيا مصر أشارا عليه بأشغال ولديه في الطب يعني المؤرخ عمه هذا وأباه، فأمرهما بملازمة ذينك الرجلين، وإن أباه أكثر الأخذ عن الشهاب يوسف، ثم قرأ على الرئيس موسى وأهل طبقتة، وإن همه كان أول اشتغاله على أبي التقي صالح بن أحمد المقدسي، ثم لازم ابن أبي الحوافر، وكان إذ ذاك رئيس الأطباء في أيام العزيز، ثم باشر المرضى بالمارستان، ثم أخذ صناعة الكحل عن النفيس بن الزبير، وقرأ على عبد اللطيف البغدادى وكان يشتغل بالسديد المنطقي، واشتغل بعلم النجوم، وأخذ الموسيقى عن ابن الدعو المصري، وعلى ابن التبان، ثم اجتمع بأعيان المصنفين فيه، ثم لما عاد أبوه إلى الشام، انتقل معه، واجتمع بمن به من المتعنين، وياشر المارستان النوري، ثم خدم الأُمجد صاحب بعلبك، ثم خدم العادل، ثم المعظم ثم الناصر ابنه، وتوفي في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة باب الفرائيس.

ومن كلامه قوله: ما أحسن الصبر لولا أن النفقة عليه من العمر.

طبيب، موسيقي عارف بالأدب. وهو عم ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ولد بحلب سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م وانتقل إلى القاهرة، ثم سكن دمشق. واستدعاه الملك الأُمجد (صاحب بعلبك) فأطلق له جراية وراتباً. وتوفي بدمشق سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م. من كتبه «الموجز المفيد» في علم الحساب، و«كتاب المساحة» و«طب السوق» ورسالة في «النض وموازنته للحركات الموسيقية».

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٣٦-٧٥٠، الوافي بالوفيات ٢١/ ٨٢-٨١ رقم ٤٥، كشف الظنون ٢/ ١٨٩٩، إيضاح المكنون ٢/ ٢٦٧، ٣١١، ٣٣١، روضات الجنات ٤٨٧، الجامع لبامطرف ٣/ ٧٤، الأعلام ٤/ ٢٨٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦١١-٦٢٠هـ) ص ٣٠٦ رقم ٣٩٠.

(١) عيون الأنباء ٧٣٦.

وقوله: الأصدقاء كنفس واحدة في أجساد متفرقة.
 وقوله: المال مغناطيس أنفس الجهلاء، والعلم مغناطيس أنفس العقلاء.
 وقوله: القانع مساعد على بلوغ مآربه.
 ومن شعره قوله^(١): [من الكامل]

يا صاحبي سلا الهوى وذارني كُفّا الملام عن المحبّ العاني
 لا تسأله عن الفراق وطعمه إنّ الفراق هو الممات الثاني
 نادى الحداة دنا الرحيل فودّعوا ففجعت في قلبي وفي خلّاني
 ويكيّت وجداً بعد ذاك فلم يفد أنى وقد صار اللقاء أمانى
 وقوله^(٢): [من الكامل]

أرايتما يا صاحبي فتى له ذلّ الأسود تذلّه الغزلان
 ما كنت ممن يسترق فؤاده عشق ولكنّ الهوى سلطان
 ٣٩٣/ ومنهم:

[٩١]

ابن قاضي بعلبك، المظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم^(٣)

الحكيم الفاضل، الملاطف بدر الدين أبو التأييد، فاق في علم وقراءة، وفهم

(٢) عيون الأنباء ٧٤٨.

(١) عيون الأنباء ٧٤٦.

(٣) ابن قاضي بعلبك، مظفر بن عبد الرحمن (مجد الدين) ابن إبراهيم البعلبكي، بدر الدين: طبيب. كان أبوه قاضياً ببعلبك، فنسب إليها، نشأ وتعلم بدمشق، وخدم في بيمارستان الرقة، ثم عاد إلى دمشق، فولاه الملك الجواد (يونس بن ممدود) رئاسة جميع الأطباء والكحالين والجراحين سنة ٦٣٧هـ، وتجدد التقليد له برياسة جميع الأطباء سنة ٦٤٥هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م له كتب، منها «مفرح النفس» اطلع عليه الغزولي صاحب مطالع البدور ونقل عنه بضعة أدوية مركبة من المفرحات والمقويات، و«الملح في الطب» ذكر فيه فوائد من كتب جاليوس وغيره، و«مزاج الرقة» رسالة و«شرح تذكرة المعرفة لأبقراط - خ» في مكتبة قاسم الرجب، ببغداد، لعله «شرح مقدمة المعرفة» لأبقراط، في مكتبة الرياض (الرقم ١٩٤٩).

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٥١-٧٥٥، ومطالع البدور ١/١٧٣، ووقعت وفاته فيه سنة ٩٧٥ خطأ من النسخ أو الطبع، لأن مؤلفه توفي سنة ٨١٥ وقال صاحب كشف الظنون في آخر كلامه على مفرح النفس، توفي البعلبكي بعد سنة ٦٥٠، يقول الزركلي: ولم يذكر ابن أبي أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨) وفاته، وهو معاصر له، فرجحت أن يكون صاحب المطالع أرخ وفاته سنة ٦٧٥ وجامعة الرياض ٤٢/٦، الأعلام ٢٥٦/٧.

تقدم به والناس وراءه، قدمه فضله واستحقاقه، ونبله الذي ضرب على رُبى المجرة رواقه ولحق في أوانه بجلة الرؤساء، وحلّ من أئمة زمانه محلّة الجلساء، وسبق أهل جيله حيث لا يلحقه إحضار، وخلق مع أبناء جنسه إلّا أن طينته جبلت من معدن النضار، ولم يعالج عليّاً، ثم أصبح ببقائه ليس ينتفع ولا دافع مطل إلّا ثم أضحى بملاطفته لا ينتفع.

وكان لا يطبب إلّا بالأهون على العليل، والأحب إليه وإن كان النفع به من القليل على أنه البحر الذي لا يشق له عُباب، والوقوف عليه إذا لم يوجد باب، وألقيت عليه من الله محبة لم يره إلّا من شغف بحبه، وشغل بطبّه، وفضله على كل نكرة ومعروف، وكل ذي طب يُسرّح نظراً باحسان، ويمسك يداً بمعروف، ولم ألحق أحداً من الكبراء وأهل العلم إلّا من كان يحسن عليه الثناء، ويجلو بأوصافه الحسنة.

قال لي عمي صاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله: هو آخر الأطباء الذين رأتهم عيني.

وسألت عنه شيخنا شهاب الدين أبا الثناء الحلبي، فقال: كان يقال هو جالينوس وقته. ثم أخذ في وصفه وذكر ما كان عليه من حسن الملاطفة وإحسان العلاج.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان أبوه مجد الدين قاضياً ببلعبك، ونشأ هو بدمشق، واشتغل بها في الطب على المذهب عبد الرحيم بن علي، وجمع له العلم الغزير والذكاء المفرط والمروءة التامة، وكانت له همة عالية الأشغال، ونفس جامعة لمحاسن الخلال، وكان لا يخلو له وقت من التزيد في العلم والعناية بالمطالعة والفهم. وكان قد توجه صحبة المذهب لما طلبه الملك الأشرف، وخدم بالمارستان بالرقّة، وصنف مقالة حسنة في الرقة واشتغل بها في المحكمة على الزين الأعمى، وكان إماماً في العلوم الحكمية، ثم عاد ابن قاضي بلعبك إلى دمشق فلما طلبها الجاد يونس حظي / ٢٩٤ / عنده، وتمكن في دولته، واعتمد عليه في صناعته، وولاه الرياسة على الأطباء والكحالين والجراحية، وكتب له توقيعاً بذلك فجدد من محاسن الطب ما درس وأعاد من الفضائل ما دثر، ولم يزل مجتهداً حتى اشترى أدرأ كثيرة جوار المارستان النوري وهدمها وبنّاها وأضافها إليه، ثم خدم الصالح أيوب وأرصده لمعالجه الحرّم وجدد له توقيعاً بالرياسة على أطباء الشام، ثم خدم من بعده من الملوك، ولم يغير عليه عادة مستمرة له، ثم تجرد لعلم الفقه، وسكن بيتاً بمدرسة ابن قليج، وكانت جوار داره،

وتصدي لحفظ القرآن الكريم ومعرفة القراءات والتفسير وقراءة الفقه وفنون الأدب، ولازم أبا شامة، ودأب في العبادة والدين.

قلت: قال لي والدي رحمه الله: كان ابن قاضي بعلبك مختصاً بصحبتنا وكان يعود من مرض منا، ويتولى معالجته، وكان لا يرى التعمق في الوصف، ولا المداواة بالكريه، ويقول: ما ينتفع المريض بالكريه بقدر ما ينفر به لكراهيته له، ويقول: ما لم يكن من المريض إقبال على الدواء لا تقبله أعضاؤه، ويقول: ربما صار الدرياق سُمّاً والدواء داءً بإفراط كراهية المريض.

قال والدي رحمه الله، وقد ذكره يوماً: رحم الله ابن قاضي بعلبك لم يكن في زمانه مثله في حسن شكله وسمته، وحسن حديثه، وصحة صحبته، ولطف علاجه، وتبرك الأعلّاء بمقدمه لرفقه بهم، وعدم إكراهه لهم على الكريه.

وقال: دخل علينا يوماً ونحن نأكل طعاماً فيه باذنجان قد قلبي بدهن الألية، فقعد فأكل، وكان أكثر أكله منه، فقلت له: يا حكيم الباذنجان مُولد للأخلاق السوداء كما يقال، فقال: ذلك الباذنجان الأسود، الشديد الحرافة، فأما هذا الأبيض باذنجان دمشق المقلو بدهن الألية، فلو رآه جالينوس لجعله دواء للسوداء. ومنهم:

[٩٢]

العماد الدُّنيسَري، محمد بن العباس بن أحمد بن عُبَيْد الربيعي

/٢٩٥، أبو عبد الله^(١)

رجل يرجع إلى كرم خَيْم، وينفع فيه كثرة تفخيم، تفنن في فصائل، وتيقن أن كل

(١) محمد بن عباس بن أحمد بن عبيد الربيعي الدنيسري، عماد الدين: طبيب أديب. من أهل دنيسر (في الجزيرة قرب مارددين) ولد بها سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، وتنقل بين الشام ومصر ثم سكن دمشق، وخدم في البيمارستان الكبير. وتوفي بها سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م. من كتبه «المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة» و«نظم مقدمة المعرفة» لبقرات، و«نظم الترياق الفاروقي» وكتاب في «المشرويطوس» Mithridatum وهو ترياق منسوب إلى الملك Mithridate كان معمولاً به قبل اختراع الترياق الفاروقي. وكان له علم بالأدب وشعر جيد في «ديوان».

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦١-٧٦٧، فوات الوفيات ٣/٣٩٢، ذيل مرآة الزمان ٤/٣٢٨-٣٢٩، والمقتفي للبرزالي ١/ورقة ١٣٢ب-١٣٣أ، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٣٣٣، والإشارة إلى وفيات الأعيان ٣٧٦، والمستدرك على العبر ٧، والبداية والنهاية ١٣/٣١٠، ودرة الأسلاك ١/ورقة ١١١، وتذكرة النبيه ١/١١٢، والوافي بالوفيات ٣/٢٠٠ رقم ١١٧٨، وعيون التواريخ =

عظيم عنده متضائل، بعزم أطلَّ على النجوم في آفاقها، وعلم استخدام السعود بأوقاتها، ولطف ذات، وظرف أدوات، وكمال محاسن بجدّه بلغها، وأخذَ مع توسع حظه بُلغها، وقد كان للزمان روحاً، وإلى الغايات طموحاً، وكانت به الأيام سوافر ومنه حظٌ للناس وافر، إلى أن عشتت المنايا في هامته، وصرعته من قامته، ووسدته التراب وأفسدته على الأتراب، وخرس منه لسان كان يجادل، وسكن منه متحرك تحت حصي وجنادل.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(١) ولقب أباه بالقاضي الخطيب تقي الدين. وقال في عماد الدين: هو ذو الأريحية التامة، والعوارف العامة، مولده دنيسر سنة خمس وستمئة. ونشأ بها واشتغل بالطب إشغالاً برع به. قال: واجتمعت به، فوجدت له نفساً حاتمية، وشنشة أخزمية، وخلقاً ألطف من النسيم، ولفظاً أحلى من مزاج التسليم. وأسمعني من شعره البديع معناه، البعيد مرماء، وهو في علم الطب قد تميز على الأوائل والأواخر، وفي الأدب قد عجز كل ناظم وناثر.

وكان قد سافر من دنيسر إلى مصر ثم رجع إلى الشام وأقام بدمشق، وخدم الأدر الناصرية اليوسفية بقلعة دمشق. والمارستان النوري.

ومن شعره قوله^(٢): [من الطويل]

نَعَمْ فليَقُلْ مَنْ شَاءَ عَنِّي فَإِنِّي كَلِفْتُ بِذَاكَ الْخَالَ وَالْمُقْلَةَ الْكَحْلَا
فَلَا تَعْدِلُونِي فِي هَوَاهُ فَإِنِّي حَلَفْتُ بِذَاكَ الْوَجْهِ لَا أَسْمَعُ الْعَدْلَا
وقوله^(٣): [من السريع]

عِذَارُكَ الْمُخَضَّرُ يَا مُنِيتِي لَمَّا بَدَا فِي الْحَدِّ ثَمَّ اسْتِدَارُ
فَكَانَ فِي ذَاكَ لَنَا آيَةٌ إِذْ جُمِعَ اللَّيْلُ مَعًا وَالنَّهَارُ
وقوله^(٤): [من الطويل]

٢٩٦/ حَلَفْتُ لَهُ لَا حُلْتُ عَنْ وَلَهِي بِهِ وقلبي على ما قد حَلَفْتُ لَهُ حَلَفُ

^١ ٣٩٧/٢-٤٠١، وفوات الوفيات ٢٩٢/٣، وعقد الجمان (٢) ٣٦٥، والسلوك ج ١ ق ٣/٧٣٩، والنجوم الزاهرة ٣٧٣/٧، وشذرات الذهب ٣٩٧/٥، وكشف الظنون ١٧٨٤، وإيضاح المكنون ٣٢٨/٢، والدارس ١٣٣-١٣٤، وهدية العارفين ١٣٦/٢، والأعلام ١٨٣/٦، ومعجم المؤلفين ١١٩/١٠، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١-٦٩٠هـ) ص ٢٨٠ رقم ٤١١.

دُنَيْسِر: بضم أوله. بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردین. (معجم البلدان ٢/٤٧٨).

(١) عيون الأنباء ٧٦١.

(٢) عيون الأنباء ٧٦١.

(٣) عيون الأنباء ٧٦١-٧٦٢.

(٤) عيون الأنباء ٧٦٣.

إذا باعني منه الوصالُ بمهْجَتِي شَرِيتُ وها قلبي أقدَّمهُ سَلَفُ
وقوله^(١): [من الكامل]

وحياةٍ ناظرِهِ وعاملٍ قَدَّهُ رُوحِي بعارضٍ خَدَّهُ مُتَمَلِّمِلَهُ
هَبْ أَنَّنِي مُتَجَنِّنٌ فِي حُبِّهِ فَعِذارُهُ فِي خَدِّهِ مِنْ سِلْسِلَتِهِ
وقوله^(٢): [من المتقارب]

إذا رَفَعَ العُودُ تكبِيرَهُ ونادى على الراحِ نَادي الفَرَحِ
رَأَيْتُ سُجُودِي لَهَا واجِباً ولكنَّ عَقِيبَ رُكُوعِ القَدَحِ
ومنهم:

[٩٣]

العزَّ السُّوَيْدِي، إبراهيم بن محمد الأنصاري الأوسي^(٣) من ولد

سعد بن معاذ رضي الله عنه، عز الدين، أبو اسحاق

طبيب تؤخذ عنه الصناعة، وإمامٌ يقدم على الجماعة، بَزَّ النظراء وشآها، وأبعد
القرناء وأناها، وتقدم في عصره تقدم استحقاق، وعرف علم الطب والطبيعة وما ناسبه
معهما، ولم يكن مثله في علا، ولا شبهه فيمن خلا، فشفيت به الأجساد، وأمنت مما

(٢) عيون الأنباء ٧٦٤.

(١) عيون الأنباء ٧٦٣.

(٣) العزَّ السُّوَيْدِي، إبراهيم بن محمد بن علي بن طَرْخان الأنصاري الدمشقي، أبو إسحاق، عز
الدين، من ولد سعد بن معاذ، من الأوس: طبيب دمشق، اشتغل بالعقليات. له «التذكرة الهادية -
خ» طب، في شستريتي (٤١٩٣) و«قلائد المرجان في طب الأبدان - خ» في استمبول، و«الباهر
في خواص الجواهر» لعله «خواص الأحجار من اليواقيت والجواهر - خ» في دار الكتب
المصرية، أو هو كتاب آخر له. نصب طبيباً في البيمارستان النوري وبيمارستان باب البريد
(وكلاهما في دمشق) ونسبته إلى السويدياء (في حوران) وكان أبوه من تجارها.

كانت ولادته سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م، ووفاته سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٥٩-٧٦١، المقتفي للبرزالي ١/ ورقة ١٧٧ب، وتالي كتاب وفیات
الأعيان ٤٤ رقم ٦٦، وتاريخ حوادث الزمان ١/ ٦٣-٦٤ رقم ٢٧، والعبر ٥/ ٣٦٦، والإعلام
بوفیات الأعلام ٢٨٨، ومرة الجنان ٤/ ٢١٦، والبدية والنهاية ١٣/ ٣٢٥، وتذكرة النبيه ١/ ١٤٦،
ودرة الأسلاك ١/ ورقة ١٠٩، و«عيون التواريخ ٢٣/ ٨٨-٩٠، وفوات الوفيات ١/ ٤٨ رقم ١٧،
والوفاي بالفوات ٦/ ١٢٣-١٢٥ رقم ٢٥٥٨، وتاريخ ابن الفرات ٨/ ١٣١-١٣٢، والمقفى الكبير
١/ ٣٠١-٣٠٣ رقم ٣٥٨، والسلوك ج ١ ق ٣/ ٧٧٧ وفيه: «إبراهيم بن نجم بن طرخان»، والبدية
والنهاية ١٣/ ٣٢٥، وعقد الجمان ٣/ ٩٣-٩٤، والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٨، والمنهل الصافي ١/
١٢٤-١٢٧ رقم ٦٦، وشذرات الذهب ٥/ ٤١١، والدارس ٤/ ١٣٠، وديوان الإسلام ٣/ ٢٤٨ رقم

يعرض للكون من الفساد، ورأيت من خطه ما كأنه ريش الطاووس، أو عذار الغلام وسالفة العروس، ولا يقاس به خطُ قابوس، ولا على صحائف النهر أشعة الشمس.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): مولده سنة ستمائة بدمشق ونشأ بها، وهو علامة أوانه وأوحد زمانه، مجموع الفضائل، كريم الأبوة، غزير الفتوة، وافر السخاء، حافظ الإخاء. اشتغل بالطب حتى أتقنه، ولم يصل أحد من أربابه إلى ما وصل إليه، أخذ عن أكابر الحكماء كالمهذب عبد الرحيم وغيره، وقرأ في علم الأدب، وهو أسرع الناس بديهة. وكان أبوه تاجراً من السويداء بحوران، حسن الأخلاق، طيب الأعراق.

قال الحكيم عز الدين: هو أجل الأطباء قدراً، وأفضلهم ذكراً، وأعرف / ٢٩٧ / مداواة، وأفضل مداراة، وأنجح علاجاً، وأوضح منهاجاً، ودرّس بالدخارية، وخدم السلطان والمارستان، وكتب خطأ منسوباً طريقة ابن البواب، وخطاً يشبه مولد الكوفي، وكل خط أحسن من الرياض المؤتقة، وأنور من الشمس المشرقة.

ومن شعر قوله: [من السريع]

وناسك باطنه فاتك يا ويح من يصغي إلى مئنه
منزله أخرج من صدره وخلقه أضيئ من عينه
وتوفي بدمشق.. ودفن جوار الشبلية بالسهم الأعلى بترية أعدها لنفسه.
ومنهم:

[٩٤]

الموفق السامري، وهو يوسف بن يعقوب بن غنيم^(٢)

بحر طب لم يبق إلا من ملأ من قلبه، ولم يبعد يداً من قربه. وأتته الطلبة حتى ملأ كل سقاءه، وأمل بقاءه، وكان لا يعدم مُتتَاباً، ولا يدعُ مرتاباً، ولا يسمح أن يكون أحدٌ عنده مغتَاباً، فسعد بمحضره جلساؤه، ووضح الصباح وجلاؤه، وكان في مثل هذا موقفاً، وفي ثقل الطب موثقاً.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٣): رئيس زمانه وعلامة أوانه، مولده ومنشؤه بدمشق.

١٣٨٥، وكشف الظنون ٢١٩ و٣٨٦ وغيرها، وهدية العارفين ١/ ١٢، ومعجم المؤلفين ١/ ٩٧،

والأعلام ١/ ٦٣، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٨١-٦٩٠ هـ) ص ٣٩٧ رقم ٦٠٩.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦٧.

(١) عيون الأنباء ٧٥٩.

(٣) عيون الأنباء ٧٦٧.

بارع في الصناعة الطبية، جامع لعلوم الحكمة. قد أتقن صناعة الطب علماً وعملاً، واحتوى معرفتها تفصيلاً وجماً، وكان محمود المداواة، مشكور المداواة، متعيناً عند الأعيان، متميزاً في كل مكان، مريداً في اجتلاب الصحة وحفظها على الأبدان، واشتغل عليه جماعة من المتطببين، وانتفعوا بفضل المبين، وله التصنيف الصحيحة العبارة، الفصيحة الإشارة، قوية المباني، بليغة المعاني، وعددها.

ومنهم:

[٩٥]

أبو الفرج، يعقوب بن إسحاق بن القف النصراني^(١)

بيعة قوم توقد نبراسها، ودوحة علم مثمرة غفل حراسها، فاق طب له بالأبدان / ٢٩٨ / امتزاج، ويدان في تعديل كل مزاج، فطيب كل داء، ولاطف لطف الأدوية، وكان ذا فهم كأنما كشفت له السجف، وعلم هو البئر الذي لا ينزح، وأبوه القف ولم يزل على وثبات تقدمه، وثبات قدمه، حتى قيدت الحتوف خطاه، وأثقلت المنون مطاه فما استقلت له قدم، ولا شيع للموت به قرم.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال^(٢): مولده بالكرك لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاثين

(١) يعقوب بن إسحاق، أبو الفرج، أمين الدولة الكركي ابن القُفّ: عالم بالطب والجراحة. من نصارى «الكرك» مالكي المذهب، ولد سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م استقر في دمشق، فقرأ على ابن أبي أصيبعة (صاحب الطبقات) الكتب المتداولة في صناعة الطب والعلاج، كمسائل حنين، والفصول لأبقراط، وكتب أبي بكر الرازي. وقرأ الفلسفة والحكمة على عبد الحميد الخسروشاهي وغيره. وخدم بصناعة الطب في عجلون، فأقام بها عدة سنين. وعاد إلى دمشق يعالج المرضى، في قلعتها. وتوفي بها سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م. له تصنيف، منها «عمدة الإصلاح في صناعة الجراح - ط» ثلاثة أجزاء في مجلد ضخم، يقال له «العمدة في الجراحة» وله «الأصول في شرح الفصول لأبقراط - خ» جزآن، في يكي جامع (٩١٩ - ف ٨٢٧) اختصره بشارة زلزل في رسالة سماها «ملخص شرح ابن القف على فصول أبقراط - ط» وله «الشافي في الطب - خ» في الفاتيكان، و«شرح الكليات من قانون ابن سينا» ست مجلدات، و«مقالة في حفظ الصحة» و«جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض - خ» في الرباط (٥٧٨٣د).

ترجمته في: عيون الأنباء ٧٦٧-٧٦٨، وذيل مرآة الزمان ٣١٤/٤، وطوبقو ٨٤٣/٣، وفهرس المخطوطات المصورة (الطب ١٦) والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية ١٣، ٢٣١، وتذكرة النواذر ١٨٨، ومعجم المطبوعات ٢١٧، ومن كتاب «الأصول» عدة مخطوطات، إحداها في مكتبة الجامعة الأميركية ببيروت (رقم ٣٨) ناقصة الآخر، وأخرى لدى سامي الخانجي الكتبي بالقاهرة نسخة تامة في مجلد ضخم جداً كتبت سنة ٧٩٦، الأعلام ١٩٦/٨.

(٢) عيون الأنباء ٧٦٧-٧٦٨.

وستمائه، وكان أبوه الموفق يعقوب صديقاً لي مستمراً على أكيد مودته حافظاً لها طول أيامه ودهره، تستحلي نفائس مجالسته وتستحلي عرائس مؤانسته. ألمعي أوانه، وأصمعي زمانه، مجيداً في حفظ الأشعار، علامة في نقل التواريخ والأخبار، متقدماً في علم العربية، فاضلاً في الفنون الأدبية، استمل في الكتابة على أصولها وفروعها، وبلغ الغاية من بعيدها وبديعها، وله الخط المنسوب الذي هو نزهة الأبصار، والعناية التي لا تلحق في جميع الأقطار والأمصار. وكان في أيام ابن العزيز كاتباً بصرخد والنجاة تلوح على ولده أبي الفرج من صغره كما تحقق منه في كبره. وافر الذكاء، محباً للعلماء، فسألني أبوه في تعليمه، فقرأ علي ما عرف به أقسام الأسقام وحسم العلل، ثم انتقل أبوه إلى دمشق، وخدم بها، وسافر معه ولده ولقي العلماء ولازم الفضلاء، وقرأ الحكمة على الخسروشاهي والغنوي الضرير، وقرأ الطب على ابن المنفاخ، والموفق السامري، وقرأ أوقليدس على المؤيدي العرضي وفهمه فهماً فتح به مقل أفعاله، وحل به مشكل أشكاله، ثم خدم بقلعة عجلون ثم عاد إلى دمشق، وخدم السلطان بها.

وذكر الجزري في تاريخه قال: سألت أبا الفرج ابن القف عن مرض قاضي القضاة عز الدين بن الصايغ فقال: يموت بعد مدة عينها، وعن نفسه أنه يموت بعده بمدة عينها، فقلت له: ايش سبب ذلك؟ فقال: القاضي كُذِبَ عليه، فحصل له مراقيا سوداوية / ٢٩٩ / غارت إلى قلبه، فتقتله سريعاً غير أنني أشرب الخمر، فأظهره الشراب إلى ظاهري، فأورثني الصفرة في جميع البدن، فأنا أبقى مدة عينها. فاعتبرت قوله فكان كما قال. وقلت له: أنت من كبار الفضلاء ولك تصانيف في الطب، ما تدفع عنك، فقال: علّة الموت ما لها دواء. وكان يتحسر على نفسه.

قلت: وأنشدني القاسم بن المظفر محمود بن عساكر لنفسه أجازة في مرض الحكيم ابن القف المذكور: [من الخفيف]

قِيلَ إِنَّ ابْنَ الْقَفِّ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ
مَا نَرَى طِبَّهٗ أَفَادَ وَلَا رَ
قَلْتُ كَفُّوا أَمَّا سَمِعْتُمْ بِمَا قِي
لَوْ نَجَّا الطَّبَّ فَاضْلاً كَانَ بُقْرَا
إِنَّمَا غَايَةُ الطَّبِيبِ مَعَ الْعِلِّ
وَاللَّيَالِي لَهَا سُعُودٌ يُعْفَى
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ رَسِيسٍ
دَّ الرَّدَى عَنْهُ قَوْلُ جَالِينُوسٍ
لَ وَسَارَتْ بِهِ حُدَاةُ الْعِيْسِ
طَ وَلَمْ يَعْبَثِ الرَّدَى بِالرَّئِيسِ
ةَ تَخْفِيفُ ضَرْهَا الْمَحْسُوسِ
بَعْدَ خُبْرٍ أَوْ عَاجِلاً بِالنُّحُوسِ

قال ابن الجزري: توفي أبو الفرج ابن القف في سنة خمس وثمانين وستمائة^(١).

ومنهم:

[٩٦]

المهذب، يوسف كاتب الزردكاش^(١)

والناس فيه وفي النفيس على خلاف، وكل واحد منهما فريقٌ يتعصب له، ويقطع بتفضيله، والإنصاف أن النفيس كان أقعد بالعمليات، والمهذب كان أقعد بالعلميات؛ لكونه يشغله خدمة الأمراء عن المباشرة، وكان رأس أهل زمانه في التعليم، والتقريب إلى الإفهام، وكان جامعاً للطب، بارعاً في فنونه، مفترعاً لأبكاره وعُونه، وكان يربأ بنفسه عن التمحض للاسترزاق بالطب، وكانت له بلالة من الرزق تعله، وقليل من متاع الدنيا يغنيه قلبه، ونشأت له عدة / ٣٠٠ / وافرة من التلاميذ وتقدموا واشتهروا باسمه وبانتسابهم إليه، وإلى اشتغالهم عليه. وهو والد الحكيم الفاضل غنايم الآتي ذكره، والوافي كما يجب شكره.

ومنهم:

[٩٧]

النفيس، أبو الفرج ابن إسحاق بن أبي الخير السامري^(٢)

طبيب جرى على مجال جالينوس، وتقدم وإن جاء بعد اسقلينوس لو رآه الدخوار لخار، أو الرئيس صاحب الدلالة لحار، أو ابن التلميذ لتتلمذ لطبه، أو الرحبي لرحب به، وفقد حاسة بصره لا بصيرته، وحناء الكبر وهو على وثيرته، ولم يبق في وقته من أكابر الأطباء إلا من كان يحسده على فضله، ولا يسعه إلا الاعتراف، فإذا أراد التنقص به لا يجد سبيلاً أكثر من أنه يقول: إنه فقد حاسة البصر وبها كان يرى السحنة التي يستدل بها ويرى بهاعاملات، وكان جل زمانه للإقراء والإشغال في علم الطب وفروعه والتوقيف على دقائقه، والإجازة في حسن التعليم والتوقيف والتثقيف فأنشأ أهل ذلك الجيل، وتخرجوا عليه حتى تأهلوا، وبرعوا في الطب وزكوا، وأذن لهم في الطب والتصرف، وكلهم من عذبه الزلال استقوا، ومن شعبه ذي الأطلال ارتقوا.

وكان النفيس ريفض الأخلاق، طويل الروح، كثير الاحتمال. كان للأمين سليمان

(١) ترجمته في: معجم الأطباء ٥٢٢-٥٢٣ عن المسالك.

(٢) ترجمته في: معجم الأطباء ٥٠٣-٥٠٤ عن المسالك.

رئيس الأطباء بمصر لفتات عليه، ويتنقص به ويسمعه القبيح، ويفاجئه بالصريح، وهو لا يتأثر ولا يتقلل بكلامه، ولا يتكثر، وعلماء الدهر وفضلاء العصر كلهم على خلاف قول الأمين سليمان فيه، ويصفه بالفضل كل طبيب فاضل وفقه. ولما كبر انحنى ظهره، وتأطر رمحه، فلما احدث كان يقال له صندوق العلم يسميه بهذا عامة الناس، ويعتقد فيه الفضل، ويشهد له جمهور الخلق من عرفه منهم ومن لم يعرفه بالتقدم في الطب، والتبريز على كل معاصر، وكان له تفقه في الطب، وآراء في المداواة، / ٣٠١ / وتفنن في العلاج، ولم يزل مشاراً إليه إلى أن هلك، ومتبوعاً في الطب أئمة سلك. ومنهم:

[٩٨]

الأمين سليمان الحكيم، وهو سليمان بن داود^(١)، أمين الدولة،

أبو الربيع

رئيس الأطباء بالشام، لحق بالأوائل، وعرف العلم بالدلائل، لو عالج المعتمد لأزاح علله، أو شاء إصلاح ما بين الأفقين لسد خلله. لم يتقدمه جالينوس إلا بالزمان، ولا ابن سينا إلا بكثرة الإدمان، نسي به كل من تقدم، ونسب إليه من الفضل ما قدم. قرأ على العماد الدنيسري، والعز السويدي، والموفق السامري، وأخذ عن تلك الطبقة إلا أنه كان إلى الدنيسري أشد انقطاعاً، وإليه صارت كتبه، وعليه وقف أملاكه، وكان وارث علمه وماله، وخلفه في كل أحواله، وكان منه أصل ثروته وما حصله. وآثره، وأثله. وكان من أبناء النصارى.

وحكى لي من رآه في حالة صباه وغصنه رطيب، ومفرقه كله مسك وطيب، وخذه مصقول السوالف، وطرفه إما ساحر أو سائف، ولأهل بلده به فتون، وفي كمدته فنون والدنيسري قد اعتقله، وخيل إليه دوام الحياة بقربه فاعتنقه. قال: وكان على هذا لا يخلو منه للحكماء ملعب، ولا للعلماء ندى فضل به يستوعب، فلما صارت إليه

(١) توفي سنة ٧٣٢هـ.

ترجمته في: المختصر في أخبار البشر ١٠٦/٤، وتاريخ حوادث الزمان ٥٦٦/٢ رقم ٦٨٢، ودول الإسلام ٢٣٩/٢، وذيل العبر ١٧٤، وأعيان العصر ٤٤٢-٤٤٣ رقم ٧١٦، والوافي بالوفيات ٣٨٠/١٥، والبداية والنهاية ١٦٠/١٤، وتذكرة النبيه ٢٢٨/٢، ودرة الأسلاك ٢/ ورقة ٢٧٨، والدرر الكامنة ١٥١/٢ رقم ١٨٤١، والدارس ١٢٣/٢، وشذرات الذهب ٧١٧/٣، ومعجم الأطباء لأحمد عيسى ٢٠٧، وذيل تاريخ الإسلام (السنوات ٧٠١-٧٤٦هـ) ص ٢٧٨ رقم ٨٥٧.

الرئاسة، وسارت به النفاسة.

قال بعض حُسَّده: [من الكامل]

يا معشرَ الحكماء لا تتسَخَّطُوا لِعَظِيمٍ ما قَدْ تَمَّ في ذا العالمِ
هذا سَليمانُ بنُ داودَ الَّذي نالَ الرِّياسَةَ دونكمُ بِالخاتَمِ
قلت: وإنما نتج القمر وعارض أدنى البحر، وهيهات أن تغطي السماء بالسحاء
أو يضار في رؤيته ذو نظر، فلقد كان فرداً في / ٣٠٢ / الزمان، منقطع القرين، معدوم
النظير، شارك في الحكمة، وبرز في علم الطب، وصار علماً فيه، وتقدم باستحقاق،
وألقى عليه القبول، ومال إليه الحقير والجليل. واقتصرت على طبه الأكابر، ومالت إليه
العلماء، وأثنى عليه شيخنا ابن الزملكاني، وحصلت بينه وبين ابن الوكيل منافرة، ثم
اتفق لابن الوكيل أن ركب للأفرم نائب الشام سفوفاً يعينه على الهضم ويسهله فلما أخذ
منه الأفرم، أفرط به الإسهال، ووُثب ممالك الأفرم بآبن الوكيل ليقتلوه، فأتى الأمين
سليمان وكفهم عنه، ثم دخل على الأفرم واعتبر أعراضه، ثم أعطاه امراق الفرائج،
وشرع في إعطاء المسهلات له، واستفرغه حتى كمل إخراج تلك المادة التي اندفعت ثم
أعطاه المقبضات والممسكات، فبرىء وأفاق.

قلت: وإنما أعطاه أولاً المسهلات مع وجود الإسهال؛ لأنه رأى السفوف قد
هيج مادة ردية، ولم يتم اندفاعها، وأن انحباس بقيتها مفسد للبدن، فاستكمل استفراغ
تلك المادة الردية، ثم أمسك ما سواها، وهذا من محاسن العلاج.
وله غير هذا من الغرائب والعجائب في صناعة الطب منها:

أن بعض بني صصرى كان يشكو نزلة متقدمة به لا تزال تعاوده، ويلتاث جسمه
ببقاياها، فشكا إليه ما يجده منها، فأمره بالحمية، وتعهد الحمام حتى لطف أخلاطه،
ثم أخرجته من الحمام، وكشف رأسه عقيب خروجه منه حتى نزلت به نزلة أخرى، ثم
استمر به على الحمية، وشرع في معالجته، وأعطاه المسهلات حتى استفرغ مواد تلك
النزلة، واندفعت معها مواد النزلة القديمة، وبرىء الرجل وأفاق.

ومنها ما حكاه لي الشيخ أحمد بن براق، قال: كنت عند الأمين سليمان فأتى
رجل قد حصل له ورمٌ في وجهه، وقد تلون بالحمرة والزرقة، فلما رأى عمامته [نزاعها]
عن رأسه، وكانت / ٣٠٣ / عمامة كبيرة، وبقي الرجل يخاف من البرد، وسليمان يقول
له: ارمها بلا فشار، ثم أمر بسطل من الماء البارد، فصبه على رأسه، وكان الفصل
شتاء، ثم نقله إلى المارستان، وشرع في معالجته، وسئل عن هذا، فقال: كانت قد
تحركت مادة في دماغه أردت أن أجملها قبل أن تنصب جملة واحدة.

قلت: وقد تقدم مثل هذا عمن تقدم، وله كل معالجة طائفة، وحدث صحيح، وتجربة محققة.

ولما مرض أسندمر الكرجي، وهو في نيابة طرابلس، حارت فيه الأطباء، فاستدعاه واستطبه فبرىء بقدره الله على يده، فغمره بالإحسان وحصل له منه ومن حاشيته نحو أربعين ألف درهم ما هو دراهم وقماش وغير ذلك، ثم عاوده المرض فاستدعاه فطبه فبرىء، فحصل له منه نحو عشرين ألف درهم.

وحكى لي أنه كان أقل ما يدخر في كل يوم ديناراً من الذهب بعد كلفه وسائر نفقته وأنه على هذا منذ بلغ عشرين سنة من العمر وإلى آخر وقت.

وكان صحيح الإسلام، حسن المعتقد، جميل اليقين، وحج مرات إلى البيت الحرام، وزار النبي ﷺ وكان إذا أتى المدينة الشريفة لزم المسجد وأكثر الصلاة، ولم يزل على رتبته ومكانته حتى سعي عليه عند تنكز نائب الشام، وغير عليه خاطره. هذا إلى ما كرهه منه من قوة النفس، وكثرة الجرأة والإقدام، فعزله عن الرئاسة وحطه عن رتبته ومكانته، وأغرى بدمه والتنقص به، وقام عبد المولى اليهودي لعناده، ورماه سليمان بالبرص وكشف فلم يصح قوله فيه، وولي عوضه جمال الدين محمد بن الشهاب الكحال، فجرت بينهم عواصف وتمت بينهم مع تعمد الظلم مناصف. ونامت على بغضاء تنكز له الأيام والليالي، ثم عطفته عليه عاطفة الرضا، فأقبل عليه ولا كل الإقبال، واستصحبه في سفرة كنت فيها إلى جهة غزة. ولما / ٣٠٤ / أتينا قافون أتينا بأنواع من الطعام فيها من السمك واللبن، فقلنا له: من أيهما نأكل؟ فقال: أنا طبييكم وكلوا مما آكل، ثم أكل من السمك وأكلنا معه، حتى كاد يشبع، ثم ثرد خبزاً في اللبن، وأكل منه بالملاعق، وأكلنا معه، ثم قال: علينا بالمصلح، فقلنا: ما هو؟ قال: العسل، فأتينا به، فلحق منه لعقاً كثيراً ولعقنا معه، ثم مكث ساعات، ثم أمر فعملنا شراباً من السكر والليمون فشرب وشربنا معه، ثم قال: عملنا اليوم بطب الهند، قالوا: إما أن يكون أحدهما أبرد من الآخر، أو هما سواء في الدرجة، فإن كان أحدهما أبرد من الآخر فالآخر مصلح له فإن كانا سواء في الدرجة كنا كمن أكل من شيء واحد واستكثر منه، ثم طلب الأمين سليمان إلى باب السلطان، ولحق به لتطبيب القاضي علاء الدين ابن الأثير كاتب السر رحمه الله من فالج أصابه وطببه، فلم ينجع وسعى لأمر فما أنجح، ولم يقع من السلطان بموقع، ولا لقي أطباء الحضرة بما يجب، فتقهقر وذم وأعيد إلى دمشق مبرقع الوجه بالخجل، خائب الظنة والأمل.

ثم عقد له مجلس بحضرة تنكز لدواء وصفه لابنه، وكان قد جمد اللبن في

معدته، فوصل له انفحة الجدي، فأنكرت الأطباء ذلك، فادعى الصواب، وحضر المجلس المعقود له أعيان الفقهاء والحكماء، وطولب بالنقل فأحضره، فلم ينهض بصدق دعواه، وعلى هذا فلم ينقم عليه تنكر على كراهيته له.

وتوفي في...

ومنهم:

[٩٩]

أحمد بن شهاب الدين، أبو محمد الكحال الجرائحي^(١)

ذو يد في صناعته ولسان، وأساساً لأعمال يديه وإحسان، جرى ممتد الأرسان، واتخذ يداً عند كل يد، وصنعة عند كل إنسان، وكان رب علم يدرس وينسخ، وعمل يقطع لأجل ميل منه مائة فرسخ، فطالما بصر / ٣٠٥ / من عمى وحقن دماً إذا أراق دماً، بعلاج، كم جبر من كسر، وأطلق من أسر، وظهر بأشتات من المحاسن جمع منها عديداً، وجعل سيف النظر بالجلاء مجوهرراً، وكان حديداً. هذا إلى خبرة بمفردات الأكحال وترتيبها، ومجمعات أجزائها وتركيبها، فكم سوى منها ما خلق، وداوى رمد العين، وقد خلق الإنسان من علق.

ومنهم:

[١٠٠]

الفتح السامري، هو ابن يوسف بن إسحاق بن مسلم^(٢)، من سبط

يوسف عليه السلام

هو آخر من بقي في الإقليمين وصلح للتعليمين، برع في الحكمة على إطلاقها، وأعرف عن بدائع أخلاقها، وأتقن فروع الطب حتى أصبحت به فروعها ثمرة، وأغصانها على أصول الحكمة نضرة، وقرأ جانباً من النحو أقام به أود اللسان، وقام به في جدد الإحسان، وكتب خطأ كما حشى عنبر الأصداغ، وسلك طرفاً من العبارة لها من نطف القلوب مساع.

قرأ الطب على النفيس السامري وغيره، وتخرج مع سلف الأطباء، وزاحم بقايا

(١) ترجمته في: معجم الأطباء ذيل عيون الأنباء ١٠٧-١٠٨، أعيان العصر ١/ ٤٤٢.

(٢) ترجمته في: معجم الأطباء ٣٣٥-٣٣٦ عن المسالك.

تلك القنن، وطب وعالج وظهر حسن أثره، وعرف يُمن علاجه، وأثنى عليه الأفاضل، وشهدت له الأطباء بالإجادة.

وكان شيخنا ابن الزملكاني يقول: ما رأيت في المسلمين أصح من ذهن البرهان الزراعي وفي غير المسلمين من أبي الفتح السامري، قلت له مرة: فأيهما أصح ذهنًا؟ قال: أبو الفتح، وكان رحمه الله يدعو مشاهير الأطباء في زمانه، ومنهم الأمين سليمان، وهو أصدق صديق له، وأصبح صاحب يعتمد عليه، ويطلب الحكيم أبا الفتح ويستطبه، إذا حضر هو وغيره من الأطباء وهم كهول وهو شاب ترك أقوالهم واتبع قوله، وجعل عمدة طبه عليه.

وحكى لي ولده تقي الدين عبد الرحمن، قال: مرض / ٣٠٦ / أبي مرضة استشعر في مبادئها أنها ستطول به مدتها وتثقل عليه فطلبني وقال: يا بني أنا ما أعتمد في الطب إلا على الفتح السامري فإن ثقل بي المرض وغاب ذهني عني بالحمى أو غير ذلك لا تعدل بي عن طبه ومعالجته، وإياك أن تغتر وتميل إلى قول سواء، فإن أبا الفتح صحيح الحدس في معرفة المرض، وعليه رتب المداواة.

قال: وكان كثير الشناء عليه ولما كنا بحلب كان يقول إذا ذكر دمشق وحسنها يقول: كيف لا أتأسف على دمشق وفيها ربيت ونشأت، وفيها مثل أبي الفتح؟ وكان لا يزال يشناق إليه ويتأسف عليه.

قلت: والحكيم أبو الفتح هو اليوم واحد زمانه منقطع القرنين ما له نظير في معرفة علم الطب وحسن العلاج ولطف المداواة إلى حسن الوجه والشكل والعبارة والخط، وما عليه من القبول، مع إذعان كل حكماء زمانه وأطباء دهره له بالتقدم والتفرد وحده في الرتبة والمكان. وما خلا الوقت ومثله موجود في الزمان. ومنهم:

[١٠١]

غنايم السامري، وهو ابن المذهب يوسف كاتب الزردكاش^(١)

ملاطفٌ ملأ طيف كل جفن من كرى، وعدل مزاج الزمان فلم يدع منكرا، أبطل ذكر ابن بطلان، وأسخط على علي بن رضوان، وأتى بما لو رآه ابن ماسويه لمسه الإعجاب، أو حنين بن إسحاق لما وسعه إلا أن يتستر بما طال من الثياب.

(١) ترجمته في: معجم الأطباء ٣٣٢-٣٣٣ عن المسالك.

قرأ على أبيه المهذب وأخذ عن النفيس وأذن له في الطب، وتصرف وطبّب، واشتهر بالعلم والاستحضار للنقل والمفردات والعلاج الحسن والملاطفة الثابتة وغرائب المداواة، وهو ممن تزهى به دمشق وتستطيل في الفخار، مع ما طبع عليه من أناة ورفق وتودد وحسن تبصر ومعرفة لا تقصر، ورأيت من يرجحه على أبيه، ويصفه ويبالغ فيه. والناس فيه وفي الحكيم أبي الفتح على قولين وعلى الجملة، فأين مثلهما أين.



[أطباء الغرب في مصر والاسكندرية]

/ ٣٠٧ / فأما أطباء الغرب بما وقع في جانبه من مصر والإسكندرية:
فمنهم:

[١٠٢]

إسحاق بن عمران^(١)

خلق تحليق العقاب، وحل حيث لا يعاب، وافى ديار مصر فكان زلاًلاً، وأتى بلاد المغرب فكان هلالاً، فطاب به الواديان، وكان كقاب قوسين منه الواليان، واستوطن أفق المغرب وشمسه ما أذنت بأفول، وشبهه ما آن لقلائصها قفول، ثم كان يتشوق العراق وبرد نسيمه، وورد تسنيمه، ولكن لم تدن له الأمانى، ولم تدن لسعيه المتواني ولم يتمناها إلا حين لا أوان، وحيث دنت وقد حيل بين العير والنزوان. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً مشهوراً، وعالماً مذكوراً، ويعرف باسم ساعة.

قال ابن جليجل: كان مسلم الدين، بغدادى الأصل، بعث إليه ابن الأغلب ألف دينار وراحلة، وكتاب أمان بخط يده أنه متى أحب الانصراف إلى وطنه انصرف

(١) إسحاق بن عمران: طبيب ولد في السماوة (العراق)، سافر إلى تونس بدعوة من زيادة الله الثالث بن الأغلب التميمي لمعالجته من مرض المالنخوليا، فاستقر بالقيروان (وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة).

تأثر به ابن الجزار القيرواني، واستشهد ابن البيطار والغافقي ببعض ما ورد في كتبه عن النباتات وعلاقتها بالأدوية. توفي سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٧م. له: «كتاب الأدوية المفردة» و«مقالة في المالنخوليا» أو مرض السوداء والإكتئاب، و«كتاب الثمار» وغيرها.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٨-٤٧٩، طبقات الأطباء ٨٤-٨٧، ورسائل في الحضارة العربية ١/ ٢٣٣-٢٣٦، وأخبار العلماء ٦٠، والبيان المغرب ١/ ١٦٣، وطبقات الأمم ٩٤-٩٥، والأعلام ١/ ٢٩٥، العقد الفريد ٦/ ٢٣٢-٢٣٤، ورسائل في الحضارة العربية بأفريقية التونسية لعبد الوهاب، أعلام الحضارة ١/ ١٦٩، وفيه قائمة بمؤلفاته ومصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٨.

واستجلبه حتى دخل افريقية على شروط ثلاثة لم يف له بواحد منها.

قال: وبه ظهر الطب في الغرب، وعرفت الفلسفة، وكان خبيراً بتأليف الأدوية المركبة، بصيراً بفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته، استوطن القيروان حيناً، وألف سكته، وألف فيه كتباً منها كتابه في داء المالنخوليا لم يسبق إليه ثم توحش له ابن الأغلب فصلبه.

وكان السبب أن ابن الأغلب كان نهماً، وكان إسحاق يمنعه من كثير من المآكل، فقدم عليه حدث يهودي من الأندلس، فكان يخالف إسحاق فيما يشير به على ابن الأغلب، فقدم إليه يوماً لبن، وكان يشكو ضيق نفس فنهاء إسحاق عن أكله وخوئه اليهودي عليه فأكله فعرض له في الليل ما أشرف منه على الهلاك، فأرسل يقول لإسحاق: هل عندك فرج؟ فقال: لا، فقليل له: هذه خمسمائة دينار وعالجه فأبى، فلم يزل حتى أوصل إلى ألف دينار، فأخذها وأطعمه الثلج حتى امتلأ ثم قيأه فخرج جميع اللبن، وقد تجبن / ٣٠٨ / ببرد الثلج، فقال له إسحاق: أيها الأمير لو دخل هذا اللبن أنابيب رثتك ولجج فيها أهلكك ضيق النفس لكنني أجهدته وأخرجته قبل وصوله، فقال ابن الأغلب: باع والله إسحاق روعي في النداء. اقطعوا رزقه، فخرج إسحاق إلى مكان في رحاب القيروان، وصار يكتب الصفات كل يوم بدنانير كثيرة، فقليل لابن الأغلب: طردت إسحاق أو دلتته على الغنى، فسجنه فتبعه الناس إلى السجن يستوصفونه، فأخرجه ليلاً، ثم كانت له معه حكايات ومعاتبات أحقته عليه، ففصده في ذراعيه حتى مات، ثم صلبه، ومكث حتى عشش في جوفه الطائر.

ومنهم:

[١٠٣]

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي^(١)، أبو يعقوب

المعروف المشهور، والمألوف طبه المشكور، طالما وهب الكواكب إيقاظ نومه، ومنح الغياهب أنقاض يومه، ودانى العلياء لو حفظ لسانه ولفظ إلا إحسانه، لم يسلم من عشرات لا تقال، وتحفظ ولا تقال، لعجلة كانت له خلقا، وكالت بالمكايل عليه الشقاء فلم يخل من ملام، وكلام مثل كلام.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً فاضلاً بليغاً عالماً مشهوراً بالحدق والمعرفة،

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٧٩-٤٨١، طبقات الأطباء ٨٧، أخبار العلماء ٨٨.

(٢) عيون الأنباء ٤٧٩.

جيد التصنيف، عالي الهمة، وهو الذي شاع ذكره، وانتشرت معرفته بالإسرائيلي. وهو من أهل مصر، وكان يكحل في أوليته. ثم سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عمران وتلمذ له. وخدم المهدي عبيد الله بالطب. وعمر إلى أن نيف على مائة سنة. ولم يتزوج امرأة ولا أولد ولداً. وقيل له: أيسرّك أن تخلف ولداً؟ فقال: أما إذا بقي بعدي كتاب الحميات فلا. يعني أن بقاء ذكره بهذا الكتاب الذي صنّفه أكثر من بقاء ذكره بالولد. ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد.

وحكى قال: لما قدمت من مصر على ابن الأغلب، بعث إليّ بخمسمائة دينار قويت بها على السفر، فلما وصلت أدخلت عليه ساعة وصولي، فسلمت عليه بالأمر، /٣٠٩/ وفعلت ما يجب أن يفعل للملوك من التعبد، فرأيت مجلسه قليل الوقار والغالب عليه حب اللهو، فابتدأني بالكلام ابن خنيس المعروف باليوناني تقول إن الملوحة تجلو؟ قلت: نعم. قال: وتقول إن الحلاوة تجلو؟ قلت: نعم. قال لي: فالحلاوة إذاً هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة، فقلت: إن الحلاوة تجلو بلطف وملاءمة، والملوحة تجلو بعنف. وتمادى على المكابرة، وأحب المغالطة. فلما رأيت ذلك منهم قلت له: أنت حي؟ قال: نعم. قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب والكلب أنت. فضحك ضحكاً شديداً، فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من الجد. قال: فلما وصل داعي المهدي إلى رقاده، أدناني وقربني، وكانت به حصاة في الكلى، فعالجتة بدواء فيه العقارب المحرقة. فجلست ذات يوم مع قوم من كتامة فسألوني عن صنوف من العلل، وبقيت كلما أجبتهم لا يفقهون قولي. فقلت لهم: إنما أنتم بقر. فبلغ الخبر إلى داعي المهدي، فقال لي: تقابل إخواننا المؤمنين بما لا يجب، وتالله الكريم لولا أنني أعذرك بأنك جاهل بحقهم، بما صار إليهم من معرفة الحق وأهله، لأضربن عنقك. ومنهم:

[١٠٤]

أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار

القيرواني^(١)، أبو جعفر

طبيب كان في فعله محموداً، وعلى فضله محسوداً، يكاد طبه يدافع الآجال،

(١) أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، أبو جعفر القيرواني، ابن الجزار: طبيب مؤرخ، من أهل القيروان. توفي سنة ٣٦٩هـ / ٩٨٠م. له «زاد المسافر وقوت الحاضر - خ» في الطب، مجلدان، منه نسخ في مكتبة الشعب ببائيس ودرسدن بألمانيا ورنبور بالهند وهافانا بهولندا وشستريتي =

ويضيق على جالينوس المجال، إلى دقائق أخرى، وحقائق أبقت له إلى الأخرى، مع رتبة لو أنها للنجوم، لتقرط بأشرفها، أو بالعلوم، لما كانت إلا لأشرفها. وكان لا يشمخ الكبر بعزنيته، ولا يطمع البئر في دخول عرينه، وإنما كان يتحلى بالانضاع، ولا يروع بفصال له من رضاع، ثم سكن الترب مضجعاً، وساء شامتاً ومتوجعاً، وأمسى رهين عمله، وضمنين اليأس لانقطاع أمله.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): طبيب ابن طبيب، ممن أخذ / ٣١٠ / عن إسحاق بن سليمان، وكان من أهل الحفظ والتطلع، والدراسة في الطب، وسائر العلوم، حسن الفهم لها.

قال ابن جليل: كان قد أخذ لنفسه مأخذاً في سمته وهديه وقُعدده، ولم تحفظ له زلة، ولا أخلد إلى لذة، وكان يشهد الجنائز والأعراس، ولا يركب إلا إلى المهدي عبيد الله، وإلى عمه أبي طالب، فإنه كان صديقاً حميماً، وأليفاً قديماً، وكان يأتيه في كل يوم جمعة، وكان ينهض في كل عام إلى رباط البحر، فيكون طول مدة القيظ، وعالج ولد النعمان القاضي، فبعث إليه بمنديل مملوء كسوة وثلاثمائة دينار، فلم يأخذ شيئاً، فقليل له: رزق ساقه الله إليك، فقال: والله لا كان لرجال معدٍ قبلي نعمة.

وعاش نيفاً وثمانين سنة، وترك أربعة وعشرين ألف دينار، وخمسة وعشرين قطاراً من كتب طبية وغيرها.

ومنهم:

⁼ (٦/٥٢٢٣) وخزانة الرباط (١٧١٨ د) وترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، ومن هذه الترجمات مخطوطات أقدمها في الفاتيكان. و«الاعتماد - خ» في الأدوية المفردة، في الجزائر وأياصوفيا (١٤٠ ورقة) والمتحف البريطاني، ألفه لأحد ملوك الفاطميين بافريقية. ومنه مختصر في الرباط (١١٢١ د) و«البغية» في الأدوية المركبة، و«التعريف بصحيح التاريخ» كبير، و«ذم إخراج الدم» و«رسالة في النفس» وأسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه و«سياسة الصبيان وتدبيرهم - ط» بتونس، رسالة، و«طب الفقراء - خ» رسالة مخطوطة في المتحف العراقي، وأخرى في مجموع عند حماد بو عياد، في الرباط، و«دولة المهدي - العبيدي - وظهوره بالمغرب» تاريخ، وغير ذلك.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨١-٤٨٢، معجم الأدباء ١٣٦/٢، والوافي بالوفيات ٢٠٨/٦ رقم ٢٦٧١، تاريخ الإسلام (السنوات ٣٥١ - ٣٨٠ هـ) ص ٢٤١، طبقات الأطباء ٨٨، أخبار العلماء ٦١، البيان المغرب ٣٣٨/١، الأعلام ٨٥/٨٦.

(١) عيون الأنباء ٤٨١.

[١٠٥]

حمدون اثنا^(١)

شفى المرض بطبه، وهو عن المريض همّ خطبه، وأحسن علاجاً، وأحب في ليل المساء انبلاجاً، وسلك من طرق القدماء أحصنها، وأحل من رمق الذماء أحصنها، وكان لا يكره على مر الدواء، ولا يضيق في علاج الداء؛ لمعرفته بالإبدال وقدرته إذا جدّ الجدال، فلم يزل محظياً، ولم يبرح في قومه رضيعاً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان في أيام محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان حاذقاً مجرباً، وكان صهر بني خالد، وله بقرطبة أصول ومكاسب، وكان لا يركب الدواب إلا من نتاجه، ولا يأكل إلا من زرعه، ولا يلبس إلا من كتان ضيعته، ولا يستخدم ببلاده إلا من أبناء عبيده.

ومنهم:

[١٠٦]

يحيى بن إسحاق^(٣)

حكيم لم يكذب صدق حدسه، ولا خفي غامض على حسه. كان بصره منوراً، ونظره لخفايا البواطن متصوراً، ولهذا قرطس سهمه وقُرْط بالثريا اسمه، وسبق ذكره النجوم وقطعها، وسار في جميع الأرض كأنه أقطعها، وكان أهل زمانه يتهادونه تهادي الرياحين، ويظنون أنهم يحيون / ٣١١ / به إلى حين، وهيئات فيم يفخرون، وهيئات ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(٤).

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٥ وفيه اسمه «حمدون بن أبان» ٤، طبقات الأطباء ٩٣، أخبار العلماء ٧٨.

(٢) عيون الأنباء ٤٨٥.

(٣) يحيى بن إسحاق: طبيب ابن طبيب، أندلسي، من أهل قرطبة. مسيحي النحلة. اعتنق الإسلام، وتأدب، وبرع في الطب. وتقدم في دولة عبد الرحمن الناصر الأموي. ووثق به الناصر فاستوزره وولاه الولايات والعمالات. وكان قائد «بطليوس» مدة. وصنف في الطب كتاباً سماه «الإبريسم» خمسة مجلدات كبار. توفي نحو سنة ٣٢٥هـ / نحو ٩٣٧م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٤٨٨-٤٨٩، طبقات الحكماء ١٠٠، أخبار العلماء ٣٥٩، طبقات الأمم ١٠٠، بغية الملتبس ٤٨٣، الأعلام ٨ / ١٣٧.

(٤) سورة يونس: الآية ٤٩.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال^(١): كان طبيباً، بصيراً بالعلاج صانعاً بيده، وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر بمكان الثقة، وكان يطلعه على الكرائم والخدم، وكان قد أسلم.

قال ابن جليجل: عن رجل كان بباب داره إذ أتى بدوي على حمار وهو يصيح فخرج إليه: وقال له: ما بالك يا هذا؟ فقال له: أيها الوزير، ورم في إحليلي منعني من النوم منذ أيام كثيرة. فقال له: اكشف عنه، فكشف عنه فإذا هو ورم. فقال لرجل كان أقبل مع العليل: اطلب له حجراً أملس فأتاه به. فقال: ضعه على كفك وضع عليه الإحليل ففعل، فلما تمكن إحليل الرجل من الحجر، جمع الوزير يده وضرب على الإحليل ضربة غشي على الرجل منها. وجرى من الإحليل صديد الدم إلى أن نزع ثم فتح عينيه وبال البول. فقال له: اذهب قد برئت، وأنت رجل قد عبثت فأتيت بهيمة في دبرها، فصادفت شعيرة من علفها فلحجت في عين الإحليل، فورم لها وقد خرجت الآن في الصديد. فقال الرجل: قد كان ذلك مني. وأقر بفعلته.

ومنهم:

[١٠٧]

أبو داود ابن جُلْجُل: وهو سليمان بن حسان المعروف

بابن جُلْجُل^(٢)

حكيم فاض بحره التيار، وفات سُرَى الكواكب ذكره السيار، وحام على المجرة ووردها، وجفا بطبه بنات نعش ووأدها، ولح على عارض الحرارة وأطفأ موقدها، وحل مجالس الملوك، وحل عقدها، وخزي به المرض واكتتب، وحصل بصناعته الأموال واكتسب، ولم يكن ممن يتهور في إقدام، ولا يتصور أن ينقل إلى ذي سفالة إقدام، فكان مدة حياته موقراً، ولا يظاً أخمصه إلا حريراً وعبراً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب.

(١) عيون الأنباء ٤٨٨.

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٩٣-٤٩٥، طبقات الأمم ١٠٣، أخبار العلماء ١٩٠، دائرة معارف البستاني ٤٣٤/١، الطب العربي ١٨٩، طبقات الأطباء (لصاحب الترجمة) مقدمته بقلم محققه فؤاد سيد، الأعلام ١٢٣/٣.

(٣) عيون الأنباء ٤٩٣.

وكان في أيام هشام المؤيد بالله وخدمه، وله اعتناء بقوى الأدوية، وفسر أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس العين زربي، وأفصح عن مكنونها، / ٣١٢ / وأوضح مستغلق مضمونها، وهذا الكتاب ترجمه أطفان أيام المتوكل، وفسّر من مفرداته ما عرف له اسم في اللغة العربية، وأبقى اسم ما لم يعرف له اسم.

قال: وأهدى أرمانوس صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر هدايا جلييلة عظيمة المقدار منها كتاب ديسقوريدس مكتوباً بالآغريقي وهو اليوناني مصوراً بالتصوير الرومي العجيب، وكتب إلى الناصر يقول له: إن هذا الكتاب لا تجنى فائدته إلاّ برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن هذا، فزت بفائدة هذا الكتاب. فبقي في خزانة الناصر، ثم بعث أرمانوس إلى الناصر راهباً اسمه نقولا، ففسر من أسماء عقاقيره ما كان مجهولاً، وهو أول من عمل بقرطبة درياق الفاروق.

قال ابن جليجل: واجتمع أطباء قرطبة مع نقولا على معرفة أشخاص الأدوية المذكورة في كتاب ديسقوريدس. قال: أدركت نقولا الراهب، ومن اجتمع معه في أيام المستنصر الحكم في صدر دولته، وصحبته فصيحٌ ببحث هؤلاء الوقوف على أشخاص هذه العقاقير بمدينة قرطبة، وتصحيح أسمائها إلاّ القليل الذي لا بال به ولا خطر له وذلك يكون في مثل عشرة أدوية. ومنهم:

[١٠٨]

أبو جعفر، يوسف بن محمد بن حسداي^(١)

حكيم قل قدره، وجلا الظلماء بدره، تصدى طبه للأدواء فحسمها، وشد بناء الأعضاء وقد حطمها، وسرى علاجه في العلل الجسام سرى الأرواح في الأجسام، وبهذا ثبت زلزالها وردّها إلى مصاحبة الجسوم، وقد نوت اعتزالها، وفعل في هذا الغاية بلطف مداراته وكف ما لم يقدر الثوب على مواراته، ثم لم يغن عنه طبه إذ حان حينه وقرب مدى ما بينه وبين الموت بينه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٢): من الفضلاء في صناعة الطب، وله اعتناء بالغ

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٤٩٩-٥٠٠.

(٢) عيون الأنباء ٤٩٩.

بالاطلاع على كتب أبقراط وجالينوس وفهمها، /٣١٣/ وكان قد سافر من الأندلس إلى مصر، واشتهر بها ذكره في أيام الآمر، وكان خصيصاً بالمأمون الآمري الوزير، وكان هذا أمره المأمون بشرح كتاب الإيمان لأبقراط، فشرحه، وكان مدمناً للشراب، وعنده دعاية ونوادير.

وحكي أنه كان قد رافق بعض الصوفية في سفرة سافرها من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الصوفي: أين تنزل في القاهرة حتى أكون أراك؟ فقال: ما في نيتي أنزل إلا في الخمارة وأشرب، فغضب الصوفي عليه، فلما أتيا القاهرة تفرقا فلما كان في بعض الأيام مرّ ابن حسداي في السوق، وإذا بأفواج الناس مزدحمة، وبينهم صوفي يُعزّر، فنظر إليه فإذا هو صاحبه قد أمسك وهو سكران، فقال له ابن حسداي: والله ما قتلك إلا الناموس.

ومنهم:

[١٠٩]

الغافقي، وهو أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سند^(١)

رسا في العلم ورسخ، وأنسى ما في كتب القدماء ونسخ، وطلع في هالات الأهله، وأراع علالات العلة، وناسب ما يلاءم النفوس وصفا، وورد مثل رزق النطاق وأصفى، ولم يعد مريضاً إلا كشف غماء المرض، وكف إيماء المرض، وكان يتبرك بعيادته، ويتيمن تيمناً كان سبباً لسيادته، إلا أنه بمعرفة قوى الأدوية أدرب، وحده فيها أغرب، وكلامه فيها كلام من رأى وجرب.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٢): إمام فاضل، وحكيم عالم، ويعد من الأكابر. وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة.

[ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها. وكتابه في الأدوية المفردة] لا نظير له في الجودة ولا شبيه له. وقد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ وأتم معنى، ثم ذكر [بعد قوليهما] ما تجدد للمتأخرين فيها ودستوراً يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها.

ومنهم:

(١) وفيه اسمه «أحمد بن محمد بن أحمد بن السيد الغافقي» ترجمته في: عيون الأنباء ٥٠٠-٥٠١.

(٢) عيون الأنباء ٥٠٠.

[١١٠]

أبو بكر، عتيق بن تمام بن أبي النوق الأزدي^(١)

طبيب أبرأ الأسقام، وأريت له من الفضل أوفر الأقسام، جرى في طلق الوفاء،
وجرب منه مطلق الشفاء، / ٣١٤ / هذا وهو شاعر لا يذعر له جنان، ولا يشعر إلا وفي
فيه سنان، يبعث سمام الأرقم، ويجرع الحمام في كأس العلقم.

قال ابن رشيق: غلب عليه اسمُ الطَّب فَعُرِفَ به لحذقه فيه ومكان أبيه منه.
وهو شاعرٌ حاذقٌ، مفتوقُ اللِّسان، حاضرُ الخاطر، [متضحُ البديهة سديدُ
الطبع]، لم أرَ قط أسهل من الشعر عليه، يكاد لا يتكلم إلا به. وأكثر تأذبه بالأندلس،
ولقي بها ناساً وملوكاً، وأخذ الجوائز، وقارَعَ فحول الشعراء. ومما أنشد له قوله. [من
الطويل]

فَلَمْ أَنْسَهَا كَالشَّمْسِ أُسْبَلَ فَوْقَهَا مِنْ الشَّعْرِ الْوَحْفِ الْأَثِيثِ عُذُوقُ
فَلَوْ ذَابَ ذَا أَوْ سَالَ جَرِيالٌ خَدَهَا جَرَى سَبَجٌ مِنْهَا وَسَالَ عَقِيْقُ
قال: فأنت ترى الطبع كيف حمل هذا المعنى كما تحمل الأرواح الأجسام ولو
وضع بين فسطاط المحررين، وحُمِلَ على مذاهب المتعصبين، لرأيتَه أثقلَ من العذل،
وأقتلَ من الجهل؛ لأنَّ التصنُّع تكلف، والتكلف مغصوب مكره غير أن القسم الآخر منه
منقولٌ بذاته من شعر ابن هانيء في وصف فرس.

ومن أبيات ابن أبي النوق: [من الطويل]

فَمُتْ تَسْتَرْخِ يَا قَلْبُ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَإِنَّكَ فِيهَا بِالْمَمَاتِ خَلِيْقُ
وَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي إِثْرِ الْفِ مَوْدِعٍ فَلَيْسَ لَهُ بِالْعَاشِقِينَ لُحُوقُ
ومما أنشد له أيضاً قوله: [من البسيط]

يَحْمِلُ الْمُرهْفَيْنِ الطَّائِعِينَ لَهُ فِي مُنْتَهَى الْحَطِّ أَوْ فِي مُنْتَهَى الْقُنَنِ
حَتَّى إِذَا انْكَشَفَتْ عَنْ عَارِضٍ خَشِنٍ سُحِبَتْ تَصَدَّى لَهَا بِالْمُنْصِلِ الْخَشِنِ
أَرَاهُ ضَرْباً يُرِيهِ أَهْلَهُ مَعَهُ وَيَقْدَحُ النَّارَ بَيْنَ الرَّأْسِ وَالْبَدَنِ
تَرَكْتُ أَهْلِي وَأَوْطَانِي لِقَصْدِ فِتْنَى يَدَاهُ أَخْصَبُ مِنْ أَهْلِي وَمِنْ وَطْنِي
عَلَيَّ الْمَاجِدُ الْحُرُّ الْجَوَادُ وَمَنْ فِي حَزْمِهِ جَمَعَ الْأَشْتَاتَ لِلْحَسَنِ
وَمَنْ إِذَا اسْتَمَطَرَ الْعَافُونَ رَاحَتَهُ سَقَتَهُمْ فَوْقَ سَقْفِي الْوَابِلِ الْهَتَنِ

(١) ترجمته في: أخبار العلماء ٨٢، نموذج الزمان ١٩٦، معجم الأطباء ٨٢-٨٣.

٣١٥/ وَمَنْ حَوَى رُتْباً لَمْ يَحْوِهَا بَشَرٌ
والفرعُ عن جدِّه يُنمى ومَحْتَدِه
تَجري النجابه طبعاً في شَمَائِلِه
إِلَّا الَّذِي وَلَدُوهُ مَعِدِنَ الْمِنَنِ
والخيرُ والشرُّ مشروبانِ في اللَّبَنِ
والمجدُّ والبشرُ جَرِي المَاءِ فِي الغُصَنِ

ومنه: [من السريع]

يا قائداً ما مثله قائدُ
وواحداً ما إنْ لَهُ مُشَبِّهٌ
وَمَنْ غَدَا بِأَبِيهِ وَالِدًا
إِنْ قُلْتُ: كالبحرِ عَطَاءٌ فَإِنَّ
أَوْ قُلْتُ: كالقطرِ سَمَاحاً فَإِنَّ
أَوْ قُلْتُ: كالبدْرِ فَقَدْ يَنْقُصُ الـ
هذا عليّ واحدٌ لِلْعُلَا
أنا الفتى الشاكرُ إِحْسَانَهُ
يَشْكُرُهُ الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ
وماجدٌ ما فوقَهُ ماجدُ
بَرّاً لِمَنْ لَيْسَ لَهُ وَالِدُ
البحرُ لا يَشْكُرُهُ الْوَارِدُ
القطرُ مَعَ كَثْرَتِهِ نَافِدُ
بِدرٍ وهذا أَبَدًا زَائِدُ
أوحدهُ في عصرِهِ الْوَاحِدُ
واللهُ واللهُ أَنَا شَاكِدُ
ومنهم:

[١١١]

أبو محمد المصري^(١)

الحكيم لا يقصر في حكمه، ولا يعجز أن ينطق من تمادى في بكمه، جرى الأدب بقلمه، وسرى نفس في كلمه، وحظي بقبول كان يتلقاه حيث حل، ويحله أكرم محل، ويتحفه بحباء الملوك بما ينعم به بالاً، ويعم حساده وبالاً، وكان لا يجيب دعوة الصلاح ولا يستطيع سلوة الملاح، قد أوثقتة الحديق النجل جراحاً، وأوبقته الذوائب الجتل، فلا يجد سراحاً، وكان كالخمر في سلب العقول، وكالسحر في الخلب بما يقول حاذقاً بصيد الدراهم، واستخراج خبايا الجيوب، ولو زررت بحدق الأرقام. قال ابن بسام فيه^(٢): شيخُ الفتيان، وآبدةُ الزمان. وكان رحل إلى مصر واسمُه

(١) عبد الله بن خليفة القرطبي المصري، أبو محمد: طبيب، شاعر، كثير النادرة، حاضر الجواب. من أهل قرطبة. اشتهر بالمصري، لطول إقامته بمصر. خدم المأمون ابن ذي النون إلى أن زالت الدولة «النونية» فانتقل إلى إشبيلية، فكان من رجال المعتمد، إلى أن خلع. وله مدح في بلقين بن حماد وباديس بن حيوس وغيرهما. توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٠٣م.
ترجمته في: المغرب في حلى المغرب ١/ ٨١، الذخيرة ٤/ ٣٤٢-٣٥٩، نفح الطيب ٢/ ٦٩، الأعلام ٤/ ٨٥.

(٢) الذخيرة ٤/ ٣٤٢-٣٤٣.

خامل، وسماؤه عاطل، فلم ينشب أن طراً على الأندلس وقد نشأ خلقاً جديداً، / ٣١٦ /
 وجرى إلى النباهة طلقاً بعيداً، فتهادته الدول، وانتهت إليه التفاصيل والجمل، وكلما طراً
 على ملك، فكأنه معه ولد، وإياه قصد، فجرى مع كل أحد، وتموّل في كلّ بلد، وتلوّن
 في العلوم تلون الزمان، وتلاعب بالملوك بأفقنا تلاعب الرياح بالأغصان، حتى ظفر به
 ابن ذي النون، فشدّ عليه يد الضنين، فوجد كنفاً سهلاً، وسلطاناً غفلاً، فسرّ وساء،
 وارتمى في أي الدواوين شاء، وكان بالطّب أكلف، وعليه أوقف، فتعلّق بسببه، حتى
 اشتهر به، وكان حسن البيان مليح المجلس، حاضر الجواب كثير النادر، رواية للشعر
 والمثل السائر، نسابة للمفاخر، عارفاً بالمثالب والمناقب. وكان بالجملة روضة أدب
 وهيئات أن يأتي الدهر بمثله.

وتحيّز إلى إشبيلية، فأنس المعتمد بمكانه، وجعل له حظاً من سلطانه، ثم بقي
 بعده على حاله، مشتملاً بفضل إقباله، مقبلاً على لذاته.

ومما أنشد له قوله^(١): [من البسيط]

قال الوشاة ودمع العين منحدراً
 النار يُحرقها قلبي بزفرته
 ودمعهُ فوق روضِ الوردِ قد حاراً
 من العَجيبِ فؤادٌ يُحرقُ الناراً
 وقوله^(٢): [من السريع]

ظلمك أضحى لي بلا مِرِيّة
 ما أرفق الله بأهل الهوى
 مؤثراً في خدك الناضر
 إذ صيّر الجور على الجائر
 وقوله^(٣): [من الطويل]

ومنْ أصبحَتْ فيه المكارمُ جَوْهرًا
 [و] لكنْ رأيتُ الشُّعْرَ يثبُتُ ذكْرُهُ
 بلا عَرَضٍ فالمدحُ فيه قَبِيحٌ
 فلا عَزْوُ أنْ يُهدى إليك مَدِيحٌ

وقوله وهو معنى قول أبي نواس، ولكنه نقله^(٤): [من الوافر]

وما يحتاجُ يومَ الحربِ جيشاً
 / ٣١٧ / وإن أبقي لهم فرعونُ سِحْراً
 فإنَّ عداهُ كالزُّرْعِ الحَطيِّمِ
 ففي يده عصا موسى الكَلِيمِ
 وقوله في مهر قتله تغالب الفحول عليه^(٥): [من البسيط]

يا يوسفَ الخيلِ يا مقتولَ إخوتِهِ
 قلبي لفقدك بينَ الحربِ والحَرَبِ

(٢) الذخيرة ٤/ ٣٤٦.

(٤) الذخيرة ٤/ ٣٥١.

(١) الذخيرة ٤/ ٣٤٥.

(٣) الذخيرة ٤/ ٣٤٩.

(٥) الذخيرة ٤/ ٣٥٢-٣٥٣.

إِنْ كَانَ يَعْقُوبُ لَمْ يَقْنَعْ بِكَذِبِهِمْ إِنِّي لَأَقْنَعُ مِنْهُمْ بِالْدمِ الْكَذِبِ
وما التَّنَاسُبُ فِي الْقُرْبَى بِنَافِعَةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْفُسُ الْقُرْبَى ذَوِي نَسَبٍ
وقوله يصف قصر طليطلة^(١): [من الكامل]

قَصْرٌ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاهُ الْفَرْقَدُ عَذْبَتْ مَصَادِرُهُ وَطَابَ الْمَوْرَدُ
وَكَأَنَّمَا الْأَقْدَاخُ فِي أَرْجَائِهِ دُرٌّ جَمَادُ ذَابَ فِيهِ الْعَسَجَدُ
وقوله يصف القبة^(٢): [من السريع]

شَمْسِيَّةُ الْأَنْسَابِ بِدْرِيةً يَحَارُ فِي نَسَبَتِهَا الْخَاطِرُ
كَأَنَّمَا الْمَأْمُونُ بِدُرِّ الدُّجَى وَهِيَ عَلَيْهِ الْفَلَكَ الدَّائِرُ
وقوله^(٣): [من مخلع البسيط]

أَيُّ هِلَالٍ أَظَلَّ فِينَا مَطْلَعُهُ الطَّوْقُ وَالْجُيُوبُ
يَقُودُنَا كَيْفَ شَاءَ طَوْعاً لِأَنَّ أَعْوَانَهُ الْقُلُوبُ
ومنهم:

[١١٢]

أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني^(٤)

رجل يرتع في حديثه، ويرجع في الفضل إلى حقيقته، لا يقف سيف ذهنه عند

(٢) الذخيرة ٤/٣٥٥.

(١) الذخيرة ٤/٣٥٥.

(٣) الذخيرة ٤/٣٥٨.

(٤) أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت: عالم موسوعي، حكيم، أديب، رياضي،

مهندس، ميكانيكي، مفكر، طبيب، فيلسوف، مؤرخ، شاعر، موسيقي، ضارب على العود، من أهل «دانية» بالأندلس. ولد فيها سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، ورحل إلى المشرق، فأقام بمصر عشرين عاماً، سجن في خلالها، ونفاه الأفضل شاهنشاه منها، فرحل إلى الإسكندرية، ثم انتقل إلى المهديّة (من أعمال المغرب) فاتصل بأميرها يحيى بن تميم الصنهاجي، وابنه علي بن يحيى، فالحسن بن يحيى آخر ملوك الصنهاجيين بها، ومات فيها سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م.

يُعد أمية أول من أدخل الموسيقى الأندلسية إلى إفريقية وذلك بعد هجرته من إشبيلية حوالي سنة ٤٨٩هـ/١٠٨٥م بيد الفونسو السادس ملك قشتالة. وقد ذكر المقرئ في (نفح الطيب): «إنه هو الذي لحن الأغاني الإفريقية..» ويؤيد ذلك ما ذكره ابن سعيد في (المغرب في حلى المغرب): «إن انتشار الألحان الأندلسية في إفريقية كان على يد أبي الصلت».

من تصانيفه «الحديقة» على أسلوب يتيمة الدهر، و«رسالة العمل بالأسطرلاب - خ» في المتحف العراقي رقم ١٢٤٨ وفي شسترتي (٣١٨٣) و«الاقتصاد» و«عمل صحيفة جامعة تكون فيها جميع

حد، ولا يخرج ما سمع في حافظته من لحد، حسيّاً في الطلب لا ينال باللمس، ونسياً في الأدب إلا أن أمية بن عبد العزيز لا يقاس به أمية بن عبد شمس.

= الكواكب السبعة» و«نظم في الفلك والإسطرلاب» و«كتاب في الصيدلة» و«الرسالة المصرية في الطب» و«الملح العصرية من شعراء أهل الأندلس والطارئين عليها» و«ديوان شعره» مرتب على الحروف. و«كتاب في تاريخ الزيريين على حكام المهديّة في تونس» و«تقويم الذهن» في المنطق. و«رسالة في الموسيقى» و«الوجيز» في علم الهيئة، و«الأدوية المفردة - خ» في مغنيسا، الرقم ١٨١٥ كتب سنة ٦٧٠هـ، في ١٨٨ ورقة. وقد عبث بعض الأغبياء بالصفحة الأولى من النسخة فجعلوا في أعلاها «كتاب القارورة للإسرائيلي وكتاب أبقرات... إلخ» وكتب أحدهم أنه «بخط المؤلف أبو الصلت» ولا قيمة لكل هذا. ومنه نسخة مبتورة غير قديمة في خزانة الرباط آخر المجموع ٢٨١ ق، وشعر فيه رقة وجودة.

ترجمته في: نفع الطيب ١/ ٥٣٢-٥٣٠، عيون الأنباء ٥٠١-٥١٥، أنباء العلماء ٨٠، معجم الأدباء ٧/ ٥٢-٧٠، المقفى ٢/ ٢٩٧-٢٩٨ (٨٤٢)، معجم الأدباء ٢/ ٣٦١، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٣-٢٤٧ رقم ١٠٤، الوافي بالوفيات ٩/ ٤٠٢ (٤٣٣)، حسن المحاضرة ١/ ٣١١، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٣-٢٥٤، شذرات الذهب ٤/ ٨٣-٨٤، ١٤٤، المغرب في حلى المغرب ١/ ٢٥٦-٢٥٧، كشف الظنون ٥١، ١٧٢، ٣٠٥، ٤٦٩، ٦٤٦ وصفحات كثيرة، إيضاح المكنون ١/ ١١١ وفي الخريدة للعماد قسم المغرب ١/ ٩١، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٣٤-٦٣٥ رقم ٣٧٥، تاريخ الحكماء ٨٠، وخريدة القصر (قسم شعراء المغرب) ١/ ١٨٩-٢٧٠ ٤/ ج ١/ ٢٢٣-٣٤٣، ومعجم الأدباء ٧/ ٥٢-٧٠، والكامل في التاريخ ١١/ ٨، وتحفة القادِم ٣، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ٥٣-٦٢، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٠٠، والعبر ٤/ ٧٤، والإعلام بوفيات الأعلام ٢١٦-٢١٧، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٩٦-٣٠١، ٢٥٤، وديوان الإسلام ١/ ٤٣-٤٤ رقم ٣٥، وسيعاد مختصراً في وفيات السنة التالية برقم (١٣٢)، تاريخ الإسلام (السنوات ٥٢١-٥٤٠هـ) ص ١٦٣ رقم ١١٤، العلوم البحتة - الهيئة ١٨٩ - الطبعة ٢٣٩ - العلوم العملية - الطب ٥٢-٥٣، معجم المؤلفين ٣/ ٢٣، الطب والأطباء في الأندلس ١/ ٢٦، ٥٧، دهمان - مقدمة تحقيق كتاب علم الساعات لرؤوان الساعاتي ٧٩-٨٠، تاريخ النبات ٨٧-٨٨ المستشرقون ١/ ١٣٣، تراث العرب طوقان ٣٠٠-٣٠٢، تاريخ العلوم ١٣٠، ٢٢٨، ٢٢٩، وتاريخ الفكر ٥٩٠-٥٩٢، د. الطويل: في تراثنا العربي ٢١٧، تاريخ العلوم ٢٠ حاشية (٢) ٤٣، تاريخ تراث الطب ٣٠٥-٣٠٦، بروكلمان ١/ ٦٤١ (٤٨٧)، سارتون ٢/ ٢٣٠ سوتر ٢٧٢، لوكليرك ٢/ ٧٤، فارمر: تراث الإسلام - الموسيقى ٥٣٥، جولة في دور الكتب الأمريكية ٩٠، نوادر المخطوطات ١/ ١١، ٥٦، فهرس المخطوطات المصورة بمركز الوثائق بالجامعة الأردنية ٢/ ١٤٨، فهرس المخطوطات الظاهرية - هيئة ١٥٦-١٥٧، ١٨٣، ٢٠٨، فهرس الطب ٣/ ٨-٩ كونتش: فهرس المخطوطات المصورة ٣٩، فهرس المخطوطات المصورة بمعهد التراث بحلب ٩، مجلة مكة: العدد ٢ ص ٩٣-١٢٩، ١٤٠٩هـ، مجلة الأصالة الجزائرية: السنة الرابعة عدد رجب - شعبان عام ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ص ٧١-٧٣، الأعلام ٢/ ٢٣، أعلام الحضارة العربية الإسلامية ٥/ ١٢٥، معجم الشعراء للجبوري ١/ ٣١٥-٣١٦.

قال ابن خلكان^(١): كان فاضلاً في علوم الآداب، صنف كتابه الذي سماه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي، وكان عارفاً بفن الحكمة، وكان يقال له الأديب الحكيم، وكان ماهراً في علوم الأوائل، وانتقل من الأندلس وسكن / ٣١٨ / الإسكندرية، ثم انتقل إلى المهدية، فمات بها. وذكره العماد في الخريدة^(٢) وأثنى عليه.

وذكره ابن أبي أصيبعة وقال^(٣): وهو من الأكابر الفضلاء في الطب وغيره. وبلغ في الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من الأدب ما لم يدركه كثير من الأدباء. وكان فريداً في علم الرياضي، مجيداً لعلم الموسيقى، جيد اللعب بالعود، لطيف النادرة، فصيح اللسان، جيد المعاني، لشعره رونق.

وأتى مصر وأقام مدة بالقاهرة ثم عاد إلى الأندلس، وحبس بالإسكندرية؛ لأنه كان قد غرق بها مركب فيه أموال جلييلة فالتزم بعمل آلات يخرج بها المركب بما فيه، وشرع في عمل الآلة بحبال إبريسم تنطوي على دواليب ليرفع بها المركب الغارق فغرم عليها جملة طائلة، فلما ظهر المركب الغارق، وقارب الخارج، ثقل على الحبال، فقطعها، وسقط إلى قعر البحر، فغضب الوالي عليه وحبسه، فكتب إلى ابن الصيرفي يستشفع به، وبعث إليه بقصيدتين يمدح بهما الأفضل بن أمير الجيوش وأول الأولي:

[من مجزوء الكامل]

الشمسُ دونك في المَحَلِّ والطَّيْبُ ذِكْرُكَ بَلْ أَجَلْ
وأول الثانية: [من الكامل]

نسختُ غرائبُ مدحِكَ التَّشْبِيهاً وكَفَى بها غَزْلاً لنا ونَسِيباً
فأجابه بجواب وهو: [من الكامل]

لئن سَتَرْتُكَ الخِذْرُ عَنَّا فربُّما رأينا جَلابيب السَّحابِ على الشمسِ
وردتني رقعة مولاي، فأخذت في تقبيلها كأنني ظفرت بيد مصدرها، أو تمكنت من أنامل مسطرها، ووقفت على ما تضمنته من الفضل الباهر، وما أودعته من الجواهر [الطويل].

نُكْرِرُ ظُوراً مِنْ قِرْراءِ فصوله فإنْ نحنُ أَتَمَمْنَا قِراءَتَهُ عُدْنَا
/ ٣١٩ / إذا ما نُشَرِّناه فكالِيسِكِ نُشْرُهُ ونَطْوِيهِ لا طَيِّ السَّامَةِ بَلْ ضَنَّا
فأما ما اشتملت عليه من الرضا، فحكم الدهر ضروره، وكون ما اتفق له عارض يتحقق ذهابه وموروره، ثقة بعواطف السلطان ومراحمه، وسكوناً إلى ما جبلت النفوس

(١) وفيات الأعيان ١/ ٢٤٣.

(٢) خريدة القصر/ قسم المغرب ١/ ١٨٩- ١٩٠.

(٣) عيون الأنباء ٥٠١.

عليه من معرفة فواضله ومكارمه. فهذا قول مثله ممن طهر الله دينه، ونزه من الشكوك ضميره وبقينه [الطويل].

لَا يُؤَيِّسَنَّكَ مِنْ تَفَرُّجِ كُرْبَةٍ خَطَبُ رَمَاكَ بِهِ الزَّمَانُ الْأَنْكَدُ
صَبْرًا فَإِنَّ الْيَوْمَ يَتَّبِعُهُ غَدٌ وَيَدُ الْخِلَافَةِ لَا تُطَاوِلُهَا يَدُ
وَأَمَّا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ الَّذِي مَنِي بِهِ تَمَحِيصُ أَوْزَارِ سَبَقَتِ، وَتَنْقِصُ ذُنُوبِ اتَّفَقَتِ،
فَقَدْ حَاشَاهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَبَرَّاهُ مِنَ الْأَثَامِ وَالْخَطَايَا. بَلْ ذَلِكَ اخْتِبَارٌ لَتَوَكَّلْهُ وَثِقَتُهُ، كَمَا
يَبْتَلِي الْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءَ، وَيَمْتَحِنُ الْبِرَّةَ وَالْأَوْلِيَاءَ. وَاللَّهُ يَدْبِرُهُ بِأَحْسَنِ تَدْبِيرٍ، وَيَقْضِي لَهُ
بِتَسْهِيلٍ كُلِّ عَسِيرٍ. وَقَدْ اجْتَمَعَتْ بِفُلَانٍ، فَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ تَحْتَ وَعْدٍ، وَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ فُرْصَةً فِي
التَّذْكَارِ يَنْتَهِزُهَا وَيَغْتَنِمُهَا، وَيَرْتَقِبُ فُرْجَةً لِلتَّقَاضِي يَتَوَلَّجُهَا وَيَقْتَحِمُهَا. وَاللَّهُ يَعِينُهُ عَلَى مَا
يُضْمِرُ مِنْ ذَلِكَ وَيُنَوِّيه، وَيُوفِّقُهُ فِيمَا يَحَاوِلُهُ وَيَبْغِيهِ.

وَأَمَّا الْقَصِيدَتَانِ فَمَا عَرَفْتُ أَحْسَنَ مِنْهُمَا مُطْلَعًا، وَلَا أَجُودَ مُتَصَرِّفًا وَمُتَقَطِّعًا، وَلَا
أَمْلَكُ لِلْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَلَا أَجْمَعُ لِلْإِغْرَابِ وَالْإِبْدَاعِ، وَلَا أَكْمَلُ فِي فَصَاحَةِ الْأَلْفَاظِ
وَتَمَكُّنِ الْقَوَافِي، وَلَا أَكْثَرَ تَنَاسُبًا عَلَى كَثْرَةِ مَا فِي الْأَشْعَارِ مِنَ التَّبَايُنِ وَالتَّنَاهِي.
وَوَجَدْتُهُمَا تَزْدَادَانِ حَسَنًا عَلَى التَّكْرِيرِ وَالتَّرْدِيدِ، وَتَفَاءَلَتَ فِيهِمَا بِتَرْتِيبِ قَصِيدَةِ الْإِطْلَاقِ
بَعْدَ قَصِيدَةِ التَّقْيِيدِ. وَاللَّهُ يَحَقِّقُ رَجَائِي فِي ذَلِكَ وَأَمْلِي، وَيَقْرُبُ مَا أَتَوَقَّعُهُ فَمَعْظَمُ السَّعَادَةِ
فِيهِ لِي، ثُمَّ أَطْلُقُ سِرَاحَهُ.

وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ فِي حَالِي نَجْمِ الثَّرِيَا مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا وَطَالِعًا: [مِنْ الْمُتَقَارِبِ]

/ ٣٢٠ / رَأَيْتُ الثَّرِيَا لَهَا حَالَتَانِ فَمَنْظَرُهَا فِيهِمَا مُعْجِبُ
لَهَا عِنْدَ مَشْرِقِهَا صُورَةٌ يُرِيكَ مُخَالَفَهَا الْمَغْرِبُ
فَتَطْلُعُ كَالْكَاسِ إِذْ تُسْتَحْتُ وَتَغْرُبُ كَالْكَاسِ إِذْ تَغْرُبُ
وقوله^(١): [مِنْ الْمُنْشَرَحِ]

لِلَّهِ يَوْمِي بِبِرْكَةِ الْحَبَشِ وَالْأَفُقُ بَيْنَ الضِّيَاءِ وَالْغَبَشِ
وَنَحْنُ فِي رَوْضَةٍ مُفَوَّةٍ دُبُجٌ بِالنُّورِ عِطْفُهَا وَوُشْيُ
قَدْ نَسَجَتْهَا يَدُ الرَّبِّيعِ لَنَا فَنَحْنُ مِنْ نَسِجِهَا عَلَى فُرْشِ
وَأَثْقَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ رَجُلٌ دَعَاهُ دَاعِي الصَّبَا فَلَمْ يَطِشْ
فَعَاطَنِي الرَّاحُ إِنَّ تَارِكُهَا مِنْ سَوْرَةِ الْهَمِّ غَيْرُ مُنْتَعِشِ

وَسَقُّنِي بِالْكَبَارِ مُثْرَعَةً
وقوله^(١): [من الكامل]

وارحمتا لمُعَذِّبٍ يَشْكُو الْجَوَى
نشوانَ مِنْ خَمْرَيْنِ خَمِرِ زُجَاجَةٍ
لا يَسْتَفِيقُ وَهَلْ يُفِيقُ بِحَالَةٍ
عَلِمَ الْعَدُوُّ بِمَا لَقِيتَ فَرَّقَ لِي
وقوله^(٢): [من الطويل]

إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا
وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَسْأَلَ الْعَيْسَ حَاجَةً
وقوله^(٣): [من الكامل]

دَبَّ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ ثُمَّ انْتَنَى
لَا غُرُوَ أَنْ حُشِيَ الرَّدَى فِي لَثْمِهِ
٣٢١ / وقوله: [من المديد]

كَيْفَ لَا تُبْلِي غَلَائِلُهُ
وقوله يصف فرساً أشهب^(٤): [من مخلع البسيط]

وَأَشْهَبٌ كَالْبَشَّابِ أَضْحَى
يَجُولُ فِي مُذْهَبِ الْجَلَالِ
مَنْ أَلْجَمَ الصَّبْحَ بِالْثُرَيَّا
وَأَسْرَجَ الْبَرْقَ بِالْهِنْدَالِ
وقوله في طيب اسمه شعبان^(٥): [من الرمل]

يَا طَبِيباً ضَجَرَ الْعَا
لَمْ مِنْهُ وَتَبَرَّمَ
أَنْتَ شَعْبَانٌ وَلَكِنْ
قَتَلَكِ النَّاسَ الْمُحَرَّمُ
وقوله^(٦): [من الطويل]

يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَإِنِّي لَصَابِرٌ
على نائبات الدهر وهي فجاجع

(١) خريدة القصر - قسم المغرب ٢٤٦/١ - ٢٤٧.

(٢) وفيات الأعيان ٢٤٤/١، خريدة القصر - قسم المغرب ١٩٨/١.

(٣) وفيات الأعيان ٢٤٥/١، خريدة القصر - قسم المغرب ١٩٩/١.

(٤) خريدة القصر - قسم المغرب ٢٤٧/١.

(٥) خريدة القصر - قسم المغرب ٢٥٤/١.

(٦) خريدة القصر - قسم المغرب ٢٣٦/١.

سأصبرُ حتى يقضيَ الله أمرَه وإن أنا لم أصبرُ فما أنا صانعُ
وقوله^(١) : [من السريع]

سادَ صغارُ الناسِ في عَصْرنا كالدَّسِ مَهْمَا هَمَّ أَنْ يَنْقُضِي
وقوله وقد رأى مليحاً أبيض قد قام ، فجاء قبيح أسود قعد مكانه : [من الطويل]
مَضَتْ جَنَّةُ المَأْوَى وجاءتْ جهنمُ
وما هي إلا الشمسُ حانَ أَقْوَلُها
وقوله^(٢) : [من الطويل]

وقائِلِي ما بالُ مثليكَ خاملاً فقلتُ لها ذنبي إلى القوم أنني
وما فاتني شيءٌ سوى الحَظِّ وخَدُهُ
وقوله^(٣) : [من مجزوء الرجز]

٣٢٢ / جَدَّ بقلبي وعَبَثَ واحْرَبَا مِنْ شَادِنٍ
يَقْتُلُ مَنْ شَاءَ بَعِيْدَ فَأَيَّ وَدٍّ لَمْ يَخْخُنْ
وقوله^(٤) : [من الكامل]

ومُهْفَهْف تَرَكْتُ محاسنُ وجهه ففعالها مِنْ مُقْلَتِيه، ولوْنُها
وقوله^(٥) : [من السريع]

عَجِبْتُ مِنْ طَرَفِكَ في ضَعْفِهِ يَفْعَلُ فينا وهو في غَمْدِهِ
وقوله^(٦) : [من البسيط]

(١) خريدة القصر - قسم المغرب ١ / ٢٦٠.

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٤، خريدة القصر - قسم المغرب ١ / ٢٢٦.

(٣) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٤، خريدة القصر - قسم المغرب ١ / ٢٠٤.

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٥. (٥) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٥.

(٦) خريدة القصر - قسم المغرب ١ / ٢١٨-٢١٩.

تَذُبُّ عَنْهُ وَتَحْمِيهِ وَتَنْتَصِرُ
وَالسُّمُرُ تَحْتَ ظِلَالِ النِّفْعِ تَشْتَجِرُ
فَمِنْ مَنَابِرِهَا الْأَكْبَادُ وَالْقِصَرُ
فِي طُولِهِنَّ لِأَعْمَارِ الْعِدَا قِصَرُ
مِنَ الْكُفَاةِ إِذَا مَا اسْتُنْجِدُوا ابْتَدَرُوا
شَبَهَتْهَا خُلُجًا مُدَّتْ بِهَا غُدُرُ
كَأَنَّمَا الدَّمُ رَاحَ وَالطُّبَى زَهْرُ
لَكَ الْحُجُوجُ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْغُرُرُ
هِيَ الدِّخَانُ وَأَطْرَافُ الْقَنَا سُرُرُ
كَصَفْحَةِ الْبِكْرِ أَدْمَى خَدَّهَا الْخَفَرُ
سَيَّانَ عِنْدَكَ قُلَّ الْقَوْمُ أَوْ كَثُرُوا
إِنَّ السِّيَوفَ لِأَهْلِ الْبَغْيِ تَذْخِرُ
عَنِ الْحَرَائِرِ تَعْفُو حِينَ تَقْتَدِرُ
وَفِي الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لَيْسَ تُغْتَفَرُ
لَهِنَّ شَيْءٌ سِوَى هَامِ الْعِدَا ثَمَرُ
كُلِّ الْبِلَادِ إِلَى سُقْيَاهُ تَفْتَقِرُ
وَالْوَاهِبُ الْأَلْفِ إِلَّا أَنَّهَا بِدَرُ
فَكَيْفَ تَطْمَعُ فِي عَلَيَّائِهِ الْبَشَرُ
كَالدَّهْرِ يُوجَدُ فِيهِ النِّفْعُ وَالضَّرَرُ
مِنْ قَبْلِهِ يَهْبُ الدُّنْيَا وَيَعْتَذِرُ
إِذَا تَجَلَّى سَنَاها أَعْدَقَ الْمَطَرُ
بَأَنَّ كُلَّ طَوِيلٍ فِيهِ مُخْتَصَرُ
لَمَنْ جَادَ عَلَيْهِ قَبْلَ مَدِيحِهِ^(١): [من الكامل]

فَتَدَفَّقَتْ جَدُوكَ مَلءَ إِنَائِهَا
وَتَطَوَّقُ الْوَرَقَاءُ قَبْلَ غِنَائِهَا

وَقُمْتَ إِذْ قَعَدَ الْأَمْلَاكُ كُلُّهُمْ
بِالْبَيْضِ تَسْقُطُ فَوْقَ الْبَيْضِ أَنْجُمُهَا
بَيْضٌ إِذَا خَطَبَتْ بِالنَّصْرِ أَلْسُنُهَا
وَذُبُلٌ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ مُشْرَعَةٌ
تَغْشَى بِهِ غِمَرَاتِ الْمَوْتِ أَسَدُ شَرِّ
مَسْتَلْتَمِينَ إِذَا سَلُّوا سِيُوفَهُمْ
تَرْتَاخُ أَنْفُسُهُمْ نَحْوَ الْوَعْيِ طَرَبًا
اللَّهُ زَانَ بَكَ الْأَيَّامِ مِنْ مَلِكِ
وَلِلْعَاجِاجِ عَلَى ضَمِّ الْقَنَا طُلُلُ
إِذْ يَرْجِعُ السَّيْفُ يَنْدَى خَدُّهُ عَلَقًا
/ ٣٢٣ / أَمَا يَهْوُلُكَ مَا لَا قِيَتَ مِنْ عَدُوِّ
فَاضْرِبْ بِسَيْفِكَ مَنْ نَاوَاكَ مُنْتَقِمًا
مَا كُلُّ وَقْتٍ تَرَى الْأَمْلَاكَ صَافِحَةً
وَمِنْ ذَوِي الْبَغْيِ [مَنْ] لَا يُسْتَهَانُ بِهِ
إِنَّ الرِّمَاحَ غُصُونٌ تَسْتَظِلُّ وَمَا
أَضْحَى شَهْنَشَاهُ غَيْثًا لِلْنَدَى غَدَقًا
الطَّاعِنُ الْأَلْفَ إِلَّا أَنَّهَا نَسَقُ
مَلِكٍ تَبَوَّأَ فَوْقَ النِّجْمِ مَقْعَدَهُ
يُرْجَى نَدَاهُ وَيُخْشَى عِنْدَ سَطَوْتِهِ
وَلَا سَمِعَتْ وَلَا حُدِّثَتْ عَنْ أَحَدٍ
وَلَا بَصُرَتْ بِشَمْسٍ قَبْلَ غُرَّتِهِ
وَلَمْ أُطْلَمْهَا بِأَنِّي جِدُّ مُعْتَرِفٍ
وَأُورِدَ لَهُ ابْنُ سَعِيدٍ قَوْلَهُ فِي الْمَرْقَصِ
لَا غَرَوْ أَنَّ سَبَقَتْ يَدَاكَ مَدَائِحِي
يُكْسَى الْقَضِيبُ وَلَمَّا تُجَنَّ أَثْمَارُهُ

ومنهم: بنو زهر

فمنهم:

(١) المرقصات المطربات، وفيات الأعيان ١/ ٢٤٤، خريدة القصر - قسم المغرب ١/ ١٩١.

[١١٣]

أبو مروان، عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر
الأيادي الإشبيلية^(١)

حكيم دافع قوى الضراء، وتابع صواب الآراء، فراد الأسقام ومانع الداء، وقد فتح فاه للالتقام على لطف في علاجه، وتسكين لثوائر المرض وعجاجه، ورفق زانه في تأنيه، وزاده في تأنيه، فكان يعد فرداً، ويعد من أم مشربه ورداً، ثم لم يخلف له موعد، ولا يخاف معه من سحابه مرض مرعد، لكنه لم تفن عنه حيله، ولم يكن له بُد أن يأتيه أجله.

٣٢٤/ قال صاعد: إنه دخل القيروان ومصر، وتطبب بها زماناً طويلاً، ثم رجع إلى الأندلس، وقصد مدينة دانية، واتصل بمجاهد ملكها، وأمره أن يقيم عنده فحظي واشتهر بالتقدم في الطب، وشاع ذكره منها في الأقطار، وله في صناعته إرشاد منه منعه من الحَمَام لا اعتقاده فيه أنه يعفن الأجسام، ويفسد تركيب الأمزجة.

قال: وهذا رأي يخالفه فيه الأوائل، ويشهد بخطأه فيه الخواص والعوام بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب بالتدريج الذي ينبغي كان رياضة فاضلة، ومهنة نافعة لتفتيحه للمسام، وتطريقه للفضول، وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): وأقول: إنه انتقل إلى إشبيلية، ولم يزل بها إلى أن مات، وخلف أموالاً جزيلة ونظيرها من الرباع والضياع. ومنهم:

[١١٤]

ابنه أبو العلاء، زهر بن عبد الملك^(٣)

فرد في بني آدم، وواحد ما أتى بمثله وقد تقادم. ابن أبيه، وفوق كل من يليه. لم يقف سيف ذهنه عند حده، ولا جارى البرق وقد أضمر له نار حقه، وأمسى وهو أبو العلاء، وأخو النجم في الاعتلاء. ربي في حجر العلم ريباً، وأصبح منذ كان في سن الوليد حبيباً، فطلع بدرأ كامل الأنوار، وطما بحرأ يتمسك له بجوار، حتى استهل

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥١٧. (٢) عيون الأنباء ٥١٧.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥١٧-٥١٩.

سحاباً، واستقل انسكاباً، وكان لبيته تقف عليه زمر وركباً يحج إليه ويعتمر.
قال ابن أبي أصيبعة^(١): مشهور بالحدق والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على قوته في الصناعة، واطلاعه على دقائقها. وكان له في هذا نوادر ومعرفة بأحوال المرضى من غير أن يستخبرهم، بل لمجرد جسسه لعروقهم، أو نظره إلى قواريرهم. وحظي في دولة المرابطين.

وقال ابن جميع: إن رجلاً من التجار جلب نسخة فائقة لكتاب القانون إلى الأندلس، فاتحف أبا العلاء / ٣٢٥ / زهراً به تقرباً إليه، ولم يكن وقف عليه، فلما تأمله ذمه وأطرحه، ولم يدخله خزانة كتبه، ثم جعل يقطع من طوره، ويكتب فيها نسخ الأدوية للمرضى.

وقال أبو يحيى اليسع بن حزم: إن أبا العلاء زهراً كان مع صغر سنه تصرح النجابة بذكره، وتخطب المعارف بشكره، ولم يزل طالع كتب الأوائل متفهماً، ويلقى جلة الشيوخ متعلماً حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطلب عن مرامها وصرف الفهم عن إبرامها إلى أن خرجت عن قانون الصناعة إلى ضروب الشناعة بخبر فيصيب، وبضرب في كل ما ينتحله بأوفى نصيب، ويستغرق المدى ويعبر في جدواه سوابق الفضلاء ومحتداً، ويفوق الجلة سماحة لا توصف، وندى لولا بذادة لسان وعجلة ركب عليها الإنسان، وأي الرجال تكمل خصاله وتناسب أوصاله.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): توفي بإشبيلية ودفن بها، ومما أنشد له قوله: [من

البسيط]

يا راشقي بسهام ما لها غَرَضٌ إلا الفؤاد وما منه لها عَوْضٌ
أُمنن ولو بخيالٍ منك يطرُقني فقد يسدّ مسدّ الجواهر العَرَضُ
ومنهم:

[١١٥]

ابنه أبو مروان ابن أبي العلاء، واسمه عبد الملك^(٣)

شيخ الجلالة، وفتى العلم الذي ما ورثه عن كلاله، ارتقى الذروة والغارب، وفاض على المشارق والمغارب. جنى من الفضل غضه، وختم ختامه وفضه. مهدت له

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥١٩-٥٢١.

(١) عيون الأنباء ٥١٧.

(٢) عيون الأنباء ٥١٨.

المضاجع ليالي اشتغاله فأقضها، ودقَّت عليه المعالي أكاراً فافتضاها، فلم يستدر لثام عارضه، ولا تمت أيام راضه، إلا وهي معنى الجملة، ورأس الأكابر الجلة، ثم لم يصد شيء عن حائطات الحمام، ولا رثاه إلى نائحات الحمام.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): لحق بأبيه في المعالجة، وشاع ذكره في الأندلس وغيرها، وعكف الأطباء على مصنفاته، ولم يكن / ٣٢٦ / في زمانه من يماثله في صفاته، وله حكايات كثيرة في حسن العلاج مما لم يسبق إلى مثله. وخدم الملثمين، وحصل من جهتهم النعم. وفي وقته الذي كان فيه دخل ابن تومرت الأندلس ومعه صاحبه عبد المؤمن فقرب ابن زهر هذا، واعتمد عليه في الطب وأناله فوق أمنيته، وله ألف الدرياق السبعيني، واختصره عشاريّاً، ثم اختصره سباعياً يعرف بدرياق الأنتلة. واحتاج عبد المؤمن إلى شرب دواء مسهل، وكان يكره الدواء، فعمد ابن زهر إلى كرمه في بستانه وجعل الماء الذي يسقيها به ماء قد أكسبه قوة الأدوية المسهلة التي أرادها لإسهاله، فطلع فيها العنب وفيه تلك القوى، فحمي عبد المؤمن، وأتاه بعنقود منها، وقال له كل منه وكان حسن الاعتقاد فيه، فلما أكل منه وهو ينظر إليه قال له: حسبك يا أمير المؤمنين فقد أكلت عشر حبات من العنب، وهي تخدمك عدد هذه الحبات مجالس فقام العدة التي ذكرها ووجد الراحة، واستحسن منه فعله وتزايدت به منزلته عنده.

وكان يجد في مروره إلى دار الخلافة مريضاً به قنية وقد كبر جوفه واصفر لونه فلما كان في بعض الأيام وقف عنده ونظر إليه فوجد عند رأسه ابريقاً عتيقاً يشرب منه الماء، فقال له: اكسر هذا الابريق فإنه سبب مرضك فقال له: لا بالله يا سيدي فإنه ما لي غيره، فأمر بعض خدومه بأن يكسره فكسره، فطلع منه ضفدع وقد كبر مما له فيه من طول الزمان، فقال له ابن زهر: خلصت يا هذا من المرض.

وحكى أنه كان بإشبيلية حكيم فاضل في الطب يعرف بالفار صنف كتاباً في الأدوية المفردة كان يرى ابن زهر كثيراً يأكل التين الأخضر، وكان الفار لا يأكله إلا نادراً فكان يقول لابن زهر: لا بد أن يعرض لك بمداومة أكل التين علة الثعلة وهي الدبيلة فقال له ابن زهر: وأنت لكثرة حميتك لا بد / ٣٢٧ / أن يعرض لك علة السيح، فلم يمت ابن زهر إلا بدبيلة في جنبه، ولا مات الفار إلا بعلة السيح.

قال: وكان ابن زهر يداوي دبيلته، فيقول له: لو زدت هذا الدواء كذا أو أبدلته بكذا أو عملت كذا فكان يقول له: يا بني إذا أراد الله تغيير هذه البنية لا يقدر لي أن أستعمل إلا ما تتم به مشيئته.

ومنهم:

[١١٦]

أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر^(١)

نير في سماء، وكوثر في عذب الماء، من بيت زاحم الأيوان وأزاح عن رتبته كيوان، وأسس على خيط المجرة بيت علاه، ولبس من حلية الشفق والأصيل حلاه، ولم يزل منذ [كان] في سن اللبون يصول صولة البزل القناعيس، ولا يقنع إلا أن يكون في أول العيس، فطالما حصل الفوائد الغزار، وحلل الفراق، وقد سلبت من جفنه الغرار، وبات الليالي في طلب العلم لم يطعم غمضاً، ولا شام لغير سنى الصباح إلى الصباح ومضا.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان جيد الفطرة، حسن الرأي، جميل الصورة، مفرط الذكاء، محمود الطريقة، معتنياً بالطب، اشتغل على أبيه وأطلعته على كثير من أسرار هذه الصناعة وعملها، وكان الناصر أبو عبد الله يرى له ويحترمه، ويعرف مقدار علمه ويثق به، وروي أنه لما خرج إلى حضرة مراکش احتاج في نفقة سفره إلى عشرة آلاف دينار، فلما حضر لدى الناصر شكر سالف إحسانه وإحسان سلفه إليه وإلى سلفه ثم قال: وييدي مما سلف ووصل إلى أبي من انعامكم ما يغنيني مدة حياتي، وإنما أتيت لأكون في الخدمة كما كان أبي وأجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه بين يدي أمير المؤمنين. فأكرمه كثيراً وأطلق له مالاً جزيلاً وخوّله في النعم الجمّة، وأجلسه في مجلس أبيه وكان قريباً منه.

حكى القاضي أبو مروان الباجي عنه قال: كنت يوماً معه وإذا به قد قال: إنني رأيت البارحة أختي، / ٣٢٨ / وكانت أخته قد ماتت، قال: فقلت لها: بالله عرفيني كم يكون عمري، فقالت طابيتين ونصف، والطابية هي الخشب يكون طولها عشرة أشبار تتخذ للبناء، قال: فقلت لها: أنا أقول لك الجد، وأنت تجيبيني بالهزو، فقالت: لا والله ما قلت إلا جداً، وإنما أنت ما فهمت، أليس أن الطابية عشرة أشبار، فانظر إلى الطابيتين ونصف، خمسة وعشرين شبراً فيكون عمرك خمسة وعشرين سنة.

قال القاضي أبو مروان: فقلت له لا تتوهم من هذا، فلعله أضغاث أحلام قال: فلم تكمل تلك السنة إلا وقد مات، فكان عمره كما قال لم يزد، ولم ينقص. خلف

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٢٨-٥٣٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٢٩.

ولدين كل منهما فاضل في نفسه، كريم في أبناء جنسه، وهما عبد الملك، وأبو العلاء. ولأبي العلاء نظر جيد في كتب جالينوس وصناعة الطب وكانا بإشيلية.
قلت: كانا علمي طرازها، وآيتي إعجازها على سن شبيهة، ووقت اشتغالي بحبيب أو حبيبة.
ومنهم:

[١١٧]

أبو جعفر بن الغزال^(١)

من أهل المرية، تغرب عن الأوطان حتى تقرب إلى السلطان، وباشر في الخدم أخلها، وحصل من النعم جلّها، فكان واسطة العقد، ولاقطة المنهل العِد، وحل محل الثقة من خليفته، وكان مكان المقة في وظيفته؛ لفضائله التي ثبتت عند إمامه، وأوجب له أن يتسلم عقد زمامه، فعلا رتبةً، وامتدت إليه الأيدي رغبة.
ذكره ابن أبي أصيبعة^(٢): قرأ على الحفيد ابن زهر وعلى غيره وأتقن الطب، وخدم المنصور به وكان خبيراً بالمفردات، وكان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المفردة والمعاجين، ويتناولها منه، وكان المنصور قد أبطل الخمر، وشدد فيه، ثم إنه أمر ابن الغزال أن يجمع حوائج الدرياق ويركبه، فجمعها ثم أعوزه الخمر لعجنه، فأنهى ذلك إلى المنصور فقال تطلبه من كل ناحية، وانظر لعله أن يكون عند أحد ولو شيء يسير فتطلبه فلم يجد شيئاً منه، فأعلم المنصور فقال: والله ما كان بي تركيب الدرياق / ٣٢٩/ في هذا الوقت إلا لا اعتبر هل بقي عند أحد من الخمر شيء أم لا.
ومنهم:

[١١٨]

أبو العباس ابن الرومية، وهو أحمد بن محمد بن مفرج النباتي^(٣)

من أهل اشيلية جوال في كل تنوفة، وجواب لكل مخوفة، نزل بكل أرض مخيماً، وراد أيما، عشب وأيما وطالما جنى النبات وجاء منها بالبينات، وشخصها بأشخاصها، وبين ما بين عامها وخاصها فعلاً محلاً، وطاف كالسحاب، فلم يدع محلاً.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٨.

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٦.

(٢) عيون الأنباء ٥٣٦.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): من أهل إشبيلية، ومن أعيان علمائها، وأكابر فضلائها وقد أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها واختلاف أوصافها، وتباين مواطنها، وله الذكر الشائع، وحسن الوصف الجامع، قد شرف نفسه بالفضائل وسمع الحديث وانتفع الناس به، وأتى مصر والشام وعاین فيها نباتاً كثيراً لا ينبت بالمغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها، ونظرها في مواضعها، ولما قدم الإسكندرية كان الملك العادل بن أيوب بالقاهرة فاستدعاه وأكرم ملتقاه وأراده على الإقامة عنده، فقال: إنما أتيت، لأحج ثم أعود إلى بلدي وأهلي وولدي، ثم قضى فريضة حجه وعاد. ومنهم:

[١١٩]

ابن الأصم^(٢)

وهو ابن الأصم إلا أنه كان أسمع، وانعقد عليه التفضيل وأجمع، وكان يكرم أبا، ويعد منه والدًا. لو كان من الشهور لكان رجبا، إلى طب طالما صاد به المنون، وصاد ما لم تجله الظنون، وانتاش مهجة لم يبق منها إلا آخر الدماء، ورد مرضاً لم يطل زاهر الدماء، وكانت إشبيلية به في حلل المفاخر تختال، وتكف بأس من يغتال، وتتيه بنسبته إليها، وسمته التي دلت دليل نسيم السحر عليها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): هو من الأطباء المشهورين بإشبيلية، وله قوة نظر في الاستدلال على الأمراض ومداواتها، وله حكايات مشهورة ونوادير في معرفته بالقوارير وأخباره عندما / ٣٣٠ / يراها بجملة حال المريض وما يشكوه وما قد تناوله من الأغذية. حدثني أبو عبد الله المعري قال: كنت يوماً عند ابن الأصم وإذا بجماعة قد أقبلوا إليه ومعهم رجل وفي فمه حية قد دخل بعضها مع رأسها في حلقة وبقيتها ظاهراً، وهي مربوطة بخيط قنب إلى ذراع الرجل فقال لهم: ما شأن هذا؟ فقالوا له: إن من عادته أن ينام وفمه مفتوح، وكان قد أكل لبناً ونام فلما جاءت هذه الحية، لعقت من فيه، ودخلته وهو نائم، فأحست بمن أتى، فخافت وانساب بعضها في حلقة، وأدركناها فربطناها بهذا الخيط؛ لئلا تدخل في حلقة، وقد أتينا به إليك، فلما نظر إلى ذلك الرجل، وجده في الموت من الخوف فقال: لا بأس عليك، كدتم تهلكون الرجل ثم قطع الخيط

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٣٨-٥٣٩.

(١) عيون الأنباء ٥٣٨.

(٣) عيون الأنباء ٥٣٨.

فانسابت الحية وبلغت إلى جوفه واستقرت فقال له: الآن تبرأ وأمره أن لا يتحرك، وأخذ أدوية وعقاقير فأغلاها في الماء غلياً جيداً، وجعل ذلك الماء في إبريق وسقاه الرجل وهو حار فشربه، وصار يجس معدته حتى قال: ماتت الحية، ثم سقاه ماء آخر مغلي فيه حوائج، وقال هذه تهري الحية مع هضم المعدة. وصبر مقدار ساعتين وسقاه ماءً آخر قد أغلى فيه أدوية مقيئة، فجاشت نفس الرجل وذرعه القيء، فعصب عينيه وبقي يتقيأ في طست، فوجدنا تلك الحية وهي قطع، وهو يأمره بكثرة القيء حتى تنظف معدته، وخرجت بقايا الحية، وقال له: طب نفساً فقد تعافيت، وذهب الرجل مطمئناً صحيحاً بعد أن كان في حالة الموت.



[أطباء مصر]

أما أطباء مصر:

فمنهم:

[١٢٠]

بلطيان^(١)

وهو رجل مشهور في النصراري، معروف بينهم، معدود في بطاركتهم. طبيب تدارك النفوس، وسيوف المنايا تنوشها، ومواقيت الآمال قد قدمت لها نعوشها. رأس في / ٣٣١ / ملته، وكان رئيس محلته؛ لخلال حمدت، وأفضال شعلة ما حمدت، وكان من أئمة العيسوية وذوي القسمة بالسوية، إلى صحة حدس، وذكاء نفس، وكرم في عشيره، وشيم بالتقلل مشيرة.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان نصرانياً من الملكية عالماً بشريعة النصرانية، وجعل بطرك الإسكندرية. حكى أنه كان للرشيد جارية مصرية كان يحبها، فاعتلت علة عظيمة، فعالجها الأطباء، فلم تنتفع بشيء، فقليل له: لو بعثت إلى عاملك بمصر ليعث إليك بطبيب منها؛ فإنه أبصر بهذه الجارية من أطباء العراق، فكتب إليه فبعث إليه ببلطيان وكان طبيباً عارفاً حاذقاً، فأخذ معه من كعك مصر والصير المعمول بها، فلما أتى بغداد، ودخل على الجارية أطعمها من الكعك والصير، فرجعت إلى طبعها وزالت عنها العلة، ووهب له الرشيد مالاً جزيلاً، وكتب له منشوراً بإعادة كل كنيسة تغلب اليعاقبة فيها على الملكية، ثم أمر بأن يكون يُحمل مثل هذا من الكعك والصير إلى خزانة السلطان في كل وقت، فكان لا يزال يحمل موظفاً فيما يحمل إليها إلى آخر أيام المتوكل.

ومنهم:

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٤٠.

[١٢١]

سعيد بن توفيل^(١)

جمرة تشتعل توقدًا، وجملة لا يضم إليها إلا فرقدًا. سعى للعلم سعيه، وأوعاه وعيه. حظي بالخدم، وحل حيث لا تنصب الخيم، إلا أن الأيام قلبت له ظهر المجن، وحققت له خلاف ما ظن، فأفلتت رداءه، وأشمتت به أعداءه، ولم يجن ذنباً سوى نصحه الذي حمل على الغش، وقتل عقاباً به جانيه عليه ولم يعش.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً نصرانياً يخدم ابن طولون ولا يفارقه، فلما أدركت ابن طولون الهيضة التي مات بها، طلبه فلم يجده إلا بعد يومين فعنفه، ثم قال له: ما الصواب؟ قال: أن لا تقرب غداء، قال: أنا والله جائع وما أصبر، فقال له: هذا جوع كذاب لبرد المعدة، فلما نصف / ٣٣٢ / الليل استدعى بشيء يأكله فجيء بفراييج كردماج حارة، وبزماورد من دجاج، وجدي باردة، فأكل منها فانقطع الإسهال عنه، فخرج نسيم الخادم وسعيد في الدار، فقال له: أكل الأمير فخف عنه القيام، فقال سعيد: الله المستعان ضعفت قوته الدافعة بقهر الغذاء لها وستتحرك حركة منكرة. فما وافى السحر حتى قام قياماً كثيراً، وخرج من أنطاكية وعلته تتزايد، ثم أتى مصر على عجلة تجر بالرجال، فلما أتى الفرما، شكا انزعاجاً، فركب الماء إلى الفسطاط، وضربت له بالميدان قبة نزل فيها، ثم ظهرت منه لسعيد بن توفيل نبوة، وشكاه إلى كاتبه إسحاق بن إبراهيم، فأخذ يلوم ابن توفيل فقال: والله ما خدمني إلا خدمة الفأر السنور، والسخلة الذئب. قال نسيم الخادم وكان ابن توفيل آيساً من حياته؛ لأن ابن طولون امتنع من مشاورته، ويعتقد فيه أنه فرط في أول أمره، وجيء بفاكهة من الشام، فقال له: ما تقول في السفرجل؟ فقال: تمص منه على خلو المعدة، فلما خرج سعيد من عنده، أكل سفرجلاً عقيب عصيدة كان قد أكلها على غير رأي سعيد فعصرها، فتدافع الإسهال فدعا به، ثم قال: يا ابن الفاعلة قلت إن السفرجل نافع لي وقد عاد الإسهال، فقام فنظر المادة، ورجع إليه، فقال: هذه العصيدة التي حمدتها، وقلت: إني غلطت في منعها عصرها السفرجل، وأنا ما أطلقت لك السفرجل، وإنما أشرت بمصهن فقال: يا

(١) توفي سنة ٢٦٩هـ وقيل ٢٧٩هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤١-٥٤٤، حسن المحاضرة ٢٥٨/١، تاريخ البيهقي ٢٣٠. الإسلام ٧٣، أعلام الحضارة ٤٥٠/١ رقم ٢٣٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٤١-٥٤٢.

ابن الفاعلة تريد تحجني وأنت صحيح سوي، وأنا عليل مدنف، ثم ضربه مائتي سوط، وطاف به على جمل ونودي عليه: هذا جزاء من أؤتمن فخان، وأمر بيته فنهب، ثم لم يعيش سعيد بعد ذاك إلاّ يومين ومات.

[١٢٢]

سعيد بن البطريق^(١)

طبيب طالما خلص الأجسام من دائها، واستل النفوس من أعدائها، مع علم بشريعته، وعمل حسن في شيعته، / ٣٣٣ / إلاّ أنه لم تصف له موارد الأيام، ولم ينصف على عوائد الأنام، ويُلِي باختلاف قومه، وما برحوا في شقاق ولا صحوا من سكرة إشفاق، ولم يزل عودهم معه في التواء، وعودهم إليه بغير استواء، هذا ولم يكن غُرّاً، ولا أرى وجوه التجارب إلاّ غُرّاً، مع سعة اطلاع كأنما أشرف عليه من عالي التلاع، واضطلاع قل أن حنيت عليه خبايا أضلاع، ويد ما قصرت في ضبط، ولا غرب عنها في قِطّ قط، ولكنها الأيام وعاداتها، ومواهبها واستعداداتها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان من أهل مصر، وكان طبيباً نصرانياً مشهوراً عارفاً بعلم صناعة الطب وعملها، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبها، ثم صير في أول يوم خلافة القاهرة بطرك الإسكندرية، وكان في زمانه شقاق عظيم، وشر متصل بينه وبين شيعته، وله تصانيف كثيرة، وتواريخ محررة، ولحقه إسهال مات به بالاسكندرية. ومنهم:

[١٢٣]

التميمي، وهو أبو عبد الله، أحمد بن سعيد^(٣)

جادة إحسان، ومادة بقاء لإنسان، عرف الأدوية لطول ما ألفها، ورغب مفرداتها

(١) سعيد بن البطريق: طبيب مؤرخ، من أهل مصر، ولد بالفسطاط سنة ٢٦٣هـ / ٨٨٧م، وأقيم بطريقاً في الإسكندرية وسمي أنتيشيوس (Entychius) سنة ٣٢١هـ وهو أول من أطلق اسم «اليعاقبة» على السريان الذين اتبعوا تعاليم يعقوب البرادعي المتوفي سنة ٥٧٨م. له: «نظم الجواهر - ط» في التاريخ، و«الجدل بين المخالف والنصراني» و«علم وعمل» كناس في الطب. توفي سنة ٣٢٨هـ / ٩٤٠م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٥-٥٤٦، حسن المحاضرة ٢٥٨/١، آداب اللغة العربية ٢/٢٠٠، معجم المؤلفين ٤/٢٢١، الأعلام ٣/٩٢، اكتفاء القنوع ٧٧-٧٨، أعلام الحضارة ١/٤٤٩-٤٥٠ رقم ٢٢٩ وفيه قائمة بمصادر ترجمته.

(٢) عيون الأنباء ٥٤٥.

(٣) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٤٦-٥٤٨ وفيه اسمه: «محمد بن سعيد...» أخبار العلماء ١٠٥، وفيه اسمه: «محمد بن أحمد بن سعيد».

وألّفها، وجناها من رؤوس الشجر ومما يعرّشون، ويبسطون من الأرض ويفرّشون، إلى اتقان لقواعد الطب وأصوله، وعوائد المستطب في العام وفصوله، حتى أنه إليه المرجع وعليه الاعتماد في كل دواء ينجع.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال^(١): كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيه، وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته، وكان متميزاً في صناعة الطب، والاطلاع على دقائقها، وله خبرة بتركيب المعاجين والأدوية المفردة، واستقصى معرفة الدرياق الكبير الفاروق وتركيبه، وركب منها شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة، وانتقل إلى مصر وأقام بها حتى مات.

قال ابن القفطي^(٢): إن التميمي هو الذي / ٣٣٤ / أكمل الدرياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات، وكان خصيصاً بالحسن بن عبد الله بن طغج صاحب الرملة، وعمل له معاجين ولخالخ طبية، وأنواع دخن دافعة للوباء، وركب سفوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة، وكان يذكر أنه نقله عن راهب كان بالقدس فاضلاً في الحكمة والطب، أدرك الدولة العلوية بمصر، وصحب يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز، ولقي الأطباء بمصر وناظرهم.

وحكى عن أبيه أنه سكر مرة سكرأ مفراطاً غلب على عقله، فسقط في بعض الخانات من موضع عال إلى أسفل الخان، وهو لا يعقل، فحمله صاحب الخان وخدمه حتى أدخله الحجرة التي كان ساكنها، فلما أصبح قام وهو يجد وجعاً ووهناً في مواضع من جسده، ولا يعرف لذلك سبباً فركب، وتصرف في بعض أموره إلى أن تعالى النهار ثم رجع فقال لصاحب الخان: إني وجدت في جسدي وجعاً وتوهناً شديداً لست أدري ما سببه، فقال صاحب الخان: ينبغي أن تحمد الله على سلامتك، قال من ماذا؟ قال: أوما علمت ما نالك البارحة؟ قال: لا، قال: فإنك سقطت من أعلى الخان إلى أسفل وأنت سكران، قال: ومن أي موضع؟ فأراه الموضع، فلما رآه حدث به للوقت من الوجع الضربان ما لم يجد معه سبيلاً إلى الصبر، وأقبل يصيح ويتأوه إلى أن جاءوه بطبيب ففصده وشد على مفاصله المتوهنة جباراً، وأقام أياماً كثيرة إلى أن برىء وذهب عنه الوجع.

أقول: ومما يناسب هذه الحكاية أن بعض الناس كان في بعض أسفاره في مفازة ومعه رفقة له، فنام في منزلة نزلها في الطريق ورفقته جلوس، فخرجت حية من بعض النواحي فصادت رجلاً فنهشته فيها وذهبت، وانتبه مرعوباً من الألم وبقي يمسك رجله ويتأوه منها، فقال له بعضهم: ما عليك مددت رجلك بسرعة، وقد صادت رجلك

شوكة في هذا / ٣٣٥ / الموضع الذي يوجعك، وأظهر له أنه أخرج الشوكة، وقال: ما بقي عليك بأس، وسكن عنه الألم بعد ذلك ورحلوا، فلما كان بعد عودهم بمدة وقد نزلوا في تلك المنزل قال له صاحبه: أتدري ذلك الوجع الذي عرض لك في هذا الموضع من أي شيء كان؟ فقال: لا، فقال: إن حية ضربتك في رجلك، ورأيناها وما أعلمناك، فعرض له في الوقت ضربان قوي في رجله، وسرى في بدنه إلى أن قرب من قلبه، وعرض له غشي، ثم تزايد به إلى أن مات، وكان السبب في ذلك أن الأوهام والأحداث تؤثر في البدن تأثيراً قوياً، فلما تحقق أن الآفة التي عرضت له كانت من نهشة الحية، تأثر [من] ذلك وسرى ما كان في ذلك الموضع من بقايا السم في بدنه، ولما وصل إلى قلبه أهلكه.

قلت: ومن نسبة ما حكى عن أبيه ما شاهدته بعيني سنة ست وسبعمائة وذلك: أنه كان عندنا صغير في سطح الدار يلعب ويده تفاحة، فجعل يلقيها من يده، ثم يجري وراءها ويأخذها، وألقاها مرة فتدحرجت وجرى هو خلفها فوقع من طاقة في السطح معدة لرمي الثلج ترمي إلى الطريق علوها عن الأرض يقارب عشرين ذراعاً، واستمر هو جارياً خلفها ليأخذها فوقع من ذلك العلو إلى الأرض قائماً على قدميه، واستمر جارياً خلف التفاحة حتى أخذها، ولم يضره شيء البتة. وكان سداسي السن، وكنت قريباً من سنه، وأنا أشاهده وأنا على باب الدار فسيحان الله اللطيف بخلقه.

ومنهم:

[١٢٤]

ابن الهيثم، وهو أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم
البصري ثم المصري^(١)

رجلٌ أخذ الفرائد فنظمها والفوائد فأجلّها قدراً في الصدور وعظمها، بظرف طموح، وظرف تحت عقد بنانه جموح، فأثبت الغرر، وأنبت الدرر، وصاغ النجوم وأشباهاها، وتبجس فحكى الغيوم وأموهاها، / ٣٣٦ / لفضائل حصلها من الصغر،

(١) محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي: مهندس من أهل البصرة، يلقب ببطليموس الثاني، ولد سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥، له تصانيف في الهندسة، بلغ خبره الحاكم الفاطمي (صاحب مصر) ونقل إليه قوله: لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في حالتي زيادته ونقصه؛ فدعاه الحاكم إليه، وخرج للقاءه، وبالغ في إكرامه، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل، فذهب حتى بلغ الموضع المعروف بالجنادل (قبلي مدينة أسوان) فعاین ماء النيل واختبره من جانبيه، وضعف عن

وورد منها أصفى المناهل، ولم يعرف الصدر، فبقيت كتبه قدوة للمتأمل، وجلوة مثل الصباح المتهلل.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): أصله من البصرة، ثم انتقل إلى مصر، فأقام بها إلى آخر عمره، وكان فاضل النفس، قوي الذكاء، مفنناً في العلوم، وكان كثير التصنيف، ظاهر الزهد، ولخص كثيراً من كتب أرسطو وجالينوس، وشرح العويص، وكان حسن الخط، جيد العربية.

حكى أنه كان قد وزر بالبصرة ونواحيها، فمنعته عن النظر، فأثر التجرد ليتوفر على العلم، فأظهر خبلاً في عقله، وتغيراً في تصوره حتى تمكن من مراده، ثم أتى مصر وأقام بالجامع الأزهر، ثم كان يكتب إقليدس، والمجسطي، ويتقوت بالثمن.

الإتيان بشيء جديد في هندسته، فاعتذر بما لم يقنع الحاكم، فولاه بعض الدواوين فتولاها خائفاً، ثم تظاهر بالجنون، فبسط الحاكم ما عنده من مال ومتاع وأقام له من يخدمه. وقيد وترك في منزله. فلم يزل إلى أن مات الحاكم، فأظهر العقل، وخرج من داره، فاستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، وأعيد إليه ماله، فانقطع للتصنيف والإفادة إلى أن توفي نحو سنة ٤٣٩هـ/ نحو ١٠٣٧م، وكتبه كثيرة تزيد على سبعين، منها «المنظر - خ» نُشرت ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢م، وكان لها - كما يقول سوتر H. Suter - أثر بالغ في تعريف الغربيين بهذا العلم في العصور الوسطى. ومن كتبه «كيفية الإطلال» ترجم إلى الألمانية ونشر بها مختصراً، و«تهذيب المجسطي» و«الشكوك على بطليموس - خ» رسالة، و«الأخلاق» رسالة، قال البيهقي: ما سبقه بها أحد، و«مساحة المجسم المتكافئ» نشر بالألمانية، و«الأشكال الهلالية - خ» و«تربيع الدائرة - خ» و«شرح قانون إقليدس - خ» و«مساحة الكرة - خ» و«المرايا المحرقة» ترجم إلى الألمانية ونشر بها، و«تفسير المقالة العاشرة لأبي جعفر الخازن» و«ارتفاعات الكواكب» الخ. ولمصطفى نظيف كتاب «الحسن بن الهيثم - ط».

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٥٠-٥٦٠، تاريخ الزمان لابن العبري ٨١، وتاريخ مختصر الدول ١٨٢-١٨٣، ٢٣٨، وكشف الظنون ١٣٨٩، وإيضاح المكنون ٢٣/١، ٩٣، ٢٢٦، ٢٩٢، ٣١١، ٣١٥، ٣١٨، ٢/٢٨٥، ٣٢٠، ٣٣١، ٣٣٧، ٤٣١، ٥٥٩، ٦٧٥، وتاريخ فلاسفة الإسلام للطفي جمعة ٢٦٧-٢٧٤، وتاريخ فلاسفة الإسلام لدي بور ١٨٩-١٩٥، وعقود الجواهر لجميل العظم ١٥٤-١٦١، وفي أدب مصر الفاطمية لكامل حسين ٧٨-٨٢، والخالدون العرب لقدري طوقان ١١٧-١٢٦، والأعلام ٦/٣١٤، وهدية العارفين ٢/٦٦-٦٧، ومعجم المؤلفين ٩/٢٢٥-٢٢٦، ودراسات في حضارة الإسلام لدي بور ١٨٩-١٩٥، ودراسات في حضارة الإسلام لهاملتون جب ٢٥، وحضارة الإسلام لجوستاف جرنباوم ٣٤٧-٣٤٨، والعرب والعلم للدكتور توفيق الطويل ٣٣-٣٧، وشمس الله على الغرب لسيفريد هونكه ١٠٧-١١٣، والأعلام ٨٣-٨٤، وتاريخ الإسلام (السنوات ٤٢١-٤٣٠هـ) ص ٣١١ رقم ٣٩١.

وقيل: إنه بلغ الحاكم أنه كان يقول: لو كنت بمصر، لعملت في النيل عملاً يحصل به النفع في كل حال من حالاته من زيادة ونقص، فاستدعاه ومشى عليه، فلم يجد أنه يتم له ما أراد، فعاد خجلاً، واعتذر إلى الحاكم بما قبل منه ظاهره، ثم إنه ولاه بعض الدواوين، فوليها رهبة لا رغبة، ثم تحقق غلظه إذ قيل لكثرة استحالة الحاكم، وإقدامه على سفك الدماء، فلم يجد طريقاً إلاّ معاودة الجنون، فاحتيط على موجوده، وقيد ووكل به من يخدمه ويقوم بمصالحه، فلما مات الحاكم أظهر العقل، وعاد إلى ما كان عليه، وأعيد عليه ماله، فاستوطن قبةً على باب جامع الأزهر ملازماً وظائف الاشتغال والإفادة والتصنيف حتى مات.

ومنهم:

[١٢٥]

علي بن رضوان^(١)

رجلٌ كان جمال إيوان، وكمال ديوان، ورئيس قوم، ورأس ذكر باق إلى اليوم، طالما أخلت له المجالس، وخليت الصدور له ولمن يجالس، فطال في الدولة الفاطمية ذيلًا، ومال به الدهر ميلًا، وحصل من أولئك الكرام المرام، وبلغ لديهم غاية الاحترام، وفضائله / ٣٣٧ / تقول هل من مزيد، وتتدفق فوق بردى ويزيد، حتى آن أن يخلق رداء مفاخره، وينتهي كل شيء إلى آخره.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): مولده ومنشؤه بمصر، وبها تعلم الطب. وحكى أنه قال:

(١) علي بن رضوان بن علي بن جعفر، أبو الحسن المصري: طبيب، رياضي، من العلماء، من أهل مصر، كان أبواه فرانًا، وارتقى هو بعلمه، فاتصل بالحاكم، فجعله رأساً للأطباء. قال ابن تغري بردي: هو من كبار الفلاسفة في الإسلام. له تصانيف كثيرة، فيها المترجم والموضوع، منها «حل شكوك الرازي على كتب جالينوس» و«المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع» و«التوسط بين أرسطو وخصومه» و«كفاية الطبيب - خ» و«دفع مضار الأبدان - ط» رسالة، و«النافع - خ» في الطب، و«أصول الطب - خ». توفي سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١ م.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦١-٥٦٧، وتاريخ الحكماء ٤٤٣-٤٤٤، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٣٣١-٣٣٤، والعبر ٢٢٩/٣، والإعلام بوفيات الأعلام ١٨٧-١٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٨/١٠٥-١٠٦ رقم ٥٠، والنجوم الزاهرة ٦٩/٥، وعقود الجواهر ١٦١-١٦٦، وشذرات الذهب ٣/٢٩١، وكشف الظنون ١٥٩٦، وهدية العارفين ١/٦٨٩-٦٩٠، آداب اللغة العربية ٣/١٠٥، والمقتبس ٢/٣٤٥، والأعلام ٤/٢٨٩، وأعلام الحضارة العربية والإسلامية ٩٧/٢ وفيه مصادر ترجمته، وإيضاح المكنون ١/٤٧٤، والفهرس التمهيدي ٥٣٩-٥٣٣، ومعجم المؤلفين ٧/٩٤، تاريخ الإسلام (السنوات ٤٤١-٤٦٠هـ) ص ٣٥٤ رقم ٨٨.

(٢) عيون الأنباء ٥٦١.

أخذت في تعلم الطب، ولم يكن لي مالٌ أنفق منه، فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة.

قال: إنه ولد بالجيزة، وكان أبوه فراناً، ولم يزل ملازماً للاشتغال والنظر في العلم إلى أن تميز، وصار له الذكر الحسن والسمعة العظيمة على سفهه وإزرائه بالعلماء، وخدم الحاكم وجعله رئيساً على الأطباء، ثم أخذت يتيمة كان رباها مالاً جليلاً كان له نحو عشرين ألف درهم وهربت به فاختل عقله. ومنهم:

[١٢٦]

أفرايم الإسرائيلي^(١)

طبيب صفت له المشارب، وصحت معه التجارب، واتصل بالدولة الفاطمية اتصال اليد بالعنان، وطال بها طول الرمح بالسنان، وكان منها مكان الشجاعة من الجنان، وقر لديها استقرار الخاتم في البنان، فأخرج البيوت بما خزن، وطاول الجبل أو وزن، ثم جاءته منيته، وقرعت بصفاء اللحد ثنيته.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر، وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم، وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئاً كثيراً وكان قد قرأ صناعة الطب على أبي الحسن علي بن رضوان وهو من أجل تلامذته، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكانت أبداً عنده النساخ يكتبون، ولهم ما يقوم بكفائتهم منه ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام الحجري، وهو المعروف بابن ملياقة، ووجدت بخط هذا عدة كتب، وعليها خط أفرايم.

وحدثني أبي أن رجلاً من العراق، وكان قد أتى إلى مصر ليشتري كتباً ويتوجه / ٣٣٨/ بها وأنه اجتمع بإفرايم واتفق الحال فيما بينهما أنه باعه إفرايم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلدة، وكان ذلك في أيام الأفضل ابن أمير الجيوش، فلما

(١) أفرائيم بن الحسن بن إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي، طبيب، قرأ الطب على علي بن رضوان في مصر.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٧-٥٦٨، معجم المؤلفين ٣٠٨/٢، أعلام الحضارة ١٧٧-١٧٨، وفيه قائمة بمؤلفاته.

(٢) عيون الأنباء ٥٦٧.

سمع بذلك أراد تلك الكتب تبقى بالديار المصرية، ولا تنتقل إلى موضع آخر، فبعث إلى إفرام من حمل إليه الأموال التي كان الاتفاق من الثمن بين إفرام والعراقي عليها، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها القابه، ثم خلف من الكتب ما يزيد على عشرين ألف أخرى، ومن الأموال والنعم شيئاً كثيراً. ومنهم:

[١٢٧]

سلامة بن رحمون^(١)، أبو الخير

قِرْنٌ يمل المصاع، ولا يكايل بالمدّ والمصاع، فكان لو عَوَّقه في طريقة جبل لا قتلعه، أو أشرقه بريقه أسد لا بتلعه، إلّا كدية عرضت له فلم يستطع صعود ذروتها، ولا قدر على ارتقاء صفاها ولا مروتها، فباء بخجلته، وبقي تحت مذلة مضلته. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان يهودياً له أعمال حسنة، واطلاع على كتب جالينوس، والبحث عن غوامضها، ولما وصل أبو الصلت إلى مصر اجتمع به وجرت بينهما مباحث ومشاعات.

وقد ذكره أبو الصلت في رسالته المصرية قال: وأشبه ما رأيته منهم وأدخلته في عدد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون، فإنه لقي أبا الوفاء المبشر بن فاتك، وأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصص بها، وتميز على أضرابه، وأدرك أبا كثير بن الزمان تلميذ أبي الحسن ابن رضوان، فقرأ عليه بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس جميع المنطق، وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية، وشرح بزعمه وفسر ولخص، ولم يكن هناك تلخيصه وتحقيقه واستقصاؤه عن لطيف العلم ودقيقه، بل كان / ٣٣٩ / يكثر كلامه فيضل، ويسرع جوابه فيزل. ولقد سألت أول لقائي به واجتماعي به عن مسائل استفتحت مباحثته بها مما يمكن أن يفهمها

(١) سلامة بن مبارك بن رحمون بن موسى المصري اليهودي، طبيب مصري، تتلمذ على المبشر بن فاتك، واجتمع مع أمية بن عبد العزيز أبي الصلت وكانت بينهما خصومة، واطلع على كتب جالينوس واشتغل بالمنطق والعلوم الحكمية وصنف كتاباً منها: «نظام الموجودات» ومقالة في «العلم الإلهي» ومقالة عن «خصب أبدان النساء بمصر عند تناهي الشباب»، توفي سنة ٥٣٠هـ. ترجمته في: عيون الأنباء ٥٦٨-٥٦٩، أخبار العلماء ٢٠٩، الرسالة المصرية ٤١، الأعلام ٣/ ١٠٧، وإيضاح المكنون ٦٥٦/٢، وأعلام الحضارة ١/ ٤٦٠ رقم ٢٣٧.

(٢) عيون الأنباء ٥٦٨.

من لم يكن يمتد في العلم بآعاه، ولم يكثر تبخره واتساعه، فأجاب عنها بما أبان عن تقصيره، ونطق بعجزه، وأعرب عن سوء تصويره وفهمه، وكان مثله في عظم دعاويه، وقصوره عن أيسر ما هو متعاطيه كقول الشاعر: [من المتقارب]

يَشْمُرُ لُلْجِ عَنْ سَاقِهِ وَيَغْمُرُهُ الْمَوْجُ فِي السَّاحِلِ
أو كما قال الآخر: [من المتقارب]

تَمْنِيْتُمْ مَائَتِي فَارِسٍ فَرَدَّكُمْ فَارِسٌ وَاحِدٌ
قال أبو الصلت: وكان بمصر طبيب من أهل أنطاكية يسمى بجرجس ويلقب بالفيلسوف على ما قيل في الغراب: أبو البيضاء، وفي اللديغ: سليم، قد تفرغ بالتولع بابن رحمون والإزراء عليه، وكان يزور فصولاً طبية وفلسفية ويقررها في معارض ألفاظ القوم، وهي محال لا معنى لها، وفارغة لا فائدة منها، ثم إنه: ينفضها إلى من يسأله عن معانيها، ويستوضحه أغراضها، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقظ ولا تحفظ باسترسال واستعجال، وقلة اكتراث واهتبال، فيوجد فيها عنه ما يضحك منه.

وأنشدت لجرجس هذا عنه وهو أحسن ما سمعته: [من السريع]

إِنَّ أَبَا الْخَيْرِ عَلَى جَهْلِهِ يَخِفُّ فِي كَفْتِهِ الْفَاضِلُ
عَلَيْهِ الْمَسْكِينُ مِنْ شُؤْمِهِ فِي بَحْرِ هُلْكَ مَا لَهُ سَاحِلُ
ثَلَاثَةٌ تَدْخُلُ فِي دَفْعَةٍ طَلَعَتْهُ وَالنَّعْشُ وَالْغَاسِلُ
ومنهم:

[١٢٨]

بلمظفر ابن معرف، وهو أبو المظفر، نصر بن

محمود بن المعروف^(١)

عالم بأسرار الطبيعة، وعارف بأخبار الشريعة، وفاضل كاد يحوز الفضل جميعه، وكان محباً لكثرة الثراء، ومبلاً بشرى تربته الخضراء، لا يعدل / ٣٤٠ / شيء عنده نعمة الغنى، ولا يصرف إلى غيرها همّة المنى، وعانى الصنعة، فلم يتل له منها عود بماء، ولا حصل له صاد الصديق ولا كاف الكيمياء، مع ما أنفق من مال وأخفق من مآل. ذكره ابن أصيبعة، وأثنى على فضله، وقال^(٢): كان مغرماً بصناعة الكيمياء

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٧١.

(٢) عيون الأنباء ٥٧١.

والاجتماع بأهلها، وكتب بخطه كثيراً من الكتب التي صنف فيها وفي الطب والحكمة. وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وقراءتها.

قال: ومن أعجب شيء منه أن كان قد ملك ألوفاً كثيرة من الكتب في كل فن، ولا يوجد شيء منها إلا وقد كتب على ظهره مُلحاً ونوادر ما يتعلق بالعلم الذي صنف ذلك الكتاب فيه، وقد رأيت كتباً كثيرة من كتب الطب وغيرها كانت له وعليها اسمه، وما منها شيء إلا وعليه تعاليق حسنة، وفوائد متفرقة.

وأنشد من شعره قوله: [من المتقارب]

وقالوا الطبيعة مَبْدَا الكيانِ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا الطَّبِيعَةُ
أَقَادَرَةُ طَبَعَتْ نَفْسَهَا عَلَى ذَاكَ أَمْ لَيْسَ بِالْمُسْتَطِيعَةُ
وقوله: [من المتقارب]

وقالوا الطبيعة مَعْلُومُنَا وَنَحْنُ نَبَيِّنُ مَا حَدَّثَهَا
وَلَمْ يَعْرِفُوا الْآنَ مَا قَبْلَهَا فَكَيْفَ يَرُومُونَ مَا بَعْدَهَا
ومنهم: أولاد أبي الحوافر:

وكلهم أفاضل أطباء، وأماثل الألباء، خدموا الملوك، وأحسنوا السلوك، ولاطفوا الأمزجة، وشارفوا في العلم أعلى درجة، لو استسقي بهم الحظ العليل لبرىء، أو سُكِّنَ بهم عاصف الريح العقيم لما ذَرَا.
منهم:

[١٢٩]

أبو عمرو، عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي، جمال الدين^(١)

[هو الذي شيد بناء البيت، ومهد لمشاهيره الحي منهم والميت]^(٢).

(١) عثمان بن هبة الله بن أبي الفتح أحمد بن عقيل بن محمد القيسي البعلبكي، جمال الدين: أكبر أطباء عصره، ولي رئاسة الطب مدة بالقاهرة، ولد سنة ٥٤٦هـ في دمشق ونشأ بها، وخدم الملك العزيز (عثمان بن يوسف) وأقام معه في الديار المصرية، فولاه رئاسة الطب. ثم خدم الملك الكامل (محمد ابن أبي بكر) وبقي معه إلى أن توفي بالقاهرة في ٢٣ رجب ٦١٩هـ/١٢٢٣م. ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٤-٥٨٥، التكملة لوفيات النقلة ٣/ ٨٠ رقم ١٨٨٣، أعيان العصر ٣/ ٢١٤ رقم ١٠٧١ وفيه «عثمان بن أحمد بن عثمان»، الوافي بالوفيات ١٩/ ٥١٥ رقم ٥٢٨، تاريخ الاسلام (السنوات ٦١١-٦٢٠هـ) ص ٤٥٤ رقم ٦١٤.

(٢) سقط في نسختنا وأتممناه من نسخة أحمد الثالث.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(١): أفضل الأطباء، وسيد العلماء وله اشتغال بالأدب،
/ ٣٤١ / وشعره صحيح المباني، بديع المعاني، خدم العزيز بن صلاح الدين، ودام
حتى خدم الكامل.
ومنهم:

[١٣٠]

ابنه الفتح^(٢)

وكان مثل أبيه، وإن لم يكن مثله فيدانيه.
وقال ابن أبي أصيبعة فيه^(٣): كان نزهة النفس، صائب الحس، حسن المداواة،
لطيف المداراة، فصيح اللسان، كثير الإحسان، خدم الكامل والصالح وفي أيامه توفي
بالقاهرة.
ومنهم:

[١٣١]

ابنه المهذب^(٤)

زاد على أبيه فضله، وزان غلا سلفه نبلة.
وقال ابن أبي أصيبعة فيه^(٥): جمع بين الفضائل وتميز على الأواخر والأوائل،
علامة وقته في حفظ الصحة ومراعاتها، وإزالة الأمراض وعلاجاتها، اقتفى سيرة آبائه،
وفاق نظرائه في همته وإبائه: [من الطويل]
ورث المكارم من أبيه وجدّه كالرُمح أنبوباً على أنبوبٍ
فأما من سواهم .

(١) عيون الأنباء ٥٨٤-٥٨٥.

(٢) فتح الدين بن عثمان بن هبة الله أبي الحوافر الدمشقي ثم المصري، الطبيب، من كبار الأطباء،
يقرب من والده، خدم الملك الكامل بعده ابنه الصالح نجم الدين أيوب، وتوفي في دولته .
وهو والد شهاب الدين طبيب السلطان الملك الظاهر، ورئيس الأطباء في الدولة الظاهرية.
توفي بعد سنة ٦٣٠هـ.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٥، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٣١-٦٤٠هـ) ص ٤٦٤ رقم ٧١١.

(٣) عيون الأنباء ٥٨٥.

(٤) المهذب بن عثمان بن هبة الله.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٥-٥٨٦ وفيه اسمه: «شهاب الدين بن فتح الدين».

(٥) عيون الأنباء ٥٨٥.

فمنهم:

[١٣٢]

الخُونَجِي، محمد بن نَامَاوَز^(١)، أفضل الدين،

أبو عبد الله، قاضي القضاة

تمام الأفاضل، وإمام كل فاضل، ولهذا لقب بأفضل التفضيل، ولقي الود من كل فضيل. إلى علوم شرعية، وعُلُوّ قدر لرتبة مرعية هذا إلى وفور إحسان، وظهور إيراد حسان مع سلامة صدر، وسداجة مفرطة بلا قدر فلم يكن مثل بزه الرفيع السّاذج، ومَهْزَةُ الرطب عند قضاء الحوائج.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(٢): اجتمعت به ووجدته الغاية القصوى في سائر العلوم، وكان يعرف له انشداد خاطر لكثرة انصباب ذهنه إلى العلم، وتوفر فكره عليه وولي

(١) محمد بن نَامَاوَز بن عبد الملك الخُونَجِي .

أبو عبد الله، أفضل الدين: أبو عبد الله الشافعي، القاضي أفضل الدين، عالم بالحكمة والمنطق. فارسي الأصل ولد سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م، انتقل إلى مصر، وولي قضاؤها. وتوسع في ما يسمونه «علوم الأوائل» حتى تفرد برياسة ذلك في زمانه، وصنف كتاب «كشف الأسرار عن غوامض الأفكار - خ» في استنبول والقاهرة؛ في الحكمة، و«الموجز - خ»، وكتاب «أدوار الحُمَيَّات». توفي في ٥ رمضان ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٥٨٦-٥٨٧، وذيل الروضتين ١٨٢، وصلة التكملة لوفيات النقلة، للحسيني، ورقة ٥٤، ونهاية الأرب للنويري ٢٩/٣٣٠ وفيه: «ناماد» وهو تصنيف، وسير أعلام النبلاء ٢٣/٢٢٨ رقم ١٤٦، والعبر ٥/١٩١، والوفيات ٥/١٠٨-١٠٩ رقم ٢١٢١، وعيون التواريخ لابن شاکر الكتبي ٢٠/٢٥، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥/٤٣ (٨/١٠٥-١٠٦ رقم ١٠٩٧)، وطبقات الشافعية الوسطى، له، ورقة ١٢٦ أ، وطبقات الشافعية للإسنوي ١/٥٠٢-٥٠٣ رقم ٤٦٠، والبداية والنهاية ١٣/١٧٥، وطبقات الشافعية لابن كثير، ورقة ١٧٣ ب، والوَقَيَات لابن قنفذ ٣٢٠ رقم ٦٤٨ وفيه: «محمد بن محمد»، ووفاته سنة ٦٤٨هـ؛ وطبقات الشافعية لابن قاضي شعبة ٢/٤٥٦-٤٥٧ رقم ٤٢٥، والمقفى الكبير للمقرئزي ٧/٣٢٥ رقم ٣٤١٧، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٦، وحُسن المحاضرة، له ١/٥٤١ رقم ١٥، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١/٢٤٦، (وفيه وفاته سنة ٦٤٩هـ/٩ بدائع الزهور لابن إياس ج ١/٢٧٦-٢٧٧، وكشف الظنون ٦٠٢، ٤٨٦، ١٩٨٦، وشذرات الذهب ٥/٢٣٦، وهدية العارفين ٢/١٢٣، وذيل تاريخ الأدب العربي ١/٨٣٨، والأعلام ٧/١٢٢، ومعجم المؤلفين ١٢/٧٦، وديوان الإسلام لابن الغزي ٢/٢٢٢، رقم ٨٥٥، وتاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١-٦٥٠هـ) ص ٣٣٠ رقم ٤٤٨.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٦.

قضاء القضاة بمصر وأعمالها.

ومنهم بنو فاته:

أهل بيت تناسقوا في الفضائل، وتناسبوا في كرم الشرائع، وتناسلوا لا تكذب فيهم المخاليل كأنما تولدوا من ظهر اقلينوس، أو تعاقدوا على حلّ مشكلات جالينوس. لو جلسوا في رواق أرسطو لسطا بهم في النظر، وسما بهم إلا أنه يرضى حيث القمر. وأولهم:

[١٣٣]

أبو سليمان، داود بن أبي المني / ٣٤٢ / بن فاته^(١)

وكان في أهل ملته يأوي إلى جناب منيع، ويهمي بسحاب لا يجحد له حسن الصنيع، وهذا إلى فهم ثاقب، وعزم لا يوني في طلب المناقب. قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان طبيباً نصرانياً من أهل القدس حظياً عند الخلفاء، فاضلاً من فضلاء الأطباء، وأخذ الملك ماري من مصر إلى القدس ليقم عنده به، ولما وقع الفقيه عيسى عنده في الأسر مرض مرضاً أشفي منه، فأمر ماري ابن فاته بمعالجته فلما رآه مثقلاً بالحديد في قعر الجب، قال لماري: هذا رجل ذو نعمة ولو سقيته ماء الحياة على مثل هذه الحالة لم ينتفع به، فأطلقه من الحديد والجب، وأكرمه فإن ذلك كاف في علاجه، فقال له: هذا عليه قطيعة كثيرة وأخاف أن يهرب، فقال ابن فاته: أيها الملك سلمه إلي وضمانه علي، فقال له: تسلمه، فإذا جاءت قطيعته لك فيها ألف دينار، ثم أخذه إليه وفك حديدته، وأخلى له موضعاً من داره وبالع في إكرامه، فلما مضت ستة أشهر أمره ماري بإحضاره فأحضره، فوجد قطيعته قد جاءت في أكياس فأعطي ابن فاته منها كيساً فيها ألف دينار كما وعده وأطلق سراح الفقيه عيسى، فقال ابن فاته: أيها الملك هذه الألف دينار قد صارت لي، وأتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم؟ قال له: نعم، فأعطاها للفقيه لوقته، وقال له: أنا أعرف أن هذه القطيعة ما جاءت وقد تركت خلفك شيئاً، وربما استدانوا لك فيها، فاقبل مني هذه في نفقة الطريق قبلها منه.

وكان ابن فاته عارفاً بالنجامة ورأى أن صلاح الدين سيدخل القدس من باب الرحمة فبعث ولده أبا الخير إليه مبشراً بذلك، فأجازه جائزة سنوية، وأعطاه علماً أصفر ونشابة لأمانة، فلما دخل صلاح الدين إلى القدس دخل الفقيه عيسى داره، وحماها أن تنال بسوء هي وجميع ما جاورها.

(١) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٧-٥٨٩.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٧.

ومنهم ابنه :

[١٣٤]

الموفق، أبو شاكر، موفق الدين^(١)

لم يقف عند غاية أبيه وهي نابية، ولم يقف آثاره والسحب وراءها غير متوانية. تشرف بالإسلام، وتعرف بالهدى / ٣٤٣ / وعده الملام، وحظي ممن خدمهم من الملوك بما لم يحظ به من مخدوم و غلام، وقف له مثل العادة في بهجه، وأمطاه من مراكيبه ما ركب منه في غير سرجه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): قرأ على أخيه أبي سعيد، ثم تميز واشتهر وحظي عند الكامل، وأقطعه ضياعاً وغيرها، وكان يتفقد بالهبات الوافرة والصلوات المتواترة، وكان يدخل في جميع قلاعه راكباً لا ينزل، ثم أسكنه عنده بقلعة الجبل، وركبه العادل مرة بغلته التي كانت قد شدت في النوبة له، وركب ووقف بين القصرين ينتظره حتى جاء، ثم أخذ بيده، وجعل يتحدث معه إلى أن أتيا دار الوزارة، وكان العادل يسكنها وهو معه راكب، والأمراء ومن سواهم مشاة في الخدمة.

وفيه يقول ابن منقذ: [من المتقارب]

رَأَيْتُ الْحَكِيمَ أَبَا شَاكِرٍ كَثِيرَ الْمُحِبِّ مَعَ الشَّاكِرِ
خَلِيفَةً بُقْرَاطَ فِي عَضْرِنَا وَثَانِيَهُ فِي عِلْمِهِ الْبَاهِرِ
ومنهم:

[١٣٥]

الرشيد أبو حُلَيْقَةَ، وهو أبو الوحش بن الفارس بن أبي الخير بن

أبي سليمان داود بن أبي المُنَى بن فاته^(٣)

وسبب تسميته بأبي حُلَيْقَةَ؛ لأن أباه كان لا يعيش له ولد فقيل لأمه: لو عملت

(١) موفق الدين، أبو شاكر بن داود بن أبي المُنَى بن فاته.

ترجمته في: عيون الأنباء ٥٨٩-٥٩٠.

(٢) عيون الأنباء ٥٨٩.

(٣) أبو حُلَيْقَةَ، رشيد الدين بن الفارس بن داود: الطبيب النصراني، عالم، متأدب، ولد بقرية جعبر (على الفرات قرب الرقة) سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م ونشأ في الرها. وانتقل إلى دمشق، ومنها إلى القاهرة، فاتصل بالملك الكامل فخدمه ثم خدم ابنه الملك الصالح ثم ابنه الملك المعظم ثم الملك الظاهر بيبرس، توفي نحو سنة ٦٦٠هـ/ نحو ١٢٦٢م، وألف عدة كتب، منها «المختار في

في أذنه حلقة لعاش فعملتها. والملك الكامل هو الذي سماه بهذا الاسم؛ لأنه طلبه مع غلام، فقال له: من هو من الأطباء؟ فقال: هو أبو حليقة، فعرف بذلك الاسم. وكان مذ كان منقطع القرين، مهيباً لا يقتحم له عرين، معظماً في النفوس، متمماً لمحاسن أهله الشמוש، تجله الملوك، وتحله حيث لا يصل إليه سلوك.

قال ابن أبي أصيبعة: بعد الثناء الجميل عليه بالعلم والدين والمروءة^(١): إنه ربي بجعبر وكان أبوه يلبسه زي الجند، فدخل الملك الكامل مرة الحمام قريباً من داره، فبعث إليه أبوه معه ماء ورد وأطباق فاكهة فقبلها وملاً أطباقه تفاضيل سنية، ثم دخل به على أبيه الملك العادل، فلما رآه قال: هذا ابن الفارس؛ لأنه عرفه بالشبه، فقال له: نعم، فالتفت إلى أبيه وكان قائماً في الخدمة، قال له: ولدك هذا ولد ذكي لا تعلمه الخدمة فالجند عندنا كثير، وأنتم / ٣٤٤ / أهل بيت تبركنا بطبكم، فسيره إلى عمه أبي سعيد إلى دمشق؛ ليقرئه الطب ففعل فمهر، ثم رحل إلى القاهرة وخدم الكامل وحظي لديه وأقطعه، ثم خدم من بعده إلى الملك الظاهر بيبرس على أجمل العوائد.

قال: وكانت له نوادر في العلاج، منها أنه كان يعالج حظية الكامل. كانت معه بالعباسة، ثم عرض للرشيد شغل دخل لأجله إلى القاهرة، وأقام بها ثمانية عشر يوماً، ثم عاد فوجد الأطباء قد ترددوا إليها، فلما حضر باشر معهم فقالوا له: إن هذه على موت والمصلحة أن نعلم السلطان بهذا قبل أن يفجأ أمرها بغتة، فقال لهم: الذي عندي أن هذه ما هي في مرض الموت، فقال له شيخ منهم: أنا باشرت المرضى أكثر منك، فطالع السلطان فلم يوافق، فأجمع الأطباء على المبطالة بهذا إلا هو، فكتبوا إلى السلطان بموتها، فأرسل إليهم رسولاً ومعه نجار ليعمل لها تابوتاً تحمل فيه فأتيا والأطباء جلوس، فقال له الرشيد: ما هذا، فأخبره بما أتيا له فقال للرسول: أتضعها في التابوت وهي في الحياة، فقال: لا ولكن بعد موتها، فقال له: ارجع بهذا التابوت، وقل للسلطان عني خاصة إنها لا تموت في هذه المرضة، فرجع وأخبره بذلك فلما كان الليل استدعاه، وقال له: أنت منعت عمل التابوت، قال له: نعم، قال له: بم عرفتك ذلك دون الأطباء؟ قال: بمعرفتي بمزاجها دونهم، فقال له: امض فطبها، فطبها فعوفيت.

^١ ألف عقار» في الأدوية المفردة، ورسالة في «حفظ الصحة» وكتاب في «الأمراض وأسبابها وعلاجاتها ومدداتها» وله أخبار ونوادر وشعر حسن. وكانت في أذنه حلقة فلقب بأبي حليقة. ترجمته في: عيون الأنباء ٥٩٠-٥٩٨، معجم المؤلفين ١٦١/٤، الأعلام ٢٣/٣، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٦١-٦٧٠هـ) ص ٣٢٢-٣٢٣ رقم ٣٧١.

(١) عيون الأنباء ٥٩٠.

ومنها : أن الكامل لف مرةً يده وأخرجها مع أيدي الحرم وهو يحس الأيدي فلما انتهى إلى نبض الكامل، قال : هذا نبض مولانا السلطان، وهو صحيح بحمد الله.

ومنها : أنه جاءت امرأة من الريف ومعها ولدها شاب عليه النحول، لتريه إياه واتفق أن جاءت به إليه بالغداة والوقت بارد، فجلس نبضه، وبينما هو يجس نبضه إذ قال لغلامه : ادخل وناولني الفرجية لألبسها فتغير نبض الشاب عند قوله تغيراً كثيراً، فحدس /٣٤٥/ أن يكون عاشقاً، ثم جس نبضه بعد ذلك فتساكن وعندما خرج الغلام إليه، قال له : هذه الفرجية جس نبضه أيضاً، فوجده قد تغير فقال لوالدته : إن ابنك هذا عاشق والذي يهواها اسمها فرجية فقالت : أي والله يا مولاي هو يحب واحدة اسمها فرجية، وقد عجزت مما أعذله فيها، وقد تعجبت من قوله لها غاية العجب، ومن اطلاعه على اسم المرأة من غير معرفة متقدمة بذلك.

أقول : ومثل هذه الحكاية كانت عرضت لجالينوس لما عرف المرأة العاشقة، وذلك أنه كان استدعي إلى امرأة جلييلة القدر. وكان المرض قد طال بها وحدس أنها عاشقة فتردد إليها ولما كان عندها وهو يجس نبضها وكانت الأجناد قد ركبوا في الميدان وهم يلعبون، فحكى بعض الحاضرين ما كانوا فيه، وأن فلاناً تبينت له فروسية ولعب جيد، فعند ذلك لما سمعت باسم ذلك الرجل تغير نبضها، واختلفت، ثم جسها بعد ذلك، فوجده قد تساكن إلى أن عاد إلى حاله، ثم إن جالينوس أشار إلى الحاكي سرّاً أن يعيد قوله فلما أعاده، وجس نبضها وجده قد تغير، فتحقق من حالها أنها تعشق ذلك الرجل. وهذا مما يدل على وفور العلم وحسن النظر في تقدمية المعرفة^(١).

ومنها ابنه :

[١٣٦]

المهذب، أبو سعيد، محمد بن أبي حليقة^(٢)

وأبى الرجال المهذب، وأبى الأصال عصره المذهب، وكان له أي مجلس مغشي، وأنس أضواً من مصابيح العشى يغشى إلى ضوء ناره، ويعزى الفضل إلى ساكن داره، ويوصف بخلائق تتكفل بري الظمأ، وتلد لذة العسل بالماء، ولم يزل فجره يتزايد

(١) إلى هنا ينتهي النقل من عيون الأنباء ٥٩٠-٥٩٤.

(٢) محمد بن رشيد الدين بن الفارس بن داود بن أبي المنى بن فاته.

ترجمته في : عيون الأنباء ٥٩٨-٥٩٩.

في إنارته، وبدره لا يخرج من دارته حتى طما على روضته سيل المنون، وطحنه تحت ضرسه المنجنون.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): أوجد العلماء، وأكمل الحكماء ولد بالقاهرة وسمي محمداً لما أسلم أيام الظاهر، ٣٤٦ / منحه الله من العقل أكمله، ومن الأدب أفضله، ومن الذكاء أغزره، ومن العلم أكثره، أتقن الطب وعرف الحكمة، ولا أحد يدانيه فيما يعاينه، ولا يصل إلى الخلائق الجميلة التي أجمعت عليه. انتهى ذكرهم. فأما من سواهم .

فمنهم:

[١٣٧]

الرشيد، أبو سعيد واسمه يعقوب، ويلقب بالموفق^(٢)

وكان في فضله موفقاً، وفي نقله موثقاً، يصيب شاكلة الرمي، ويتلقى عدو المرض تلقي الكمي، وله علاج يقوم بالأبدان، ويدوم تهاديه في البلدان، وينقل من خبره ما يكون أرجاً للمجالس وحرماً للمنافس، وطالما طال أمثاله في البيع، وكانوا له كالتبع، ثم خدم السلطان، فتمّ ممتد الأشطان حتى شجب بعلته، وأشجى بالبقاء عليه أهل ملته.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): هو من نصارى القدس، كان خبيراً في الطب علماً وعملاً، حاد الذهن، وخدم الكامل ثم ابنه الصالح، وعالجه وهو بدمشق من أكلة كانت في فخذه، وكانت بينه وبين الرشيد أبي حليقة منافسة، فقال أبو سعيد إن معالجة أبي حليقة على غير الصواب، فنظر الصالح إلى أبي حليقة نظرة غضب فقام من بين يديه، وقعد بباب الدار، ثم عرض أبو سعيد إليه مرة أخرى في مجلس السلطان، فعرض له فالج فوق لقي لديه، فحمل إلى داره فمات بها بعد أربعة أيام، ثم عاد الصالح إلى مصر بعلته وبها مات.

ومنهم:

[١٣٨]

ابن البيطار، عبد الله بن أحمد المالقي، النباتي، ضياء الدين، أبو محمد^(٤)

سحاب أتى سيله، فطم على القري، وسحب ذيله فتم نشج العبقري، وكأنما كان

(٢) ترجمته في: عيون الأنباء ٥٩٩-٦٠٠.

(١) عيون الأنباء ٥٩٨.

(٣) عيون الأنباء ٥٩٩.

(٤) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٧/٥١-٥٢ رقم ٤٧، عيون الأنباء ٦٠١-٦٠٢، العبر ١٨٩/٥، =

بأسرار الأدوية مناجي، أو أوتي أجزل من ابن جزلة منهاجا، لعلم بالعقاقير وأشخاصها وعموم منافعها واختصاصها مع حسن جمع، وإتقان ما يلج في سمع. وعرف فيها مقالات الحكماء وحررها، وألف فيها المطولات وحبرها وكان نسيج وحده، ووشيج جفان بأسده. تقلب في البلاد، وجلب ما يبقى على /٣٤٧/ الآباد، ثم مات ولله في خلقه أمر، وجناها على نفسه وقال: بيدي لا بيد عمرو.

قال ابن أبي أصيبعة فيه^(١): أوحد زمانه، وعلامة أوانه في معرفة النبات وتحقيقه واختباره، ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ووجد جماعة ممن يعاني هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعينه في مواضعه، واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وعين نباته، وتحقق ماهيته، وأتقن دراية كتاب ديسقوريدس اتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه، وذلك أنني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات، وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يتعجب منه.

أول اجتماعي به كان بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ورأيت أيضاً من حسن عشرته وكمال مروته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء الأدوية [في] كتاب ديسقوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً، وكنت أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغاقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس من نعت وصفته وأفعاله ويذكر أيضاً ما قاله جالينوس فيه من نعت وأفعاله ومزاجه، وما يتعلق بذلك، ويذكر أيضاً ما قاله المتأخرون

⁼ سير أعلام النبلاء ٢٣/٢٥٦-٢٥٧ رقم ١٦٨، تاريخ ابن الوردي ١/١٨٠-١٨١، مرآة الجنان ٤/١١٥، عيون التواريخ ٢٠/٢٨، فوات الوفيات ٢/١٥٩-١٦٠ رقم ٢١٥، العسجد المسبوك ٢/٥٦٧-٥٦٨، حسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٤٢ رقم ١٦، تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٧٦، نفح الطيب للمقري ٢/٢٩١-٦٩٢ رقم ٣٠٤، شذرات الذهب ٥/٢٣٤، هدية العارفين ١/٤٦١، ديوان الإسلام ١/٣٥٦-٣٥٧ رقم ٥٥٩، مفتاح السعادة ١/٣٣١، كشف الظنون ٥١/٣٨٣، ٥٧٤، ١١٤٩، ١٧٧٢، ١٨٧٠، ١٨٧١، إيضاح المكنون ١/١٠٩، معجم المؤلفين ٦/٢٢، تاريخ الإسلام (السنوات ٦٤١-٦٥٠هـ) ص ٣١١-٣١٢ رقم ٤١٦.

(١) عيون الأنباء ٦٠١.

وما اختلفوا ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته، فكنت أراجع تلك الكتب معه، ولا يغادر شيئاً بما فيها، وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة / ٣٤٨ / وفي تلك المقالة.

وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة، والحشائش، وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين وأصحاب البسطات، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل رحمه الله بدمشق، وبعد ذلك توجه إلى القاهرة، ثم خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، وكان حظياً عنده مقدماً في أيامه وكانت وفاة ضياء الدين العشاب رحمه الله بدمشق في شهر شعبان سنة ست وأربعين وستمائة، وكتابه الجامع في الأدوية المفردة لا يوجد كتاب في الأدوية أجل ولا أجود منه، وصفه للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل.

قلت: ويحكى أنه سمَّ نفسه فمات، حدثني الحكيم أمين الدولة سليمان بن داود المتطبب، قال: كان الملك الصالح قد أعطى ابن البيطار ألف دينار لينفقها على أثمان أدوية دعت إليها حاجته، واجتناء حشائش شامية ورومية، فلما أتى بيت المقدس رأى امرأة نصرانية اسمها مريم، فأحبها وأنفق عليها ذلك المال حتى أنفده وأهمل حاجة الملك الصالح، فلما قدم الملك الصالح - إما قال القدس أو قال دمشق - لم يكن لابن البيطار دأب ليلة أراد الصالح يدخل البلد في صباحها إلا أنه أحضر النصرانية، وبات معها في أكل وشرب واستمتاع حتى كان الثلث الآخر، فأخرج حشيشة معه فسحقها في هون، ثم استفها ونام، وقال، غطوني ثم إذا أصبحتم لا تسحقوا شيئاً في الهون حتى تجيدوا غسله؛ فإنه قد صار مسموماً. فلم يفهموا مقاله إلى أن أصبحوا فرأوه ميتاً، ففهموا ما كان قاله وغسلوا الهون، فلما دخل السلطان سأل عنه فحكيت إليه القصة، فقال: لقد أساء بنا الظن، وأين مثله لأشتره بشرط ملكي؟! والله لو علمت لأعطيته عشرة آلاف دينار يصرفها في لذته وكان أمتعنا بنفسه.

قلت: ويحكى أنه ترك عقاقير / ٣٤٩ / كثيرة ومفردات عدة لم يذكرها في كتابه الجامع ضناً بها وبخلاً على غيره بمعرفتها. قال لي الحكيم صلاح الدين بن البرهان: كان ابن البيطار يعرف مما يدخل في علم الكيمياء مصداقاً بعلمها وإن كان لا يعملها بيده ولهذا أظنه قال ما قال: [من الوافر]

فَكُلٌّ يَدْعُونَ وَصَالَ لِيْلَى وَلِيْلَى لَا تَقْرُ لَهُمْ بِذَاكَ
ومنهم:

[١٣٩]

علي بن أبي الحرم، هو الإمام الفاضل، الحكيم العلامة، علاء

الدين بن النفيس القرشي الدمشقي^(١)

فرد الدهر وواحد، وأخو كل علم ووالده، إمام الفضائل، وتمام الأوائل، والجبل الذي لا يُرقى علاه بالسلالم، والحبل الذي لا يعلق به إلا الغريق السالم، لم يبق إلا من اعترف منه غرفة بيده، وأخذ منه حلية لمقلده، حل مصر في محل ملكها، ونسخت لياليتها بإشراقه صبغة حلكتها، وقرأ عليه بها الأعيان، وكلاً فضله وأعان، ولم يكن في علم واحد بمقتصر، ولا شبهه بالبحر إلا مختصر هذا إلى حسب غير مرؤوس، وحسب مثل جناح الطاووس، وشرف قرشي لا يُحلُّ معه في بطحائه، ولا يحثُّ في البيد قلاص بطائه، زكا محتداً، وزها بيتاً لم يضرب غير متوسط السماء وتداً، وكَمَل ذاته بكرم وخير، ومجد في أول وأخير، ومزايا استحقاق، وسجايا كحواشي النسيم الرقاق، ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق.

قال ابن أبي أصيبعة: نشأ بدمشق، واشتغل بها في الطب على المذهب الدخوار، وكان الدخوار منجياً تخرج عليه جماعة منهم الرضي، وابن قاضي بعلبك، والشمس الكلي، وكان علاء الدين إماماً في علم الطب لا يضاهي في ذلك، ولا يداني استحضاراً واستنباطاً، واشتغل على كبر، وله فيه التصانيف الفائقة والتواليف الرائقة، / ٣٥٠ / صنف كتاب «الشامل» في الطب تدل فهرسته على أنه يكون في ثلاثمائة سفر، هكذا ذكر بعض أصحابه، وبيض منها ثمانين سفرًا، وهي الآن وقف البيمارستان المنصوري بالقاهرة، وكتاب «المهذب في الكحل»، وشرح «القانون» لابن سينا في عدة أسفار وغير ذلك في الطب، وهو كان الغالب عليه.

وأخبرني شيخنا أبو الثناء محمود أنه كان يكتب إذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف وله معرفة بالمنطق وصنف فيه مختصراً، وشرح «الهداية» لابن سينا في المنطق، وكان لا يميل في هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبي نصر وابن سينا ويكره طريقة الأفضل الخونجي والأثير الأبهري، وصنف في أصول الفقه والفقه والعربية والحديث وعلم البيان وغير ذلك، ولم يكن في هذه العلوم بالمتقدم إنما كان له

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٢/٢١-٢٢، أعيان العصر ٤/٤٠٤، ٤/٢٢٢، ٤٤٨، النجوم الزاهرة ٧/٣٧٧، معجم المؤلفين ٧/٥٨، الأعلام ٤/٢٧٠-٢٧١.

فيها مشاركة ما، وقد أحضر من تصنيفه في العربية كتاباً في سفرين أبدى فيه علماً تخالف كلام أهل الفن ولم يكن قرأ في هذا الفن سوى «الأنموذج» للزمخشري قرأه على ابن النحاس، وتجاسر به على أن صنف في هذا العلم. وعليه وعلى العماد النابلسي تخرج الأطباء بمصر والقاهرة. وكان شيخاً طوالاً، أسيل الخدين، نحيفاً، ذا مروءة.

وحكي أنه في علته التي توفي فيها أشار إليه بعض أصحابه الأطباء يتناول شيء من الخمر إذ كان صالحاً لعلته على ما زعموا، فأبى أن يتناول شيئاً منه، وقال لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر.

وكان قد ابنتى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها. وما رأيت إيواناً مرخماً في غير هذه الدار. ولم يكن مزوجاً ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري. وكان يغض من كلام جالينوس ويصفه بالعبي والإسهاب الذي ليس تحته بطائل. وهذا بخلاف النابلسي، فإنه كان يعظمه، ويحث على قراءة كلام جالينوس.

وكان علاء الدين / ٣٥١ / قد نزل يدرس بالمسروورية بالقاهرة في الفقه، وذكروا أنه شرح في أول «التنبيه» إلى باب السهو شرحاً حسناً.

ومرض رحمه الله تعالى ستة أيام أولها يوم الأحد وتوفي سحر يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة بالقاهرة.

قال أبو الصفاء^(١): أخبرني الإمام العلامة الشيخ برهان الدين الرشيدى خطيب جامع أمير حسين بالقاهرة قال: كان العلاء ابن النفيس إذا أراد التصنيف، توضع له الأقلام مبرية، ويدبر وجهه إلى الحائط ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا تحدر، فإذا كَلَّ القلم، وحفي، رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم.

قلت: وبهذا حدثني شيخنا أبو الشاء محمود.

قال أبو الصفاء^(٢): وأخبرني شيخنا نجم الدين الصفدي: أن ابن النحاس كان يقول: لا أرضى بكلام أحد في القاهرة في النحو غير كلام ابن النفيس، أو كما قال. وقد رأيت له كتاباً صغيراً عارض به رسالة «حي بن يقظان» لابن سينا، ووسمه بكتاب «فاضل بن ناطق»، وانتصر لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع والبعث

(٢) الوافي بالوفيات.

(١) الوافي بالوفيات.

الجسماني وخراب العالم، ولعمري لقد أبدع فيها، ودلّ ذلك على قدرته وصحة ذهنه، وتمكنه من العلوم العقلية.

وأخبرني السيد الدميّاطي الحكيم بالقاهرة، وكان من تلاميذه، قال: اجتمع ليلة هو وابن واصل وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة، شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم. والشيخ علاء الدين كل ذلك يبحث بريضة ولا انزعاج، وأما القاضي علاء الدين، فإنه ينزعج ويعلو صوته، وتحمر عيناه، وتنتفخ عروق رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال، قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين أمّا نحن، فعندنا مسائل ونكت وقواعد، وأما أنت فعندك خزائن علوم.

وقال أبو الصفاء^(١): قال السيد أيضاً: /٣٥٢/ قلت له: يا سيدي لو شرحت «الشفاء» لابن سيناء كان خيراً من شرح «القانون» لضرورة الناس إلى ذلك، فقال: «الشفاء» عليّ فيه مواضع تريد أيتها؟ قلت: يريد أنه ما فهم تلك المواضع؛ لأن عبارة الرئيس في الشفاء غلقة.

قال: وأخبرني آخر قال: دخل الشيخ علاء الدين مرة إلى الحمام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام، واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله.

وقيل: إنه قال: لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعيد عشرة آلاف سنة ما وضعتها. والعهد في ذلك على من نقله عنه.

وعلى الجملة كان إماماً عظيماً وكبيراً من الأفاضل جسيماً، وكان يقال هو ابن سيناء الثاني.

قال: ونقلت من ترجمته في مكان لا أعرف من هو الذي وضعه، قال: شرح «القانون» في عشرين مجلداً شرحاً حلّ فيه المواضع الحكمية، ورتب فيه القياسات المنطقية، وبيّن فيه الإشكالات الطبية، ولم يسبق إلى هذا الشرح؛ لأن قصارى من شرحه أن يقتصر على الكليات إلى نبض الحبالى، ولا يجرى فيه ذكر الطب إلا نادراً، وشرح كتب بقراط كلها. ولأكثرها شرحان مطول ومختصر، وشرح «الإشارات» وكان

يحفظ «كليات القانون»، ويعظم كلام بقراط، ولا يشير على مشتغل بغير «القانون»، وهو الذي جسّر الناس على هذا الكتاب، وكان لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلاً ولا نهاراً، وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء، والمهذب بن أبي خليفة رئيس الأطباء، وشرف الدين بن صغير، وأكابر الأطباء، ويجلس الناس في طبقاتهم. ومن تلاميذه الأعيان البدر حسن الرئيس، وأمين الدولة ابن القف، والسديد الدمياطي، وأبو الفرج الإسكندري، وأبو الفرج بن صغير.

وحدثني عنه غير واحد / ٣٥٣ / منهم شيخنا أبو الفتح اليعمري قال: كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب وإتقانه لفروعه وأصوله، قليل البصر بالعلاج، فإذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه، ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا مركباً ما أمكنه الاستغناء بمفرد، وكان ربما وصف القمحية لمن شكا القرحة، والتطماج لمن شكا هواء، والخروب والقضامة لمن شكا إسهالاً. ومن هذا ومثله، ولكل بما يلائم مأكله ويشاكلها حتى قال له العطار الشرابي الذي كان يجلس عنده: إذا أردت أنك تصف مثل هذه الوصفات، أقعد على دكان اللحام، وأما إذا قعدت عندي فلا تصف إلا السكر والشراب والأدوية.

وحكى لي شيخنا أبو الثناء الحلبي الكاتب، قال: شكوت إلى ابن النفيس عقلاً في يدي، فقال لي: وأنا والله بي عقال، فقلت له: فبأي شيء أداويه، فقال لي: والله ما أعرف بأي شيء أداويه. ثم لم يزدني على هذا. ومنهم:

[١٤٠]

أحمد المغربي، شهاب الدين، والد الرئيس جمال الدين

إبراهيم بن المغربي^(١)

رئيس الأطباء بمصر والشام، وإليه انتهت الحشمة والاحتشام، كوكب الفضائل الطالع نيراً، والمشرق قمراً منوراً، أخذ من كل العلوم الحكيمة بنصيب موفر الأجزاء، موفر الجنب يعزى إليه بالإعزاء. قدم مصر واستوطنها، وقطع بفضلها من قطنها، وكان فريداً في أنواع العلم إلا أنه عرف بالطب أكثر من بقية ما عرف به من المعارف، وحصل من التالد والطارف.

(١) ترجمته في: أعيان العصر ١/ ٤٤٢، معجم الأطباء ١٢٥-١٢٦.

وخدم السلطان وتقدم الرهط، وتفرد في جماعة الأطباء وأقرأ العلم وأفاد وباشر المرضى وأحسن العلاج وعدّل منحرف كل مزاج، وكان وافر الحظ من السلطان والأمراء والوزراء وسائر الكبراء، وكان بصيراً بالنجامة، متقدماً في علمها، وكان يتكلم فيها مع السلطان وأرباب الدولة / ٣٥٤ / وحصل النعم الجمّة والأموال الجزيلة، وخدم بنوه السلطان وتقدموا في الخدم، وصحب ابنه جمال الدين السلطان حين همّ بالحج أيام سلطته الثانية، فلما أقام بالكرك، أقام معه وترك أسبابه وراءه بمصر منقطعة، فرعى له السلطان حق انقطاعه، وزاد في قدر إقطاعه وولاه الرئاسة حتى تجاوز قدر الرؤساء، وقربه حتى كان من أخصاء الجلّساء. وكان لا يزال يفأوضه في كل حديث، ويطلعه على أكثر الأمور، ورفع إليه يوماً الصلاح بن البرهان قصة يسأل فيها الإعفاء من وظيفته في الطب بالخدمة، وكنت سفيره فيها، فقال لي السلطان: هذا الصلاح أفضل من إبراهيم يعني ابن المغربي، وما يطلب ترك الخدمة إلا لأجله؛ لكونه مقدماً عندنا عليه، فقل: له نحن نعرف فضيلتك، وكبر قدرك، وأنت أفضل من إبراهيم وأكبر، ولكن إبراهيم له علينا حق خدمة من وقت كنا في الكرك، وهو صاحبنا، وهو طبيبٌ عندنا. فبلغته الرسالة بنصها، فسكت على مضض.

قلت: هذا قول السلطان، وأما الرئيس جمال الدين إبراهيم، فإنه من أعيان الأطباء، وأهل الفضل والتقدم في العلم والعمل في الطب وصناعته، والاجتهاد دائماً في توفير بضاعته، ولهذا اكتفيت عن إفراده بترجمة. ومنهم:

[١٤١]

السديد الدميّاطي اليهودي، ويعرف بابن كوجك^(١)

وبنو كوجك وبنو صغير أهل بيت واحد، وهم من يهود بلاد العجم، وكلهم كانوا لا يعرفون إلا ببني كوجك. وكوجك باللغة العربية: صغير فلما قدموا مصر عربّ فريق منهم اسم جدهم المنسوين إليه، وبقي فريق على اسمه الأعجمي. وكان السديد شديد المقال، مديد المجال، جالينوس زمانه في الطب الذي لم يبلغ، والعلم الذي لم يدرك، قرأ على ابن النفيس والنابلسي، / ٣٥٥ / وعلى ابن

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٥/١٢٧، المنهل الصافي ٥/٣٨٤، أعيان العصر ٢/٤٠٤، معجم الأطباء ٢٠٠-٢٠١.

النفيس أكثر، ومن مدده استكثر، أتقن الحكمة والطب وأخذ من كل فن بطرف، وأذعن كل فاضل له واعترف، وكان يحفظ غالب ديوان أبي الطيب المتنبي بل كله، وينشد منه، ويستشهد به في موضعه إذا تكلم، وخدم السلطان، وتقرر لديه فضله، واستقر في كل خاطر أنه لا نظير له في الدهر، وتنافست الأمراء وأكابر الدولة في معالجته. وكانت الأطباء إذا اختلفت في حدى مرض أو وصف دواء، عادوا إلى رأيه ورجعوا إلى قوله، فإذا قال سكت كل قائل، وسلم كل منازع، وكانوا إذا عرض للسلطان مرض وحضروا عنده تقدم السيد فأمسك يد السلطان، وجس نبضه قبل الرئيس، وقبل كل واحد. وكان الرئيس هو السائل عن الأعراض بحضوره ثم تحصل الشورى بينهم على ما يوصف، ويكون مدار الكل على كلام السيد واعتماد السلطان عليه دون الكل.

وكان السيد رجلاً عاقلاً ساكناً لا يكاد يتكلم حتى إذا تكلم كان البحر الزاخر والسيل المنحدر والضرام المتقد والأسد الصَّوَال إلى نقول يستحضرها، وبحوث يحررها، وتجارب يذكرها، وكانت له يدٌ في علم الموسيقى والطرب.

رأيت ابن كر يصفه، ويثني على علمه، وينصفه. وكان على هذا الفضل الغزير والمدد الوافر لا يتوسع في الوصف للإعلاء، ولا يخرج عن الجادة، ولا يعدل عن المعهود، ولا يرى التفقه في الطب كما كان عليه فرج الله بن صغير. وكان السيد اجتهداً لنفسه، وفرج الله اجتهداً للعليل. على أن السيد كان إذا لم يشاركه طبيب آخر يطبب تطبيقاً مستقصى، وإن لم يتوسع فأما إذا شورك سكت وجمد واكتفى بقول المشارك له، وإن كان عنده في الباطن خلافه. وبالجمله كان من الأفراد، وممن تقدم إذا حضرت الأفاضل بالأعداد.

/٣٥٦/ ومنهم:

[١٤٢]

فرج الله بن صغير

طبيبٌ لو حضر معه ابن ماسويه، لما مس العلاج، أو أبو قريش، لما اقر له ابن اللعلاج، أو استشعر به حنين بن إسحاق، لحنّ إلى لقائه، أو كان في زمانه ابن الأشعث، للّمّ شعثه ببقائه، لنفع لو كان للمطجّن لأكل جديه الحنيد، أو لأمين الدولة، لكان عنده ابن التلميذ، وصدق ود لو أنه لابن كلدة لوكل إليه الوفاء، أو لسنى لابن سينا لنسب إليه دونه الشفاء، ولم يكن شرواه في مداواة سقام ومدافعة سمام بملاطفة ما حظي بها النسيم، ولا عبث بشبهها في ملاعبة عطف الروض النسيم.

قال لي: إنه قرأ على أبيه وعلى ابن النفيس، وتلك الطبقة واقتصر على الطب وحققه وأذن له في الكحل، ثم في الطب، وجلس للتطبيب، وعاد المرضى وظهر أثر علمه، وكثر النفع به، وبرىء المرضى على يده وخدم السلطان، وأطلق له المعلوم والوافر والراتب الكامل، وتفرد بخدمة بكتمر الساقى، وكان يعتمد عليه دون سائر الأطباء، ويعمل بقوله في معالجته ومعالجة ولده وحريمه وخواصه وأعزائه.

وكان سلطاننا الملك الناصر يثق به، وأفردته بعد بكتمر الساقى لخدمة الدور السلطانية والنساء والحرَم مع مشاركة الجماعة في مباشرة طبه والحضور عنده، ولم يزل موفر الحظ من الإكرام. وكانت بيننا وبينه صحبة، وله بنا خصوصية، وله من حسن الملاطفة في العلاج ما لم يكن لأحد سواه، وكان في هذا غاية.

جرى ذكره عند الحكيم الفاضل ناصر الدين محمد بن صغير وهو عليل بدمشق، فقال من كان مثل الحكيم فرج الله؟ وأخذ في وصفه، ووصف فضيلته، والثناء عليه، وبالع في هذا وأطنب فيه، فقال له بعض من حضر، فكيف كان السيد الديماطي؟ فقال: كان السيد يعمل في ما يصفه مصلحته، وفرج الله يعمل مصلحة المريض.

/٣٥٧/ قلت: والأمر هو على ما قاله: فإن السيد قل أن كان يخوض الغمرات في الوصف، وفرج الله يخوض الغمرات في الوصف ويؤدّ لو نزع من جسده ثوب العافية وألبسه المريض، وإذا كره المريض أو من حضره غذاء أو دواء، أبدله بغيره، فإن كرهوه أبدله بغيره، يفعل هكذا حتى يصيب موافقه من رضاهم أو مقاربة، وكان يرى أن هذا أجدى في نفع المريض. وكانت له معالجات موافقة، وإصابات في تقدم المعرفة خارقة.

حكى لي غير وواحد من جيراننا بالقاهرة أنه كان معوداً بمعالجة رجل بسويقة صاحب، وقد عرف مزاجه ودربه، فمر به ذات يوم وهو راكب على حماره قد نزل من القلعة على بيته، فرأى ذلك الرجل جالساً على باب المدرسة الصاحبية، فوقف فرج الله قدامه، وذلك الرجل لا يشعر به، وأطال فرج الله النظر إليه، والتأمل إلى سحته، وهو صحيح سوى لا يشكو مرضاً ولا عرضاً، ثم قال له: يا فلان هل عضك في هذه الأيام كلب قط؟ فقال له: نعم، من أيام قلائل. فقال له: قم اقعد في بيتك، وألحق نفسك بالمدواة، ثم ساق حماره، وأتى إلى أهل بيت الرجل، وقال لهم: اعلموا أنني رأيت صاحبكم ورأيت عليه علائم الكلب، فسألته إن كان عضه كلب، فقال: نعم، فأمرته بأن يقعد في بيته، ويلحق نفسه بالمدواة والطب. فالح الله فيه، والله الله في أنفسكم؛ فإنه قد كلب ويوشك أن يجفل من الماء بعد كذا وكذا يوم، ثم يموت بعد كذا وكذا.

فكان الأمر كما ذكره لم يخرم في شيء منه.

ولما اعتل والذي رحمه الله العلة التي مات فيها، كان أولها انصباب مادة بلغمية إلى يده، فورمت منها يده وهو ونحن لا نكثر بذلك ولا يهمننا، والأطباء تتردد إليه في كل صباح ومساء لمعالجته، وفرج الله منهم، فأصبح ذات يوم وقد تصرف الورم بجملته من يده وأصبح بارئاً لا يشك في ذلك نحن ولا الأطباء، وكان منهم ابن البرهان والسديد الدمياطي، / ٣٥٨ / فلما انصرفوا قال لي فرج الله: اعلم أن هذه المادة لم تتصرف، وإنما انصبت بجملتها إلى مكان استضعفته من الأعضاء الباطنة، وأكبر ظني أن تكون انصبت إلى قصبة الرئة، ولئن كان كذلك ليعرضن له آخر هذا اليوم ضيق نفس، ثم قل أن تنجع معالجته مع ما بلغه من هذا السن. فلم يأت آخر ذلك اليوم إلا وقد عرض له مبادئ ضيق نفس، ثم لم يزل يتزايد إلى أن أتى عليه يوم لم نشك أنه لا يخرج عنه، فلما أتاه ورأى ماءه، واستقرأ أعراضه، ووصف له ما وصف، وقام وذلك يوم نصف شعبان، قلت له: تقول يمسي عليه المساء؟ قال: نعم، ويمسك إلى آخر هذا الشهر إلى خمسة [أو] ستة أيام أخرى في شهر رمضان. فكان الأمر كما ذكره لم يخرم.

قلت: وقل أن وصف لي دواءً إلا وبين أثره ليومه، ثم حمدت عاقبته فيما بعده. وعرض لي مرة دوار صفراوي، فأمر بماء فأسخن فوق الاسخان المستطاب، ثم شد قدمي بأنشوطة من فوق الكعيبين وأمر بتدليتهما في ذلك الماء وتعجيل حل الأنشوطة عند تدليتهما في الماء ففعل، ذلك ثم أمر بإطالة اللبث ثم حكها بالحجر الخشن والملح والنخالة، فلم يكن بأسرع من زوال ذلك الدوار لانعكاس المادة. وتفتح المسام في سفل القدم، وأثر ذلك لساعته.

ولما أردت الحج في حجتي الثالثة كان الزمان صيفاً والحر شديداً إلى غاية، فسألته عما أعتده فقال لي: إذا خفت الحر لعلّ بزر قطونا بماء ثم أضيف إليه شيئاً من الخل الحاذق الثقيف، وضمد به صدرك ورقبتك، فإنك لا تبالي بالحر، فوالله لقد كنت أنا ومن معي نعمله ونركب في الهواجر المتوقدة والقيظ المضطرم، ونحن نظن أن على صدورنا قطع الثلج، لا نحس ما الحر، وما ندري ما السموم. إلى غير هذا مما كان فيه من الفضائل، وما فاق به الأنظار، وفاق بالأماثل / ٣٥٩ / فليت الشمس لو أبقتة قليلاً. وواسفاً على مثله كيف مات على اليهودية.

ومنهم:

[١٤٣]

محمد بن صغير، ناصر الدين^(١)

طبيب جامع، ولبيب تشرق كلماته في المسامع، وفاضل لم يقصر في نوع من الفضائل على كثرة تشعبها، ووجي الدراسة ولقبها، مع أخلاق لو تخلقت بها المدام، لما قطب شاربها، ولما قدر أن يذكرها عائبها، إلى فضائل شريفة وشمائل ظريفة، وأخوة صحيحة الإخاء، صريحة الانتحاء. ولقد قال قول جزم أنه قد أصبح اليوم فرداً واحداً لما جمع من شتى المحاسن وكمال الأوصاف.

قرأ العلم واشتغل به، وخدم السلطان، وباشر المرستان، وقرأ النحو والأدب وتطبع به حتى صار خلفاً له، وله في حسن العلاج يدٌ طويلة وآثار جميلة وأفعال حسنة مشكورة، وهو يرى لطف التدبير في معالجة المرضى، وعدم الإقدام عليهم بالأدوية، وكان السلطان يشكره ويشني على نشأته الحسنة. إلى غير هذا مما يتفكّه به من جني الألسنة.

آخر الجزء الثامن^(٢)

من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

ويتلوه إن شاء الله تعالى: وممن يعد من الحكماء أهل علم الموسيقى

والحمد لله رب العالمين

(١) توفي سنة ٧٤٩هـ.

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢٥٨/١، الدرر الكامنة ١٩٠/٤، أعيان العصر ١٨٠/٥، معجم

الأطباء ٤٢٦-٤٢٨.

(٢) صوابه: «التاسع».

مصادر ومراجع التحقيق

- الأئمة الاثنا عشر: شمس الدين محمد بن طولون (ت ٩٥٣هـ) - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - طبعة ١٩٥٨م.
- آثار طرابلس الإسلامي: د. عمر عبد السلام تدمري.
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء: الوزير جمال الدين، أبو الحسن، علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) - طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ.
- أخبار العباس وولده: مؤلف مجهول - تحقيق د. عبد العزيز الدوري ود عبد الجبار المطليبي - طبعة بيروت.
- أخبار القضاة: القاضي وكيع محمد بن حيّان (ت ٣٠٦هـ) - طبعة عالم الكتب. بيروت.
- أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨هـ) - تحقيق د. فريتش كرنكو - المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.
- آداب اللغة العربية: لجرجي زيدان، ط مصر ١٩١٣ - ١٩١٤.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) - طبعة طهران.
- الأسماء والصفات: البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ).
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - طبعة مصر ١٩٣٩.
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦هـ) ٤/ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.
- أعلام الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية: زهير حميدان، ط سورية ١٩٩٥ - ١٩٩٦م.
- أعيان العصر وأعوان النصر: لصالح الدين، خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: د. علي أبو زيد وآخرين، ط مركز جمعة الماجد - أبو ظبي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ) - طبعة مؤسسة جمال بيروت، المصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.
- الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: الأمير هبة الله بن مأكولا (ت ٤٥٧هـ) - نشره المعلمي اليماني - حيدرآباد ١٩٦٢م.
- الأمالي: أبو علي القالي اسماعيل بن

الثالث - تحقيق عبد العزيز الدوري - منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت ١٩٧٨.

• أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) - الجزء الخامس - نشره غويتن - طبعة القدس ١٩٣٦.

• الأنساب المتفقة: أبو الفضل محمد بن طاهر المعروف بابن القيسراني (ت ٥٠٧هـ) - تحقيق دي غويه - طبعة المثني ببغداد.

• الأوراق: لمحمد بن يحيى الصولي نشر منها: أخبار الرازي بالله والمتقي بالله، ط مصر ١٩٣٥، وأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، ط مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

• الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية: - د. صبحي المحمصاني - بيروت ١٩٧٨.

• البدء والتاريخ: المنسوب لأحمد بن سهل البلخي، وهو لمطهر بن طاهر المقدسي، ط شالون ١٩١٦.

• البداية والنهاية في التاريخ: اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) - طبعة بيروت، الرياض ١٩٦٦م.

• بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٨هـ) - نشرته دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧م.

• بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنّحاة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ.

القاسم البغدادى (ت ٣٥٦هـ) - تقديم محمد عبد الجواد الأصمعي - طبعة دار الكتاب العربي ببيروت المصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.

• أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودور القلائد): الشريف المرتضى علي بن الحسن الموسوي العلوي (ت ٤٣٦هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٧.

• الإمتاع والمؤانسة: أبي حيان التوحيدى (ت ٤٠٠هـ) نشر: أحمد أمين وأحمد الزين ط القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

• أمراء دمشق في الإسلام: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٥م.

• إنباه الرواة على أنباء النّحاة: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥م.

• الانتقاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء: مالك والشافعي وأبي حنيفة - يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٣٦٤هـ) - القاهرة ١٩٥٠م.

• الأنساب: الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ) - تحقق محمد عوّامة - نشره محمد أمين دمج - بيروت.

• أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) - الجزء

- الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - نشره حسام الدين القدسي - القاهرة.
- تاريخ بغداد: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) - طبعة محمد أمين الخانجي - مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١م.
- تاريخ بيروت والأمراء البُختريين: صالح بن يحيى (توفي في القرن التاسع الهجري) - تحقيق فرنسيس هورس وكمال الصليبي - طبعة المشرق، الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٧.
- تاريخ جُرْجان: أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي - طبعة حيدرآباد ١٩٥٠م.
- تاريخ الحكماء (مختصر الزُّوزني المسمّى بالمنتخبات الملتَقَطات من أخبار الحكماء): جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (تت ٦٤٦هـ) - نشره ليبيرت - لَيْبِرْغ ١٩٠٣م.
- تاريخ حكماء الإسلام: لظهير الدين البيهقي، تحقيق: محمد كرد علي، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
- تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - طبعة السعادة بمصر ١٩٥٢.
- تاريخ خليفة بن خياط: خليفة بن خياط، أبو عمر شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - طبعة

- البيان المُعَرَّب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى المراكشي - نشره ج.س. كولان، وليفي بروفنسال - طبعة دار الثقافة، بيروت.
- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - طبعة دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨.
- تاج العروس من جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي - سلسلة التراث العربي، منشورات وزارة الإعلام، الكويت.
- التاج المكلَّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول: أبو الطيّب صديق بن حسن القنوجي - طبعة بمباي ١٩٦٣م.
- التاريخ: يحيى بن مَعِين، أبو زكريا يحيى بن مَعِين بن عون بن زياد المرّي العَطَفاني (ت ٢٣٣هـ) - تحقيق د. أحمد محمد نور سيف - منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة ١٩٧٩.
- تاريخ أبي زُرْعَة: أبو زُرْعَة عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي - رواية أبي الميمون بن راشد - تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠م.
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم (٣٩٦).
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد

- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) - (تراجم حرف ع - من اسمه: عائذ - عاصم) - تحقيق د. شكري فيصل - مطبوعات، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٧.
- تاريخ الموصل: أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي (ت ٣٣٤هـ) - تحقيق د. علي حبيبة - القاهرة ١٩٦٧.
- تاريخ واسط: أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف ببشل (ت ٢٨٠هـ) - تحقيق د. كوركيس عواد - مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٧م.
- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) - منشورات دار صادر بيروت.
- تمة اليتيمة: لأبي منصور الثعالبي، ط طهران ١٣٥٣هـ.
- تذكرة الحُفَظ: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - طبعة حيدرآباد ١٩٥٥ - ١٩٥٧م.
- مقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى اليماني - طبعة حيدرآباد ١٩٥٢.
- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - نشره عبد الوهاب بن عبد اللطيف - بيروت ١٩٧٥.
- تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا

- مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧.
- تاريخ الرسل والملوك: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف بمصر.
- التاريخ الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) - طبعة الهند ١٣٢٥هـ.
- تاريخ علماء الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي المعروف بابن الفَرَضِي (ت ٤٠٣هـ) - طبعة القاهرة ١٩٦٦.
- التاريخ الكبير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) صحَّحه عبد الرحمن بن يحيى اليماني - نشرته دائرة المعارف العثمانية ١٣٦٢هـ.
- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) - نسخة خطية بدار الكتب الظاهرية، دمشق رقم ٣٣٨٧.
- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) - نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ١٠٤١ تاريخ - تيمور.
- تاريخ مدينة دمشق: الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) - نسخة مصوَّرة تتضمَّن تراجم من اسمه «عبد الله» - نشرها مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٨م.

- جمهرة أنساب العرب: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) - تحقيق عبد السلام محمد هارون - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: محمد بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت ٧٧٥هـ) - طبعة حيدرآباد ١٣٣٢هـ.
- حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) - طبعة دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.
- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم العراق): للعماد الأصفهاني الكاتب، تحقيق: محمد بهجت الأثري، ط بغداد ١٩٥٥ وما بعدها.
- خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) - تحقيق عبد السلام محمد هارون - طبعة القاهرة ١٩٦٦.
- خلاصة تذهيب تذهيب الكمال في أسماء الرجال: صفّي الدين الخزرجي الأنصاري - طبعة مصر ١٣٢٢هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفتدي، وأحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، ط مصر ١٩٣٣ - ١٩٥٧م.
- محيي الدين بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) - طبعة بيروت.
- تهذيب التاريخ الكبير (تاريخ دمشق): الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ) - هذبه عبد القادر بدران - طبعة دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩.
- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - طبعة حيدرآباد ١٣٢٥ وما بعدها.
- الثقات: محمد بن حَبّان البُستي (ت ٣٥٤هـ).
- الجامع الصغير: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ).
- جذوة المقتبس في ذكر وُلاة الأندلس: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحُمَيْدي (ت ٤٨٨هـ) - طبعة مصر ١٩٦٦.
- الجرح والتعديل: عبد الرحمن بن أبي حاتم بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الرازي (ت ٣٢٧هـ) - طبعة حيدرآباد ١٩٥٣م.
- الجماهر في الجواهر: لمحمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) تحقيق: يوسف الهادي، ط مركز نشر التراث المخطوط، إيران ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- الجمع بن رجال الصحيحين: أبو الفضل محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧هـ) - طبعة حيدرآباد ١٣٢٣هـ.

- دفع شُبّه التشبيه: ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ).
- دُول الإسلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق فهد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٤م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت: تحقيق: بهجة عبد الغفور الحديشي ط بغداد ١٩٩١.
- ديوان رؤبة بن العجاج: رؤبة بن العجاج (ت ٤٤٥هـ) - نشره وليم ابن اللورد البروسي، سنة ١٩٠٣.
- ديوان ابن سينا: تحقيق: د. حسين علي محفوظ، ط طهران ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٩م.
- ديوان عرقلة الكلبي (حسان بن نمير ت ٥٦٧هـ): تحقيق: أحمد الجندي ط دار صادر بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- ديوان ابن عنين (شرف الدين، أبي المحاسن، محمد بن نصر الدمشقي): تحقيق: خليل مردم بك، ط المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
- ديوان كثير عزة: جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة - بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- ديوان المعاني: أبو هلال العسكري - طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٢هـ.
- ديوان أبي نؤاس (الحسن بن هاني): تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، ط دار الكتاب العربي - بيروت [دت].
- ذُكر أخبار أصبهان: الحافظ أبو نُعَيْم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) - نشره سنن دررنج - طبعة ليدن ١٩٣١م.
- ذيل مرآة الزمان: لموسى بن محمد اليونيني، ط حيدرآباد - الدكن ١٣٧٤ وما بعدها.
- رجال السند والهند إلى القرن السابع: القاضي أبو المعالي أظهر المباركوري - طبعة دار الأنصار بالقاهرة ١٣٩٨هـ.
- رجال الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) - نشره محمد صادق آل بحر العلوم - المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦١م.
- رسالة محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي - أحمد بن محمد بن أحمد الموصلي المعروف بابن زيد (ت ٨٧٠هـ) - نشره شبيب أرسلان، القاهرة ١٩٣٣.
- رفع الإضر عن قضاء مصر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) - تحقيق حامد عبد المجيد - نشرته وزارة الثقافة والإرشاد بمصر، ١٩٦١.
- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات: ميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري - طبعة إيران ١٣٦٧هـ.
- زهر الآداب وثمر الألباب: الحُصَري - تحقيق علي محمد البجاوي - طبعة مصر ١٩٥٣م.
- السابق واللاحق في تباعد ما بين وفاة راويين عن شيخ واحد: الحافظ أبو بكر

- أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) - تحقيق ودراسة محمد بن مطر الزهراني - طبعة دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

• سرح العيون: في شرح رسالة ابن زيدون: لابن نباتة، ط الإسكندرية ١٢٩٠هـ.

• سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرنؤوط - طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.

• شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) - منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، المصوَّرة عن الطبعة المصرية ١٣٥١هـ.

• شرح مقامات الحريري: الشريشي أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦٣٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة المدني بمصر ١٩٧٣.

• الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) - طبعة دار الثقافة ببيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

• شعر أبي الفرج بن هندو: جمع وتحقيق: د. عبد الرازق حويزي، ط القاهرة ٢٠٠٠م.

• صفة الصفوة: جمال الدين أبو الفرج المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) - تحقيق محمود فاخوري - خرَّج أحاديثه

محمد رؤاس قلعه جي - طبعة حلب ١٣٩٣هـ.

• الضعفاء الصغير: الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) (ملحق بالتاريخ الصغير) - تحقيق محمود إبراهيم زايد - طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

• الضعفاء والمتروكين: الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي - (ملحق بالضعفاء الصغير للبخاري) - تحقيق محمود إبراهيم زايد - طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

• الطبقات: أبو عمر خليفة بن خياط شباب العصفري (ت ٢٤٠هـ) - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - طبعة العاني ببغداد ١٩٦٧م.

• طبقات الأطباء والحكماء: لأبي داود، سليمان بن حسان، المعروف بابن جليل، ط مصر ١٩٥٥.

• طبقات الأئم: لأبي القاسم بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ)، ط السعادة بمصر.

• طبقات الحُقَّاظ: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي (ت ٩١١هـ) - طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

• طبقات الشافعية الكبرى: لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، تاج الدين، أبو نصر (ت ٧٧١هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، د. محمود

- أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) - تحقيق ودراسة محمد بن مطر الزهراني - طبعة دار طيبة، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- سرح العيون: في شرح رسالة ابن زيدون: لابن نباتة، ط الإسكندرية ١٢٩٠هـ.
- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرنؤوط - طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) - منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، المصورة عن الطبعة المصرية ١٣٥١هـ.
- شرح مقامات الحريري: الشريشي أحمد بن عبد المؤمن (ت ٦٣٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة المدني بمصر ١٩٧٣.
- الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) - طبعة دار الثقافة ببيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- شعر أبي الفرج بن هندو: جمع وتحقيق: د. عبد الرازق حويزي، ط القاهرة ٢٠٠٠م.
- صفة الصفوة: جمال الدين أبو الفرج المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) - تحقيق محمود فakhوري - خرّج أحاديثه

- محمد الطناحي، ط ٢ دار هجر - الجيزة - مصر ١٤١٣هـ / ١٤١٢م.
- طبقات الشعراء المحدثين: ابن المعتز - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٦.
 - طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - طبعة بيروت ١٩٧٠.
 - طبقات القراء = غاية النهاية.
 - الطبقات الكبرى: محمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ١٩٥٨م.
 - الطبقات الكبرى: المُسمّاة (لواقح الأنوار في طبقات الأخبار) - أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراين - طبعة البابي الحلبي، مصر ١٩٥٤.
 - طبقات المدلسين: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).
 - طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى بن المرتضى - تحقيق سوسنة ديقلد - فلزر - طبعة بيروت ١٩٦١.
 - طبقات المفسرين: محمد بن علي بن أحمد الداودي (ت ٩٤٥هـ) - تحقيق علي محمد عمر - طبعة القاهرة ١٩٧٢.
 - طبقات النُحاة واللُغويين: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٣.
 - عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام: طه الولي - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
 - العبر في خبر مَنْ غَبَر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق د. صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد - طبعة الكويت ١٩٦٠-١٩٦٦.
 - العُقد الفريد: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ) - تحقيق الأساتذة: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر ١٩٥٢م.
 - العُقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ) - تحقيق فؤاد سيد ومحمد طاهر الطناحي - القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٩م.
 - العلوم العملية: عمر رضا كحالة، ط دمشق.
 - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: أحمد بن علي الداودي الحسني - تحقيق د. نزار رضا - طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت.
 - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والتيسير: أبو الفتح محمد بن أبي عمرو محمد المعروف بابن سيّد الناس (ت ٧٣٤هـ) - طبعة مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٦٥هـ.

- عيون الأخبار: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري (ت ٢٧٦هـ) - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ) - شرح وتحقيق: د. نزار رضا، ط دار مكتبة الحياة - بيروت [دت].
- غاية النهاية في طبقات القراء: محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ) - تحقيق أ. ت. بدتزل وبرجستراسر - القاهرة ١٩٣٣م - ١٩٣٧م.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ) - طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.
- الفهرست: محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت ٣٨٠هـ) - طبعة مصورة عن طبعة أوربة بتحقيق فلوجل - مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٤م.
- فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ). نشره فرنستسكه قداره زبدين وخليان رباره طرغوه: طبعة سرقسطة ١٨٩٣ (مصورة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩).
- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٧٣، ١٩٧٤.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي (ت ٨١٧هـ) - مصورة دار الفكر، بيروت.
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية: أبو عبد الله الخشني - طبعة القاهرة ١٣٧٢هـ.
- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان: لجمال الدين، أبي البركات، المبارك ابن الشعار، الموصلي (ت ٦٥٤هـ) تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - نشره عزت علي عيد عطية وموسى محمد علي الحوشي - طبعة القاهرة ١٩٧٢م.
- الكامل في التاريخ: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) - طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥.
- كنوز الأجداد: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م.
- كشف الظنون: عن أسامي الكتب والفنون: لمصطفى بن عبد الله الشهير

الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ) - تحقيق
محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة
١٩٥٨.

• مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حبان
البُستي (ت ٣٥٤هـ) - نشره م. فلا يشهم
- طبعة القاهرة ١٩٥١م.

• المشتبه في أسمال الرجال: شمس
الدين محمد بن الذهبي (ت ٧٤٨هـ) -
تحقيق علي محمد البجاوي - طبعة
القاهرة ١٩٦٢.

• المصايد والمطارد: محمود بن الحسين،
أبو الفتح المعروف بكشاجم (ت
٣٦٠هـ) - تحقيق د. محمد أسعد طلس -
طبعة بغداد ١٩٥٤.

• المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة
الدِّينُوري (ت ٢٦٧هـ) - تحقيق د. ثروت
عُكاشة - طبعة دار المعارف بمصر
١٩٦٩م.

• معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة
الأديب): أبو عبد الله شهاب الدين
ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي (ت
٦٢٦هـ) - نشره د. مرجليوت - القاهرة
١٩٣٦-١٣٩٨.

• معجم الأطباء: لأحمد عيسى، ط مصر
١٣٦١هـ/١٩٤٢م.

• معجم البلدان: أبو عبد الله شهاب الدين
ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت
٦٢٦هـ) - طبعة دار صادر، بيروت.

• معجم بني أمية: د. صلاح الدين المنجد

بحاجي خليفة وبكاتب حلبي، ط
استانبول ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

• اللُّبَاب في تهذيب الأنساب: عزّ الدين
علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن
عبد الكريم الشيباني المعروف بابن
الأثير الجذري (ت ٦٣٠هـ) - طبعة دار
صادر، بيروت.

• لسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد
المعروف بابن حجر العسقلاني (ت
٨٥٢هـ) - طبعة حيدرآباد ١٣٢٩هـ.

• مجاني الأدب: الأب لويس شيخو.

• المجروحين من المحدثين والضعفاء
والمتروكين: محمد بن حبان البُستي (ت
٣٥٤هـ)، نشره محمود إبراهيم زايد -
طبعة حلب ١٣٩٦هـ.

• المحبّر: رواية أبي سعيد الحسن بن
الحسين السُّكّري، عن أبي جعفر محمد
ابن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ) -
صحّحه د. إيلزه ليختن شتير مصوّة دار
الآفاق الجديدة ببيروت عن طبعة
حيدرآباد ١٣٦١هـ.

• مراتب النّحويين: أبو الطيّب عبد
الواحد بن علي اللُّغوي - تحقيق محمد
أبو الفضل إبراهيم - طبعة القاهرة
١٩٥٥م.

• مِرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث
الزمان: أبو محمد عبد الله اليافعي
(ت ٧٦٨هـ) - طبعة حيدرآباد ١٣٢٨.

• مروج الذهب ومعارف الجواهر: علي بن

حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - طبعة القاهرة.

• الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، ط مصر ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

• مناقب أبي حنيفة: الإمام الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ) - نشره محمد حيدر الله خان الدراني الحنفي - صورته دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠١هـ. عن طبعة حيدرآباد.

• مناقب أبي حنيفة: الإمام حافظ الدين بن محمد المعروف بالكردري (ت ٨٢٧هـ) مُلْحَق بالذي قبله.

• الْمُنتَخَب من كتاب ذيل المُذَيَّل: محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

• المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم: الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧٠هـ) - نشره د.ف. كرنكو - طبعة القدسي بالقاهرة.

• موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي: جمعها د. عمر عبد السلام تدمري - طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت ١٩٨٤.

• موسوعة المستشرقين: لعبد الرحمن بدوي، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٤٠٤هـ.

- طبعة دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٠.

• معرفة علوم الحديث: الإمام الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) - تحقيق د. السيد معظم حسين - مصوِّرة المدينة المنورة ١٩٧٧ عن طبعة حيدرآباد.

• معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق محمد سيد جاد الحق - طبعة دار التأليف بمصر ١٩٦٩م.

• المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي (ت ٢٧٧هـ) - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - طبعة وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٤-١٩٧٦م.

• المُغْنِي في الضعفاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق د. نور الدين تمر - مصوِّرة بيروت (لا مكان للطبع ولا تاريخ).

• مفتاح الكنوز الخفية: فهرس مخطوطات وقفها بهادر خدابخش خان، ط الهند ١٩١٨-١٩٢٢م.

• مقاتل الطالبين: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر - طبعة القاهرة ١٩٤٩.

• مقدِّمة فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن محمد بن

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) - تحقيق علي محمد البجاوي - القاهرة ١٩٦٣م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تعزي بردي (ت ٨٧٤هـ) - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء والنحاة: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ) - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - بغداد ١٩٥٩م.
- نزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) - نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٣٣٦ مصطلح الحديث.
- نسب قريش: مَضْعَب بن عبد الله بن الزبير (ت ٢٣٦هـ) - تحقيق ليفي بروفنسال - طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٣.
- نكت الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٤٦هـ). نشره د. أحمد زكي - القاهرة ١٩١١م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.
- نور القيس المختصر من المقتبس: للمرزباني - اختصار الحافظ أبي المحاسن يوسف بن أحمد (ت ٦٧٣هـ) - تحقيق رودلف زلهاييم - المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤م.
- الهدايا والتحف: للخالدين.
- الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ).
- منشورات المعهد الألماني للأبحاث الشرقية: بيروت ١ - ١٧ جزءاً.
- الوزراء والكتّاب: محمد بن عبدوس الجهشيار (ت ٣٣١هـ) - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي - طبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - طبعة دار الثقافة بيروت، وط دار صادر - دار الفكر - بيروت [دت].
- الولاة والقضاة: أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري (ت ٣٥٠هـ) - نشره رفن كست - مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨.

فهرس الموضوعات

٣ مقدمة التحقيق
٥ صور المخطوط
١٧ مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة
١٨ [١] هرمس المثلث بالنعمة
٢٠ [٢] هرمس الثاني
٢٠ [٣] هُرمُس الثالث
٢٢ فلاسفة اليونان
٢٢ [٤] بندقليس
٢٢ [٥] فيثاغورس
٢٤ [٦] سقراط
٢٦ [٧] أفلاطون
٢٨ [٨] أرسطوطاليس
٣٤ مشاهير الفلاسفة في الجانب الشرقي
٣٤ [٩] يعقوب بن إسحاق الكندي، أبو يوسف
٣٦ [١٠] أحمد بن الطيب السَّرْحَسِي. أبو العباس
٣٧ [١١] كَنَكه الهندي
٣٧ [١٢] صنجهل الهندي
٣٧ [١٣] أبو نصر الفارابي، محمد بن محمد بن أُوَزَلَع بن طَرْحَان
٤٢ [١٤] يحيى بن عدي، أبو زكرياء المنطقي
٤٣ [١٥] أبو بكر، محمد بن زكرياء الرازي
٤٦ [١٦] أبو سليمان السجستاني
٤٧ [١٧] ابن الخمار، وهو أبو الخير، الحسن بن سوار بن بابا
٤٨ [١٨] أبو الفرج ابن هندو
٥١ [١٩] الشيخ الرئيس، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا
٦٧ [٢٠] أبو الفرج، عبد الله بن الطيّب، كاتب الجائليق
٦٨ [٢١] أبو الوليد، محمد بن محمد بن المجلي الجزري، المعروف بابن الصائغ
٧١ [٢٢] ابن الخطيب الرازي، ابن خطيب الري
 [٢٣] القطب المصري، وهو إبراهيم بن علي بن محمد السُّلَمي، أبو إسحاق، الإمام
٨١ قطب الدين
 [٢٤] عبد اللطيف البغدادي، هو ابن يوسف [بن] محمد بن علي بن أبي سعيد، عرف
 بابن اللباد، موفق الدين، أبو محمد، الموصللي الأصل، البغدادي المولد،

- ٨٢ ويعرف بالجدي المطجّن
- [٢٥] ابن الحُوّئي، أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى الشافعي، شمس الدين
- ٩٤ أبو العباس قاضي القضاة
- [٢٦] الرفيع الجيلي، أبو حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل بن عبد الهادي
- ٩٧ الشهاب السهروردي
- [٢٨] الحُسْرُو شَاهِي، عبد الحميد بن عيسى، شمس الدين، أبو محمد
- ١٠٤ [٢٩] السيف الآمدي، علي بن [أبي] علي بن محمد بن سالم، سيف الدين أبو الحسن
- ١٠٦ التغلبي الآمدي
- [٣٠] البَدِيع الأَصْطَرُلَابِي، وهو بديع الزمان أبو القاسم، هبة الله بن الحسين بن أحمد
- ١٠٧ البغدادي
- [٣١] وهو أبو علي، الحسين بن عبد الله بن يوسف بن شبل البغدادي شبل
- ١٠٩ [٣٢] النصير الطوسي، محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين، أبو عبد الله،
- ١١٣ الطوسي الفيلسوف
- ١١٨ [٣٣] القطب الشيرازي
- ١١٩ [٣٤] الشيخ صفى الدين الهندي
- [٣٥] علي بن اسماعيل بن يوسف الإمام العلامة، القدوة العارف، ذو الفنون، الشيخ
- ١٢٠ علاء الدين، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ أبو الحسن، القنوي، التبريزي
- [٣٦] القاضي جلال الدين القزويني، أبو المعالي، محمد ابن القاضي سعد الدين أبي القاسم عبد
- ١٢٣ الرحمن بن عمر بن أحمد الشافعي الدُّلْفِي
- [٣٧] السيد العبري، برهان الدين، عبيد الله بن محمد الحسيني العبري
- ١٣١ [٣٨] الشيخ شمس الدين الأصفهاني، وهو محمود بن أبي القاسم بن أحمد، أبو الثناء
- ١٣٢ مشاهير فلاسفة المغاربة وحكماؤها بالأندلس
- ١٤٣ [٣٩] يحيى بن يحيى، المعروف بابن السمينة
- ١٤٣ [٤٠] ابن المرجطي. أبو القاسم، مسلمة بن أحمد
- ١٤٤ [٤١] ابن السمح، أبو القاسم، أصبغ بن محمد بن السَّمْح الغرناطي المهندس
- ١٤٥ [٤٢] أبو الحكم الكرمانى، وهو عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي من أهل قرطبة ...
- ١٤٦ [٤٣] ابن وافد
- ١٤٦ [٤٤] محمد بن يوسف المنجم
- ١٤٧ [٤٥] أبو بكر بن باجة، ابن الصائغ، واسمه محمد بن يحيى الأندلسي
- ١٤٨ [٤٦] المبشر بن فاتك، وهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الأمري
- ١٥٠ [٤٧] الحفيد أبو بكر، محمد بن زُهر
- ١٥١ [٤٨] محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف، الإمام العلامة المتقن، جامع
- أشتات الفضائل، ركن الدين، أبو عبد الله، ابن القَوْبَع القرشي الهاشمي الجعفري
- ١٥٤ المالكي التونسي

- [٤٩] محمد بن إبراهيم المتطبب، صلاح الدين المعروف بابن البرهان الجرائحي ١٥٨
- [٥٠] ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، شمس الدين، أبو عبد الله السنجاري المولد والأصل المصري الدار ١٦١
- أوائل الأطباء ١٦٥
- [١] اسقلينوس بن زيوس ١٦٥
- [٢] أيلق ويقال أيلة ١٦٧
- حكماء الجانب الشرقي ١٦٨
- حكماء العرب ١٦٨
- [٣] الحارث بن كَلْدَة الثقفي ١٦٨
- [٤] النضر بن الحارث بن كلد ١٧٣
- [٥] عبد الملك بن أبجر ١٧٥
- [٦] ابن أثال ١٧٦
- [٧] أبو حكم ١٧٨
- [٨] حكم الدمشقي ١٧٩
- [٩] عيسى بن حكم الدمشقي، المعروف بالمسيح ١٨٠
- [١٠] بياذوق ١٨٢
- [١١] زينب طيبة بني أود ١٨٤
- أطباء الشريان الكاثنين في ابتداء الدولة العباسية ١٨٥
- [١٢] جرجس بن جبريل ١٨٥
- [١٣] بختيشوع بن جرجس ١٨٦
- [١٤] جبريل بن بختيشوع ١٨٧
- [١٥] بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع ١٩١
- [١٦] جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ١٩٨
- [١٧] خصيب النصراني ١٩٩
- [١٨] عيسى المعروف بأبي قريش ٢٠٠
- [١٩] ابن اللجلاج ٢٠٢
- [٢٠] عبد الله الطيفوري ٢٠٢
- [٢١] إسرائيل بن زكريا الطيفوري، طيب الفتح بن خاقان ٢٠٣
- [٢٢] يزيد بن يوحنا بن أبي خالد ٢٠٤
- [٢٣] عبدوس بن زيد ٢٠٦
- [٢٤] ماسرْجُويه ٢٠٧
- [٢٥] سلمويه بن بيان ٢٠٨
- [٢٦] إبراهيم بن فزارون ٢٠٩
- [٢٧] إبراهيم بن أيوب الأبرش ٢١٠

- [٢٨] ماسويه بن يوحنا ٢١١
- [٢٩] يوحنا بن ماسويه ٢١٢
- [٣٠] ميخائيل بن ماسويه ٢٢٠
- [٣١] حنين بن إسحاق العبادي، أبو زيد ٢٢٠
- [٣٢] إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي، أبو يعقوب ٢٢٣
- [٣٣] يوحنا بن بختيشوع ٢٢٤
- [٣٤] ثابت بن قرّة الحراني، أبو الحسن ٢٢٥
- [٣٥] سنان بن ثابت بن قرّة، أبو سعيد ٢٢٧
- [٣٦] ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني ٢٢٨
- [٣٧] ابن وصيف الصابئ ٢٣١
- [٣٨] غالب، طبيب المعتضد ٢٣٢
- [٣٩] صاعد بن بشر بن عبدوس، أبو منصور ٢٣٢
- [٤٠] ديلم ٢٣٥
- [٤١] فنون، طبيب بختيار ٢٣٥
- [٤٢] نظيف القس الرومي ٢٣٦
- [٤٣] ابن بطلان، وهو أبو الحسن، المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان النصراني ٢٣٧
- [٤٤] أحمد بن أبي الأشعث ٢٣٨
- [٤٥] أبو سهل النيلي، وهو سعيد بن عبد العزيز ٢٣٩
- [٤٦] ابن الواسطي ٢٣٩
- [٤٧] أبو طاهر البرخشي، وهو أحمد بن محمد بن العباس ٢٤٠
- [٤٨] أبو غالب ابن صفية النصراني ٢٤١
- [٤٩] أمين الدولة ابن التلميذ ٢٤٢
- [٥٠] معتمد الملك بن صاعد، وهو أبو الفرج، يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ ٢٤٦
- [٥١] أوحّد الزمان، وهو أبو البركات، هبة الله بن علي بن ملكا البلدي ثم البغدادي ٢٤٧
- [٥٢] أبو القاسم، هبة الله بن الفضل البغدادي ٢٥٠
- [٥٣] فخر الدين المارديني، الإمام أبو عبد الله، محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري ٢٥٣
- [٥٤] أبو نصر المسيحي، وهو سعيد بن أبي الحسن بن عيسى ٢٥٣
- [٥٥] أبو الفرج ابن توما، وهو صاعد بن هبة الله بن توما النصراني البغدادي ٢٥٥
- مشاهير الأطباء ببلاد العجم ٢٥٧
- [٥٦] قياذوس ٢٥٧
- [٥٧] ربن الطبري ٢٥٧
- [٥٨] علي بن سهل بن ربن الطبري، أبو الحسين ٢٥٨

- ٢٥٨ [٥٨] أحمد بن محمد الطبري، أبو الحسن
- ٢٥٩ [٥٩] أبو منصور، الحسن بن نوح القُمري
- ٢٦٠ [٦٠] أبو سهل، عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني
- ٢٦١ [٦١] السيد أبو عبد الله، محمد بن الإيلاقي
- ٢٦١ [٦٢] أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني
- ٢٦٢ [٦٣] أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصبهاني، أبو علي
- [٦٤] ابن أبي صادق، وهو أبو القاسم، عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن أبي صادق
- ٢٦٣ النيسابوري
- ٢٦٤ [٦٥] السَّموأل بن يحيى بن عباس، المغربي الأصل، البغدادي الدار
- ٢٦٥ [٦٦] الشريف شرف الدين اسماعيل
- ٢٦٥ أطباء الهند
- ٢٦٥ [٦٧] شاناق الهندي
- ٢٦٦ [٦٨] منكّة الهندي
- ٢٦٧ [٦٩] صالح بن بهلة الهندي
- ٢٦٩ أطباء الشام
- ٢٦٩ [٧٠] البيرودي، وهو أبو الفرج، جرجس بن توما بن سهل بن إبراهيم
- ٢٧٢ [٧١] ظافر بن جابر السكري، أبو حكيم
- ٢٧٣ [٧٢] أبو الحكم، عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي
- ٢٧٤ [٧٣] ابنه أبو المجدد بن أبي الحكم، أفضل الدولة
- ٢٧٤ [٧٤] ابن البذوخ، وهو أبو جعفر بن موسى بن علي القلعي
- [٧٥] حكيم الزمان، أبو الفضل، عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حَسَن الغساني
- ٢٧٥ الجَلَيَّاني
- ٢٧٦ [٧٦] المهذب بن النقاش، أبو الحسن، علي بن عيسى بن هبة الله
- ٢٧٧ [٧٧] سكرة اليهودي الحلبي
- ٢٧٨ [٧٨] أسعد بن المطران، الموفق
- [٧٩] ابن اللَّبُودي، يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد، الصاحب نجم الدين، أبو
- ٢٧٩ زكرياء
- ٢٨١ [٨٠] الرضّي الرّحبي، يوسف بن حيدرة بن الحسن، أبو الحجاج
- ٢٨٢ [٨١] الشرف علي، شرف الدين، أبو الحسن
- ٢٨٣ [٨٢] عمران الإسرائيلي، واسم أبيه صدقة، ويلقب بالأوحد
- ٢٨٥ [٨٣] يعقوب بن صقلاب النصراني
- ٢٨٦ [٨٤] الرشيد الصُّوري، أبو منصور بن أبي الفضل بن علي
- [٨٥] السديد ابن رُقَيْقَة، أبو الثَّناء، محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن شجاع
- ٢٨٧ الحانوتي

- [٨٦] صدقة السامري، وهو صدقة بن منجا بن صدقة ٢٨٩
- [٨٧] المهذب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري ٢٩٠
- [٨٨] أمين الدولة، أبو الحسن ابن غزال بن أبي سعيد السامري، وزير الصالح اسماعيل . ٢٩١
- [٨٩] المَهْذَبُ الدُّخْوَار، أبو محمد، عبد الرحيم بن علي بن حامد ٢٩٣
- [٩٠] الرشيد، علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة الأنصاري الخزرجي، من ولد سعد بن عبادة رضي الله عنه ٢٩٥
- [٩١] ابن قاضي بَعْلَبُك، المظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم ٢٩٧
- [٩٢] العماد الدَّنِسَرِي، محمد بن العباس بن أحمد بن عُبيد الربيعي ٢٩٩
- أبو عبد الله ٢٩٩
- [٩٣] العزَّ السُّوَيْدِي، إبراهيم بن محمد الأنصاري الأوسي من ولد سعد بن معاذ رضي الله عنه، عز الدين، أبو اسحاق ٣٠١
- [٩٤] الموفق السامري، وهو يوسف بن يعقوب بن غنايم ٣٠٢
- [٩٥] أبو الفرج، يعقوب بن إسحاق بن القف النصراني ٣٠٣
- [٩٦] المهذب، يوسف كاتب الزَّرْدَكاش ٣٠٥
- [٩٧] النفيس، أبو الفرج ابن إسحاق بن أبي الخير السامري ٣٠٥
- [٩٨] الأمين سليمان الحكيم، وهو سليمان بن داود، أمين الدولة، أبو الربيع ٣٠٦
- [٩٩] أحمد بن شهاب الدين، أبو محمد الكحال الجرائحي ٣٠٩
- [١٠٠] الفتح السامري، هو ابن يوسف بن إسحاق بن مسلم، من سبط يوسف عليه السلام .. ٣٠٩
- [١٠١] غنايم السامري، وهو ابن المهذب يوسف كاتب الزردكاش ٣١٠
- أطباء الغرب في مصر والاسكندرية ٣١٢
- [١٠٢] إسحاق بن عمران ٣١٢
- [١٠٣] إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، أبو يعقوب ٣١٣
- [١٠٤] أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار القيرواني، أبو جعفر ٣١٤
- [١٠٥] حمدون اثا ٣١٦
- [١٠٦] يحيى بن إسحاق ٣١٦
- [١٠٧] أبو داود ابن جُلْجُل: وهو سليمان بن حسان المعروف بابن جُلْجُل ٣١٧
- [١٠٨] أبو جعفر، يوسف بن محمد بن حسداي ٣١٨
- [١٠٩] الغافقي، وهو أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سند ٣١٩
- [١١٠] أبو بكر، عتيق بن تمام بن أبي النوق الأزدي ٣٢٠
- [١١١] أبو محمد المصري ٣٢١
- [١١٢] أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني ٣٢٣
- [١١٣] أبو مروان، عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الإشبيلي ٣٣٠
- [١١٤] ابنه أبو العلاء، زهر بن عبد الملك ٣٣٠
- [١١٥] ابنه أبو مروان ابن أبي العلاء، واسمه عبد الملك ٣٣١

- ٣٣٣ [١١٦] أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر
 ٣٣٤ [١١٧] أبو جعفر بن الغزال
 ٣٣٤ [١١٨] أبو العباس ابن الرومية، وهو أحمد بن محمد بن مفرج النباتي
 ٣٣٥ [١١٩] ابن الأصم
 ٣٣٧ [أطباء مصر]
 ٣٣٧ [١٢٠] بلطيان
 ٣٣٨ [١٢١] سعيد بن توفيل
 ٣٣٩ [١٢٢] سعيد بن البطريق
 ٣٣٩ [١٢٣] التميمي، وهو أبو عبد الله، أحمد بن سعيد
 ٣٤١ [١٢٤] ابن الهيثم، وهو أبو علي، محمد بن الحسن بن الهيثم البصري ثم المصري
 ٣٤٣ [١٢٥] علي بن رضوان
 ٣٤٤ [١٢٦] أفرايم الإسرائيلي
 ٣٤٥ [١٢٧] سلامة بن رحمون، أبو الخير
 ٣٤٦ [١٢٨] بلمظفر ابن معرّف، وهو أبو المظفر، نصر بن محمود بن المعرّف
 ٣٤٧ [١٢٩] أبو عمرو، عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي، جمال الدين
 ٣٤٨ [١٣٠] ابنه الفتح
 ٣٤٨ [١٣١] ابنه المذهب
 ٣٤٩ [١٣٢] الحُوْنَجِي، محمد بن نَامَاوَز، أفضل الدين، أبو عبد الله، قاضي القضاة
 ٣٥٠ [١٣٣] أبو سليمان، داود بن أبي المُنَى بن فاته
 ٣٥١ [١٣٤] الموفق، أبو شاكر، موفق الدين
 [١٣٥] الرشيد أبو حُلَيْقَة، وهو أبو الوحش بن الفارس بن أبي الخير بن أبي سليمان داود
 ٣٥١ ابن أبي المُنَى بن فاته
 ٣٥٣ [١٣٦] المذهب، أبو سعيد، محمد بن أبي حُلَيْقَة
 ٣٥٤ [١٣٧] الرشيد، أبو سعيد واسمه يعقوب، ويلقب بالموفق
 ٣٥٤ [١٣٨] ابن البيطار، عبد الله بن أحمد المالقي، النباتي، ضياء الدين، أبو محمد
 [١٣٩] علي بن أبي الحرم، هو الإمام الفاضل، الحكيم العلامة، علاء الدين بن النفيس
 ٣٥٧ القرشي الدمشقي
 ٣٦٠ [١٤٠] أحمد المغربي، شهاب الدين، والد الرئيس جمال الدين إبراهيم بن المغربي
 ٣٦١ [١٤١] السديد الدمياطي اليهودي، ويعرف بابن كوجك
 ٣٦٢ [١٤٢] فرج الله بن صغير
 ٣٦٥ [١٤٣] محمد بن صغير، ناصر الدين
 ٣٦٦ مصادر ومراجع التحقيق
 ٣٧٨ فهرس الموضوعات